دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

مكسيم جوركي

الأم



ترجمة

الدكتور فؤاد ايوب — المحامي سهيل ايوب

مكسيم جوركي



الأم

ترجمة

الدكتور فؤاد ايوب　　　المحامي سهيل ايوب

دار اليقظة العربية
للتأليف والترجمة والنشر



«Maxime Gorki»—bronze du sculpteur Ivan Chadr (1939)

نقل هذا الكتاب الى العربية

استناداً الى الترجمتين الفرنسية والانكليزية ،

وروجع نصه الأخير على الأصل الروسي ...

مقدمة

يحتل مكسيم جوركي ، واسمه الحقيقي ألكسي مكسيموفيتش بشكوف ، مكانة رفيعة جداً في الأدب الروسي خاصة ، والعالمي بصورة عامة . وهو يعتبر بحق أفضل وريث للأدب الكلاسيكي الروسي في القرن التاسع عشر ، وأباً للأدب السوفييتي المعاصر ، وخالق مفهوم جديد في الأدب والفن ، الا وهو المذهب الواقعي الاشتراكي .

ولد جوركي في مدينة نيجني نوفجورود (جوركي اليوم) في الثامن والعشرين من آذار عام ١٨٦٨ من أسرة عاملة ، اذ كان أبوه صباغاً في البدء ، ثم أصبح نجاراً على ظهر احد المراكب . لكنه فقد والده ، الذي قضى بجائحة الكوليرا التي عمت مناطق واسعة من روسيا في تلك الأثناء ، فانتقل إلى كنف جده ، وهو بحار سابق على الفولجا استطاع بدأبه ونشاطه أن يرتفع إلى مصاف البورجوازية الصغيرة ، فيؤسس معملاً صغيراً للصباغة في نيجني نوفجورود . وفي بيت هذا الجد الطاغية ، الفارّة ابنته منه تاركة له رعاية الطفل اليتيم ، تعرّف جوركي للمرة الأولى إلى حيوانية الحياة البورجوازية الصغيرة ، التي سيضمر لها طوال حياته حقداً لا ينطفىء ، تعرّف إليها في قسوة الجد وغطرسته اللامتناهية ، وأخلاقه المبنية على أساس المنفعة والربح ، ومفهومه المادي عن الله والحياة الآخرة ، وفي نزاع الخالين الدائب من أجل الارث وعربدتهما المفرطة ووحشيتهما الحيوانية ، وفي مئات الحوادث الصغيرة والكبيرة ،

التافهة والهامة ، والتي تشهدها روحه الملائكية الصغيرة الطاهرة بالرغم منها ، وتتألم بسببها وتتمرّد ولكنه لمس في الوقت ذاته ، ان في شخص جدته الطيبة الحنــون ، أو في كثير من الناس الذين مروا في حياته مروراً ، لكن تركوا في حياته أثراً لا يمحى ، لمس الناحية الايجابية من الحياة ، وما في صميم الشعب من إمكانيات عظيمة ، وما يرقد تحت السطح القذر العكر من صفو وروعة وجمال ، هذه الأمور جميعاً سيغدو في المستقبل بلبلها الصداح ، عارفاً كيف يرفع عنهـــا النقاب بصورة لم يسبقه اليها كاتب او فنان .

وماتت أمه وهو في العاشرة من عمره ، فاضطرّه جده في الثانية عشرة إلى الخروج إلى ما « بين الناس » كي نستعير ذات تعبيره ، ما دام قد اصبح في سن تسمح له أن يكسب حياته بعرق جبينه . وهكذا ألقى بنفسه في معـــترك الحياة ، فعمل أجير إسكافي فترة ، وملتقط خروق فترة أخرى ، وغسال آنية آناً ، وصانعاً في مرسم آناً آخر ، وعاملاً على ظهر مركب حيناً ، وحمالاً في أحيان أخرى ... كان يشتغـــل كثيراً ، في الليل والنهار ، وفي أيام الآحاد والأعياد ، ويقوم بأعمال عديدة « بليدة ذليلة » ، ولكن لا مفرّ له منها لرد غائلة الجوع عن نفسه ، غير انه تعرف في الوقت ذاته إلى تسلية رائعة استبدت بفراغه ، ألا وهي القراءة .. أضحى يقرأ جميع ما يقع تحت يديه ، وخاصة في الأدبين الروسي والفرنسي ، مما اعانه على فهم الحياة أكثر من ذي قبل ، وألهب تعطشه الى المعرفة ، فما بلغ السابعة عشرة من عمره حتى ارتاد (قازان) يحدوه الأمل في متابعة دروس منتظمة في جامعتها . لكنـه لم يستطع لحياته كسباً ، كأجير خباز ، إلا في أشد شروط الاستثمار وحشية ، هذه الشروط التي يصفها في « جامعياتي » الحلقة الثالثة من ذكرياته عن نفسه ، وفي مجموعـــة قصصه « كونوفالوف » أو « ستة وعشرون رجلاً وفتاة » أو « المعلم » . ولا ريب ان هذه الحياة التي احتك بها ههنا في قازان ، وهي أقبح وأقسى بما لا يقاس مما عرف في نيجني نوفجورود – هي التي قادته ، بالأحرى من حب عنيف خائب ، الى محاولة للانتحار سنة ١٨٨٨ لم تنجح ، رواها في « حـــدث في حياة

ماكار » . هو لم يعرف حتى الآن من الحياة إلا مرها – ومن هـــذه المرارة استعار اسمه الأدبي ، فجوركي في الروسية تعني المرارة ... ولم يستطع بعد ان يكتشف ما فيها من جمال ، ولما يزل بعيداً عن سبر اغوار معانيها حتى يدرك لها هدفاً يستحق أن يعيش المرء من أجله ، مناضلاً في سبيل البلوغ اليـــه . لكن الرصاصة استقرّت في رئته ، ولم تقتله ، وانْ تركتْ له ذكرى رافقته طوال حياته .

عندئذ ابتدأت رحلته الكبرى عبر بلاده ، الروسيا ، فلجأ مدة الى الريف حيث عاش قرب الثوري روماس ، وهو من « الشعبيين » الذين لعبـــوا دوراً هاماً في حياة البلاد الثوروية في فترة من الزمن (العقـــد السادس من القرن التاسع عشر خاصة) ثم تفسخت حركتهم وانتقلت الى خدمة الرأسماليـــة المتغلغلة أكثر فأكثر في طول البلاد وعرضها . وكان روماس هـــذا صديقاً لكورولنكو الذي سيلعب دوراً هاماً في مطلع حياة جوركي الأدبية ، لكنه لم يعلم ذلك الفتى الفار من سفاسف الحياة البورجوازية الصغيرة وبشاعتها إلا الذعر من الفلاحين والادبار عنهم ، الأمر الذي حدا به الى مغادرته قاصـــداً شواطىء بحر قزوين حيث انخرط في شركة للصيد والتقى بطلة قصته « مالفا ».

ومن هناك سار نحو تسارتزين (فولفوجراد اليوم) حيث اشترك في بنـــاء خطوط السكك الحديدية ، عاملا تارة ، ومراقباً تارة اخرى . لكنه لم يلبث أن ملّ هذه الحياة فهجرها ، وصعد في قاطرة شاحنة نحو رامبوف ، فريازان ، فتولا ، فموسكو ، حالماً بتأسيس مستعمرة زراعية . ورحل مجدداً من موسكو الى مدينته نيجني نوفجورود حيث اشتغل بائع جعة مدة ، ثم ناسخاً في مكتب المحامي ليفين – وهي الوظيفة الثابتة الأولى التي حصل عليها ... لكن العمل الجديد لم يرقه ، فسرعان ما غادر نيجني ، بعد حب خائب جديـــد ، وعبر مقاطعات الدون وأوكرانيا وروسيا الجديدة حيث اشتغل حمالاً على شواطىء روستوف ، وامتهن الصحافة فترة في أوكرانيا وشاهد مرة ، اثناء تجواله في

بعض الضواحي ، جماعةً من الفلاحين يعاقبون زوجة زانية ، وقد ربطوها عارية الى مركبة يجرُّها بغل عجوز ، اعتلاها الزوج المخدوع حاملاً سوطاً طويلاً يضرب به الحيوان مرة، والمرأة مرة أخرى بصورة منتظمة ، فيتفجّر الدم منها وهي تسير مجهدة مرهقة مطأطئة الرأس ، ووراءها حشد من الرجال والنساء والأطفال ، يضحكون لما يرون ويتمتعون بتسلية لا تسنح في كل حين ، غير منقطعين أثناء ذلك عن توجيه الشتائم وقارص الكلام الى الزوجة الخائنة ، دون أن يوفروا عنها اللكمات وكتل الطين أو الحجارة من وقت لآخر ؛ فاذا وقعت أرضاً انهال الزوج عليها بالسوط دون رحمة او شفقة ، حتى تنهض وتعاود المسير ... وهكذا كانوا يُعاقبون خيانة المرأة ، أما خيانة الرجل فلا عقاب عليها طبعاً ... شاهد جوركي كل هذا فلم يستطع إذن له احتمالاً ، وثارت النقمة في قلبه ضد هذه الوحشية والحيوانية من جهة ، وضد أسباب الجهل وأجيال العبودية التي قادتهم اليها من جهة اخرى ، فتدخل في صالح المرأة المسكينة ، الأمر الذي ألقى به بين الحياة والموت ، فاقد الوعي ، في حفرة على جانب الطريق ، فلم ينقذه من المنيَّة إلا بنيته المتينة ، ولذع البرد الذي ردَّ إليه رشده. ومرور بعض من حمله الى المستشفى حيث روى له « تشيلكاش» جاره في السرير، مغامراته في التشرد. وتوجه بعد ذلك الى أوديسا، حيث اشتغل حمالاً من جديد؛ ومن هناك سعى مشياً حتى بلغ تيفليس ، ماراً ببيريكوب ، وسنفيروبول ، وكيرش ، وكوبان ، وسهب تيريك ، وطريق جورجيا العسكري . ولم يطل الاقامة في تيفليس ، إذ لا نلبث ان نجده في بيسلان – بتروفسك يعمل في بناء سكة الحديد، ثم في الأجير ، وفلاد يقفقاز ، وسوخوم – نوفوردسيك، وباكو ، ثم في تيفليس مرة اخرى حيث اتصل بعددٍ من المنفيين السياسيين كان أحدهم ، واسمه كالوجني ، أول من أقنع الصحيفة المحلية « القفقاز » بنشر قصته الأولى : « ماكارتشودرا » وكان ذلك عام ١٨٩٢ ، ولجوركي من العمر أربعة وعشرون عاماً .

وفي هذه الأثناء ، استدعاه ليفين برقياً الى نيجني نوفجورود ، فقفل اليها .

وبذلك انتهت بالنسبة اليه حياة التشرد والضرب في الآفاق ، وابتدأت حياة الفكر والقلم .

لكن هذه الحياة الجديدة لم تكن سهلة ميسورة ، فالصحف الكبرى تأبى نشر قصصه ، أللهم إلا « الكنز الروسي » التي نشرت « تشيلكاش » ، و « الأقاصيص الروسية » التي نشرت « أميليان بيلاي » (١٨٩٣) . كان المشرفون على تلك الصحف الكبرى والمجلات يجدونه مجرداً ، مصطنعاً ، غير ملتزم للاخلاق ، الأمر الذي يجب ان نجد له تعليلاً – ونجد فيه برهاناً – على التباعد القائم في ذلك الحين بين الأدب والحياة ... وهذا ما أدركه جوركي حق الادراك ، فراح يفتش عن طرق جديدة للأدب ، وهو يتحسّس دربه تحسُّساً ، ويسير نحو غايته بخطى وئيدة ، لكنها ثابتة راشدة غير ضالة .

٢

ذلك أن الأدب الروسي – في نهاية القرن التاسع عشر ، وبعد عدة أجيال من سيطرة الرأسمالية وتغلغلها السريع في سائر أنحاء الحياة ، وتفانيها في محاولة اللحاق بالتطور الرأسمالي في أوروبا الغربية التي سبقها بعدة عصور – قد أخذ للمرة الأولى في تاريخه يبتعد عن تقاليده الانسانية والديمقراطية ، فاذا أكثر أشكال الفكر والفن رجعية ، تجتاحه ، من الصوفية حتى الرمزية، كما راح مفهوم « الفن من أجل الفن » المعاكس لمفهوم الكتّاب الروسيين عن رسالة الأديب والفنان الاجتماعية ، ينمو ويزدهر تشجعه الصحافة والنقد البورجوازيان ويضفيان عليه أبهى الحلل وأزهاها .

وفي الوقت ذاته أخذت روح التشاؤم والانحلال والانهيار ، وهي على طرفي نقيض مع روح التفاؤل التقليدية في الادب الروسي ، تثبت سيطرتها وتوطدها أكثر فأكثر ، فلا يشذُّ عن ذلك إلا تولستوي وكورولنكو وحدهما . إن الجو في ختام هذا القرن التاسع عشر ، لثقيل الوطأة ، كثيف الظل ، مرهق

القسوة ... والرجعية تنتصر في كل مكان وتعلن انتصارها على رؤوس الاشهاد في وقاحة وشماتة . وكل فكر خـيّرٍ يجد كل جهد عبثاً لا طائل من ورائه ، فينطوي على ذاته ، كئيباً ، خائر القوى ، يرسم لنا لوحة عن مجتمـــع يعاني سكرات النزع الأخير دون أمل في شفائه ، ولا رجاء في احيائه وبعثه .

تلك هي الحال عند جارشين مثلاً : شخصيات معذبة ، مريضة الوجدان تثقل عليها وطأة مشكلة الشر وترهقها، فلا تجد لها خلاصاً حتى ولا في المسيحية كما هي الحال عند أبطال دستويفسكي مثلاً . انهم قوم لا يعرفون لماذا يعيشون ويموتون دون ان يدروا للمنية سبباً أو غاية . لا بل ان الحيوانات والنباتات نفسها تتعذب أيضاً ، فالألم يغمر الكون بأسره ، ولا يفلت من طائفته أي كائن على الاطلاق . وان الناس ليسعون ، كالمجانين ، يريدون أن ينزعوا الشر المتأصل في العالم . انما عبثاً يحاولون ، فالشر أقوى جذوراً من البشر .

وينتحر الكاتب في الثانية والثلاثين ...

وكذلك الأمر عند تشيخوف . ان القصّاص الكبير يرسم صورة كامـــلة لمجتمعه ، انما القاع الذي يرسم عليه مفعم بالكآبة والأسى. انه لا يؤمن بالموجيك بل ان « فلاحيه » اناس حطّ منهم البؤس وأهلكتهم الخمرة ، أخلاقهم حيوانية وايمانهم هذيان وسخافات وأباطيل . وهو لا يؤمن بالمثقف أيضاً ، لأنه لا يعرف الا ذلك المثقف المنحدر من الطبقة البورجوازية الصغيرة التي يختـار تشيخوف أبطاله منها ، وهو يمثل طبقته أفضل تمثيل في أنانيتها ، وماديتها ، وتفاهة حياتها وحقارتها . أما نبلاؤه فقوم يتفسخون في أملاكهم ، قد عفا عليهم الدهر ، فلا يرجى منهم بعد الآن تحسن او خير . أما أصحاب الحرف والباعة ، والتجار ، هؤلاء الذين يشكلون أسس الطبقة التي يصفها تشيخوف في المحل الأول ، فحياتهم مثل فكرهم محدودة رتيبة ، خالية من كل مثل أعلى أللهم الا المال . ويا له ربٍّ يعبده الانسان : ولعـــل شرارة من التمرد ، من الخير ، تنطلق من الطلاب فيريدون ان يهبوا حياتهم ويكرسوها في سبيل

غاية عظمى ؛ لكن سرعان ما تخبو نارهم وتنطفىء عندما ترهقهم مشاغل الحياة اليومية ، مشاغل طبيب ريفي منعزل في بيئة جاهلة ، أو مشاغل أستاذ غارق في تفاهــة حياة المدينة الصغيرة ، أو موظف تغمره هموم وظيفته وهو يسعى ، زاحفاً على بطنه أمام رؤسائه ، وراء الترقية أو زيادة المرتب . ورجل الفكر اذن ؟ انه لا يدري ، هو الآخر ، معنى للحياة أو غاية من ورائها ، فاذا ما سألته فتاة عن مبدإ للحياة أجاب : لست أدري . ويبقى العمال ، ولكن لا يكادون يحتلون مكاناً في كتابات القاص الروسي ، فــاذا ظهروا فهم مثــل الآخرين ، أناس ترهقهم حياة الشقــاء والبؤس ، فرديون أنانيــون ، لم يدركوا بعد معنى الأخوة والتضــامن ، ولم تجمعهم مصائبهم المشتركـــة . إن كلاً منهم يفكر بتعاسته الخاصة ، وبمعدته الخاصة أيضاً ، وليس لديه وقت يفكر فيه بتعاسات الآخرين ، حتى ولا بوجودهم . ان التزاحم ما يزال يقيم هوة بينهم ، وفجوة واسعة لم يعبروها بعد ، ولم يدركوا ايضاً ضرورة اجتيازها . ان أبطال تشيخوف قوم تعتصرهم قبضة الحيــاة اليومية التي لا يستطيع أي مثل أعلى ، وأية عاطفة مجردة ، مقاومة لها ، بحيث تفوح من مؤلفاته ، بصورة عامة طبعاً ، رائحة ذلــك التشاؤم الذي تحدثنا عنه .. عبَثٌ كل جهد ، فليستسلم الانسان اذن لمصيره دون مقاومة ، ولينتظر كيفما كان ، نهاية الحياة .

أما أبطال سولوجوب فلا يستسلمون فحسب ، بــل يكرهون الحياة أشد الكراهية ، ويسعون ، بمــا فيهم الاطفال الصغار ، وراء الخلاص منها ووضع حد لهــا . والذين يعيشون منهم ، أو يريدون الحياة ، فهم أقرب الى الاشباح منهم الى البشر . هذه الحياة ان هي الا ملل ، وفودكا ، وفضائح ، ومخاصمات ، ويأس ، وتفاهة ...

٣

في هذا الهمود العام الشامل رنّت ضحكة متشردي جوركي الوقحــة . هؤلاء لم يملوا الحياة ، رغم البؤس والجوع والتشرد ، لا بل هم على العكس ينهلون

منها في تعطش ، ويعبون من منابعها في نهم دون خوف او تردد . ان الحياة الجديدة قد القت بهم بعيداً عن ركبها ، ونبذتهم واحتقرتهم . هي تضرب صفحاً عن الكائن الانساني الكامن فيهم ، ولا تعنيها انسانيتهم في كثير او قليل ، ففي شريعة الغاب المسيطرة ، حيث اصبح البشر ذئاباً يعضُّ بعضهم بعضاً ، ليس من محل الا للقوة العاتية الظالمة التي لا تعرف رحمة بل تبطش دون ادنى تردد ، تبطش بقسوة لا أثر للشفقة فيها . ان الانسان ، في هذه الحياة الجديدة ، لا يجد في اخيه الانسان الا جسراً يعبر عليه لبلوغ أهوائه وتحقيق مطامعه ، وهؤلاء المتشردون ، الذين لا يحصى لهم عدد ، إن هم في واقع الامر الا حجارة هذا الجسر ليس غير ، قيمتهم تقدر بما يستطيعون أن يقدموا لرأس المال ، ما احتاج اليهم ، من منفعة أو فائدة ؛ فان هم أضحوا عالة عليه ، قذفهم عنه بعيداً ، وداسهم بأقدامه كالحشرة الحقيرة . أما هم فيعبرون الارض الروسية الطيبة في ارجائها الأربعة ، جياعاً لا يملكون كسرة خبز يسدون الرمق بها ، يتسترون بالأسمال ، ولا مأوى لهم يلجأون اليه ليلوذوا بحماه من البرد والصقيع ، لكنهم يملكون تحت الأسمال قلباً ، قلباً يفتقر اليه المجتمع الجديد ، ويملكون احساساً نيراً بالحرية والكرامة الانسانية لم تستطع الحياة البورجوازية المتدفقة في عنف وجبروت ، ولا اساليبها القرصانية في تنظيم العلاقات بين الناس ، أن تقضي عليها .

لقد قضى جوركي بينهم زهرة شبابه ، سبع من السنوات الطافحة بالتعطش الى الحياة وهو يجوب واياهم ارجاء الأرض ، « ينظر الى الروسيا » على حد تعبيره . ومما لا ريب فيه انه اكتسب في هذه الفترة الطويلة نسبياً شيئاً آخر غير المغامرة ومشاهدة غرائب الأمور . لقد جرب الحياة واختبرها ، هذه الحياة التي اراد مرة ان يضع لها حداً ثم تعلم كيف يحبها ويتعشقها ويدعو الناس الى الاغتراف منها حتى الارتواء – ولا ريب انهم لن يرتووا . وفي احتكاكه الصميمي بهذه الحياة تعرف الى « الشعبيين » – أنقاض حركة ثورية انهارت وعفا الزمن عليها – ولما يزالوا يشرفون مع ذلك ، لفقدان من يحتل مكانهم ، على سائر

الحلقات الثورية التي اشترك فيها . غير ان جوركي وجدهم يعيشون في الماضي ، وقد ضلوا الدرب فتخلفوا عن الاحداث ، فعَمَوا بالتالي عن مشاهدة التطور الرأسمالي في روسيا ، وعن اهميته بالنسبة الى حياة البلاد وتطور الحركة الثورية فيها ، لا بل انقلبوا شيئاً فشيئاً الى اعوان للبورجوازية الكبير الساعية أكثر فأكثر الى السيطرة على سائر مرافق البلاد وسياستهـــا . وهكذا علمه هؤلاء المثقفون الخياليون الذين يحيون في عـــالم الطوباوية كيف يحتقرهم ويبتعد عنهم ليتلمس طريقاً أخرى للخلاص ، الخلاص من بشاعات الحياة الكريهة .

ولقد وجدها ..

وجدها في التأمل الشخصي والعمل الثوري جميعاً ..

كان أول الطريق الجديدة اتصاله بعمال السكك الحديـدية في تيفليس عام ١٨٩١ . ويومذاك كانت الحركة الثورية لا تزال « في تطور رحمي » كما يقول لينين ، حركة ضعيفة لم يشتد ساعدها ، وان ابتدأت تعي آفات المستقبل على مستوى ضيق جداً . فلا عجب اذن ان يلقي جوركي بنفسه فيهـا ، بعد ان يئس من الأنتليجنتزيا Intelligentzia [١] الشعبية ، ليبحث في الاحتكاك بالواقع عن أسلوب سليم في التفكير ، وفي الممارسة ، يستطيع أن يعتنقه هو ، وأن يعتنقه معه رفاقه في البؤس .

ومع ذلك ظل المتشرد بطله حتى ذلك الحين ، اذ ليس من السهل نسيان تلك التجربة الواسعة التي مرّ فيها طوال سبعة أعوام في وقت لمـــا يعرف الماركسية فيه بعد ، ولم يتعرف فيه الى وعي طبقي كامل ، يتماشى مع تنظيم ثوري متين يستطيع أن يؤمن مطاليب ذلك الوعي – اللهم الا عند متشرديه أنفسهم – الأمر الذي لم يتوصل إليه إلا فيما بعـــد ، وهو صحافي في نيجني نوفجورود ، عندما بدأ اتصالاته ببروليتاريا المعامل .

---

١ – اصطلاح روسي ، أخذته سائر لغات العالم ، للدلالة على طبقة المثقفين والمفكرين عامة .

والحقيقة أن هؤلاء المتشردين كانوا يشكلون ، حوالي السنة الثمانين من القرن الخـــالي ، طبقة خاصة بكل معنى الكلمة . لقد كانوا يعدون قرابة الخمسة ملايين ، بينما كان عدد العمال في الفترة ذاتها لا يزيد عن مليون واحد . وكانت حياتهم تضفي عليهم صفة طبقة اجتماعية متميزة ، فيعون هم أنفسهم وحدتهم الاجتماعية هذه وعياً يزيد أو ينقص ، الأمر الذي يتجلى بكل وضوح في تعابيرهم الخاصة مثلاً ، أو في شعاراتهم العسكرية أيضاً . لا بل يمكن القول أيضاً ان هؤلاء المتشردين كانوا يؤلفون ، في فترة لما تنشأ فيه حركة ثورية عمالية أو فلاحية ، نوعاً من الحركة الثورية إن صح التعبير ، أو مرحـــلة من مراحل نشوئها . ففي الوقت الذي انسحب فيه الفلاحون جميعاً تقريباً من الميدان الثوري ، ويئس « الشعبيون » أنفسهم منه ، وفي الوقت الذي كانت فيه الأزمة الاقتصادية الناشبة أظفارها ومضاربات السوق تثير العمال بعضهم على بعض في تزاحم رهيب وراء اللقمة دون ان يدركوا للتضامن والوحدة معنى وكان هؤلاء العمال ، غير الواعين ، ينضمون إلى رجال الشرطـــة في تفريق مظاهرات طلاب الجامعات ، في ذلك الوقت ذاته كان اولئك المتشردون ، وهم ضحايا تلك الأزمة نفسها في المحل الأول ، يتحدون في كتلة واحدة ، ويرعون حقداً طبقياً بكل معنى الكلمة . كانوا يكرهون ، بصورة عامة ، اولئك الناس المتأنقين جميعاً ، الملأى معدتهم ، الحاملين على أجسادهم شيئاً غير الأسمال البالية بل إن بعضهم يدرك أيضاً اصل البلاء ، هذه العلاقات الاقتصادية الجديدة بين الناس . ولسوف ينقلون معهم ، عندما تزول الازمـة وتتلاشى الضائقة ، هذا الحقد وتلك الوحدة اللذين علمتهم إياهما الحياة ، إلى المعمل الذي سيجد فيهم احتياطياً من اليد العاملة رخيصاً بخس الثمن .

وهكذا وجد جوركي أناساً ينقلون أفـكاره ، ويقولون عن البرجوازيـــة رأيه فيها . هؤلاء قوم تملك حياتهم محتوى حياً هو الحقد على البرجوازي ، اي الحقد على ما ثار عليه طوال عشرين عاماً حين كان في بيت جده ، أو عند معلميه او في تيار الحياة الجارف الذي استسلم فيه فترة طويلة . هذا ملاذ يلجأ إليه ،

هو الذي يكنُّ أعظم البغض للبورجوازي الصغير خاصة ، وذلك الملاذ يعج بالحقد على هذا البورجوازي الصغير ذاته ، لا بل يجعل من هذا الحقد مبرراً لوجوده ، ناهيك أن هؤلاء المتشردين هم وحدهم الذين وجدوا الحرية التي ما أكثر ما تمناها ، حرية الحياة في الطبيعة في استقلال تام . وهذه الحرية ليست فارغة ولا كاذبة ، وليست انحلالاً أو ادعاء الحق في كل شيء ، فيما يخصهم وما لا يخصهم ؛ كلا ، بل هم قوم يجابهون الواقع في صراحة ، فيعرفون انفسهم أولاً وحقيقتهم ، ويعرفون ما يريدون ويسعون اليه ، ويعرفون اصدقاءهم واعداءهم على السواء ، ويعرفون أخيراً كيف يكونون مستقلين ، بمقدار ما يعرفون أنهم طبقة خاصة لا تستطيع أن تأمل من سواها شيئاً ما على الاطلاق . وتلك هي ، دون أدنى ارتياب ، الحرية الحقيقية . وإنها تنجلي بكل وضوح في أنهم لا يخضعون بالرغم من بؤس الحياة التي يعيشون ، لتلك الشريعة السائسة مجتمعهم ، فلا يحسدون البورجوازي على حياته ، بل يحتقرون هذه الحياة والذي يحياها ، لأنهم يجدون أنفسهم أفضل منه بما لا يقاس . أو ليست هذه حرية عظمى ؟

ولقد وجد عندهم ، فوق ذلك ، ما هو معدوم عند البورجوازية ، وما لم يجد في ذلك الحين عند العمال أيضاً ... وجد عندهم الاخلاص والتضامن . كانوا يعيشون في « اشتراكية » تامة ، لا بل في « شيوعية » مطلقة أيضاً ، يقتسمون فيما بينهم ما يربحون جميعاً بالعدل والقسطاط ، دون تردد أو حسد أو نقمة . ذلك عندهم أمر طبيعي ، وضرورة من ضرورات حياتهم .

ولعل في كل هذا شيئاً من الرومانطقية ، بمعنى ان جوركي يضفي على أبطاله صفات لا يملكونها في الحقيقة ، ويجعلهم ينطقون بأفكار هي واقع الامر أفكاره الخاصة ، لانهم اعجز في مثل حالتهم عن ان يتوصلوا إليها ، حتى ليجعل من ذلك المعدم الشريد بطلاً عظيماً . هذه الرومانطيكية امر لا ريب فيه ، لكنها لا تنفي مع ذلك واقعيته الجوهرية . إن جوركي ليُدين ، في

الحقيقة ، واقعاً يَحطُ من قيمة الانسان ، والظالم والمظلوم معاً . الضحية والجلاد على حدٍ سواء . ولكنهُ يبرز في الوقت ذاته أفضل السمات الانسانية عند أولئك الذين ما يزالون يتحلون بها ، وان استدار عنهم الناس لانهم وُضعوا في المصاف الدنيا اجتماعياً . وهذا الموقف الواقعي هو الذي يقود ، بالضرورة ، الى تلك النظرة الرومانطيكية الى الامور ، نعني بها الثقة بالانسان وبالقوى الكامنة فيه التي لم تجدب ولن تموت ، والثقة بانتقاضه يوماً على واقع يُدينه ويشوه صورته . وجوركي لا ينكر أن هذا الثائر الاجتماعي الذي هو نموذج الانتقال بين الانسانية الروسية القديمة والجديدة ، والذي يحس أن العالم يسير في طريق ضالة وفي غير الصراط المستقيم ، لا يستطيع شيئاً في الحقيقة سوى الاحتجاج ، فهو إذن بطل عديم النفع اجتماعياً ، لا يقدر مطلقاً على الانتقال من مرحلة القول الى مراحل العمل ، فان فعل فلكي يبرهن عن عجزه وضعفه أمام الواقع المؤلم الذي لا يستطيع له تبديلاً (وهذا ما يجب ان نفتش عن سببه في وضع هذه الطبقة الاجتماعي طبعاً) . لكن جوركي يغنـّي به ذلك الشعور الثوري الكامن في جماهير أنصاف البروليتاريين الصائرة سريعاً الى احتياطي ضخم للثورة الصاعدة ؛ يغنـّي به احتقار المال والملكية ، وازدراء مجتمع قائم على أساس المال والملكية ؛ يغنـّي به شعور الوحدة والرفقة بين البؤساء ، هذا الشعور الذي يعجزون عن صنع أي شيء بدونه ؛ يغنـّي به أخيراً ذلك العنفوان الذي يأبى الشرّ فلا ينصاع إليه او يسالمه .

وجوركي واقعي أيضاً لانه يصف الطبيعة والناس ، كما هم في الطبيعة ، (وهذا لا يعني طبعاً انه من اتباع المذهب الطبيعي في الادب كما يريد بعض النقاد ان يجعلوا منه) . إنه يصف هذا السكون على حقيقته ، في خيره وفي شره ، لكنه يعرف كيف يدخل الى أعمق اعماق النفس الانسانية ليكتشف فيها الخير المرذول الذي يفتش له عن مخرج ومتنفس . ولذلك فهو ، (أي جوركي) . لا يترك في نفس القارىء ذلك الفراغ المؤلم الذي يتركه فيها الكتاب الطبيعيون ، بل يترك احساساً راسخاً ان الحال لن تدوم ، ولا يمكن

أن تدوم على هذا المنوال طويلاً ، لان هناك القوة القادرة على تبديلها . وليس مرد ذلك الى أن جوركي يتعمد السكوت عن شر واضح ، او غضّ النظر عن ضعف بيّن في الانسان ، بل لانه يجد الخير أقوى من الشر في تلك الاكثرية الساحقة التي ينتصر الخير فيها دائماً ، ولانه ينتصر فيها ، فهو سيبعث عندها القوة لسحق كل الشر الموجود في العالم . وإذا كان قد صور مشاهد بشعة ، واشخاصاً بشعين ، فليس لمجرد التصوير فحسب ، بل لانه يبغي من وراء ذلك غاية أسمى لا ريب أنها القضاء على الاسباب التي تجعل بعض الناس وبعض المشاهد يثورون على تلك البشاعة .

وقليل هم أولئك الأدباء الذين يجارونه في وصفه للطبيعة ، او للحوادث اليومية بين الناس ، او للنماذج البشرية . وان المرء ليتصور ، عندما يقرؤه ، أنه يرى صورة فوتوغرافية شفافة التقطتها يد فنان ماهر ، أبرزت للعين كل ما قد يخفي عن العين عادة ، بحيث يسمح الشفوف فيها برؤية الاعماق الى جانب السطح الظاهري ، وبحيث تخفي الظلال اخيراً بعض ما يشوّه الصورة ويدنسها لأن المصور لم يعتمد التلاعب بها والانتقاص منها .

ذلك أن جوركي قد فهم ، على خير وجه ، مهمة الاديب ودور الفنان ولقد كانت مهمته الخاصة ان يعطي عن الواقع الروسي صورة حقيقية حية تبين لسائر الناس عبث العلاقات الاجتماعية ومخالفتها للعقل والمنطق ، وحقارة أساليب التفكير والشعور المرتبطة بحياة الطبقات المالكة ، وتوقظ الثقة بالقوى الخلاقة ، الراقدة حتى ذلك الوقت او العاجزة ، التي تكمن في ذات الانسان وتتطلب إطلاق عقالها وتحريرها .

ولهذه الاسباب مجتمعة جاء متشردو جوركي يبثون روح التفاؤل جوّ أواخر القرن التاسع عشر المفعم بروح اليأس والتشاؤم والانهيار . إنهم « يعلنون عن العاصفة » ، هذه التي ستجتاح كل ما عتق وبلي ، والتي ستجدد

كل شيء ، روسيا نفسها والانسانية جمعـــاء . وبذلك يكون قد جسَّد ، في أسلوب ادبي رائع ، كلّ المشاعر التي تختلج في اعماق النفس الروسية ، الآتية السنون التالية بأكبر البراهين على صدقها وحقيقتها . وهذا هو الفن الجديـــد الذي حمله جوركي الى الأدب القائم على ان نكتشف في الحاضر بذور المستقبل الكامنة ، وأن نجعل بالتالي في تفتحها وازدهارها ، هذا الفن الذي سيشكل محتوى الأدب الجديد وميزته الرئيسية .

٤

نحن لما نبلغ الواقعية الاشتراكية طبعاً ، ولكن مما لا ريب فيه أننا نسير نحوها بخطى سريعة . ما هو هذا المذهب الجديد إذن ؟ فلنلاحظ قبل كل شيء أنه ليس « تكنيكاً » أدبياً جديداً ؛ بل هو يقف ، على العكس ، في وجـــه سائر المذاهب المدعية إرجـــاع الفن الى مجرد تكنيك فقط ، هذه التي يشملها النقد السوفييتي الحديث تحت إسم « المذهب الشكلي » . وهذا لا يعني إنه يقف من الشكل موقف اللامبالاة . لكنه يرى فقط أن ذلك الشكل لا يمكن أن يكون غاية في حـــد ذاته ، بل هو سبيل الى ايضاح الفكرة ليس غير ، والى جعلها أكثر تأثيراً ، وأقرب منالاً ، وأجمل عرضاً في الوقت ذاته .

إذن فالواقعية أولاً ، وجوركي يصرّ الاصرار كله على هذه الناحية ، لأن المذهب الجديد ، مثله في ذلك مثل الواقعية الكلاسيكية التي يرث عنها ، نقديّ في المحل الأول . إنه يحلل الواقع ، ويكشف اللثام عما يلحق بالنفس البشرية من تشويه في المجتمع الرأسمالي ، هذا التشويه الذي لما تبرأ منه تماماً ، حتى بعـــد الانتقال إلى مرحلة الاشتراكية . والكاتب نفسه ليس منزهاً عن هذه الشوائب ، وهو لا يقيم من نفسه ديّاناً أعلى عليها ، لكنه عندما يعمـــل على كشف القناع عنها في البيئة التي تحيط به ، يحاربها عندئذ في ذات وجدانه إذن . وفي كلتا الحالتين يحفر لها قبرها . وهذه الواقعية لا تنسى أن الناس لا يتبدلون إلا في بطء

عظيم ، لا يتبدلون ما لم تتبدل الظروف التي يعيشون في ظلها ، وهم إنما يتبدلون بصورة أبطأ من الظروف على أية حال ، فلا بدّ لهم إذن ، قبل كل شيء ، من تبديل شروط حياتهم ، وجعلها ملائمة للتقدم في طريق الخير والحق والجمال . وإن مهمة الاديب تقوم في ان يساعدهم على ذلك ، يعني على فهم الأسباب التي تعترض طريقهم ، وعلى النظر في نفوسهم في الوقت ذاته يستجلون فيها الفاسد من الجيد ، والطالح من الصالح ، فاذا مـــا ألموا بأطراف العالمين الخارجي والداخلي سعوا الى الخلاص من الحواجز القائمة في وجوههم ، وبذلك فقط يتحقق التطور والتقدم .

لكن هذا التحليل النقدي وحده لا يكفي . إنه لا يرى إلا الجانب الميت من الاشياء . والواقعية القديمة لم تكن تنظر الى العالم وتحكم عليه وتدينه إلا على ضوء مبدأ مجرد ، أخلاقي تارة وميتافيزيائي تارة أخرى ، يجابـــه الكاتب واقعه به ، بوضوح في بعض الأحيان ، وبشاعرية محضة في أحيان أخرى . وإذا آمن الكاتب أحياناً بمبدإ إيجابي ، فهو عاجز عن أن يعطي عن الحقيقة إلا صورة سلبية دائماً . ومن هنا كان التمزق في كتابات الواقعيين ، كبلزاك مثلاً أو فلوبير بصورة خاصة . لا بل إن تلك الواقعية الكلاسيكية كانت تكتفي ، في أغلب الاحيان ، بأن تقدم مجرد وصف للحقيقة القائمة كما هي ، فهو تصوير فوتوغرافي ينقل عن الواقع نسخة طبق الأصل ، لكنها آنية جامدة . امـــا الواقعية الجديدة فهي بالأحرى تصوير حي ، متحرك ، يظهر البشر في التاريخ ، أي في نشاطهم وفي تطورهم ، في صنعهم ذلك التاريخ الذي يعيشون فيه . ذلك أن القضية ، بالنسبة الى المذهب الجديد ، ليست مجرد التصوير لبشاعات الحياة ، ولا مجرد الحقد على هذه البشاعات فحسب ، بل قضية وصف الانسان وهو يقضي عليها ، ويبني في الوقت ذاته أسساً جديدة لحياة جديدة . إنهـــا المستقبل الحاضر ، او إنها الحقيقة في تطورها الثوري كما يقول فادييف . إنها مزيج من الواقعية ورومانطيكية جديدة ثورية ، إنها واقعية رومانطيكية .

إذن فالرومانطيكية ثانيـــاً ، لأنه إذ لم تكن القضية بالنسبة الى الأدب الجديد مجرد إخفاء الجوانب السلبية من الحياة وغضّ النظر عنها ، بل انتقادها، فان هذا النقد يجب ان يتم بصورة لا تنحط الحياة معها الى مستوى تلك الجوانب السلبية ، بصورة تـــدعو الى القضاء عليها وتجاوزها . وهذا هو العنصر الرومانطيكي في المذهب الجديد . لكنه ليس هنا بمجرد احلام لا تجدي ، يهرب اليها الكاتب من حقيقة واقعه المؤلمة ، بل ههنا تتحلى بميزة جديدة ، ألا وهي ثوريتها ، بحيث نبعد المذهب الجديد عن الواقعية ، بل يزيد على العكس من ذلك تماماً – حظ الواقعية الاشتراكية من الواقعية كما يقول فادييف أيضاً ، إذ تصبح آفات الماضي ، في ضوء المستقبل ، اكثر جلاء ووضوحاً . إن إنساناً جديداً يولد ويكتسب خصائص جديدة في اتصاله بالحياة ، وفي ايجاده الحلول لما يعترض طريقه من مشاكل أكثر او أقل تعقيداً ، وهذه الخصائص الجديدة يتوجب على الكاتب ان يراها ويخمنها عندما تكون غامضة او خفية بعد ، وان يرفعها حتى درجة الوعي ومنطقة الشعور .

وهكذا يتلاشى ذلك التمزق الذي كثيراً ما أوقع كبار الروائيين الواقعيين فريسةً له ، كما يزول التناقض بين الواقعية والرومانطيكية . قديماً كان الفن عاجزاً عن ان يكون إلا واقعياً او رومانطيكياً في وقت واحد ، أما بعد الآن فان الفكرة لا تنفصل عن الحوادث ، بل تجد لها تعبيراً في منطق الحوادث ذاتها ، والحقيقة التي تحياها لا تقوم في وجه إبداع الخيال او تعترض سبيله، بل ان الحياة اليومية ، من زاوية النظر الجديدة ، تتراءى إبداعاً رائعاً في كلٍّ من لحظاتها ، تتراءى خلقاً لا ينفصل شعره عن نثره . وبعد الآن ليس من تناقض بين العالمين الخارجي والداخلي ، بل ان البطل يكتشف ذاته في الممارسة ، كما أن الممارسة ترفع النقاب عن البطل الحقيقي . وهكذا لم تعد الحياة عبثاً ، بل نضالاً عنيفاً جباراً في سبيل تحقيق أهداف تاريخية كبرى ، يجد فيه كل من الفكر والقلب والارادة مكانه المعين . إن الرومانطيكية الثورية هي ذلك الاخلاص

للمستقبل الذي لم يعد الحلم في ظله هرباً من الواقع ، بـــل أصبح مبدأ فعالاً ، وشرطاً للابداع والتقدم .

٥

ونستطيع القول ، دون خوف كبير من العثار ، إن هذه هي الميزة الرئيسية لمجمل الادب الروسي ، « أكثر الآداب إنسانية على الاطلاق » كما يقول ألكسي تولستوي ، وبخاصة أدب القرن التاسع عشر — هو أروع مراحله — الذي يعتبر الادب السوفييتي المعاصر الذي بدأه جوركي امتداداً له ووارث أفضل خصائصه .

ذلك أن الادب الروسي لم يخضع قط لمشاكل الفن من أجل الفن ، كما حدث لأكثر الآداب الاخرى ، حتى في أوج نموها وازدهارها . كان يسعى قبل كل شيء كما يقول الكاتب الفرنسي بروسبير ميريميه ، وراء الحقيقة ، أمـــا الجمال فيأتي في المحل الثاني دائماً . والاحرى بنا ان نقول مع نيكراسوف ، الشاعر الروسي الكبير ، إنه كان يجمع « الجمال والحق والخير » في صعيدٍ واحد . كان منبراً يعلم الادباء الناس منه الاخلاص للمصلحة العامة ، ومرآة تعكس — على خير وجه — كل الاتجاهات التقدمية المتفتحة على مر السنين .

وكذلك فان الادب الروسي أدب نضالي ، بغيته مقاومة القيصرية وتعسفها ، وظلمها ، وحكمها المطلق ، والدفاع في الوقت ذاته عن المظلومين ، والمعذبين في الارض ، وكل من أجحف النظام القائم حقه . تلك هي تقاليده منـــذ أيام بوشكين ، هذا الشاعر الكبير الذي غنى ثورة الديسمبريين ، تلك المحاولة الجريئة ضد قيصرٍ مستبدٍ متعسف . ومنذ ذلك الحين وسائر شعراء روسيا يتغنون بالحرية ، وسائر كتابها يكتبون عنها . وإن هذه المقاومة لنظام الحكم القائم ، وتلك الروح النضالية التي يتحلى بها الادب الروسي ، هما اللتان تفسران ازدهاره العظيم ، وخاصة في القرن التاسع عشر ، كما تقول روزا لو كسمبرغ . وكذلك هما توضحان غناه وعمق محتواه ، وكمال شكله وحداثته ، وبصورة خاصة قوته

الخلاقة المحيية . وثمة جملة من المفكرين – هرتزن ، بيلنسكي ، تشير نيتشيفسكي ، دوبروليوبوف ، بيساريف – قد أصلوا مؤلفات الكتّاب نار نقدهم الحامية ، وبذلك وضعوا مفاهيم طبيعة الفن التي لما يزل الادب الروسي ينهل من معينها حتى اليوم .

وأخيراً فان الادب الروسي يتحلى بسمة خاصة لا نجدها في الآداب الاخرى على الاطلاق ؛ تلك هي التفاته باستمرار نحو المستقبل ، قوته النبوئية ان صح التعبير ، وامتلاؤه بتوقع شيء لا يمكن تعيينـــه بالضبط ، انتظار « كارثة » قريبة لا مفرّ منها . والحقيقة ان كتاب القرن التاسع عشر كانوا يحسون أن روسيا تقف على « شفا الهاوية » وأنها لا بدّ مترديه فيها ، ولذلك فان مؤلفاتهم تعكس الثورة المضاعفة التي تكتمل ، الاجتماعية والداخلية ، هذه الثورة التي ليست غزارة إنتاجهم سوى نتيجة مباشرة لها .

و « الكارثة » لا تعني ابداً الانهيار والانحلال ، بـــل فترة العذاب والألم التي ستجتازها روسيا عندما تتجدد ، قل إن شئت إنها آلام المخاض والولادة . ولعل جوجول ، ودستويفسكي يعبران عن هذه الناحية بوضوح أكثر من بقية الكتّاب . فعند جوجول أن روسيا « ترويكا » ستنطلق عبر الفضاء خبباً في إعصار هائل ، وستمر من أمام أوروبا المتطلعة إليها بأعين ذاهلة مدهوشة : ان روسيا ستسبق العالم . أما دستويفسكي فعنده أن « الحجر الذي رفضه البناؤون سوف يصبح حجر الزاوية » ، وأن الشعب الروسي « حامل الله » سوف يقول يوماً ما « كلمة جديدة الى العالم » . وإن فكرة الشعب الذي « يحمل الله » ، وفكرة كون روسيا « روما ثالثة وأخيرة » بعد روما الاولى والقسطنطينية روما الثانية ، روما يقع على عاتقها عبء تاريخي عظيم هو إنقاد العالم ، فكرتان راسختان في نفوس سائر الروسيين على الاطلاق ، وأقل ما يقال عنهما إنهما تعبران عن الايمان العميق الراسخ بالشعب الروسي الذى سينهض ويتجدد (كما يدعوه جوجول أن يفعل) ، وبذلك يجدد معه الانسان والانسانية جمعاء .

وجوجول هو الذي وضع الأساس الواقعي للقصة الروسية في رائعته الخالدة « الأرواح الميتة » . إنه يصف الأشخاص والبيئات التي يمثلها هؤلاء الاشخاص، ويشكلون نتاجاً طبيعياً لها . وبذلك يعلن ان الادب ، والفن عامة ، لا يمكن أن يكونا إلا منحازين بوعي منهما او بدون وعي . إن الأدب مسؤول اجتماعياً، ومن واجب الأديب ان يجند نفسه للعمل الاجتماعي ، أي لخدمة الشعب بأسره .

وهكذا سعى الأدباء الروسيون ، منذ عهد جوجول ، رغم مناهضتهم للمجتمع ونقمتهم على واقعهم القاسي ، ألا يكونوا فرديين في المبدأ بل عملوا على أن يخلقوا فناً عمومياً يتناوله الشعب بأسره ، وأن يحققوا رسالتهم الاجتماعية بفضح إجحاف النظام القائم وتعسفه ، وتبيان الطريق المؤدية الى الحقيقة المثلى والعدالة الكاملة اللتين أضحى الادب يبحث عنهما في المحل الاول ، ويبحث عن الوسائل القمينة بتحقيقهما . ان أساسه هو العذاب المنبثق من مصير الانسان والشعب الموجــع ، من السعي الى خلاص الانسانية المعذبة . وهذا يترافق بالضرورة بادراك وهن أسس الحضارة التي يعيش فيها الأديب ، وبالتالي حتمية « كارثة » هذه الحضارة . وذلك هـــو السبب في ان الادب الروسي لا يتقيد كثيراً بالثقافة الكلاسيكية ذات الحدود الثابتة ، والقواعد الجامدة ، والحواجز التي لا يحصر عددها . إن هذه الثقافة ، بمفهومها العام ، تشكل درعاً في وجه الفكر يمنع عنه النفحات التي تهب من المستقبل المجهول. اما روح الادب الروسي فمتجهة نحو المستقبل ، نحو نهاية الاشياء ، ومفتوحة لكل ما سوف يكون .

وتلك هي واقعية الادب الروسي ورومانطيكيته أيضاً ، واحدتان في الجوهر مع الواقعية الاشتراكية الجديدة ، وإن اختلفتا شكلاً ، لان الظروف قد اختلفت ، والسبل اتضحت ، والأهداف أصبحت جلية بيّنة .

٦

هذه الواقعية الاشتراكية تتفق كل الاتفاق مع العقلية البروليتارية الجديدة ، وبصورة خاصة مع عقلية سيد العالم الجديد ، نعني به رجل العمل . وإذا كان

دور الادب ان يكتشف الجديد في الحياة ، وأن يصفه ويبين الامكانيات الكامنة فيه ، فان هذا الجديد اليوم هو الانسان العامل ، ودور الطبقة العاملة في تطور المجتمع والتاريخ .

لقد اكتشف جوركي هـذا الجديد وهو في نيجني نوفجورود عام ١٩٠٢ ، حيث سنحت له الفرصة لان يحتكّ بالمنظمات الاشتراكية المحلية . وعندئذ خطا بأدبه خطوة جديدة إلى الامام ، وسرعان ما استبدل بالمتشرد في قصصه ذلك الإنسان العامل ، اللامتناهي القوى ، الواعي لمكانته في الحياة ، وقواه ، وإمكانياته التي لا ينضب لها معين ، الساعي إلى تبديل الواقع الذي يعيش فيه ، العارف سبيله إلى ذلك . إنه تلك « الترويكا » المنطلقة عبر الفضاء ، التي أصبحت تعرف مصيرها حق المعرفة ، ومصيرها هـو النصر الاكيد ، الامر الذي يبعث التفاؤل في نفوس ركابها ، وينحي التشاؤم عنها جانباً .

ولقد أثبت هـذا الانسان الجديد قدرته الجبارة في نضال إثر نضال مدى خمسة أعوام من ١٩٠٠ حتى ١٩٠٥ ، ثم في ثورة عـام ١٩٠٥ التي صهرته في بوتقتها صهراً جديداً ، وهي ان فشلت فقد حملت رغم كل شيء برهانـاً ساطعاً عن عظمة الامكانيات الغالية مراجلها في قلب الطبقة العاملة ، هذه المراجل قـد بدأت تنفجر وتنطلق ، وترسل مع شرارتها اللامعة بشائر العالم الجديد . فـلا عجب اذن اذا تقدم جوركي بفنه ، في تلك الفترة بالذات ، مرحلة جديدة توافق الاحداث الجديدة ؟

وكانت « الأم » عام ١٩٠٦ .

هذه ليست فصلاً من فصول كفاح شعب في سبيل حريته . ولا صورة عن نضال طبقة عاملة تريد تحت الشمس مكاناً لها ، وتطالب في الحياة بحق لها وهي ليست قصة العمال في كل مكان ، في كل بقعة من بقاع العالم ، هؤلاء الذين ادركوا دورهم التاريخي الاعظم في تحرير المجتمع ، أو هم لا يزالون يتحسسونه تحسساً ،

ولعلهم في بعض الاحيان لم يدركوه بعد . وهي ليست قصة انسانية جمعاء ، في صعودها المستمر نحو الانسانية أكثر احتمالاً ، ونحو حقيقة اكثر كمـــالاً ، ونحو حقيقة اكثر عظمة ، ونحو عقل أعظم شأناً وحرية . انهـــا في الحق كل ذلك ، وبالاضافة اليه قصة « امرأة » ، قصة « أم » من أفراد الطبقة العاملة ، « امرأة » قضت جلّ سني عمرها حتى الاربعين أو يزيد في حياة لا معنى لها ولا هدف ، قضتها في الظلمة القاتمة كمـــا عبّرت هي نفسها عن ذلك ، لا تكاد تدرك حتى حقيقة ايمانها بالله الذي تعبد حتى يكون لها عقيدة سياسية تدافع عنها ، ومع ذلك فان الفعالية الثورية الخائض غمارها فتاها ورفاقه المتكتلون حوله قـــد اجتذبتها إليها شيئاً فشيئاً ، وجعلت منها بالتدريج مناضلة انسانية فـــذة ، واحدى بطلات العالم الجديد الذي ما برح في دور المخاض .

وجوركي لم يبدع ذلك أو ينسجه من خيوط مخيلته نسجاً ، بـل ان أبطاله في الحقيقة أبطال موضوعيون ، يلتقي المرء بهـــم في الحياة عند كل خطوة من خطواته . وهو نفسه قد عرف نماذجهم في نيجني نوفجورود في شخصية العامل بيوتر زالاموف وشخصية أمه . وعندما كتب قصتهم لم يتوخّ من ذلك أن يبين الاثر المتعاظم للفكرة العمالية الطليعية في جماهـير العمال الواسعة فحسب — ولو فعل ذلك ما كان أكثر من تزيين لعقيدة سياسية ليس غـــير — بل أراد على العكس ، وههنا تكمن جدارته ، أن يلقي ضوءاً ساطعاً على اشعاع هؤلاء الابطال الاشتراكيين الذين لم تفقرهم الطاعة العمياء لعقيدة مجردة، بل على العكس أغناهم الايمـــان بقوى الشعب العميقة الخلاقة ، والخلاص لقضيته الكبرى ، ومحبة الانسانية والعدالة حيث يلتقي ، ربمـا للمرة الاولى في التاريخ ، العقل والقلب والارادة جميعاً على صعيد واحد . انه يريد أن يبين كيف تستطيع سائر القوى الشعبية أن تنقلب ، في هذا النضال المباشر لتحرير الانسان ، قوى ثورية عاتية اذا ما بلغت الوعي السياسي الضروري لهـــا ، هذا الوعي الذي يشتق أبطال « الأم » منه حقيقتهم التاريخية ، وعظمتهم التاريخية أيضاً .

ولذلك لا يقوم الكتاب على عقدة محبوكة تنتهي عندما تجد لها حلاً ، ولا على مصائر فردية معينة يروي قصتها ، بل بالاحرى على تطور العلاقات الطبقية التي تعكس المصائر الفردية تناقضاتها العميقة ، وعلى فعل بنية اجتماعية معينة في طبيعة البشر ، وفي أسلوب حياتهم وتفكيرهم واحساسهم ، ولذلك لا تضعف خاتمة الكتاب ، الذي انتهى بادانة بافل وأندريه وتوقيف الام ، الايمان بالنصر النهائي الذي ستحرزه القيم الانسانية التي يحملها أولئك الابطال في نفوسهم ويدافعون عنها . ذلك ان المصير الفردي لكل انسان لم يعد بعد اليوم مستقلاً قائماً بذاته ، بل أضحى مرتبطاً كل الارتباط بالحركة الثورية ، دوره قائم في تقويتها وتوطيدها ، فاذا حقق هذا الدور فقد بلغ الغاية من وجوده ، مهما كانت خاتمته بعد ذلك . حتى اذا تم ذلك ارتفع نشيد الحياة مغرّداً في قلب بشائع الحياة البورجوازية هذه ، وفي أكثر شروط الاستثمار الرأسمالي وحشية وفظاعة: انه نشيد انسجام الكائنات جميعاً وتوافقها ، الكائن الانسان مع الكائن الانسان، ومع كل الكينونة التي يعيش فيها ، نشيد يدعو الى تحقيق حياة معقولة سعيدة يكون العمل قلبها النابض ، ويكون سيدها الانسان الفعال ، الطافح خيراً ، الملتفت نحو الغد أبداً .

وبذلك يكون جوركي قد حقق ، للمرة الاولى ، في أروع صورة وأكملها ، دور الاديب الاجتماعي كما يجب ان يكون . ولا ريب أن « الأم » ، في حمى النضال الثوري ، جزء لا يتجزأ من هذا النضال جاء بعد خيبة ثورة ١٩٠٥ ، حين كانت الموجة الثورية في جزرٍ وانكماش ، في وقت بدأ اليأس فيه يدب في قلوب الكثيرين ، يبعث الايمان في النفوس من جديد ، وينير آفاق المستقبل ، ويجند للنضال القوى المبعثرة .

ولقد كان لجوركي ما أراد .

ولذلك أصبح كتابه خالداً ...

الدكتور فؤاد ايوب


الأم

القسم الأوّل

١

كانت صفارة المصنع تدوي بعنف ، كلّ صباح ، في الجو الدبق المثقل على الضاحية العمّالية ؛ فيخرج ، في تلبية صاغرة لندائها المرتجف ، أناس انقبضت وجوههم وتجهمت ، وانهك التعب عضلاتهم وأجهدها ، ولم تردّ عليهم يقظتهم المبكرة ما يحتاجون إليه من راحة وقوة . كانوا ينطلقون من بيوتات صغيرة غبراء اللون أشبه بالخنافس المذعورة ، ويستحثون الخطا ، في الفجر البارد المظلم ، عبر الشارع غير المرصوف ميممين شطر جدران المعمل الشاهقة التي تنتظرهم في طمأنينة باردة غير عابئة ، مُضيئةً الطريق الموحل بعشرات من الأعين الزيتية المستديرة . وكان الوحل يتكسَّر تحت أقدامهم ، والجو يتمزق بشتائم قبيحة ، أو آهات عميقة تطلقها . حناجر ناعسة مبحوحة ؛ فيما أصداء أخرى تبلغ آذان هؤلاء القوم ، ألا وهي جعجعة الآلات الثقيلة وضجيجها ، وغليان البخار وصفيره . وكانت المداخن العالية ، القاتمة ، السود ، تشرف على المؤسسة بأسرها كأنها مسلات شامخة تنذر بالويل والثبور .

فاذا ما انقضى النهار وراحت الشمس ، وهي تأوي الى مضجعها ، تجد لها على زجاج النوافذ انعكاسات متعبة ، تقيأ المصنع أولئك القوم من أحشائه الحجرية وكأنهم فضلات لا حاجة به إليها ، فيتسلقون — من جديد — الشوارع الوسخة ، متعفرة وجوههم ومسودّة بالدخان ، متألقة أسنانهم الجائعة ، فائحة من أجسادهم رائحة زيت الآلات اللزجة . ثمة شيء من النشاط ، بل ثمة غبطة

أيضاً ، يترددان الآن في أصواتهم . لقد انتهى العمل الى يوم آخر ، والعشاء والراحة ينتظران في الدار ...

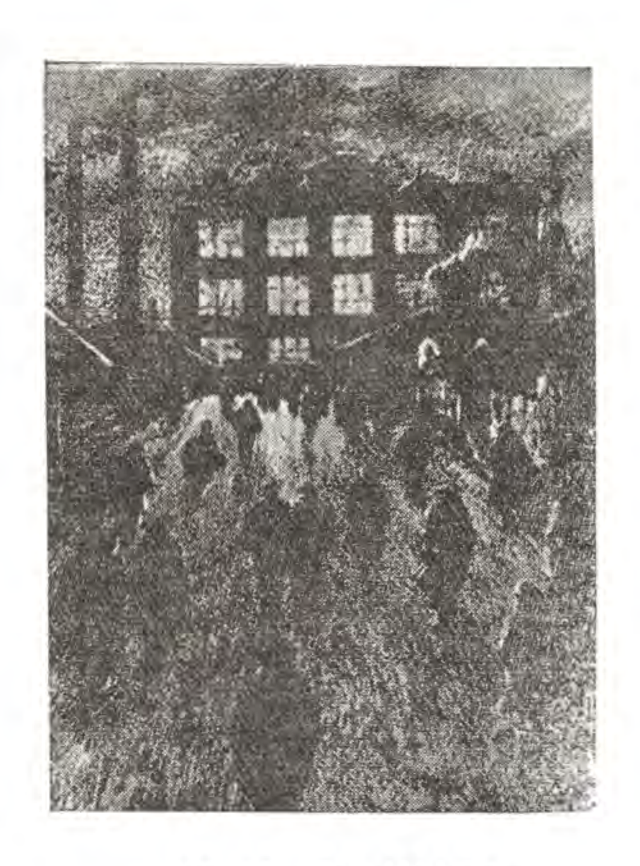
لقد استهلك المصنع النهار بأسره ، وامتصت آلاته من عضلاتهم ما تحتاجه من قوة . ويمرّ اليوم هكذا ، دون أن يخلّف أثراً ، ويتقدم المرء خطوة جديدة في اتجاه لحده . لكنه يتوقع الآن ، بالرغم من ذلك ، بعض الافراح ، أفراح الراحة في حانة تعج بالدخان والقذارة ؛ وإنه لسعيد بذلك ...

وفي أيام الآحاد ، كان القوم ينامون حتى العاشرة ، ومن ثم يرتدي المتزوجون الوقورون منهم أفضل ثيابهم ، ويغدون الى الكنيسة ، موجهين اللوم — اثناء ذلك — الى الشباب لعدم مبالاتهم بأمور الدين والآخرة . فاذا ما انتهت خدمة القداس الالهي ، قفلوا راجعين الى دورهم ، وأكلوا الفطائر اللذيذة ، ثم استسلموا من جديد للنوم حتى المساء .

إن التعب المتكدس خلال الايام يُفقد الشهية ، فلينبهوها إذن بالشراب ، وليخرشوا المعدة الكسول بلذع الفودكا الحارق الملتهب .

واذا أتى المساء ، أخذوا يتجولون في الشوارع ... والذين يقتنون جزمة لبسوها ، وان كانت الارض جافة ؛ والذين يملكون مظلة حملوها ، وان كان الطقس جميلاً لا ينذر بالمطر .

وإذا ما تلاقى الاصحاب دار الحديث بينهم حول المصنع والآلات ، أو تناقلوا الشكوى ضد رؤسائهم وتعسفهم ، فهم لا يفكرون او يتكلمون إلا في الامور المتعلقة بعملهم ، وفيما ندر ، كانت ومضات من الافكار الجريئة المتلعثمة تخترق أجواء أيامهم الرتيبة المملة ، حتى اذا عادوا الى بيوتهم ليلاً أخذ الرجال يتخاصمون مع زوجاتهم ، او يضربونهن في غالب الاحيان ، دون ان يأبهوا لما يلحق اكفهم من الأذى . أما الفتيان فيترددون على الحانة ، او يحيون الحفلات



ويستحثون الخطى في الفجر البارد المظلم ...

في المنازل حيث يعزفون على الاكورديون ، وينشدون أغاني بشعة مرذولة وهم يرقصون ، ويتبادلون السباب ، ويعبون الخمرة دون حساب ، وسرعان ما كانت الفودكا تتسرب الى رؤوسهم ، هم الذين أضناهم التعب وأرهقهم، فيتّقد في صدورهم هيجان مريض عصيٌ على الادراك يسعى وراء منفذ له، فيتمسكون بأتفه الاسباب كي يطلقوا العنان لمشاعرهم ، مزمجرين في وجوه بعضهم بوحشية حيوانية تنتهي دائماً باصطدامات دامية ، كثيراً ما ينتج عنها أضرار بالغة ، ومنها القتل في كثير من الأحيان .

كان احساس بالحقد الدفين يسيطر على علاقاتهم الانسانية ، وكان ذلك الاحساس قديماً قِدَمَ ذلك التعب الذي لا شفاء له في عضلاتهم . إنهم يولدون ، وذلك المرض الروحي فيهم ، يرثونه عن آبائهم ، فيرافقهم كشبحٍ مظلمٍ طوال حياتهم حتى القبر ، يدفعهم دون انقطاع الى ارتكاب افعال تثير وحشيتها العديمة المعنى الاشمئزاز والنقمة جميعاً .

وكان الفتيان – في ايام الاعياد – يؤمون منازلهم في ساعة متأخرة من الليل ، متمزقة ثيابهم متلطخة بالأقذار والأوحال ، مظلمة عيونهم ، دامية أنوفهم ، وهم يتبجحون أحياناً ، في اعتزاز فارغ ، بما كالوا لرفاقهم من لكمات ، او يكشرون عن أنيابهم ، في أحيان أخرى ، غاضبين او باكين لما نالوا من إهانات ، وكثيراً ما كان الآباء والأمهات يعـــودون بأبنائهم الى الدار ، وهم يلعنونهم بفظاظة وبذاءة ، من حيث وجدوهم يتمرّغون في ظل أحد الأسوار ، أو على أرض إحدى الحانات في حالة من الغيبوبة السكرى ، فيرفقون بأجسادهم المترهلة ويوسدونهم الفراش في كثير او قليل من العناية ، كي يوقظوهم في الصباح عندما تصرخ صفارة المصنع الصاخبة ، فيأتي دويها هادراً في تيارٍ مظلمٍ خلال نور الفجر المنبثق .

كانوا يشتمون أبناءهم ويضربونهم باستمرار ، لكن قتال الفتيان وعربدتهم الدائمة كانا مقبولين لديهم كأمرٍ لا مفر منه ولا مهرب . لقد كان الآباء ، أيام كانوا شباباً ، يتقاتلون ايضاً ويعاقرون الخمرة ، ويتلقون كذلك اللكمات من آبائهم وأمهاتهم ... هكذا كانت الحياة دائماً ، يجري تيارها الموحل ببـــطء واستمرار ، مشدوداً الى درب لا تتبدل من عادات للتفكير والسلوك قديمة قدم الزمان . وان الرغبة في إدخال اي تغيير على ذلك كله لم تساور يوماً أحداً منهم على الاطلاق .

وفي بعض الاحيان ، كان يأتي المصنع أناس غرباء يستدعون الانتباه للوهلة

الأولى بسبب حداثة قدومهم . وكان الاهتمام الضئيل الذي يحيونه يعيش مدة من الزمن مدعوماً بما يرون من أقاصيص عن الأماكن التي جاؤوا منها وعملوا فيها . لكن سرعان ما كانت البدعة تمضي ، ويعتاد الناس عليهم ، ويكفون عن الشعور بوجودهم ، وكان يتضح ، مما يروي هؤلاء القادمون حديثاً ، ان حياة الشعب العامل واحدة في كل مكان ، وإن كان الأمر كذلك ، فماذا بقي لهم كي يتحدثوا عنه .

وكان بعض هؤلاء المهاجرين يتحدثون احياناً عن أمور غريبة لم يُسمع بها من قبل في ذلك المكان ، فلا يناقشهم احد ، بل يصيخ الجميع إليهم في شيء من الانكار والارتياب . وكان الحديث يثير في البعض حقداً أعمى ، وفي آخرين ذعراً غامضاً وقلقاً مبهماً ، وفي فريق ثالث خيالاً شاحباً من الأمل يعكّر صفوهم ، ويقودهم الى الاستزادة من الخمرة بغية طرد تلك الافكار غير المرغوب فيها ، التي تجعل الحياة أصعب وأشد عسراً .

وكان العمال ، إذا لاحظوا في شخص ما امراً شاذاً غير عادي ، أخذوه عليه ، وراحوا يراقبونه بيقظة وحذر ، وكأنهم يخافون أن يشوش الانتظامَ المملَّ لتلك الحيوات التي هي – وان كانت عسيرة شاقة – هادئة غير مضطربة على الأقل ، لقد اعتادوا ان يشعروا بثقل الحياة متساوياً في سائر الأوقات ، وأصبحوا يرون في كل تبديل ، بعد ان يئسوا من التخفيف عنهم ، وسيلةً قمينة بمضاعفة بؤسهم وشقائهم والاستزادة منهما .

كان العمال يتوارون ، في سكون ، عن أولئك الذين ينطقون بآراء جديدة ويتجنبون طريقهم . وهكذا اختفى القادمون الجدد ساعين وراء أماكن أخرى . وفي الحالات النادرة حيث يؤثرون البقاء في المصنع ، كانوا يصبحون مثل أقرانهم ، أو يعيشون حياة انعزالية منفردة .

وبعد خمسين عاماً من مثل هذه الحياة ، كان المرء يموت ...

٢

هكذا كان يعيش ميخائيل فلاسوف ، وهو ميكانيكي غزير الشعر ، ذو عينين صغيرتين تلمعان بحذر وارتياب ولؤم وضيع تحت حاجبيه الكثين . كان أحسن ميكانيكي المصنع وأقوى رجال الضاحية ، لكن كثير الفظاظة مع رؤسائه بحيث لم يكسب من المال إلا النزر اليسير ، وكان ينال بالسوء بعض الناس ، في كل يوم أحد ، حتى أبغضه الجميع وخافوه . ولقد باءت سائر المحاولات للتعويض عليه من نوع عملته بالفشل الذريع ، فقد كان يلتقط حجراً أو هراوة أو قضيباً من الحديد كلما لاحظ ان بعض الناس ينوون مهاجمته ، ويغرس قدميه متباعدتين في الارض ، ويروح ينتظر العدو في هدوء وسكينة . وكان منظر ساعديه المكسوين بالشعر ، ووجهه المفعم أبداً بالتحدي والاستفزاز. النامية عليه – منذ العينين حتى العنق – لحية سوداء كثة ، يكفي ليلقي الرعب في قلب أشجع الناس وأشدهم إقداماً . وكان الجميع يخشون ، بصورة خاصة ، عينيه الصغيرتين القاسيتين اللتين يخيل للناظر إليهما أنهما تخترقان كل شيء كحربتين من الفولاذ ، واللتين يحسُّ كلُّ من يشخص إليهما أنه في حضرة قوة متوحشة متحفزة ابداً للضرب دون أثر من خوف او رحمة . كان يصيح في اعدائه بصوت اجش ، واسنانه الصفر تلمع من خلال لحيته :

– هيا اغربوا عن وجهي ، يا ابناء الكلبة !

فيولي هؤلاء الادبار ، مزمجرين بالعديد من الشتائم الجبانة في تقهقرهم .

ويهتف فلاسوف في إثرهم ، وعيناه محتدّتان كمخرزين مدببين :

– يا ابناء الكلبة !

ويتبعهم شامخ الأنف ، وهو يهتف متحدياً :

– حسناً ، من يرغب في الموت ؟

لكن احداً لم يكن يرغب في ذلك ...

كان يتكلم قليلاً ، وكلمتا « ابن الكلبة » أكثر ما يتردد على لسانه من أقوال ، ينعت بهما رجال الشرطة ، ورؤساءه ، وأقرانه في المصنع . أما زوجته فلا يدعوها إلا « بالكلبة » ، فيقول لها مثلاً :

– أنظري هنا ، أفلا ترين ان سراويلي ممزقة ، أيتها الكلبة ؟

وذات مرة ، عندما كان ابنه بافل في الرابعة عشرة من العمر ، أراد أن يمسك به من شعره ، ولكن الفتى التقط هراوة ثقيلة ، ونبر باقتضاب وفظاظة :

– لا تمسني !

فسأل الاب ، متقدماً من ابنه الطويل النحيل ، مثل خيال يقترب من شجرة فارغة :

– ما هذا ؟

فقال الفتى بهدوء ، رافعاً الهراوة في يده :

– لقد اكتفيت ، ولم أعد أطيق مزيداً !

فنظر اليه الاب برهة ، ثم أخفى يده الكثة الشعر وراء ظهره ، قائلاً في ضحكة قصيرة :

– حسناً !

وأضاف ، بعد أن صعّد زفرة حرّى :

– انك ابن كلبة على أية حال .

وبعد فترة قصيرة من ذلك الحادث عالن امرأته :

– لا تسأليني مالاً بعد اليوم . ان باقل سيقوم بأودك من الآن فصاعداً .

فوجدت المرأة الجرأة على الجواب يقولها :

– وأنت ستتسكر بكل أجورك ، على ما أظن ؟

– هذا ليس من شأنك ، أيتها الكلبة . سأتخذ خليلة ان راقني ذلك .

ولم يتخذ خليلة . لكنه تجاهل منذ ذلك الحين حتى وفاته ، بعـــد سنتين تقريباً . وجود ابنه ولم يكلمه قط .

كان يملك كلباً يماثله ضخامة وكثافة شعر ، يتبعه الى المصنع كل صباح ثم



ويهتف فلاسوف في اثرهم : «يا أبناء الكلبة »

ينتظره عند البوابة مساء كل يوم . وكان فلاسوف يقضي أيام العطل متنقلا من حانة الى حـــانة ، دون ان ينبس ببنت شفة ، مكتفياً بتفحص وجوه الناس وكأنه يفتش عن شخص ما ، وكلبه يجرّ ذيله الغليظ وراء سيده النهار بطوله حتى اذا عاد فلاسوف مخموراً الى البيت ، وجلس للعشاء ، أطعمـــه من ذات الصحن الذي يأكل منه . ولم يكن يلعنه ابداً او يناله بالضرب ، ولكنه لم يكن ليدلله ايضاً . واذا انتهى من العشاء فهو يلقي بالأواني أرضاً ان تأخرت زوجه عن رفعها ، ثم يضع زجاجة من الفودكا أمامه ، ويستند بظهره الى الجدار ، ويغمض عينيه ، ويفتح فمه ، ويعول بأغنية ما بصوت يرسل في بدن المستمع قشعريرة باردة . وكانت الاصداء البشعة الكئيبة تتداخل في شاربيه وتدفع منها ما علق بها من فتات الخبز ، فيمسح الميكانيكي لحيته وشاربيه بأصابعه الثخينة ، ويتابع الغناء دون توان او كسل . كانت كلمات أغنيته غامضة غير مفهومة ، أما اللحن فيذكـّر بعـــواء الذئاب في زمهرير الشتاء . وكان يغني ما دام في الزجاجة شيء من الفودكا ، فاذا فرغت استلقى على الدكة ، او ألقى برأسه على المنضدة ، ونام حتى تدوّى الصفارة . وكان كلبه ينام الى جانبه .

ومات بنزيف داخلي . ظلّ اياماً خمسة يتململ في فراشه وقد اسودّ وجهه . وانغلقت عيناه . وانطبقت أسنانه . وبين الفينة والفينة كان يصيح بامرأته :

– أعطيني بعض الزرنيخ . سمّميني .

ووصف له الطبيب لزقة خردل ، وأضاف أنه لا بدّ من اجراء عمليـــة لميخائيل ونقله الى المستشفى في ذلك اليوم بالذات . فلهث ميخائيل :

– اذهب الى الشيطان ! سأموت بدون مساعدتك ، يا ابن الكلبة !

وعندما دخل الطبيب ، وراحت الزوجة ترجـــوه ، وهي تذرف الدمع السخين ، ان يقبل باجراء تلك العملية ، هزّ قبضته في وجهها ونبر :

– اذا شفيت فلن تزداد حالك الا سوءاً على سوء ...

مات في الصباح ... في ذات اللحظة التي دوت فيها الصفارة . ورقـــد في نعشه فاغر الفم ، مقطب الحاجبين استياء . قبره امرأته ، وابنه ، وكلبه ، ودانيللو فيزوفشيكوف (وهو لص قديم وسكير عربيد طُرد من المصنع) ، وبعض المستعطين ... وبكت امرأته قليلاً ، وبهدوء كثير ، أما بافل فلم يذرف الدمع أبـــداً ... . كان الناس المارّة الجنازة بهم يقفون ، ويرسمون اشارة الصليب ويقولون :

– يجب ان تكون بيلاجيا سعيدة جداً لموته !

وأضاف بعضهم :

– لقد مات كلباً مثلما عاش !

وعاد القوم ، بعد أن واروا النعش التراب . أما الكلب فظل مضطجعاً على الارض الرطبة يشمّ القبر في سكينة وهدوء . وبعد بضعة ايام وجدوه مقتولاً .

٣

رجع بافل فلاسوف الى البيت شديد السكر ، ذات أحد عقيب موت أبيه بأسبوعين ، ودلف الى البيت مترنحـــاً ، وتجمع في مقعد عند رأس الطاولة ، وراح يضرب عوارضها الخشبية بقبضة يده كما اعتاد أبوه أن يفعل صائحاً بأمه :

— العشاء !

جلست الأم بجانبه ، ولفَّت ذراعيها حـــول عنقه ، ثم جذبت رأسه الى صدرها . لكنه أبعدها عنه صائحاً :

— هيا ، يا أمي عجّلي !

فردت الأم في حزن وعطف ، متخلصة من قبضة يده .

— ايها المجنون !

فتمتم بافل متلعثماً ، وهو يحرك لسانه الخشن بصعوبة فائقة :

— واني عازم على التدخين ايضاً ! هاتي غليون أبي .

تلك كانت أول مرة يقرب الخمرة فيها . وقد أنهكته الفودكا بمفعولهـــا ، لكنها لم تذهب بوعيه تماماً ، فراح هذا السؤال يدوّي في رأسه دون انقطاع :

— أأنا سكران ؟ أأنا سكران ؟

شعر بالضيق تجاه حنان أمه وعطفها ، وتأثر بمظاهر الكآبة والحزن في

عينيها . واحسّ رغبة في البكاء . إنما راح يتظاهر ، كيما يتغلب على هذا الشعور ، بأنه أشد سكراً مما هو عليه حقيقة .

وداعبت الأم شعرها المشتبك الرطب ، قائلة بلطف ورقة :

– ما كان يجب أن تفعل هذا . . .

بدأ يحس بالغثيان والقرف . . . وبعد نوبة شديدة من الإقياء حملته الأم الى فراشه ، ووضعت منشفة مبلولة على جبينه الشاحب . ردّ هـذا عليه بعض رشده ، لكن الأشياء ظلت تسبح فيما حوله وتدور ، كما بقيت أجفانه ثقيلة حتى ليعجز عن رفعها . وشخص من خلال اهدابه ، وذلك الطعم الكريه يملؤ فمه ، الى وجه أمه العريض ، مفكراً :

– يبدو أنني لا ازال صغيراً جداً . فالآخرون يشربون ولا يصيبهم شيء اما انا فقد اصبحت مريضاً . . .

واتاه صوت امه الحنون من مكان سحيق جداً :

– وكيف تستطيع اعالتي اذا ما طفقت تدمن بنت الكرْم ؟

فأجاب ، مغلقاً عينيه بشدة :

– الجميع يشربون . . .

فتنهدت الأم . . . انه على حق . . . فهي نفسها تعرف ان الحانة هي المكان الوحيد الذي يجد الناس فيه قطرات من السعادة .

وقالت مع ذلك :

– لكن لا تعتد أنت على الشرب . لقد شرب ابوك عنه وعنك ، وما يزيد ايضاً . . . أفلا يكفيني ما لقيت من شقاء على يديه ؟ أفلا ترحم أمك قليلاً ؟

تذكر بافل ، وهو يصغي الى هذه الكلمات الحزينة الناعمة ، انه لم يكن يشعر

بوجود امه في الدار تقريباً اثناء حياة أبيه ، فهي تحيا في سكون وخوف دائم من الضرب والصفع . ولقد ظل ، هو الآخر ، بعيداً عن الدار ما استطاع الى ذلك سبيلاً تجنباً لملاقاة ابيه ، فشبّ بعيداً عن امه غير مؤلف لها . اما الآن فقد راح يشخص اليها بشدة وثبات ، وهو يصحو من سكره شيئاً فشيئاً .

كانت طويلة القامة ، على شيء من الانحناء الى الامام ؛ يتحرك جسدها ، الذي حطمه العمل المرهق وضرب زوجها المستمر ، دون ضجة ، مائلاً قليلاً الى احد الجانبين وكأنها تخاف ابداً ترتطم بشيء ما . وكان وجهها العريض البيضوي الشكل الذي جعّدته السنون وحفرت فيه غضوناً كثيرة عميقة يتضوأ بعينين سوداوين يطفح منها الذعر والكآبة جميعاً ، مثلها مثل معظم عيون النساء في الضاحية . وكان يعلو حاجبها الايمن ندَبة عميقة تجر الجفن الى العالي ، موحية بأن أذنها اليمنى ترتفع أيضاً عن مستوى الأذن اليسرى ، فيضفي ذلك على وجهها سيماء من يصيخ السمع دائماً ، خائفاً مرتعد الفرائص ، الى جلبة بعيدة سيئة المآل... وكانت خيوط من البياض تلمع في شعرها الاسود الكثيف . لقد كانت ، بكلّيتها ، رقة وكآبة واذعاناً ...

انحدرت دموع بطيئة على خديها ، فقال ابنها بهدوء :

– مهلاً ، لا تبكي ! اعطيني لأشرب .

– سآتيك ببعض الماء المثلج .

لكنها وجدته ، لما عادت ، يغطُّ في النوم ، فوقفت طويلاً تترّنى اليه ، يرتعش القدح في يدها فيقرع الثلج فيه جدرانه المعدنية . وأخيراً وضعت القدح على المائدة ، وسقطت بهدوء جاثية على ركبتيها أمام الأيقونات . كانت اصداء الحياة الثملة في الخارج تصطدم بجدران النافذة ، وأكورديون يزعق في دكنة مساء الخريف ورطوبته ، وشخص ما يغني بصوت عالي النبرة أجش الجرس

وشخص آخر يتدشق بسلسلة من الشتائم القبيحة . واصوات بعض النسوة تعكّر سجوّ الليل منهوكة هائجة ...

وأخذت الحياة تجري في دار آل فلاسوف الصغيرة ، في هدوء وسكينة أكثر من ذي قبل ، تختلف نوعاً ما عنها في البيوت الاخرى . كانت دارهم تقوم على حافة الضاحية فتشرف على منحدر – ان لم يكن على جرف مرتفع – يقود الى المستنقعات الموحلة . وكان ثلث الدار يتألف من المطبخ وغرفة صغيرة ملحقة به ، أما الثلثان الباقيان فغرفة مربعة واسعة ذات نافذتين ، يحتل سرير بافل إحدى زواياها ، ويحتل الزاوية الأخرى مائدة ودكتان . وكان بقية الأثاث يتألف من بعض المقاعد ، ومغسلة تعلوها مرآة صغيرة ، ومن صندوق يحوي ثيابها ، وساعة ثبتت في الحائط ، وأيقونتين قائمتين في زاوية ثالثة من الغرفة .

فعل بافل كل ما ينتظر ان يفعل شاب مثله ، فابتاع لنفسه أكورديوناً ، وقميصاً ذا ياقة منشّاة وربطة عنق زاهية الالوان ، وجزمة ، وعصا ، فأصبح بذلك مثله مثل سائر اقرانه على حد سواء . وكان يذهب مساء إلى الحفلات ، ويتعلم كيف يرقص البولكا والكادريل ، ويعود في عشيات الآحاد الى البيت ثملاً ، متألماً أبداً من تأثير الفودكا . وكان يفيق صباح الاثنين ، وفي رأسه صداع ، وفي قلبه حرقة ، وفي وجهه شحوب وعلائم البؤس والألم .

سألته أمه ذات مرة :

– هل قضيت وقتاً طيباً مساء البارحة ؟

فأجاب بامتعاض وانفعال مكتوم :

– الضجر ... الضجر ! الجميع يتحرّكون بجمود كالآلات . أيفضل أن أخرج لصيد السمك ، أو لعلي أبتاع بندقية أصطاد الطيور بها .

كان يعمل بأمانةٍ وغيرة ، فلا يرتكب أبداً ما يستحق اللوم عنه . وكان ساكتاً على الدوام ، يطفح الاكتئاب من عينيه الزرقاوين الواسعتين ، مثله في ذلك مثل أمه . ولم يشترِ بندقية أو يخرج للصيد ، ولكن ما اسرع أن اتضح أنه يحيد عن الدرب التي يسلكها الجميع دونما تفريق ، إذ أصبح اشتراكه في الحفلات قليلاً ، كما أنه يعود الى المنزل صاحياً ايام الآحاد ، بالرغم من تغيبه . واستطاعت عين الأم الحادة الثاقبة أن تلاحظ تحولاً متزايداً في وجه ابنها الاسمر النحاسي ، وجداً متعاظماً في عينيه ، وانضماماً في شفتيه يجعلها منطبقتين بشدة في خط قاس يضمّ في جنباته حزناً يرعاه او أن علة ما تمتصّ عافيته . وكثيراً ما كان أصحابه يأتون لزيارته فيما سبق؛ أما الآن ، حين أمسوا لا يلقونه في الدار إلا الندرَى ، فقد انقطعوا عن المجيء اليه . واغتبطت أمه — حين رأته يختلف عن سائر الشباب في المصنع — وان لم تستطع أن تخفي القلق والخشية لدى شعورها بأنه يوجه طريق حياته ، في كثير من العزم والعناد ، بعيداً عن تيار الحياة المظلمة التي تحدق به .

كانت تسأله من حين لآخر :

— أواثق أنت ، يا باشا من سلامة صحتك ?

فيجيب :

— انني لعلى أحسن حال !

فتتأوه وتقول :

— ما أشدّ هزلك !

وبدأ يجلب كتباً الى الدار ... كان يقرؤها خفية ، ويخبئها عندما ينتهي في في حرز أمين . وفي بعض الأحيان ، كان ينسخ شيئاً من احد تلك الكتب ثم يخفي الورقة ... كانا يتكلمان قليلاً ، ولا يلتقيان إلا في فترات قصيرة جداً ؛ فهو يحتسي شاية في الصباح صامتاً ، ثم يغادر المنزل الى عمله ... وعند الظهيرة

يجيء لتناول الغذاء فيتبادل وإياها – أثناء الطعام – بعض الملاحظات العابرة ومن ثم يختفي من جديد حتى المساء ... فـــاذا عاد بعد انتهاء العمل اغتسل وتناول عشاءه ، ثم قعد يقرأ مدة طويلة وذات يوم أحد ، غادر البيت منذ الصباح الباكر ولم يعد الا في ساعة متأخرة من الليل . وعرفت أنه يقصد المدينة أحياناً حيث يشهد المسرح من وقت لآخر . لكن احـــداً من المدينة لم يأت لزيارته قط . وكان يبدو لها أن كلام ابنها يتناقص باستمرار على مرّ الأيام بَيدَ أنها لاحظت في حديثه كلمات جديدة لا تفهمها ، فيما تلك التعابير القاسية الفظة التي كان يستعملها قبلاً تتوارى شيئاً فشيئاً من أحاديثه . واسترعى انتباهها كثير من التفاصيل الجديدة في سلوكه، فهو لا يتحذلق الآن في تأنقـه بل يزيد من العناية فقط بنظافة جسده وثيابه . وقد صارت حركاته أكثر حرية واتزاناً وتصرفاته أكثر بساطة وأقل شراسة . ومع ذلك، انشغل بالها وقلق لهذه التبدلات التي لم تجد لها تعليلاً – لا بل إن عناصر جديدة ظهرت في علاقاته معها فهو ينظف أرض الغرفة أحياناً ، ويرتب سريره في أيام الآحاد دائماً ، ويسعى بصورة عامة الى معاونتها في عملها ... ان احداً من الرجال الآخرين في الضاحية لم يفعل ذلك قط .

وفي ذات يوم ، حمل معه إلى البيت صورة وعلّقها في الحائط . كانت هـذه الصورة تمثل ثلاثة أشخاص غارقين في نقاش عميق ، وهم يحثون الخطا – بخفة ولهفة – على طول الطريق .

قال بافل يشرح لها معنى الصورة :

– إنه المسيح القائم من بين الأموات في طريقه إلى قرية عماس .

أعجبت أمه بالصورة ، لكنها قالت في نفسها :

– لماذا لا تذهب إذن إلى الكنيسة ما دمت مغرماً بالمسيح حتى هذا الحدّ ؟

وتضاعف عدد الكتب على الرفوف الجذابة التى صنعها نجّار من أصدقـــاء

بافل . وبدأت الغرفة تأخـــذ مظهراً جميلاً لطيفاً . كان يدعوها أمي عادة ، لكنه شرع يخاطبها باحترام أكثر ، ويستعمل صيغة الجمع في حديثه معها . ومن حين لآخر ، كان يتوجّه إليها بكثير من الحنان والرأفة قائلاً :

– لا تقلقي من أجلي ، يا أمّاه ، فلربما تأخرت في العودة هذا المساء !

وكانت تحبُ ذلك ، وتشعر بوجود شيء رزين قوي في هذه الكلمات .

لكن قلقها نما وتضاعف ؛ وبالرغم من أنها لم تعد تدري له سبباً ، فقد ازداد قلبها ثقلاً يوماً بعد يوم ، وهي تشعر – بغموض – أن ثمة شيئاً غير عادي وراء تلك الأمور . لا بل إنهـا كانت تستاء من ولدها في بعض الأحيـان ، وعندئذ تأخذ في التفكير :

– إن الناس يتصرّفون كما يجب أن يتصرفوا ، أما هو فمثله مثل الرهبان ، جدّيٌ أبداً ورزينٌ دائماً . ذلك لا يلائم سنّه .

ثم تعود فتقول في نفسها :

– لربما علق بفتاة ما في مكان آخر !

لكن صحبة الغواني تتطلب مالاً ، وهو ينقدها كامل أجوره تقريباً ...

ومرت الاسابيع والشهور على هذا المنوال ، حتى انصرم عامان من هـذه الحياة الصامتة الغريبة الملأى بالافكار الغامضة ، الطافحة بالمخاوف المتزايـدة أبداً ...

٤

في ذات مساء ، بعد العشاء ، أسدل بافــل ستائر النافذة وعلـّق المصباح القصديري في الحائط فوق رأسه ، ثم جلس في إحدى الزوايا مستغرقاً في القراءة فخرجت أمه من المطبخ حيث كانت تغسل الصحون ، ثم اتجهت نحوه ببــطء وتمهـّل . رفع رأسه وأمعن النظر فيها متسائلا ؛ فتمتمت ، وهي تقفل راجعة بسرعة الى المطبخ ، وجفناها يرفـّان في اضطراب وعصبية :

– لا شيء ، يا باشا ، لا شيء على الاطلاق .

لكنها غسلت يديها ، بعد نضال قصير مع أفكارها ، واقتربت مرة أخرى من ولدها ، وقالت بسكينة :

– كنت أريد أن أسألك عما تقرؤ طوال الوقت .

فأطبق الكتاب ، وقال لها :

– أجلسي ، يا أماه !

فجلست أمه متثاقلة الى جانبه ، وقوّمت من اعوجاج ظهرها ، ثم تهيأت لسماع أمور فائقة الخطورة .

تكلم بافل ، دون أن ينظر إليها ، بصوت خفيض لم يخلُ ، لسبب ما ، من القسوة :

– إني أقرؤ كتباً ممنوعة. هي ممنوعة لانها تقول الحقيقة عن الجماهير العاملة. وهي ُتطبع في الخفاء. واذا وجدوها عندي ألقوا بي في غياهب السجن ، في السجن لاني أريد معرفة الحقيقة. هل تفهمين ؟



وعلى حين غرة احست صعوبة كبرى في التنفس ...

وعلى حين غرة ، أحست صعوبة كبرى في التنفس ... فتحت عينين واسعتين ، وشرعت تنظر الى فتاها وقد خيل إليها أنه غريب عنها تراه للمرة الاولى. كان صوته متبدلاً ، لكن أعمق وأثرى وأشدّ رنيناً. وكان يفتل شاربه الكث ، ويرنو الى الزاوية بصورة غريبة من تحت جفنيه المسبلين. ساورها الخوف من أجله ، وأشفقت عليه في الوقت ذاته.

استفسرت :

– ولماذا تفعل ذلك ، يا باشا ؟

فرفع رأسه وروّا النظر فيها ، ثم أجاب في هدوء وطمأنينة :

– لاني أريد معرفة الحقيقة !

كان صوته ناعماً لكن ثابتاً ، وكان عزم عنيد يتّقد في عينيه . حدثها قلبها أن ابنها قد نذر نفسه ، حتى الابد ، لشيء رهيب محوط بالاسرار . كانت تعتبر كل شيء في الحياة أمراً محتوماً لا مفرّ منه ولا مهرب ، وكانت معتادة الاستسلام دون سؤال أو تذمر ، ولذا استسلمت تبكي الآن في هدوء وبكل بساطة ، دون أن تجد الكلام في قلبٍ يعتصره الالم ، واللهفة ، والغمّ ...

قال لها بافل بلهجة ناعمة حنون ، هُدهدَ إليها – مع ذلك – أنها كلمات الوداع :

– لا تبكي ! فكري فقط في نمط الحياة التى نعيش ! هذه أنت قد سلخت من العمر أربعين عاماً ، فماذا رأيت خلالها ؟ كان والدي يضربك – وأنا أدرك الآن أنه كان يخفف بذلك المتاعب عنه ، وينفّس كل شقاء الحياة التي كان يعيش . كان ذلك الشقاء يرهقه إرهاقاً دون أن يدري من أين يأتي . لقد عمل طوال ثلاثين عاماً، بدأ يعمل يوم لم يكن المصنع بأسره أكثر من محلين صغيرين ؛ أما الآن فقد أصبح سبعاً من البنايات الضخمة . ان المعامل تنمو ، والشعب يفنى كي يعمّرها .

كانت تصغي إليه بلهفة ، لكن بخوف أيضاً . لتلتهبُ عيناه بنورٍ حبيبٍ الى النفس ، وهو يستند بصدره الى المائدة وينحني عليها حتى يلامس وجهها المبلل بالدموع ، ويتفوّه بأول حديث له عن الحقيقة التي اهتدى إليها

أخيراً . كان يتحدث عن الامور التي أصبحت واضحة بيّنة بالنسبة إليه بكل قوى فتوّته ، وبكل حماسة التلميذ الفخور بمعرفته ، المؤمن كل الايمان بحقيقتها . إنه يتحدث ليجرّب نفسه أكثر منه ليقنع والدته ؛ وكان يتوقف أحياناً ، تعوزه الكلمات ، ثم يصبح شاعراً بذلك الوجه المتألم الماثل أمـــامه بعينيه اللطيفتين البارقتين من خلال غشاءٍ من الدموع ، الناظرتين إليه في ذعر وعجب. أشفق عليها ، فطفق يتحدث من جديد ، لكن عنها وعن حياتها هذه المرة ، فقال :

– ما هي الافراح التي عرفتِ ؟ ماذا خلـّف لك الماضي من ذكريات ؟

أصغت إليه وهزّت رأسها بكآبة ، وهي تحسّ شيئاً جديداً مجهولاً ، شيئاً مفرحاً ومؤلماً في وقت واحد ، يمسح برفق وحنوٍّ على قلبها الموجع الاسوان . كانت تلك هي المرة الاولى التي تسمع فيها إنساناً يتحدث عنها وعن حياتها ، بحيث أثارت الكلمات في خاطرها أفكاراً غامضة أبعدتها عنها منذ زمن سحيق؛ بل أحيت فيها – بكل هدوء – شعوراً ميتاً بالاستياء من الحياة ، وأفكار الشباب البعيد ومشاعره . في ذلك الحين كانت تتحدث عن الحياة مع أصدقاء صباها وفتوّتها ؛ كانت تتحدث وإياهم عن كل شيء في آخر تحليل . لكن سائر صديقاتها ، وهي معهنّ أيضاً ، لم يفعلن سوى الشكوى دون السعي وراء إيجاد تعليلٍ لقساوة الحياة التي يعشنها . وهذا ولدها يجلس أمامها الآن فيمسُّ شغاف قلبها كلُّ ما تعـبّر عنه عيناه ، ووجهه ، وكلماته ؛ فيمتلىء ذلك القلب فخراً بهذا الابن الذي يفهم جيداً حياة أمه ، والذي يتحدث اليها عن آلامها ويعطف عليها .

لكن الامهات لم يكنَّ يوماً ليتمتّـعن بالحنان ، والعطف ، والشفقة ...

انها تعرف هذا ، وتعرف أن كل ما قال عن حياة النساء هو الحقيقة المألوفة

المرّة ؛ ولذلك تحسُّ الآن مشاعرَ لطيفةٍ تضطرب في صدرها وتدبُّ ، وتدفىء قلبها بعطف غير معهود .

قطعت عليه الحديث متسائلة :

– وماذا تنوي أن تفعل ؟

فأجاب :

– أن أدرس أولاً ، ثم أعلِّم الآخرين . نحن ، العمال ، يجب أن ندرس ؛ يجب أن نفتش ونفهم أسباب العناء في حياتنا .

كانت سعيدة اذ ترى عينيه الزرقاوين ، وعهدها بهما صارمتين قاسيتين على الدوام ، تمتلآن الآن بنور ناعمٍ ، حلوٍ ، لطيف . تاهت بسمة هادئة على شفتيها، وان كانت الدموع لما تزل ترتجف في غضون وجنتيها . كان يتنازعها عاملان : شعور بالفخر بابنها الذي وعى ، بكل ذلك الوضوح ، مرارة الحياة؛ وادراكها أنه ما يزال شاباً ، وأنه يتكلم بصورة تختلف كثيراً عن سائر الآخرين ، وأنه أخذ على عاتقه أن يخوض المعركة وحيداً ضدّ هذه الحياة المألوفة لدى جميع الناس ، وهي منهم ...

وأرادت أن تقول له :

– ماذا تستطيع ان تفعل ، أنت وحدك ، يا حبيبي ؟

لكنها أشفقت أن تتلف اعجابها به ، هو الذي كشف ، بغتةً ، عن ذكاء لم تكن تنتظره منه ، وان يكُ مشوباً بكثير من غرابة الاطوار . ورأى بافل الابتسامة على شفتي أمه ، والانتباه في وجهها ، والمحبة في عينيها ، فبدا له أنه نجح في افهامها الحقيقة التي يدافع عنها ويذود ، واعتراه شعورٌ مستجدٌ بالاعتزاز بقوة كلماته رفع من ايمانه بنفسه . وانثال يتكلم بحماسة ، يبسم تارة ،

ويعبس تارة أخرى ، وترن كلماته في بعض الاحيان بكثير من الحقد ، فتجفل الام لدى سماعها هذه الكلمات القاسية الرنانة ، وتهز رأسها اذ تسأله بنعومة :

– أحقٌ ما تقول ، يا باشا ؟

فيجيب بثبات :

– نعم ، انه لكذلك !

ويشرع يحدثها عن أولئك الذين أرادوا مساعدة الشعب ، فزرعوا الحقيقة بين الناس ، الامر الذي لاحقهم من أجله أعداء الحياة كالوحوش المفترسة ، وألقوا بهم في ظلمات السجن ، وحكموا عليهم بعبودية الاشغال الشاقة .

صاح متحمّساً :

– لقد رأيت مثل هؤلاء الناس ، انهم ملح الارض !

وأجفلت ذعراً لدى التفكير بهؤلاء الناس ، ووّدت مرة أخرى أن تستوضح فتاها : هل الحقيقة ما يقول ؟ ولكنها لم تجرؤ على ذلك . أخدت تصغي ، منقطعة الانفاس ، الى أقاصيصه عن أناس لا تفهمهم ، هم الذين علموا ابنها أن يقول تلك الامور الخطرة ويفكر فيها .

وأخيراً قالت له :

– سينبلج الصبح عما قريب ، فهلّا أصبت بعض الراحة ؟

فوافق بقوله :

– سأذهب إلى الفراش الآن .

ثم انحنى عليها ، وسأل :

– أفهمتِ ما قلتُ ؟

فردّت ، وهي تتنهد :

– نعم !

وتدفقت الدموع من عينيها مرة أخرى ، وصاحت وهي تشهق :

– سيؤول ذلك بك الى الدمار ، يا بنيّ !

فنهض ، وطفق يتمشى في الغرفة جيئةً وروحةً ، ثم قال :

– حسناً ، أنت الآن تعلمين ما أفعل ؛ والى أين أذهب . لقد رويتُ لك كل شيء ، فان كنت تحبينني ، يا أماه ، فلا تعترضي سبيلي .

فهتفت :

– أواه ، يا عزيزي ، يا عزيزي . لربما كان من الافضل ألّا تروي لي شيئاً .

فأمسك بيدها وضغط عليها بحرارة ، فغمرها ذلك الاحساس الدافىء الفائضة به كلمة أماه ، المتجلي في ذلك الضغط الغريب غير المعتاد على يدها .

قالت بصوت متكسر :

– اني لن أفعل ما يسوءك ، إنما أطلب إليك أن تحترس لنفسك . إحترس جيداً .

ثم أضافت في كآبة ، دون ان تفهم ماهية الخطر الذي يهدّد ولدها :

– إنك تزداد نحولاً يوماً بعد يوم .

وأحاطت جسده القوي المتين بنظرة تطفح محبة وحناناً . . .

– فليكن الله معك ، وعشْ كما تجد مناسباً ان تعيش ! معاذ الله ان أقف في طريقك . بَيْد أني أسألك شيئاً واحداً فقط – لا تكُ متهوراً في حديثك مع الناس . ينبغي أن تحمل في نفسك الخوف منهم . إنهم يبغضون

بعضهم بعضاً ، ويعيشون جميعاً في الطمع ، والحسد ، والغيرة ، ويبتهجون إذ يُلحقون الاذى ببعضهم البعض . فاذا أخذت تكشف عن حقيقتهم وتتهمهم أبغضوك ودمروك .

وقف فتاها في فجوة الباب يستمع الى كلماتها الموجعة ، ثم تبسم عندما انتهت من حديثها وقال :

– إنك لعلى حق ، فالناس أشرار جميعاً ! لكني إذ علمت انّ في العالم شيئاً كالعدالة بدوا لي أفضل من ذي قبل .

وابتسم من جديد ، ثم أضاف :

– أنا نفسي لا أعرف كيف حدث ذلك . في طفولتي كنت أخاف من جميع الناس . ثم عندما شببتُ كنت أكرههم جميعاً ، أبغض البعض لدناءتهم والآخرين دون أن أدري لماذا ، هكذا لمجرد البغض . اما الآن ، فكل شيء يبدو لي غير ما كان عليه . لعلّ السبب في ذلك أني اشفق على الناس . لقد رقّ قلبي نوعاً ما عندما تحققت أن الناس جميعاً ليسوا بمسؤولين على حقارتهم ودناءتهم .

وكفّ عن الكلام ، وكأنه يصغي إلى صوت في داخله . ثم أضاف بهدوء وامعان نظر :

– تلك هي الحقيقة إذن .

فتنهدت أمه وقالت ، وهي تنظر إليه :

– أواه ، ايها المسيح المخلص ! اي تبدل خطير طرأ عليه !

وعندما استغرق في نومه ، نهضت من فراشها بهدوء وذهبت إليه . كان بافل مستلقياً على ظهره ووجهه الصارم الممتلىء عزماً ينعكس بوضوح على غطاء الوسادة الابيض . وقفت الام هناك حافية القدمين ، في ثياب النوم ، ويداها تضغطان على صدرها ، وشفتاها تتحركان دون ضوضاء ، ودموع كبيرة تتدحرج ببطء على جنتيها الذابلتين . . .

٥

ومرة ثانية ، عادا الى حياتها الصموت ، متباعدين متلاصقين في وقتٍ واحد
وذات يوم عطلة في منتصف الاسبوع ، التفت بافل الى أمه وهو يغادر البيت ،
وخاطبها قائلا :

– سيزورني ، نهار السبت القادم ، بعض الضيوف من المدينة .

فردّدت والدته :

– من المدينة ؟

وتملكها فجأة نشيج عنيف دفع بالدموع الى عينيها ...

سأل بافل متضايقاً :

– ما بالك ، يا أماه ؟

فمسحت عينيها بطرف مئزرها وقالت ، وهي تتنهد :

– لست أدري ... لا شيء البتة ...

– أخائفة أنت ؟

فتمتمت موافقة .

– نعم ...

فانحنى عليها ، وخاطبها بفظاظة كما تعوّد أبوه أن يفعل ، قائلاً :

– هـــذا الخوف هو دمارنا ، والذين يستثمروننا يستغلون هذا الخوف ويضاعفون في ذعرنا .

فغمغمت والدته ، والشقاء يرتجف مع ارتجفات صوتها :

– لا تغضب ! كيف يمكنني ألا أخـــاف ؟ لقد قضيت حياتي والخوف يعتصرني . ان روحي شبّت والخوف معاً .

فقال في لهجة عذبة :

إصفحي عني ، إنما ليس هناك من سبيل آخر .

وذهب ...

ظلت طوال ثلاثة أيام ترتعد فرقاً ، ويكفُّ قلبها عن الخفقان كلما تذكرت أنْ سيؤمُّ بيتها أولئك القوم الغرباء المخيفون الذين دلوا ابنها على الدرب التي يسير عليها الآن ...

ورجع بافل مساء السبت من المصنع ، فاغتسل وارتدى ثياباً نظيفة ، ثم خرج بعد ان قال لامه ، دون ان ينظر إليها :

– إن سأل عني أحد ، فقولي إني لن أتأخر عن العودة . ولا تجزعي محبة بالآلهة !

فتراخت في ضعفٍ على دكةٍ قريبة ؛ فاقترح بافل بعـــد أن اختلس منها نظرة سريعة :

– لعلك ترغبين في الذهاب الى مكانٍ ما ؟

فآلمتها كلماته ... وقالت :

– كلا ، ليس بي رغبة !

كان ذلك في أواخر تشرين الثاني ، وقد تساقط ثلج ناعم جاف ، طوال النهار ، على الارض المتجمدة التي أخذت تتكسر تحت أقدام الفتى المنصرف ، ليبلغ صوت فرقعتها سمع الام المتعذبة . وكان الظلام الشديد يخيم في الخارج ويتعلق باطارات النوافذ ، وكأنه يتربص منتظراً في تحفز وعداوة . وبقيت الام جالسة في مكانها ، تشد بكلتا يديها على الدكة الخشبية ، وعيناها ترقبان الباب لا تحيدان عنه .

خيل إليها أن أناساً أشراراً ، يرتدون ثياباً غريبة ، يخبون في الظلمة من كل جانب ، وأن خطوات متلصصة تحاصر المنزل ، وأصابع محاذرة تتحسس الجدران ...

وسمعت صوتاً يصفّر لحناً شرعت أصداؤه تنساب رقيقة في السكون ، حزينة متناسقة ، تتيه في الظلمة الفارغة وكأنها تسعى وراء شيء ضاع منها . وأخذ الصفير يزداد قرباً ، ثم انقطع بغتة عند النافذة تماماً ، وكأن خشب الحائط امتصّه عن آخره . وتردد عند الباب وقع اقدام مضطربة ... فأجفلت الأم ، وهبت على قدميها واقفة ، وقد ارتفع حاجباها بشدة .

وفُتح الباب ، وبدا فيه أولاً رأس تغطيه قبعة عريضة من الجلد ، ومن ثم خطا جسد مديد عبر الباب المنخفض الى داخل الغرفة ، وانتصب الشخص الدخيل ولوّح بذراعه اليمنى تحية ، وقال وهو يتنهد بشدة وضجيج :

– عمي مساء !

فانحنت الام دون أن تردّ جواباً ...

– هل بافل هنا ؟

وخلع الزائر ببطء سترته المصنوعة من الفرو ، ورفع إحدى رجليه ليمسح بقبعته عن حذائه ما علق به من الثلج ، وكرّر العمل نفسه بالرجل الثانية ، ثم

ألقى بقبعته في إحدى الزوايا ، وتقدم مترنحاً عبر الغرفة . وبعد أن تفحص بدقة أحد المقاعد ، وكأنه يتأكد من متانته ، جلس أخيراً وتثاءب وهو يستر فمه باحدى يديه . كان رأسه حسن الصورة ، مستدير الشكل ، ووجهه حليقاً باستثناء شاربـــه المسترسل الى المنتهى . طفق يتفحص الغرفة باعتناء بعينيه الواسعتين الرماديتين الجاحظتين ، ثم استفسر وهو يلفُّ ساقـــاً على ساق ، ويتأرجح إلى الأمام والخلف في مقعده :

– أهذا الكوخ ملككما ، ام تقطنانه بالأجرة ؟

فأجابت الأم من حيث جلست قبالته :

– بل بالاجرة !

– ليس هو بالمكان الجميل .

– سيأتي باشا عما قريب ، فانتظره قليلاً .

فردَّ الرجل الطويل :

– وهذا ما انا فاعله .

شجعها هدوءه ، وصوته الرقيق ، ومحياه البسيط . كانت نظرته صريحة تبعث على الارتياح ، وشرارات من المرح تسطع في أعماق عينيه الصافيتين . كان في طلعته المنحنية ، الذابلة ، المتطاولة الساقين ، شيء جذاب يتوجـه إلى القلب مباشرة . وكان يرتدي قميصاً أزرق ، وسراويل عريضة سوداء تنضم حول حذائيه . أرادت أن تسأله عن هويّته ، وعن المكان الذي قدم منه ، وعما إذا كان يعرف ابنها منذ زمن طويل ... ولكنه مال الى الامام ، على حين غرة ، وبدأ الحديث سائلاً :

– من الذي لطمك بكل هذا العنف على رأسك ، يا أميمة ؟

كان صوته لطيفاً ، وعيناه تضحكان دون خبث ، ومع ذلــك فقد جرح سؤاله شعورها .

سألته في أدب بارد ، من خلال شفتين منضمتين :

– وما شأنك في ذلك ، ايها الفتى ؟

فقال ، منحنياً في اتجاهها بكامل جسده :

– ليس هذا مما يسوءك ، يا أميمَة ! سألتك ذلك لان الام التي تبنتني كانت تحمل ندبة تشبه هذا الشبه كله . وكان الرجل الذي نعيش معه السبب في تلك الندبة ، إذ ضربها مرة بقالب الاحذية . لقد كان إسكافياً وكانت هي غسالة . ولقد التقطته في مكان ما – لسوء طالعها اللامتناهي هو العربيد الذي لا يصلح لشيء ، وكان ذلك بعد ان تبنتني . لشدّ ما كان يضربها ! كان جلدي يتشقق عندئذ خوفاً .

وجرّد هذا الاعتراف الام من سلاحها ، فبدأت تخاف غضبة بافـل إذا علم أنها أجابت الرجل الغريب بتلك الحدة . قالت ، وعلى شفتيها ابتسامة مذنبة :

– لم يسؤني ذلك حقاً . ولكنك سألتني ذلك بصورة مفاجئـة باغتني . ليس زوجي الذي ترك لي هذه الندبـة ، أسكنه الله جنان ملكوتـه . ألست تترياً ؟

هزّ الرجل ساقيه ، وانفجر ضاحكاً حتى بدت نواجـذه ، ولاحت اذناه وقد تراجعتا إلى الخلف . لكنه سرعان ما استرد جدّه ورزانته :

– كلا ! لم اصبح كذلك بعد !

فقالت الام مبتسمة ، وقد ادركت النكتة :

– إن في حديثك رطانة غير روسية .

قال الضيف ضاحكاً :

– إن لهجتي أفضل من اللغة الروسية . أنا أوكراني من مدينة كانييف .

– وأنت هنا منذ زمن طويل ؟

فقال ، وهو يفتل شاربيه :

– لقد عشت في المدينة سنة أو أكثر . ثم جئت المصنع هنا منذ شهر تقريباً . ثمة قوم طيبون ههنا ، ابنك ، وبعض الآخرين أيضاً . أعتقد أني سأبقى هنا طويلاً .

أحبته ، وأرادت أن تكافئه بطريقة ما من أجل تلك الكلمات التي قالها عن ابنها . فسألته :

– لعلك ترغب في تناول كأس من الشاي ؟

فأجاب ، وهو يهز كتفيه :

– ولم أتناوله وحدي ؟ انتظري حتى يأتي الباقون ، وعندئذ تكرميننا جميعاً .

فذكرتها كلماته بمخاوفها ... قالت في نفسها :

– لو أن الباقين يماثلونه لطفاً فقط .

وعلا من جديد وقع أقدام عند مدخل الدار ، وفتح الباب بسرعة ، فهبت الام مرة أخرى على قدميها ، ولشدّ ما كانت دهشتها عظيمة عندما رأت فتاة في ميعة الصبا تدخل المطبخ . كانت الفتاة اقرب الى القصر ، ذات وجه مسطح كوجوه الفلاحين ، وقد جمعت شعرها الاشقر في جديلة واحدة كثيفة . سألت في لهجة عذبة :

– هل تأخرتُ ؟

فأجاب الاوكراني ، متطلعاً من خلال الباب :

– كلا لم تتأخري . أجئت ماشية طوال الطريق ؟

– طبعاً : هـل أنتِ أمّ بافـل ميخائيلوفيتش ؟ عمي مساء ، اسمي ناتاشـا .

فسألتها الام :

– ولقبك ؟

– فاسيليفنا . وأنت ما اسمك ؟

– بيلاجيا نيلوفنا .

– وهكذا ، فقد تعارفنا الآن ؟

فقالت الام ، وهي تتنهد بلطف وتبتسم للفتاة :

– نعم !

وسأل الاوكراني ، وهو يساعد الفتاة على خلع معطفها :

– أكان الطقس بارداً ؟

– لاذع عبر الحقول ... يا لها من ريح عصوف !

كان صوتها غنياً صافياً ، وفمها صغيراً ، وشفتاها ممتلئتين ، وقامتها قصيرة مستديرة ، حيّة كالخوخة الناضجة . وبعد أن خلعت معطفها ، راحت تدلك خديها المورّدين بيدين صغيرتين محمرتين بتأثير الصقيـع ، ثم دخلت عَجْلى إلى الغرفة الثانية وهي تضرب الارض بشدة بنعلي حذائها .

همست الام لنفسها :

إنها لا تلبس جزمة .

وقالت الفتاة ، وهي ترتجف :

– بر – ر – ر ... أنتما لا تتصوران كم أنا متجمدة !

فصاحت الام ، وهي تسرع الى المطبخ :

– لحظة واحدة وأهيىء السماور ، لحظة واحدة فقط .

كان يخيل لها أنها تعرف هذه الفتاة منذ زمن طويل، وأنها تحبها بكل عطف الام الرؤوم وحنانها . كانت مسرورة لمرآها، وكذلك ارتاحت نفسها عندما فكرت في عيني الضيف الزرقاوين اللطيفين . وراحت تبتسم ، وهي تصغي الى الحديث في الغرفة المجاورة ...

قالت الفتاة :

– ما الذي يحزنك ، يا نوخادكا ؟

فأجاب الاوكراني في هدوء :

– لا شيء على التعيين ! إن للأرملة عينين رائعتين ، وكنت أفكر أن عيني أمي ربما كانتا مثلها أيضاً . إني كثيراً ما أفكر بأمي ، فيخيل إليّ أنها يجب أن تكون على قيد الحياة .

– ولكنك رويتَ لي أنها ماتت ؟

– تلك حاضنتي التي ماتت ، وأنا أتحدث عن أمي الحقيقية . لا ريب أنها تستعطي الآن في مكان ما على أرصفة كييف ، وتشرب الفودكا ، والشرطة تلطمها على وجهها كلما شربت وثملت ...

وفكرت الام ، وهي تتنهد :

– يا للصبي المسكين !

وقالت ناتاشا ، في عجلة ، شيئاً رقيقاً مؤثراً ، فعاد صوت الاوكراني يتردد من جديد :

– إنك ما زلت طفلة ، ولم تجتازي الكثير من التجارب بعد . إن ولادة إنسان في العالم أمر صعب للغاية ، والاصعب من ذلك أيضاً تعليمه ان يكون شريفاً .

– يا لها من حقيقة !

هتفت الام بذلك في نفسها ، وأحست بدافع يحدوها لان تقول للأوكراني شيئاً لطيفاً . لكن الباب انفتح على غير انتظار ، ودخل منه نيقولاي فيزوفشيكوف ، ابن اللص القديم دانيلتّو . وكان نيقولاي مشهوراً في المؤسسة بجفوته الناس ، وانعزاله عنهم ، واعتباره إياهم جميعاً وضعاء منحطّين .

سألته الام في دهشة :

– ماذا تريد ، يا نيقولاي ؟

فقال دون أن يحيّيها ، وهو يمسح وجهه العريض المجدور براحة يده :

– هل بافل هنا ؟

– كلا !

فألقى نظرة الى الغرفة ، ثم دخلها وقال :

– مساء الخير ، أيها الرفاق !

وفكرت الام في استهجان :

– أهو أيضاً منهم ؟

وازداد عجبها عندما رأت ناتاشا تقدم إليه يدها، وكأنها سعيدة برؤيته ...

وتبع نيقولاي اثنان آخران يكادان أن يكونا صبيين عرفت الام أحدهما ، وهو فتى قاسي القسمات ، مجعد الشعر ، عريض الجبهة ، يدعى فيودور ، وهو

ابن أخ سيزوف ، المعلم المساعد في المصنع . أمـــا الثاني فكان خجولاً ذا شعر صقيل يكاد أن يلتصق برأسه ؛ لم تكن تعرفه ، لكن لم يكن فيه مـــا يبعث على الذعر .

وأخيراً ظهر بافل ، يصحبه عاملان شابان لم يكونا مجهولين عندها .

قال بافل بلطف :

– هل هيأت السماور ؟ شكراً جزيلاً .

فسألته ، وهي لا تدري كيف تعبر عن امتنانها لشيء غامض غير محدود :

أأشتري شيئاً من الفودكا ؟

فقال بافل ، وهو يبتسم بحنان كثير :

– كلا ، فلن نحتاج الى ذلك !

وخطر لها ، بغتة ، أن ابنها قد بالغ في وصف خطورة هذا الاجتماع حتى يضحك منها ، فسألته برقة :

– اهؤلاء هم الناس الخطرون ؟

فأجاب بافل ، وهو يتسلل الى الغرفة المجاورة :

– هم أنفسهم !

فصاحت الام خلفه :

– إنك لا تعني ذلك حقاً ؟

ثم فكرت في تواضع :

– إنه لمـّا يزل صبياً !

٦

عندما أصبح السماور جاهزاً ، حملته الام الى الغرفة المجـــاورة حيث تجمهر الضيوف ، جلوساً حول المائدة ، الا ناتاشا التي قعـدت في الزاوية تحت المصباح وبين يديها كتاب صغير . كانت تقول :

كي نفهم السبب في قذارة حياة الناس ...

فأضاف الاوكراني مقاطعاً :

– والسبب في أنهم ، هم أيضاً ، قذرون حتى هذه الدرجة ...

– لا بد من إلقاء نظرة على أصول حياتهم ...

فقالت الام وهي تصبُّ الشاي :

– أنظروا يا أعزائي ، أنظروا في ذلك جيداً !

فصمت الجميع ...

سأل بافل ، وقد زوى ما بين حاجبيه :

– ما الامر ، يا أماه ؟

– ما الامر ؟

تلفتت حواليها ، فرأت الجميع يتطلعون اليها بثبات ، فغمغمت باضطراب :

– أواه ! كنت أحدث نفسي ، وأفكر فيما يمنعكم من إلقاء نظرة ...

فضحكت ناتاشا ، وابتسم بافل في شاربيه ، وقال الاوكراني :

– شكراً من أجل الشاي ، يا أُميمة .

– يفضل ان تفوه بشكرك بعد ان تتذوقه .

ثم أضافت ، وهي تصرو الى ولدها :

– هل يزعجكم وجودي ؟

فأسرعت ناتاشا تجيبها :

– وكيف يمكن ان يزعج وجود المضيفة ضيوفها . لكن ، يا إلهي ، لو انك تسرعين فقط وتعطينني بعض الشاي الساخن ، ان سائر أعضائي ترتجف ، وقدميّ قد تجمدتا حتى أصبحتا كالجليد .

كان صوتها شاكياً ، وكأنها طفلة صغيرة ، فهتفت الام بسرعة :

حالاً ، حالاً !

وعندما انتهت ناتاشا من تناول الشاي ، صعّدت زفرة عميقة ، وألقت ضفيرتها الكثّة عن كتفيها ، ثم أخذت تقرأ في الكتاب ذي الغلاف الاصفر المزّين بالرسوم . وراحت الام تصب الشاي وتستمع إليها ، وهي تحاول ألا تثير – اثناء ذلك – أدنى ضجة على الاطلاق . كان صوت الفتاة الرنان يمتزج بهمهمة السماور المتأملة ؛ فيما ينتشر عبر الغرفة ، نسيج رائع من الاقاصيص المحدّثة عن بشرٍ متوحشين كانوا يقطنون يوماً الكهوف ويصطادون بالحجارة ... وكان ذلك كله يتردّد كاحدى سير الجنّ ، والام تسترقُ النظر دون انقطاع الى ابنها ، تشاء ان تسأله كيف يمكن ان تكون مثل هذه المعرفة ممنوعة محرّمة . وسرعان ما تعبت من الاستماع الى المطالعة فراحت تدرس ضيوفها بنظراتٍ مختلسةٍ حتى لا ينتبه أحد منهم ، أو ينتبه ابنها ، الى ذلك .

كان بافـل يجلس الى جانب ناتاشا ، وكان أجمل الحاضرين طلعةً . وكانت

ناتاشا ، المنكبّة فوق الكتاب ، تدفع من وقت لآخر خصلات الشعر المنزلقة على صدغيها . وكانت تتفوه بين الفينة والفينة ، وهي تهز رأسها وتخفض صوتها ، بملاحظاتٍ من عندها ؛ فتكفُّ عندئذ عن النظر الى الكتاب ، وتأخذ تتطلع الى الوجوه المحيطة بها في كثيرٍ من الحنان والعطف . وكان الاوكراني ، المتكىء على احدى جوانب المائدة ، ينظر الى أرنبة أنفه ، ساعياً الى رؤية طرفي شاربه الذي يفتله بين اصابعه . وكان فيزوفشيكوف يقعد على كرسيه مستقيماً كالعصا ، ويداه تدلكان ركبتيه ، ووجهه المجدور ، العديم الحاجبين ، الدقيق الشفتين ، خالٍ كالقناع من كلّ تعبير . وكان لا يحيد بناظريه عن صورته المنعكسة على نحاس السماور اللمّاع دون ان يرفّ جفناه مطلقاً ، لا بل كان يؤتى للناظر إليه انه لا يتنفس ايضاً . وكان فيدور الصغير يصغي الى القراءة ، ويحرك شفتيه دون ضجة وكأنه يردّد كلمات الكتاب لنفسه ؛ بينما جلس رفيقه منحنياً بكل جسده ومرفقاه يستندان الى ركبتيه ، وخداه يعتمدان راحتيه ، وابتسامة مفكرة تتيه على شفتيه . وكان احد الشابين اللذين جاءا مع بافل احمر الشعر مجعَّده ، ذا عينين خضراوين مرحتين ، لا ينقطع عن الحركة فوق مقعده ، وكأنه يريد ان يقول شيئاً ؛ اما الشاب الآخر ، وهو ذو شعر اشقر مقصوص ، فلا يفتأ يداعب رأسه بيده وهو مطرق يشخص الى الارض ، بحيث لم تستطع الام رؤية وجهه أبداً . واحست الام شيئاً غير مألوف لديها مطلقاً ، وتذكرت من وراء صوت ناتاشا أمسيات صباها الصاخبة ، وحديث الشباب القذر ومداعباتهم السمجة ، هؤلاء الشباب الذين كانت تفوح من أنفاسهم رائحة الفودكا دائماً . وعندما تذكرتهم ، انقبض قلبها أسفاً لحياتها واشفاقاً على نفسها .

وتذكَّرت كيف خُطبتْ لزوجها ... ، لقد أمسك بها في احدى تلك الامسيات في الممرّ المظلم ، وضغط جسدها على الجدار بعزم ، وسألها بصوت خشن أجشّ :

— اتريدين الزواج مني ؟

وقد آذاهـا ذلك وجرح كرامتها ، بَيْدَ انه استمر يضغط على ثدييها بأصابعه الغليظة ، وينفخ انفاسه الحارة الرطبة في وجهها .

سعت جاهـدت للافلات منه فلم تنجح الا في الاستدارة جانباً ، فزجر قائـلاً :

– الى اين تذهبين ؟ أعطيني جواباً اولاً !

ولم ينضّ مرشفاها شيئاً ، وقد انقطعت انفاسها ألماً وحياءً ...

وقال :

– كفاكِ دلالاً ، ايتها الغبية ! إني اعرفك ، انا اعرفكن جميعاً ؛ فأنتِ الآن ، في صميمِ قلبكِ ، مسرورة للغاية .

وفتح احدهم باب الممرّ ، فأفلتها من قبضته ببطء ، وقال :

– سوف أرسل خاطباً يوم الاحد المقبل ...

ولقد فعل ...

اغلقت الام عينيها ، وصعّدت زفرة حرّى ، بينا ارتفـع صوت فيزوفشيكوف محتجاً :

– اريد ان اعرف كيف يجب ان يعيش الناس ، لا كيف كانوا في الماضي يعيشون .

فقال الفتى الاحمر الرأس ، وهو ينهض :

– ذلك صحيح !

فهتف فيودور يقول :

– إنني لا أوافقكما على ذلك .

وتبع ذلك نقاش حامي الوطيس اتّقدت الكلمات فيه كألسنة النيران الواهرة الملتهبة . ولم تفهم الام مبعث صراخهم ، وان وجدت ان احداً منهم لم يفقد زمام نفسه أو يلجأ الى تلك الكلمات البذيئة التي اعتادت سماعها على الدوام ، هذا بالرغم من ان وجوه الجميع احمرّت حدةً وهياجاً .

قالت في تعليل ذلك :

— ان وجود الفتاة بينهم يكبح جماحهم .

وَحَلَتْ لها سيماء الرزانة التي تعلو وجه ناتاشا ، وهي تراقب الجميع بانتباه، وكأنها تجد هؤلاء الفتيان أطفالاً صغاراً ليس غير .

صاحت أخيراً ، على حين فجأة :

— انتظروا لحظة ، ايها الرفاق .

فخيم الصمت على الجميع ، وراحوا يتطلعون اليها ...

— ان من يقولون منكم ان واجبنا ان نعرف كل شيء هم على حق، ذلك انه ينبغي ان نشعل نبراس المعرفة في انفسنا حتى يشعّ على أولئك الذين اظلمت عقولهم وغمرهم الجهل بظله الممقوت. يجب ان نملك جواباً صحيحاً شريفاً لكل شيء . يجب ان نعرف كل الحقيقة ، ونتبيّن كل البهتان ...

كان الأوكراني يصغي وهو يهزّ رأسه بتوافق مع كلماتها، اما فيزوفشيكوف، والاحمر الرأس ، وأحد الشابين اللذين جاءا في رفقة بافل ، فقد شكلوا فريقاً واحداً . ولسبب ما استاءت الام منهم ...

وعندما انتهت ناتاشا من الكلام ، نهض بافل وقال في هدوء تام ، وهو ينظر الى الثلاثة معاً :

— أهي معدة ممتلئة فقط ما نسعى إليه ؟ ابداً ! لا شيء من هذا القبيل ! يجب ان نبين لاولئك الذين يركبون ظهورنا ، وَيضَعون العصابة في ذات الوقت

على عيوننا ، اننا نرى كل شيء . نحن لسنا بأغبياء ، وكذلك لسنا بحيوانات لا تطلب الا معدة ممتلئة . نحن نريد ان نعيش حياة جديرة بكائنات بشرية . يجب ان نبرهن لاعدائنا ان حياة العبودية التي ألجمونا بها لا تمنعنا ان نكون مساوين لهم فكرياً ، لا بل متفوقين عليهم ايضاً .

كان شعور من الفخر والاعتزاز يجتاح صدر الام اذ تسمع الى هذه الكلمات . حقاً ، ما اجمل حديثه !

وقال الاوكراني :

- ثمة عدد غفير من الناس يجدون كفافهم من الطعام ، لكن الاخيار بينهم قلّة . يتوجب علينا ان نبني جسراً فوق مستنقعات هذه الحياة العرجاء يقودنا الى مملكة الاخوّة الانسانية المقبلة ، ذلك هو الواجب الذي يواجهنا ، أيها الرفاق .

فاعترض فيزوفشيكوف بفظاظة :

- ما دامت ساعة القتال قد حلّت ، فما جدوى القعود مكتوفي الايدي اذن ؟

ولم ينفرط عقد الاجتماع إلا بعد منتصف الليل . فسبق فيزوفشيكوف والاحمر الشعر الباقين في مغادرة المكان ، الامر الذي استاءت منه الام ايضاً .

فقالت في نفسها ، وهي تنحني لهما في شيء من الجفاء :

- لشدّ ما انتما مسرعان !

وسألت ناتاشا :

- هل تصحبني الى المنزل ، يا ناخودكا ؟

فأجاب الاوكراني :

- طبعاً ، وهل في ذلك من ريب ؟

وقالت الام تخاطب ناتاشا المرتدية ثيابها في المطبخ :

– ان جواربك رقيقة جداً بالنسبة لهذا الطقس البارد ، لعلك لا تمانعين في ان اشتغل لك زوجاً من الجوارب الصوفية ؟

– شكراً لك ، يا بيلاجيا نيلوفنا . انما الجوارب الصوفية مثار للحكة .

فقالت الام :

– ولكني سأنسجها لك من نوعٍ لا يثير الحكة .

فنظرت اليها ناتاشا من خلال اهدابها بثبات احسّت الام تجاهه ببعض الارتباك ، فأسرعت تضيف بهدوء :

– يجب ان تغفري لي حماقتي ، ولكني قلت ذلك من اعماق قلبي .

فأجابت ناتاشا بهدوء مماثل ، وهي تضغط يد الام بحماسة :

– يا لك من امرأة طيّبة !

وقال الاوكراني ، وهو ينظر في عينيها وينحني ليعبر الباب خلف ناتاشا :

– طابت ليلتك ، يا أُميمة !

نظرت الام الى ابنها . . . كان يقف على عتبة الباب يبتسم ، فسألته في ارتباك :

– ما الذي تضحك منه ؟

– هكذا ، فرحاً !

فردّت حانقة :

– قد اكون عجوزاً حمقاء ، انما استطيع بعد ان افهم جيداً .

فقال :

– عظيم هذا ! لكن ، يحسن بك ان تذهبي الى الفراش ، فلقد مضى من الليل اكثره .

– اني في طريقي اليه ...

وراحت تدور حول المائدة ترفع عنها الصحون والاقداح ، وهي سعيدة جداً حتى ضاقت أنفاسها من شدة السعادة . كانت مغتبطة اذ كان كل شيء جميلاً ، وانتهى بخير وسلام ...

قالت :

– لقد صنعت حسناً، يا باشا ، بدعوتهم . ان الاوكراني لطيف جداً ، واما الفتاة ... فيا لها من شيء صغير ، لطيف ، حبيب ! .. من هي ؟

فأجاب بافل باقتضاب ، وهو يسير في الغرفة جيئة وذهوباً :

– انها معلمة !

– لا ريبة أنها فقيرة جداً ، فلباسها سيىء للغاية ، وهي لا تحتاط لنفسها من البرد . أين هم أهلها ؟

– في موسكو .

قال بافل ذلك ، ثم وقف قبالة والدته ، وقال لها برقة وشيء كثير من الرزانة :

– ان والدها غني جداً ، وهو مساهم في شركة الفولاذ ويملك عدة أبنية ، ولكنه طردها لانها اختارت هذه الطريق في الحياة . لقد شبت في الدفء ورغد العيش ، واعتادت الحصول على كل ما ترغب فيه ، أما الآن فهي تمشي سبعة فراسخ ، في الليل ، وحدها دون رفيق ...

شُدِهَتْ الام لهذا الخبر ، فوقفت في وسط الغرفة تنظر الى ابنها وجفناها يرفّان ثم سألته بهدوء :

– هل غدَتْ الآن الى المدينة ؟

– نعم !

– يا الله ، وهي ليست خائفة ؟

فضحك بافل وأجاب :

– تستطيعين ان تتأكدي ، من تلقاء نفسك ، كونها ليست خائفة .

ولكن لماذا ؟ كان يمكن ان تقضي الليل هنا ، فتنام معي ...

– هذا شيء غير مرغوب فيه ، فقد تراها العيون في الصباح هنا ، وذلك ما لا نريد .

فشخصت أمه من خلال النافذة ، غارقة في لجة من التفكير ، ثم قالت بصوت خفيض :

– بافل ، اني لا أفهم ما في ذلك من ... خطر ، ومن ... ممنوع ... انكم لم تفعلوا شيئاً مؤذياً ، أليس كذلك ؟

لم تكن واثقة تماماً من ذلك ، فكانت تسعى وراء تأكيد فتاها له .

تفحّصها بافل بانتباه ، ثم أجاب بثبات :

– اننا لا نرتكب خطأً على الاطلاق ، ومع ذلك فاننا جميعاً سنستقر في غياهب السجن يوماً ما ، يجب ان تعلمي ذلك .

فبدأت يداها ترتعشان ، ثم سألته بصوت مختنق :

– ربما ، بارادة الله ، ستفلتون من ذلك بطريقة ما ؟

فأجابها في لطف :

– كلا ! لست أريد خداعك ، فليس من ذلك مفرّ .

وابتسم ...

– اذهبي الى الفراش الآن ، فأنت منهوكة القوى . طابت ليلتك ...

وعندما أصبحت وحيدة ، توجهت الى النافذة ، وأخذت تنظر الى الخارج ... كان كل شيء ما وراء النافذة بارداً مغطىً بالسحب . وكانت ريح صرصر تنفخ الثلج عن سطوح المنازل الصغيرة الناعسة ؛ وتصطدم بالجدران ، وتهمس بشيء ما وهي غضبى ، ثم تنحدر حتى الارض لتثير عاصفة من ندف الثلج الجافة تملأ الشارع بها .

همست الام في رقة وسكينة :

– كن رحوماً بنا ، أيها الحبيب يسوع !

كانت الدموع تزدحم في قلبها ، وتوقـُّع الكارثة التي تحدَّث عنها ابنها بكل تلك الثقة يرفرف في صدرها كفراشة تحت جنح الظلام . وخيل اليها أنها ترى أمامها سهلاً مغموراً بالثلج تهبُّ فوقه ريح بيضاء خافقة ، وتعصف به وهي تعول بحدة وعنف . وثمة شبح صغير أسود لفتاة تترنح في وسط السهل ... كانت الريح تلتف حول ساقيها ، وترفع ثيابها ، وتصفع وجهها بالثلج القارص ، وهي تتقدم بصعوبة ، وقدماها الصغيرتان تغوصان في الاوحال . وكان البرد لاذعاً ، والظلام مخيماً ، وجسدها يتقوص الى الامام مثل عرق وحيد من العشب ينحني تحت تأثير نفحات ريح الخريف ، وجدار الغابة يرتفع في المستنقعات الى يمينها حيث تتهامس اشجار البتولا الناحلة والحور المعراة بيأس قاتل ؛ وهناك ، من بعيد جداً ، كانت أنوار المدينة تتلألأ ...

همست الام ، وهي ترتعد خوفاً وفرقاً :

– أيها المخلص الحبيب ، ارفق بها !

٧

وتعاقبت الايام ، الواحد تلو الآخر ، مثل حبات المسبحة تشيّد الاسابيع والشهور ... وفي كل يوم سبت ، كان اصدقاء بافل يجتمعون في داره ، وكل اجتماع يمثل خطوة جديدة في الطريق الطويلة الصاعدة التي يرتفع عليها الشعب نحو هدف بعيد ...

وانضم اناس آخرون الى رفاقه القدماء حتى ضاقت بهم الغرفة الصغيرة في منزل آل فلاسوف . وثابرت ناتاشا على الحضور منهوكة ، متجمدة ، لكنهـا مرحة ابداً . ونسجت لها ام بافل زوجاً من الجوارب وضعتها ، هي نفسها ، في قدمي الفتاة الصغيرتين ، فضحكت ناتاشا في البدء ، ثم عـادت بغتة هادئة جادة ، وقالت بصوت مخفوض :

– كان لي ، ذات يوم ، ممرضة كانت هي الاخرى لطيفة بصورة مدهشة . ما اغرب ذلك ، يا بيلاجيا نيلوفنا ! ان الشعب العامل يرزح تحت نير حيـاة قاسية ذليلة ، ومع ذلك فهو ألطف من اولئك ...

وكانت تعني قوماً بعيدين كل البعد عنها ...

قالت بيلاجيا :

– وانت ايضاً ، يا لك فتاة لطيفة محرومة من اهلك وجميع ...

وتنهدت ، ولاذت بالصمت عاجزة عن التعبـير عن افكارها . وعندمـا

نظرت في وجـه ناتاشا ، احست من جديد ذلـك الشعور من الامتنان لشيء غامض غير محدود ... وجلست على الارض قبالتها ، بينما كانت الفتاة تبتسم ، مفكرة ، مطرقة الرأس .

ردّدت :

– محرومة من اهـلي ؟ ذلك ليس بذي بال . ان والدي انسان قاس ، وكذلك أخي . وهو سكير ايضاً . وأختي البكر تعيسة الحياة ، اذ تزوجت رجـلاً يكبرها بعدة سنين ، كثير الثراء ، لكنه وضيع ومقتر جـداً . واني لآسف من اجـل والدتي . انها امرأة بسيطة مثلي ، هزيلة كالفأرة ، سريعة الركض كالفأرة ايضاً ، تخاف من كل شيء ... واني لأريد في بعض الاحيان ، بصورة مخيفة ، ان أراها ... .

فقالت الام ، وهي تهز رأسها بكآبة :

– يا لك من مسكينة !

ورمت الفتاة بسرعة رأسها الى الخلف ، ومدت يدها كمن تدفع شيئاً مـا بعيداً عنها :

– أوه ، كلا ! اني أكون فرحة جداً في بعض الاحيان ، سعيدة حتى الحدّ الأقصى .

واصفرّ وجهها ، واتقدت عيناها الزرقاوان ، وقالت بصوت خفيض مؤثر ، واضعة يديها على كتفي الام :

– لو أنك تعلمين ، لو كنت تستطيعين فقط ان تفهمي عظمة الغاية التي نعمل لها !

فمسّ قلب بيلاجيا فلاسوف شيء يقرب من الحسد كثيراً ؛ وقالت بكآبة ، وهي تنهض عن الارض :

– اني عجوز لا أصلح لمثل ذلك ، وأميّة بالاضافة اليه ... .

... أصبح بافل يتكلم اكثر فأكثر ، يتكلم زمناً طويلاً بحماسة أعظم من ذي قبل ، وهو يزداد نحولاً دون انقطاع . وصوّر لامه ان نظرته ترقُّ ، وصوته يصبح ألطف ، ويجمل مظهره أبسط اذ ينظر الى ناتاشا او يتحدث معها .

فكرّت :

– أرجو ان يكون الامر كذلك باذن الله !

وابتسمت ... .

وفي كل مرة يحتد النقاش بينهم أثناء اجتماعاتهم ، كان الاوكراني ينهض ناهضاً ، ويقف هناك يتأرجح الى الامام والخلف مثل مطرقة الناقوس ، وهو يتفوه بكلمات قليلة ، لطيفة ، بسيطة ، سرعان ما تعيد الهدوء الى الجميع ...

وكان فيزوفشيكوف متجهماً ابداً ، يحث الآخرين دائماً على إتيان هذا الشيء او ذاك . فيبدأ ، هو او الاحمر الرأس الذي كانوا ينادونه صموئيلوف ، كل المجادلات يعضدهما فيما يذهبان اليه إيفان بوكتين الكبير الرأس الذي يبدو كمن اغتسل في ماء قلويٍّ حتى لم يبق عليه شعرة واحدة . ولم يكن ياكوف سيموف ، النظيف الثياب ، الحليق الوجه ، يتكلم إلا قليلاً ؛ فان فعلَ فبِـوَقارٍ جمّ ... وكان هو وفيودور مازين ذو الجبين العريض يدعمان بافل والاوكراني في سائر المناقشات ...

وفي بعض الاحيان كان نيقولاي إيفانوفيتش ، وهو رجل يحمل نظارتين ولحية شقراء قصيرة ، يحتل مكان ناتاشا . ولقد ولد نيقولاي هذا في إحدى المقاطعات النائية ، الامر الذي يتضح من لكنته في لفظ بعض الاحرف ، وخاصة أل التعريف . وكان يأتي وحيداً بصورة عامة . فيتحدث عن أبسط

الامور ، عن الحياة العائلية والاطفال ، عن السوق والشرطة ، عن ثمن الخبز والطعام ، وعن سائر تلك الاشياء الخاصة بحياة الشعب اليومية . ولكنه كان يفعل ذلك بأسلوب خاص، بحيث يكشف كل ما فيها من بهتان منافٍ للمعقول، وما فيها من بلاهة ومدعاة للهزء والسخرية ، لكن مضر بالجماهير ملحقٍ بها الاذى . كان يخيل للأم انه جاء من بعد سحيق، من واقعٍ مختلف، حيث يعيش الجميع حياة ميسورة شريفة . وكان كل شيء هنا غريباً عليه ، فلا يستطيع ان يعتاد هذه الحياة فيقبلها كأمر محتوم لا مفرّ منه . انه يكرهها ، فيثير فيه هذا البغض رغبة هادئة دائبة في تبديلها . كان وجهه مصفراً ، تحيط عينيه خطوط دقيقة . وكان صوته ناعماً ، ويداه دافئتين ابداً . وكان يضم مجموع يد بيلاجيا فلاسوف بين أصابعه كلما صافحها ، فتحس على الدوام الهدوء والراحة لمثل هذه التحية .

كانت وجوه اخرى من المدينة تظهر في هذه الاجتماعات ، ومن بينها فتاة طويلة ، ناحلة القدّ ، ذات عينين واسعتين ووجه شاحب ، تدعى ساشا . وكان في حركاتها وطريقتها في السير شيء خليق بالرجال ، فهي تعقد ما بين حاجبيها الكثيفين السوداوين بصرامة ، بينما يرتجف الجناحان الرقيقان لانفها المستقيم عندما تتحدث . كانت هي اول من أعلن ، ذات يوم ، في صوت جاف قاسي النبرات :

ــ نحن ... اشتراكيون !

وعندما سمعت الام هذا شخصت الى الفتاة في ذعرٍ ساكن . فلقد بلغها ، ذات يوم ، ان الاشتراكيين اغتالوا القيصر . وكان ذلك في ايام صباها عندما هبّ الملاكون يريدون ، كما تقول الرواية ، ان ينتقموا لانفسهم من القيصر الذي حرّر عبيدهم ، وأقسموا ان يقصوا شعورهم حتى يقتلوه ، فلقبوا بالاشتراكيين لهذا السبب . اما الآن ، فان بيلاجيا لا تستطيع ان تفهم لماذا يسمي ابنها وأصدقاؤه انفسهم بالاشتراكيين .

وعندما انصرف الجميع ، اقتربت من ابنها وسألته :

— هل انت اشتراكي ، يا باشا ؟

فقال ، وهو يقف تجاهها قوياً متين البنيان :

— نعم ! لماذا تسألين ؟

فتنهدت ، وأسبلت اجفانها ...

— أصحيح ذلك ، يا بنيّ ؟ ولكنهم ... ضد القيصر ، لا بل انهم قتلوا احد القياصرة ايضاً .

فأخذ بافل يذرع الغرفة جيئة وذهوباً ، وهو يداعب خدّه بيده . ثم قال ، بعد ضحكة قصيرة :

— نحن لسنا في حاجة الى ارتكاب مثل هذه الامور .

ثم تحدث إليها طويلاً ، بصوت هادىء رزين ... وفكرت ، وهي تنظر في وجهه :

— انه لن يرتكب إثماً ابداً ! انه لا يستطيع ذلك .

وتكررت بعد ذلك الكلمة المخوف على مسمعها مراراً وتكراراً حتى نعمت شفرتها الحادة ، واعتادت أذنها على سماعها ، كما اعتادت على سماع عشرات من الكلمات الاخرى غير المفهومة . ولكنها لم تحب ساشا ، بل كانت تشعر بالاضطراب والانقباض في حضرتها .

تحدثت عنها ذات يوم الى الاوكراني ، وهي تضم شفتيها باستياء :

— يا لها من فظة . لا تنفك تصدر الاوامر للجميع . انت يجب ان تفعل هذا ، وانت يجب ان تفعل ذاك .

فقهقه الاوكراني ضاحكاً ، وقال :

– لقد أصبتِ المرمى . حسناً ، لقد أصبت الحقيقة في كبدها ، يا أميمة ! ما رأيك في هذا ، يا بافل ؟

والتفت اليه ، وغمز بعينه مشيراً الى الام ، ثم اضاف :

– ذلك هو النبل بعينه !

وقال بافل بجفاء :

– انها لفتاة رائعة !

فوافق الاوكراني بقوله :

– صحيح جداً . ولكن ثمة شيئاً واحداً لا نفهمه . ان كل شيء بالنسبة اليها « يجب » ، أما بالنسبة الينا فهو « يمكن » و « لا بدّ منه » ...

كانا يتجادلان في اشياء غير مفهومة ...

ولاحظت الام ايضاً ان ساشا تعامل بافل بصراحة ودقة اكثر من الباقين ، حتى لتصيح في وجهه احياناً . وعندئذ لا يقول بافل شيئاً، بل يضحك، وينظر في وجه الفتاة بتلك النظرة الرقيقة التي كان يخص بها ناتاشا من قبل . وذلك أساء الى الام ايضاً ...

كانت بيلاجيا تطرب احياناً لذلك المرح المفاجىء الذي يأخذهم جميعاً على حين غرة ، الامر الذي يجري عادة في تلك الامسيات حيث يقرؤون ما تحمل الصحف من اخبار حركة العمال في الخارج . كانت اعين الجميع تشع عندئذ فرحاً ، فيصبحون جميعاً سعداء بشكل غريب صبياني ، يضحكون جميعاً ضحكتهم النقية الصافية ، وكل منهم يربت بعطف على كتف الآخر . ويصيح احدهم وكأنه ثمل بخمرة الغبطة :

– مرحى لرفاقنا الالمان !

وصاحوا في مرة اخرى :

– عاش العمّال الايطاليون !

وكان يبدو عليهم ، وهم يرسلون تلك الصيحات البعيدة الى اصدقاء بعيدين عنهم ، مجهولين منهم ، لا يستطيعون فهم لغتهم ، أنهم واثقون من سماع أولئك الناس المجهولين لهم ، وفهمهم مبعث غبطتهم وفرحهم .

قال الاوكراني ، وعيناه تطفحان بنور محبة تحتضن العالم بأسره :

– ينبغي ان نكتب اليهم حتى يعلموا ان لهم اصدقاء يعيشون هنا في روسيا ، ويؤمنون بذات عقيدتهم ويعملون لها ، ويحيون من اجل الهدف ذاته ، ويفرحون بانتصاراتهم .

كانوا يتكلمون ، والابتسام يعلو شفاههم ، عن الفرنسيين والبريطانيين والسويديين كما لو كانوا اصدقاء لهم ، وأناساً اعزاء على قلوبهم يحترمونهم ويقاسمونهم افراحهم وآلامهم .

في تلك الغرفة الصغيرة ولد شعور بالقربى الروحية مع عمال العالم أجمع . وكان هذا الشعور يؤثر في الام نفسها ، ويصهرهم جميعاً في روح واحدة عظيمة . وبالرغم من عدم ادراكها لذلك الشعور ، فقد كان يستهويها بقوته الفتية المسكرة ، وببهجته ، وبالامل النابض فيه .

قالت للأوكراني ذات مرة :

– إني لاعجب لكم . كل الناس لكم رفاق ، اليهود والارمن والنمسويون . وأنتم سعيدون او حزينون من أجلهم جميعاً .

فصاح الاوكراني :

– من أجلهم جميعاً ، يا أميمة ، جميعاً دون استثناء . نحن لا نعرف فرقاً وأمماً ... بل نعرف رفاقاً فحسب ، وأعداء فحسب . سائر العمال رفاق لنا ، وجميع الحكومات والاغنياء أعداؤنا . عندما تلقين بصرك على الارض ، وترين

ما أكثر عددنا نحن العمال ، وما اعظم قوانا ، يجتاحك فرح لا حدود له ، ويرقص العيد في قلبك . ان الفرنسي والالماني يحسّان ذات الشعور عندما يريان الحياة ، وكذلك الايطالي ، يا أميمة . نحن جميعاً ابناء أم واحدة ، وتلك هي عقيدة أخوّة العمال في العالم اجمع ، العقيدة التي لا تُغلب . وان تلك الفكرة لتدفىء قلوبنا . انها الشمس تشعّ في سماء عادلة وتلك السماء هي في قلب الانسان العامل . ان الاشتراكي ، كائناً من كان ، وبأي اسم يدعى ، هو أخ لنا في الروح حتى آخر الزمن : البارحة ، واليوم ، والى الابد ! ...

كان ذلك الايمان الصبياني المتين يتجلى اكثر فأكثر بينهم ويزداد علواً، وهو ينمو بقوة جبارة عاتية . عندما كانت الام تنظر اليه ، كانت تحسّ ، بصورة خارجة عن ارادتها ، ان العالم قد اكتسب – في الحقيقة شيئاً عظيماً حسناً كالشمس التي تنظر اليها بذات عينيها .

وكثيراً ما كانوا يغنون ، فينشدون بأصوات عالية سعيدة تلك الاغاني البسيطة التي يعرفها الناس جميعاً . ولكنهم كانوا ينشدون ، احياناً ، اغاني جديدة جدية في تناسق جميل، لكن بلحن غير معهود . كانوا ينشدونها بأصوات خفيضة وكأنهم يرتلون في الكنيسة ، فتحمر وجوه المغنين وتشحب ، فيما قوة هائلة تنبض في الكلمات القوية الرنانة .

وكانت احدى تلك الاغاني الجديدة تزعج الام بصورة خاصة ، فهي لم تكن تفصح عن الآمال الموجعة التي تحسها نفس جريحة تهيم خلال شعاب الارتياب والقلق ، ولا كانت تعكس شكاوى المخلوقات المسحوقة بوطأة الفاقة والخوف ، الفاقدة لكل شكل او لون او كيان ، ولا كان يسمع فيها ذلك الانين المفجع الصادر عن قوى عمياء تتلمّس لها مكاناً رحباً ، ولا تلك الصيحات المتحدية المفعمة بجرأة غير هيّابة ، المستعدة لان تلقي بنفسها في الخير والشر على السواء . لم يكن يتردّد في تلك الاغنية ذلك الشعور المبهم بالاذى والتعطش للانتقام ،

القادر على تدمير كل شيء والعاجز عن بناء أي شيء ؛ ولا كان في تلك الاغنية شيء من العالم السلافي القديم البالي .

لم تستمرىء الام كلمات تلك الاغنية القاسية ولحنها الجاف ، ولكن شيئاً اعظم من الكلمات واللحن كان يختبيء وراء حداء اللحن والكلمات فيجرّها معاً ويثير في القلب احساساً بشيء لا يمكن للفكر ان يحتويه . كانت ترى هذا الشيء في أعين الفتيان ووجوههم ، وتحسّ انه يعيش ضمن صدورهم ، فتستسلم لقوة اكبر من ان تنحصر في اية كلمات او لحن . وكانت تصغي على الدوام الى هذه الاغنية بانتباه اكبر وتأثر اعمق من سواها . فهم ينشدونها بعذوبة تفوق رقة الاغنيات الاخرى ، لكن صداها يتردّد مع ذلك بقوة اكبر ويغمر القوم كأحد ألحان يوم آذار ، اليوم الاول من الربيع المقترب . . . .

وكان فيزوفشيكوف يقول في جفوة :

– لقد آن الوقت لكي ننشد هذه الاغنية في الشوارع خارجاً !

وعندما ألقي ابوه في السجن ، مرة اخرى جزاء سرقته الاخيرة ، قال فيزوفشيكوف لرفاقه :

– نستطيع الآن ان نجتمع في داري .

وفي كل مساء تقريباً ، كان احد اصدقاء بافل يرد البيت معه بعد العمل ، فيقرآن ويسجلان بعض الملاحظات ، وهما على عجلة من امرهما ينسيان معها ان يغتسلا . وكانا يتناولان العشاء ويحتسيان الشاي والكتب بين ايديهما ، وقد اضحى حديثهما يزداد صعوبة ، يوماً بعد يوم ، على مفاهيم الام . وكثيراً ما كان بافل يقول :

– نحن في حاجة الى صحيفة . . .

وازدادت حمى الحياة وعجلتها ، وأصبح القوم يسرعون الخطا وينتقلون بخفة من كتاب الى آخر كأسراب النحل تذهب من زهرة الى زهرة .

قال فيزوفشيكوف :

– لقد بدأوا يتحدثون عنا ، وسيشرعون عن قريب بملاحقتنا .

فلاحظ الاوكراني قائلاً :

– لقد خُلقت الاسماك لتقع في الشبكة !

كانت الام تزداد تعلقاً به يوماً بعد يوم ، وكان يخيل اليها – كلما ناداها يا أميمة – ان يد طفل ناعمة تمسح على خدها . وكان الاوكراني يقتطع الحطب يوم الاحد اذا كان بافل مشغولاً . وفي ذات يوم جاءها وهو يحمل لوحاً كبيراً من الخشب على كتفه ، ثم اخذ الفأس وصنع – بسرعة واتقان – عتبة للباب بدل العتبة المهترئة . وفي مرة اخرى اصلح السور دون ان يحسّ به احد . وكان يصفر على الدوام بنغم حزين حبيب اثناء عمله .

قالت لابنها ذات يوم :

– فلنأخذ الاوكراني جاراً لنا ، ذلك افضل لكما ، فلا يحتاج احدكما لان يركض الى بيت الآخر دائماً .

فأجاب بافل ، وهو يهز كتفيه :

– ولماذا تحمّلين نفسك عناء جديداً ؟

– هراء ! لقد عانيت الكثير طوال حياتي بدون سبب معقول . فلأتحمل الآن بعض العناء من اجل رجل طيب مثله .

فقال الابن :

– فليكن ما تقولين . وسأكون سعيداً اذا جاء .

وهكذا انتقل الاوكراني الى دارهما . . .

٨

بدأ البيت الصغير القائم في أقصى الضاحية يلفت الانظار ويثير الفضول ... فعشرات من الاعين الظانة ظنّ السوء تتفحص جدرانه بعناية كبيرة ، وأجنحة الشائعات القذرة تحوم في اضطراب حوله ، والناس يسعون جاهدين لاكتشاف ذلك الامر الخفيّ الذي أحسوه مختبئاً وراء حيطان المنزل المنتصب على شفا المنحدر . وفي بعض الاحيان كانوا يتلصصون ليلاً من خلال النوافذ او يقرعون الزجاج ، ثم يولون الادبار فزعاً دون تأخر . وفي ذات يوم ، اعترض سبيل بيلاجيا في طريقها الى السوق صاحب الحانة بيكونتسوف ، وهو رجل عجوز جميل المحيّا ، يرتدي دائماً وشاحاً قرمزي اللون ، وتحيط ربطة عنق حريرية سوداء عنقه المترهّل باستمرار . وكان أنفه المدبب البرّاق مركوباً ، في كل الاوقات ، بنظارتين صنع اطارهما من عظم السلحفاة ، الامر الذي أكسبه لقب « ذي العيون العظمية » .

صبّ على الام وابلاً من الكلمات الجافة المتكسرة دون ان يستريح ليتنفس او يتلقى جواباً .... .

قال لها :

– كيف حالك ، يا بيلاحيا نيلوفنا ، وكيف حال ابنك ؟ انه لا يفكر في الزواج ، أليس كذلك ؟ ومع هذا ، فهو في سن موافقة للتأهـل فيما أعتقد . ان الاولاد ، كلما تزوجوا باكراً ، خففوا عن والديهم العناء والمشقة . والانسان

يكسب جسداً وروحاً في جوّ العائلة ، مثله مثل الفطر في اناء للخل . لو كنت مكانك لزوّجته واسترحت ، فالايام الحاضرة تتطلّب عيناً ساهرة تراقب تصرفات المرء ، وقد أخذ الناس يعيشون حسب هواهم فيخلطون في التفكير ، ويتحررون في العمل حتى استحقوا منا اللوم والعتاب . ان الفتيان لم يعودوا يؤمون كنائس الله او يقتربون من الاماكن العامة ، بل هم ينتحون الزوايا المظلمة ليتهامسوا بأسرارهم. وما الذي يدعوهم الى التذمر؟ بودي معرفة ذلك! وما الذي يدفعهم لتحاشي الناس ؟ وما الذي يخاف المرء ان يقوله امام الناس علانية ؟.. في الحانة مثلاً ! أسرار !.. ان المكان الوحيد للأسرار هو كنيستنا الرسولية المقدسة . وكل الاسرار الاخرى المحاكة في الخفاء هي وليدة الشذوذ والاختلاط العقلي . اتمنى لك صحة جيدة ، يا بيلاجيا نيلوفنا .

ورفع قبعته بطريقة ذات مغزى ، ولوّح بها في الهواء ، ثم انصرف تاركاً الام في خضم من البلبلة والحيرة ... ولاقتها في السوق ، ذات يوم آخر ، جارتها ماريا كورنوزوفا ، وهي أرملة حداد تكسب عيشها ببيع الطعام عند بوابة المعمل . قالت لها :

– انتبهي لولدك هذا ، يا بيلاجيا .

فسألت الام :

– ماذا تعنين ؟

فأسرّت لها ماريا بصوت خفي :

– ان الشائعات تتردّد ، وهي شائعات سيئة وربّي . يقولون انه يؤلف جمعية سرية كجمعية « الخليستي » [1] . وهم يسمونها شيعة ، ويقولون انهم سيأخذون ، عما قريب ، يجلدون بعضهم بعضاً مثل الخليستي تماماً .

---

١ – كلمة روسية مشتقة من السوط ، أطلقت على فرقة دينية كان اعضاؤها يعذبون بعضها بعضاً بالجلد المبرح . (المترجان)

– كفى هراء يا ماريا !

فقالت البائعة المتجولة :

– لا نار بدون دخان . . . .

قصّت الام هذه الاحاديث على ابنها ، فاكتفى بهزّ كتفيه ، بينما طفق الاوكراني يضحك ضحكته العميقة الناعمة .

قالت الام :

– والفتيات حانقات أيضاً . فأنتم فتيان رائعون تصلحون للزواج واكثر . تعملون دون كلل ولا تسكرون ، ومع ذلك فلا تعيرونهن انتباهاً ، وهن يقلن إن فتيات ذوات سمعة مريبة يأتين لزيارتكم من المدينة .

فقال بافل ، وقد عبس استياءً واشمئزازاً :

– أوه طبعاً .

وقال الاوكراني ، مصعِداً تنهِدة عميقة :

كل إناء بما فيه ينضح . وانك لتفعلين حسناً ، يا أميمة اذا أوضحت لهؤلاء الفتيات الصغيرات ما هي الحياة الزوجية . وعندئذٍ لا يتسرعن على هذه الصورة وراء خلع رقابهن .

فقالت الام :

– يا الله انهم يرين كل شيء بوضوح ، ويفهمن جيداً . ولكن ، أية أمور أخرى مخبأة لهن ؟

وقال بافل :

– اذا كن يفهمن فليسعن وراء سبيل للخلاص .

وتطلعت الام الى وجهه القاسي ، وقالت :

– ولماذا لا تعلمونهن ؟ أدعوا أكثرهن ذكاء ليأتين الى هنا !

فقال الابن بجفاء .

– ذلك لن يفيد شيئاً .

فسأل الاوكراني :

– وماذا لو جرّبنا ؟

فصمت بافل قليلاً قبل ان يجيب :

– وعندئذ يشرعون بالخروج من هنا اثنين اثنين ، ولا يلبث البعض ان يتزوجوا ، ويكون ذلك خاتمة المطاف ...

فاستغرقت الام في التفكير ...

كان تقشف بافل الرهباني يحيّرها ، فهي ترى ان الجميع ، حتى الرفاق الذين يكبرونه سناً ، كالاوكراني مثلاً ، يأخذون التوجيه منه . انما خيل اليها أنهم يخافونه أيضاً ، وان أحداً منهم لا يحبه بسبب صرامته هذه .

وفي ذات مساء ، بعد ان سعت الى فراشها وتركت ابنها والاوكراني يقرآن استطاعت ان تسمع ، من خلال الحاجز الخشبي الرقيق ، ما يدور بينهما من حديث خافت .

هتف الاوكراني على حين غرة :

– إني أحب ناتاشا هذه .

فأجاب بافل بعد لحظة صمت :

– أنا أعرف ذلك !

وسمعت الاوكراني ينهض ببطء ويذرع الغرفة حافي القدمين . ثم أخذ بصفّر بنعومة واهمال ، وعاد يقول مرة أخرى :

اني لاتساءل عما اذا كانت قد لاحظت ذلك !

فلم يحر بافل جواباً ...

خفض الاوكراني صوته ، وعاد يسأل :

– ما رأيك في الامر ؟

– لقد لاحظتُ ذلك ، وهذا ما دعاها الى الامتناع عن المجيء الى هنا .

فجرّ الاوكراني قدمه بشدة على الارض ، وعاد يصفر صفيراً خفيتاً .

سأل :

– ماذا لو صارحتها ؟

– تصارحها بماذا ؟

– أصارحها ... اني ...

قال الاوكراني ذلك بصوت مخفوض ، بَيْد أن بافل قاطعه قائلاً :

– وما الذي يدعوك الى ذلك ؟

فسمعت الام الاوكراني يتوقف عن المسير . وخيل اليها أنه يبتسم ...

– أعتقد أنك اذا احببت فتاة فلا بدّ أن تصارحها بعواطفك ، وإلا فأية فائدة تُرجى منها ؟

فأغلق بافل الكتاب بشدة ، وسأل :

– وماذا تنتظر ان ينتج عن ذلك ؟

سكت كلاهما لحظة طويلة ، واخيراً سأل الاوكراني :

– حسناً !

فقال بافل ببطء :

– ينبغي عليك ، يا اندريه ، أن تُمعن النظر جيداً فيما تريد ، فلنفرض أنها تحبك – وانا ارتاب في ذلك – وانك تزوجت منها . يا للصفقة الجميلة ! هي مثقفة ... وانت رجل عامل ... ويأتي الاولاد فتضطر ان تتحمل وحدك عبأهم ومسؤوليتهم ... وإن ذلك يتطلب جهداً كثيراً . وستصبح الحياة نيراً ثقيلاً في سبيل رغيف من الخبز ، في سبيل الاطفال واجرة البيت ، وعندئذ تخسر كلا القضية معاً .

خيم السكون برهة على الغرفة ، ثم عاد بافل الى الحديث ، لكن صوته كان اعذب هذه المرة :

– من الافضل ، يا اندريه ، ان تدع هذا جانباً ولا تثقل عليها .

– ومع ذلك ، فقد كان نيقولاي ايفانوفيتش يبشّر دائماً بأن الحياة يجب ان تكون مستكملة القوى الجسدية والروحية ... أتذكر ذلك ؟

– نعم ، ولكن ذلك محرّم علينا . اتستطيع انت ان تبلغ الكمال ؟ ذلك لم يخلق لك يا اندريه ، فالمرء عندما يهوي المستقبل ويعيش له ، يتوجب عليه ان يتنازل عن كل شيء حاضر . عن كل شيء يا اخي !

فأجاب الاوكراني بصوت مختنق :

– ولكن ذلك مؤلم .

– كل شيء كذلك الآن . أمعن النظر .

وخيّم الصمت من جديد ، إلا رقاص الساعة الذي يدق الثواني بوضوح رنان .

وقال الاوكراني :

– نصف قلبي يُحبُّ ، والنصف الآخر يُبغض ، أتسمي هذا قلباً ؟

وعلا حفيف تصفُّح اوراق الكتاب . لا ريب ان بافل قد عاد يقرأ من جديد .

استلقت الام ، مغمضة العينين ، لا تجرؤ أن تتنفس ، وهي تتألم من صميم قلبها من اجل الاوكراني . وكان إشفاقها على ابنها أعظم . فكرت :

– يا حبيبي المسكين ! يا ايها الشهيد ! يا أيها الضحية !

وعلى حين فجأة ، انفجر الاوكراني قائلاً :

– وهكذا ، فأنت تعتقد أن عليّ الاعتصام بالصمت ؟

فأجاب بافل بهدوء :

– ذلك اشرف ما يمكن ان نفعل !

– ذلك ما سنفعله اذن .

وأضاف الاوكراني ، بعد ثوان قليلة ، في رقة وكآبة :

– سيكون ذلك كثير القسوة ، يا بافل ، عندما تقع بدورك فيه .

– انه قاسٍ منذ الآن !

ونفخت الريح على جدران المنزل ، وثابر الرقاص على تسجيل مرور الزمن بدقة وأمانة ...

قال الاوكراني بتمهل :

– هذا ليس هزلاً ، أليس كذلك ؟

فطمرت الام وجهها بين الوسائد وراحت تبكي دون أن تثير ادنى ضجيج ...

وفي الصباح ، خيل اليها ان اندريه قد تقلص حجمه وأصبح ادعى الى العطف والمحبة ، اما ابنها فكان مثله أبداً ، مستقيم العود ، نحيلاً ، صامتاً ...

كانت تنادي الاوكراني ، حتى ذلك الحين ، اندريه او نيزيموفيتش ، اما اليوم فتوجهت اليه دون قصد منها :

– أندريوشا ، يفضل ان ترمّم حذائيك وإلا أصابك منها برد .

فأجاب ضاحكاً :

– سأشتري زوجاً جديداً يوم الدفع المقبل .

ثم القى بذراعه الطويل حول كتفها ، وقال :

– لربما كنت أمي الحقيقية بعد كل هذا ، ولكنك ترفضين الاعتراف بذلك لشدة قبحي ، أليس كذلك ؟

فربتت على يده دون ان تجيب . كان بودها ان تقول اشياء كثيرة لطيفة ، ولكن قلبها كان منقبضاً شفقة واسىً ، والكلمات ترفض ان تغادر شفتيها ...

٩

أخذ الناس في الضاحية يتحدثون عن الاشتراكيين الذين يوزعون مناشير مخطوطة بالحبر الازرق ، تنتقد بشدة وعنف ادارة المعمل ، وتتحدث عن ضرابات في بطرسبرغ ، وفي جنوب الروسيا ، وتدعو العمال الى الاتحاد في الدفاع عن مصالحهم الخاصة .

وغضب الكهول الذين كانوا يكسبون أرباحاً جزيلة من المعمل، واستشاطوا غيظاً ، وشرعوا يقولون :

– انهم مشاغبون ، ويجب ان تحطم أفواههم لمثل هذه الامور .

وحملوا المناشير الى رؤسائهم ... .

اما الفتيان فقرأوها في حماسة وقالوا :

إنهم يقولون كل الحقيقة !

لكن اكثرية العمال لم يتحمسوا لتلك المناشير كثيراً . كان العمل المنهك قد أرهقهم وامتص قواهم . قالوا :

– لن يجدي ذلك فتيلاً ، فهل يمكن ان تنقذنا مثل هذه الاشياء ؟

ومع ذلك فقد أحدثت المناشير اضطراباً وهياجاً عظيمين ، وعندما انصرم أسبوع دون ان يصدر منها شيء جديد ، أخذ العمال يدمدمون بينهم وبين أنفسهم :

– يبدو أنهم أقلعوا عن الاستمرار فيها !

بيـــد أن مناشير جديدة ظهرت ، على أية حال ، يوم الاثنين اللاحق ، فشرع العمال يتهامسون مرة أخرى ويلغطون ...

وظهر في المعمل ، وفي الحانة ، أشخاص لا يعرفهم أحد ؛ وكان هؤلاء الناس لا ينفكون يراقبون ما يجري حولهم ، ويطرحون الاسئلة ، ويدسّون أنوفهم في أمور الجميع على حدّ سواء ، فيثيرون الارتياب ، بحذرهم الشديد المبالغ فيه ، او بأسلوبهم في فرض انفسهم على الناس .

وأدركت الام ان كل هذا الهيجان وليد اعمال ابنها ورأت كيف يتألب الناس حوله ، فأخذ القلق على سلامته يساورها ممزوجاً بالاعتزاز والفخر .

وفي ذات مساء ، قرعت ماريا كورنوزوفا نافذة آل فلاسوف ، وقالت في همس مرتفع اذ فتحت الام النافذة :

– حاذري يا بيلاجيا ، انهم آتون الليلة لتحرّي منزلك ، وكذلك سيفتشون دارَيْ آل مازين وآل فيزوفشيكوف ....

واصطفقت شفتا ماريا الغليظتان بسرعة ، ثم شخرت من خلال أنفها الكبير وتنهدت وهي تختلس النظر يميناً وشمالاً ، وكأنها تبحث عن شخص مـــا في الشارع ، وقالت :

– وأنا لا أعرف شيئاً ، ولم أروِ لك شيئاً ، ولم أرك هذا النهار ... أسمعت؟

ثم اختفت .

وتهاودت بيلاجيا ، بعدما أغلقت النافذة ، خائرة القوى متخاذلة على أحد المقاعد ، غير ان نذير الخطر الذي يهدّد ابنها ما لبث ان أهاب بها ، فنهضت في الحال ، وارتدت ثيابها بسرعة ، وغطت رأسها بوشاح ، ثم خرجت تعدو في اتجاه دار فيودور مازين . كان مريضاً ، فلم يذهب الى العمـل ذلك النهار ...

واذ دخلت وجدته جالساً الى النافذة يطالع كتاباً ، وهو يعنى بيده اليمنى التي كان إبهامها مرتخياً بشكلٍ غـــير طبيعي . شحب لونه لدى سماعه الاخبار الجديدة ، ثم قفز واقفاً على قدميه وهو يتمتم :

– انها وربّي تحية رائعة !

وسألت بيلاجيا ، وهي تمسح العرق عن جبينها بيدٍ مرتجفة :

– ما العمل الآن ؟

فردّ فيودور ، وهو يدفع شعره الى الخلف بيده السليمة :

– انتظري لحظة ، ولا تجزعي !

– لكنك مذعور انت الآخر !

فاحمرّت وجنتاه ، وهتف :

– أنا ؟

ثم ابتسم مدركاً حالته ، وقال :

– نعم يا للشيطان ! يجب ان نُعْلِمَ بافل بذلك . وسأرسل اليه من يخبره . أما انت فارجعي الى الدار ولا تقلقي . انهم لن يقتلونا ، أليس كذلك ؟

وعندما بلغت الدار جمعت سائر الكتب ثم راحت تطوف في البيت ، وهي تضمها الى صدرها ، تنظر الى الموقد تارة ، وما تحت الموقد تارة أخرى ، وحتى في برميل المياه أحياناً ، وتخيّلت ان بافل سيعود حالاً من المعمل ، انمـــا لم يفعل . . . وأخيراً جلست ، منهوكة القوى ، على دكة في المطبخ والكتب تحتها وبقيت هناك طويلاً ، لا تجرؤ على الحركة ، حتى رجع بافل والاوكراني الى الدار .

صاحت ، لدن رؤيتها لهما :

– هل تعرفان ؟

فأجاب بافل :

– نعم ، اننا نعرف . هل أنت خائفة ؟

– اني خائفة ، خائفة جداً !

فقال الاوكراني :

– يجب ألا تخافي . ذلك لا يفيد شيئاً .

ولاحظ بافل :

– انها لم تهيء السماور ايضاً !

فقالت الام بلهجة المذنب ، وهي تنهض وتشير الى الكتب :

– نعم ، بسبب هذه .

فانفجر الابن والاوكراني ضاحكَيْن، الامر الذي سكّن من روعها قليلاً . وانتقى بافل بعض الكتب ، وذهب بها الى الفناء الخارجي ليخفيها . . . .

– قال الاوكراني ، وهو يشعل النار تحت السماور :

– ليس ثمة ما تخافين منه ، يا أميمة . لكن من المخجل حقاً ان يضيّع الناس وقتهم في مثل هذه السخافات . . . ان رجالاً بالغين ، قد تحضّروا السيوف ولبسوا المهاميز في أرجلهم ، سيأتون الى هنا ، وينبشون كل شيء . وسينظرون تحت السرير ، وتحت الموقد ، وينزلون الى القبو ان كان في دارك قبو ، ويصعدون الى السقيفة ، والى السطح ، وستعلق خيوط العناكب في وجوههم ، وسينفخون في أنوفهم اشمئزازاً ، وسيتضايقون ، ويخجلون ، وبسبب من ذلك سيتظاهرون بأنهم شرسون غاضبون، لانهم يدركون تماماً تنانة مهنتهم وهوانها.

ولقد شعروا بالضيـــق الشديد ، ذات مرة ، وهم يهاجمون أشيائي حتى انهم تركوا كل شيء وانصرفوا ... وفي مرة اخرى أخذوني معهم وألقوا بي في السجن ، وتركوني هناك طوال اربعة شهور ... وانت لا تفعلين شيئاً في السجن تجلسين ، وتظلين هكذا جالسة على الدوام . ثم تأتيـــك مذكرة إحضار الى المحكمة ، فيقتادك الجنود خلال الشوارع ، ويشرع قاض كبير يوجّه اليك بعض الاسئلة . ان القضاة ليسوا بأذكياء دائماً ، بل هم يثرثرون كثيراً ، ثم يأمرون الجنود بالعودة بك الى السجن . وهكذا يتقاذفونك ذهاباً واياباً مدة طويلة ... فلا بدّ لهم ، على أية حال ، ان يفعلوا شيئاً كي يكسبوا أجورهم وأخيراً ، في هذا العدو الذي لا ينتهي ، يطلقون لك الحرية ... وهذا كل شيء ...

هتفت الام به ، مكتئبة حزينة :

– يا له من أسلوب في الحديث ، يا أندريوشا !

فرفع وجهه الاحمر حيث كان جاثياً ينفخ النار في السماور وسألها ، وهو يفتل شاربيه :

– ما باله ؟

– كأن أحداً لم يؤذك أبداً !

فأعلن مبتسماً ، وهو ينهض ويهز رأسه :

– أفي أية بقعة من العالم نفس لم ينلها الأذى ؟ لقد آذوني كثيراً حتى لم أعد ألاحظ ذلك مطلقاً . ما عساك تفعلين ما دام الناس قد جُبلوا هكذا ؟ ان ملاحظتك الأذى لا تفعل الا اعتراض سبيلك ، وانه لمضيعة للوقت ان تفكري فيما يؤذيك . هكذا هي الحياة ! كنت أجنّ فيما قبل ، وأحنق على الناس ، ثم وجدت ذلك لا يجدي فتيلاً ، ورأيت الامر لا يستحق ان يغضب المرء له . ان

كل انسان يخاف مبادهة جاره له ، ولذلك يحاول ان يتغدّى جاره قبل ان يتعشّاه هذا ... وهكذا هي الحياة ، أميمة !

كانت كلماته تتدفق برفق فتطرد بعيداً مخاوفها من التفتيش المقبل ، وكانت عيناه الجاحظتان تبتسمان ... ألفَتَـهُ خفيف الحركة بالرغم من عدم رشاقته .

وتنهدت الام ، ثم نبرت بحرارة :

– جعل الله حياتك سعيدة ، يا أندريوشا !

فسعى الاوكراني الى السماور من جديد ، وأكبّ امامه مرة أخرى، وتمتم :

– لو اني وهبتُ قليلاً من السعادة لما رفضتها ، ولكني لن استجديها أبداً .

ورجع بافل من الفناء ، وقال بثقةٍ وهو يبدأ حمّامه :

– انهم لن يجدوها بتاتاً .

ثم التفت الى أمه ، وهو ينشّف يديه ، وخاطبها بقوله :

– إن ظهرتِ لهم خائفة ، فسيفكرون عندئذ على هذا المنوال : لا بدّ أن يكون في هذا البيت شيء يجعلها ترتجف هكذا ! أنت تعلمين أننا لا نرتكب شراً وان العدالة في جانبنا ، وسنعمل طوال حياتنا من اجل هذه العدالة، وتلك هي جريمتنا الوحيدة ، فلماذا تخافين اذن ؟

فقطعت على نفسها عهداً :

– سأمسك زمام نفسي ، يا باشا !

ولكنّها ما لبثت ، في اللحظة التالية ، ان انفجرت تبكي بصورة مؤثرة أسيفة ...

– لو أنهم يسرعون فقط ، وينهون الامر في أقرب وقت ! ...

لم يأتوا ذلك المساء ... وفي الصباح قطعت الام على الشابين طريق السخرية منها ، اذ كانت السابقة الى الضحك من نفسها .

قالت :

– لقد جزعت قبل ان يحين وقت الجزع !

١٠

جاؤوا بعد شهر تقريباً من ذلك المساء المقلق... كان نيقولاي فيزوفشيكوف قد قدم لرؤية بافل وأندريه ... واستغرق ثلاثتهم في جدالٍ يتعلق بالجريدة . وكان الليل قد جثم ، والام سعت الى فراشها ، تسمع وهي تغفو أصواتهم الهادئة القلقة . ثم نهض اندريه ، واجتاز أرض المطبخ متلصّصاً ، وأجاف الباب خلفه . وعلا في الدهليز ضجيجُ دلو يتدحرج ، ثم فُتِحَ الباب بعزم واندفع الاوكراني منه الى المطبخ وهامساً بصوت عالٍ :

– ان المهاميز تجعجع في الشارع !

فوثبت الام من فراشها ، واختطفت ثيابها بيدينِ مرتعشتين ؛ وظهر بافل في مدخل الباب ، وهمهم بهدوء :

– عودي الى فراشك ، فأنتِ ... لستِ على ما يرام .

وسُمِعَ في الرواق الخارجي حفيف أقدام محاذرة متأنية ، فدنا بافل من الباب ، وفتحه بعزم وهو يقول :

– من هناك ؟

وظهر في الحال شخص طويل القامة ، ومن خلفه شخص آخر ، فيما دفع اثنان من رجال الدرك بافل الى الخلف ، ووقف كل منهما على احد جانبيه . وارتفع صوت خشن ساخر يقول :

— لسنا من كنتم تنتظرون ، أليس كذلك ؟

كان المتكلم ضابطاً فارع القامة ، نحيل العود ، ذا شاربين أسودين مائلين الى الشقرة . واتجه احد رجال شرطة الموقع ، واسمه فيدياكين ، نحو سرير الام ، وجمجم وهو يلمس قبعته باحدى يديه ، ويشير بالأخرى الى وجه بيلاجيا :

— تلك هي أمه ، يا صاحب السعادة .

ثم أضاف ، مشيراً الى بافل :

— وهذا هو !

فاستوضح الضابط ، وهو يضيّق فرجة عينيه :

— بافل فلاسوف ؟

فأومأ بافل إيجاباً ...

وتابع الضابط ، وهو يفتل شاربيه :

— لديّ أمرٌ بتحرّي بيتك . انهضي ايتها المرأة ، من يوجد هناك ؟

وألقى نظرة من خلال الباب ، ثم دخل الغرفة المجاورة حيث جلجل صوته يقول :

— ما اسمك ؟

وظهر شاهدان عند عتبة الباب... كان أحدهما السبّاك العجوز تفيرياكوف ، والآخر واقد النار ريبين ، وهو رجل ثقيل الجثة ، أسمر الوجه ، يستأجر غرفة في دار تفيرياكوف . حيّا الام بصوت أجش خفيض :

— عمي مساء ، يا نيلوفنا !

أما هي فكانت تردّد لنفسها دون انقطاع ، وهي ترتدي ثيابها ، مستحثة شجاعتها وجلَدَها :

– أبداً لم أسمع بمثل هذا الامر ، كيف يأتون في منتصف الليل هكذا ، والناس نيام ؟ ثم هم يدخلون الدار ايضاً .

ازدحمت الغرفة ، وفاحت بقوةٍ من أرجائها ، لسببٍ ما ، رائحة شمع الأحذية . وكان دركيان ورئيس شرطة المخفر المحلي يتناولون الكتب من فوق الرفوف بصخب وضجيج ، ويرميان بها على المنضدة امام الضابط ، فيما دركيان آخران يضربان على الجدران بقبضات أيديهما ، ويفتشان تحت المقاعد ، لا بل تسلق أحدهما الموقد في جهد عظيم . وكان الاوكراني وفيزوفشيكوف يقفان جنباً الى جنب في احدى الزوايا ، وقد امتلأ وجه نيقولاي المجدور بلطخات حمر ، وهو يرمق بعينيه الصغيرتين الرماديتين وجه ذلك الضابط ، ولا يحيد بهما عنه . ووقف الاوكراني يفتـــل شاربيه حتى اذا دخلت الام الغرفة أرسل ضحكة قصيرة ، وهزّ رأسه لها مشجعاً .

ولكي تتغلب الام على خوفها وجزعها ، لم تَمِلْ الى احد الجانبين كعادتها دائماً ، بل مشت منتصبة القامة ، مرتفعة الصدر ، الامر الذي اغدق على هيئتها مظهر عظمةٍ وأبهةٍ مضحكتين . وراحت تدب على الارض بتحدٍّ صاخب ، إلا ان حاجبيها كانا يرتجفان .

كان الضابط يختطف الكتب بأصابع يده البيضاء الصغيرة ، ويقلب صفحاتها بسرعة ، ثم يلقيها جانباً بجفاء وقوة ، فيتساقط بعضهـــا على الارض دون ان تحدث ضجيجاً . وكان الجميع سكوتاً ، والاصداء الوحيدة المترددة هي لهث الشرطة المتصببين عرقاً ، وقرقعة مهاميزهم ، وبعض أسئلتهم الطارئة :

– أفتشتَ هنا ؟

واستندت الام الى الحائط بالقرب من ولدها بافل ، وذراعاها متشابكتان كذراعيه ، وعيناها تلاحقان كل حركات الشرطة وسكناتهم ، وهي تحس ضعفاً شديداً يتسلط على ركبتيها ، وغشاوة مظلمة جافة تستر عينيها .

وارتفع صوت نيقولاي الحاد ، فجأة ، يرعد وسط ذلك السكون :

– لماذا تلقون الكتب على الارض ؟

فوجمت الام ... وانتفض رأس تفيرياكوف وكأن أحـــدهم دفعه بعزم ، وزمجر ريبين رامياً نيقولاي بنظرة ثابتة .

ضيّق الضابط فرجة عينيه ، وساقط نظرة على وجه نيقولاي المتحجر المجدور ، وشرع يقلب صفحات الكتب بسرعة أكثر من ذي قبل . وأحياناً ، كان يفتح عينيه الرماديتين الواسعتين محملقاً ، وكأنه يشكو ألماً ممضّاً ، وهو على وشك الانفجار باكياً في احتجاج عاجز .

قال فيزوفشيكوف مرة ثانية :

– هيه ، أنت أيها الجندي ! التقط الكتب من الارض !

واستدار رجال الدرك جميعاً ، وشخصوا اليه . ثم انحرفوا بأبصارهم جهة الضابط . فرفع الآخر رأسه ، وغمر وجه نيقولاي العريض بنظرة فاحصة ثاقبة ، ثم جمجم من أنفه :

– هِمْ – مْ – مْ ! التقطوها !

فأكبَّ دركي على الارض ، وراح يجمع الكتب المبعثرة ...

همست الام في أذن بافل :

– يجدر بنيقولاي ان يمسك لسانه ؟

فهز كتفيه ؛ ونكس الاوكراني رأسه ...

– من يقرأ هذه التوراة ؟

فأجاب بافل :

– أنا !

– ولمن كل هذه الكتب ؟

فأجاب بافل :

– هي لي !

فقال الضابط ، مستنداً بظهره الى مسند مقعد :

– حسناً ، حسناً جداً !

وطقطق بأصابع يديه الرشيقتين ، ومدّ ساقيه تحت الطاولة، وفتل شاربيه، ثم قال مخاطباً نيقولاي :

– أأنت اندريه ناخودكا ؟

فردّ نيقولاي ، وهو يتقدم منه :

– نعم !

فأمسك الاوكراني به من كتفه ، ودفعه الى الوراء :

– لقد التبس الامر عليه فأخطأ ، انا هو اندريه ...

فرفع الضابط يده ، وهزّ إصبعه الصغيرة في وجه فيزوفشيكوف مهدداً :

– يحسن بك ان تنتبه لخطواتكَ جيداً !

ومن ثم عاد يقلب اوراقه ، باحثاً متفحصاً ...

كان الليل ، بنور قمره الاضحيان الصافي ، يطلُّ من النافذة ، بارداً غير مبالٍ ؛ والثلج يتكسَّر تحت أقدام شخصٍ ما يمرُّ بالمنزل متباطئاً .

سأل الضابط :

– ناخودكا ؟ هِمْ ! ألست ذلك العصفور الذي اعتقل في الماضي بتهمة جريمة سياسية ؟

– نعم . مرة في روستوف ، وأخرى في ساراتوف ... إنما كان رجال الدرك هناك اكثر تأدباً .

فأغمض الضابط عينه اليمنى ، ثم فركها ... وأخيراً أبانَ ، مكشّراً عن اسنانه الصغيرة :

– هل بلغك ، مصادفة ، من هم أولئك الهُدَرَةُ الذين يوزّعون مناشير سرية مجرمة في المصنع ؟

فكشر الاوكراني ، وهزّ عقبيه ، وهمّ ان يقول شيئاً ... نيقولاي يقتحم الميدان قائلاً :

– هذه هي المرة الاولى التي نرى فيها سافلاً ساقطاً !

وخيم سكون عميق ، وجمد كل شيء لحظة قصيرة ...

وازدادت الندبة في وجه الام بياضاً ، وأسبل جفنها الأيمن ، واخذت لحية ريبين السوداء ترتجف بشكل غريب ، فدفع أصابعه في وسطها يمشطها ، ثم أغلق عينيه .

قال الضابط :

– احملوا هذا الكلب من هنا !

فقبض الدركيان على نيقولاي من ذراعيه ، ودفعاه بقسوة داخل المطبخ حيث وقف ، وضرب الارض بقدمه ، وصاح :



وارتفع صوت نيقولاي الحاد ، فجأة ، يرعد وسط ذلك السكون

ـ انتظروا ! أريد ان ارتدي ثيابي !

ودخل مفوّض الشرطة قافلاً من الساحة ، وقال :

ـ لم نجد شيئاً هناك . لقد فتّشنا كل مكان .

فهمهم الضابط باستهزاء :

ـ طبيعي . اننا نتعامل مع رجل بارع مجرّب .

وأصغت الام الى صوتـــه الضعيف المرتجف ، وراحت تشخص بخوف الى وجهه الاصفر ، وهي تحس انها أمام عدو لدودٍ عَمَرَ قلبه بغضاً كَلِباً لعامة الشعب . انها لم تحتكّ بمثل هؤلاء الناس إلا في النَدَرى ، ولقد كادت ان تنسى وجودهم تقريباً . وفكرت :

ـ إذن ، فهؤلاء هم الذين أقلقتهم المناشير وأزعجتهم .

يا أندريه أونيزيوف ، الابن غير الشرعي الذي يحمل اسم ناخودكا ، انت موقوف !

فسأل الاوكراني بهدوء :

ـ ولِمَهْ ؟

فقال الضابط برقة خبيثة :

ـ ستكتشف ذلك فيما بعد !

واستدار الى بيلاجيا ، وسألها :

ـ أتحسنين القراءة والكتابة ؟

فأجاب بافل :

ـ كلا ! انها تجهل ذلك .

فصاح الضابط بحدّة :

ـ أنا لا أسألك انت . أجيبي ، أيتها المرأة !

كانت جوانب الام قد طفحت بكراهية شديدة لهذا الرجل . وانتابتها نوبة من الارتعاش على حين غرة فكأنها سقطت في ماء بارد كل البرودة ، وانتصبت مستقيمة العود ، وقد شحبت الندبة في وجهها ، وارتخى حاجباها كثيراً فوق عينيها . قالت ، وهي تلوّح بيدها :

– لا حاجة تدعوك للصياح ، فأنت لما تزل صغيراً حتى تعرف معنى الهم والقلق .

فقال بافل ، وهو يحاول اعتراض طريقها :

– هدئي من روعك ، يا اماه !

فصاحت ، وهي تندفع في اتجاه المنضدة :

– انتظر ، يا بافل ! لماذا تأخذ هؤلاء الناس ؟

فصاح الضابط ، وهو ينهض :

– هذا لا يعنيك أبداً ! اصمتي ! أحضروا فيزوفشيكوف ، فهو موقوف أيضاً .

ثم راح يقرأ ، من جديد ، ورقةً أمسك بهـــا قريباً من أنفه . وجيء بنيقولاي ... فتوقف الضابط عن القراءة ، وصاح :

– إنزع قبعتك عن رأسك .

وتقدم ريبين من بيلاجيا ، ودفعها بكتفه بلطف ، وقال :

– لا تقلقي ، يا أماه .

وسأل نيقولاي ، مغطياً بصوته قراءة مذكرة الاجراءات :

– وكيف أستطيع نزع قبعتي اذا كانوا يمسكون بكلتا يدي ؟

وصاح الضابط ، رامياً بالورقة على المنضدة :

– وقّعوها .

راحت الام ترقبهم يوقعون ، وقد استكنّت حمياها وتلاشت جرأتها ، وغصت عيناها بالدموع ، دموع الأذية التي لا مردّ لها . لقد ذرفت مثل هذه

الدموع خلال عشرين عاماً من حياتها الزوجية ، ولكنها كادت تنسى ، خلال السنوات القليلة الاخيرة ، معنى تلك الدموع ولذعتها المؤلمة الحارة .

حدجها الضابط بنظره طويلاً ، ثم قال مكشّراً في ازدراء وترفّع :

– الافضل ان توفّري دموعك ، أيتها الام ، والا لم يبـــق لك منها شيء للمستقبل القريب .

فاجتاحتها موجة ثانية من الغضب المرّ ...

– ان للأم ، دائماً ، ما يكفيها من الدموع لكل شيء – لكل شيء ! وان كانت لك أم ، فهي لا بدّ تعرف ذلك .

فوضع الضابط أوراقهُ متسرّعاً في محفظة جديدة لمّاعة ، وأصدر أوامره بالمسير في لهجة عسكرية .

قال بافل بحراره وهدوء ، وهو يصافح رفيقه :

– الى اللقاء ، يا أندريه ؛ الى اللقاء ، يا نيقولاي .

فقال الضابط ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

– ستجتمع بهما عمّا قريب ، هذا أمر لا ذرارة من شكٍّ فيه .

راح فيزوفشيكوف يتنفس بصعوبة ، واحتقن الدم في عنقـــه الغليظ ، والتمعت عيناه بغضب شديد قاس . اما الاوكراني فأومض وجهه بابتسامة لطيفة ، وهز رأسه ، وأسرّ شيئاً في أذن الام . فرسمت الام إشارة الصليب فوق رأسه ، وقالت :

– ان الله يرى من هو المحقّ ...

وأخيراً ، تجمهر أولئك الذين يرتدون سترات رمادية ، واتجهوا الى الممرّ ، ثم اختفوا ، وقرقعة مهاميزهم تثـــير ضجيجاً مزعجاً . وكان ريبين آخر من غادر المكان ، وهو يحدج بافل بنظرة طويلة .

– حسناً ، الى اللقاء .

قال هذا مفكراً ، ثم لفظه الباب ، وهو يسعل في لحيته ... وعقد بافل يديه خلف ظهره ، وراح يذرع أرض الغرفة ببطء وتمهل ، وهو يخطو فوق الكتب والثياب المبعثرة على الارض .

قال بصوت كئيب :

– أرأيتِ ؟ هذا هو اسلوبهم في ذلك .

ورمقت الام فوضى الغرفة بنظرة إنكار ، وسألت في أسفٍ وأسىً :

– ولمَ كان نيقولاي وقحاً هكذا ؟

– أعتقد انه كان خائفاً .

وهمهمت ، وهي تـُلوِّح بيديها :

– لقد دخلوا ـ وقبضوا عليهم ـ واقتادوهم ـ هذا كل شيء .

ان ابنها لم يُعتقل ، ولذلك يخفق قلبها في شيء أكثر من الهدوء . ولكن أفكارها شُلـَّتْ تماماً أمام ذلك الحادث غير المفهوم الذي كانت شاهدة عليه .

– لقد سخر منا ، ذلك الرجل الاصفر الوجه ، وحاول إخافتنا ...

فقال بافل في حزم مفاجىء :

– حسناً ، يا أماه ، تعالي نرتب كل شيء .

ناداها « أمـــاه » بتلك اللهجة التي يستعملها عندما يشعر بالعطف عليها . فدنت منه ، ونظرت في وجهه ، ثم سألته بهدوء :

– هل آلموك ؟

– نعم ، فذلك صعب جداً . ليتهم أخذوني مع الآخرين .

وخُيِّل اليها ان الدموع تترقرق في عينيه ، فتنهدت وقالت وهي تجاهد كي تخفف عنه الألم الذي استشعرته في غموض :

– صبراً ، فلسوف يأخذونك ايضاً . .

– ذلك لا ريب فيه .

واعتصمت بالصمت لحظة ، ثم قالت أخيراً :

– ما أقساك ، يا بافل ؛ يجدر بك بالاحرى ان تطمئن والدتك وتهوّن عليها ، فأنا أقول أشياء مخيفة ، وانت تزيد الشرّ تفاقماً .

فتطلع اليها ، ثم دنا منها وقال :

– لست ادري كيف أفعل ذلك ، يا أماه . يجب ان تعتادي عليه .

فتنهدت ، وصمتت لحظة ، ثم سألته وهي تحاول ألا يختنق صوتها :

– أتعتقد أنهم يعذبون الناس ؟ وانهم يمزقون اجسادهم ويحطمون عظامهم ؟ كلما فكرت في ذلك ... أواه ، يا عزيزي ، ما أبشعه .

– إنهم يحطمون الروح ، وهذا اكثر أذية ، عندما يضعون أيديهم الوسخة على روحك ...

١١

واتضح في اليوم التالي انهم ألقوا القبض ايضاً على بوكين ، وصموئيلوف ، وسوموف ، وخمسة آخرين ... وفي العشية ، جاء فيودور مازين على غير انتظار . لقد فتشوا بيته ايضاً ، وهو مسرور جداً ، يغمر قلبه الشعور بصيرورته بطلاً بكل معنى الكلمة .

سألته الام :

– أكنت خائفاً ، يا فيودور ؟

فشحب وجهه ، وقست تقاسيمه ، وارتجف جناحا أنفه :

– خفت ان يضربني الضابط . كان بدين الجثة ، ذا شعر أسود ، وأصابع غزيرة الشعر ، ونظارتين سوداوين فوق أنفه توهمان انه فاقد العينين . وكان يضرب الارض بقدمه ، ويصيح : « سوف ألقي بك في السجن » . ان احداً لم يضربني قط ، حتى ولا والدي ، فأنا ابنهما الوحيد ، وهما يحبانني كثيراً .

وأغمض عينيه برهة ، وضمّ شفتيه بشدة ، ودفع بشعره الى الخلف بحركة رشيقة من كلتا يديه :

– اذا جرؤ أحد يوماً على ان يضربني ، فسألقي بنفسي فيه كالمدية ، وأعضه بأسناني . وليقتلوني بعدئذٍ ، فذلك أفضل لي .

فقالت الام متعجبة :

– انك أضعف من ان تستطيع ذلك ، وأظنك لست بالمقاتل الشديد ...

فأجابها فيودور بصوت خافت :

– انما سأقاتل على أية حال .

قالت الام لبافل ، بعد ان انصرف فيودور :

– سوف يكون أول من يولي الادبار .

ولكن بافل لم يحر جواباً ...

وبعد دقائق ، فُتح باب المطبخ ، ودلف ريبين منه قائلاً ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

– مرحباً ، يا قوم . هاءنذا هنا مرة اخرى . البارحة أتوا بي قسراً ، أما الآن فقد جئت بمحض إرادتي .

وصافح بافل بحرارة ، وأمسك بيلاجيا من كتفها ، وسأل :

– ما رأيك في قدح من الشاي ؟

تفحص بافل ، في سكينة ، وجه الضيف العريض ، الخمري اللون ، بلحيته السوداء الكثة ، وعينيه السوداوين . وكانت نظرته طافحة بمعانٍ شتى .

ودلفت الام الى المطبخ كي تهيىء السماور ، أما ريبين فجلس واعتمد المائدة بمرفقيه ، ورنا الى بافل برهة ثم قال ، وكأنه يتابع حديثاً سابقاً لم ينتهِ :

– حسناً ، اني أريد محادثتك بصراحة تامة ، فلقد ظللت أراقبك زمناً طويلاً ، ولاحظت قبل كل شيء ، باعتباري جاراً لك تقريباً ، ان بعض الناس يأتون منزلك دون انقطاع ، ولكنهم لا يسكرون او يأتون أمراً إدّاً . ولا مفرّ من ملاحظة الناس عندما يحسنون السلوك ، فالمرء يتساءل عندئذ عما حدث ، وعما يدفعهم الى ذلك . وأنا نفسي عرضة للأنظار الآن ، لاني أختلي بنفسي دون الناس .

كان كلامه يتدفق ثقيلاً هادئاً . وهو يسرّح لحيته بيـــدٍ سوداء كبيرة ، ويشخص بامعان في وجه بافل :

– لقد شرع الناس يتحدثون عنك ، منهم صاحب البيت الذي أسكن فيه ، وهو يدعوك كافراً لانك لا تذهب الى الكنيسة ، وأنا لا اذهب ايضاً . ثم هناك تلك المناشير ، أهي من صنعك ؟

– نعم .

فصاحت الام جزعة ، وهي تطل برأسها من خلال باب المطبخ :

– ماذا تقول ؟ انك لست الوحيد في هذا .

فضحك بافل ، وكذلك فعل ريبين . وقال هذا الاخير :

– حسناً .

وتنهدت الام ، وابتعدت مستاءة نوعاً ما من طريقتها في تجاهل كلماتها . وعاد ريبين يقول :

– فكرة عظيمة هذه المناشير ... فهي تثير الناس . لقد أصبح عددها تسعة عشر منشوراً ، أليس كذلك ؟

– نعم .

– وهذا يعني اني قرأتها جميعاً . ان بعض ما تحويه ليس واضحاً ، والبعض الآخر ليس ضرورياً ؛ ولكن عندما يكون عند المرء أمور كثيرة يريد الافضاء بها ، فمن الصعب ألا يدسّ بينها كلمة زائدة أو كلمتين .

وابتسم ريبين ، فكشف عن اسنان متينة بيض ، وعاد يقول :

– ثم جاء التفتيش ، وذلك الذي حملني اليكم اكثر من اي شيء آخر . انت والاوكراني ونيقولاي ، لقد أظهرتم جميعاً ...

ولما أعوزته الكلمات المناسبة ، جنح الى الصمت ، وهو يتطلع من النافذة الى الخارج ، وينقر بأصابعه على المائدة :

– أظهرتم قوة الركيزة التي تستندون عليها ، ان صح التعبير ... « اذهب انت الى واجبك ، يا صاحب السعادة ، ونحن نلتفت ايضاً الى واجبنا » . والاوكراني ايضاً طيب رائع ، وعندما أسمعه احياناً يتحدث في المصنع أقول في نفسي : ليس من وسيلة لسحقه ، والموت وحده يستطيع ان يقهره . انه لقوي الشكيمة ، نُحِتَ من صخر . هل تثق بي ، يا بافل ؟

فأجاب بافل باشارة من رأسه :

– نعم ، إني أثق .

– حسناً ! انظر إليّ – ان لي من العمر اربعين عاماً – فأنا أكبرك سناً بمرتين إذن ، وأستطيع القول اني رأيت من امور الدنيا اكثر مما رأيت أنت بعشرين مرة . ولقد قضيت في الجندية ما يزيد عن ثلاث سنوات . تزوجت مرتين ، وزوجتي الأولى ماتت ... وهجرت الثانية . ولقد ذهبت الى القوقاز .

ورأيت « الدوخوبورتسي »[1] . انهم لا يعرفون كيف يبارون الحياة يا أخي ، انهم لا يعرفون ...

كانت الام تصغي بلهفة الى حديثه القاسي ، وهي سعيدة جداً بأن يفتح مثل هذا الرجل الكهل قلبه امام ابنها . ولكنها وجدت ان معاملة بافل له جافة نوعاً ما ، وأرادت ان تعوّض عن تلك الجفوة بحسن ضيافتها .

قالت :

– لعلك تحب ان تأكل شيئاً ، يا ميخائيلو إيفانوفيتش ؟

---

١ – فرقة دينية .

ـ شكراً ، ايتها الام ، فلقد تناولت عشائي . وهكذا تعتقد يا بافل ان الحياة ليست كما يجب ان تكون ؟

فنهض بافل ، وطفق يراوح في الغرفة ويغادي ويداه خلف ظهره ، وقال :

ـ إنها تتجه في الصراط القويم ، ألم تأتِ بك إليَّ بقلب مفتوح ؟ انها تجمعنا قليلاً قليلاً ، نحن الذين نقضي العمر في العمل ، وسيجيء اليوم الذي تجمع فيه جميع البشر . ان الحياة قاسية وصعبة بالنسبة الينا ، ولكن الحياة نفسها تفتح أعيننا على اكثر معانيها مرارة ، وترينا كيف نعجّل في حل قضاياها .

فقال ريبين :

ـ هذا صحيح ، فالانسان يحتاج الى إصلاح وتجديد واسعين . فالمرء اذا لحق القمل به أرسلته الى الحمام ، ودلكته جيداً ، ثم أعطيته ثياباً نظيفة . وعندئذ يصبح مقبولاً من جديد ، أليس كذلك ؟ ولكن ، كيف نستطيع تنظيف المرء من الداخل ؟ تلك هي القضية !

فراح بافل يتكلم في حماسة واندفاع عن الله ، والقيصر ، والمعمل ، والسلطات ، وعن النضالات الخائض غمارها العمال في البلاد الاخرى دفاعاً عن حقوقهم . وكان ريبين ينقر على الطاولة احياناً وكأنه يحدّد المقاطع والمواقف في حديث بافل . وكثيراً ما كان يهتف :

ـ تلك هي القضية ! تلك هي القضية !

وضحك مرة ، وقال بهدوء :

ـ انك ما زلت حدّثاً ، ولم تتعلم كيف تعرف الناس .

فأجاب بافل برزانة ، وهو يقف أمام ريبين :

ـ فلندع الكلام عن الشيوخ والفتيان جانباً ، ولنرَ الحق في اي صف يقف .

ـ إذن فأنت تعتقد أنهم حاولوا ان يخدعونا فيما يتعلق بالله ايضاً ؟ هو ذلك، فأنا أعتقد ان ديانتنا لا تنفع شيئاً .

وهنا تدخلت الام في الامر . كانت ـ كلما تحدث ابنهـا عن الله ، وعن الامور ذات العلاقة بإيمانها به ، هذا الايمان العزيز على قلبها والمقدس في نظرها ـ تسعى الى ملاقاة عين فتاها ، وتتوسل إليه في صمت ألا يجرح قلبها بكلمات إلحاده القاسية . ولكنها كانت تخمّن ، خلف ذلك الالحاد ، إيماناً ؛ فيواسيها ذلك ويرفـّه عنها .

كانت تفكر :

ـ كيف أستطيع فهم أفكاره ؟

هُدْهِدَ لها ان ذلك الرجل الكهل لا بد مستاء مثلها من كلمات ابنها . لكن اذ طرح ريبين ذلك السؤال بكل هدوء ، لم تعـد تستطيع أن تتمالك نفسها ، فصاحت :

ـ أما فيما يتعلق بالرب ، فخير لكما ان تكونا اكثر روية فيما تقولان .

وأرسلت نفساً عميقاً عميقاً ، ثم أضافت بحماسة مضاعفة :

ـ يمكنكما ان تفكرا فيما يروقكما . اما انا ، المرأة العجوز ، فلن يبقى لي شيء ألتفت إليه في آلامي لأسأله الغوث والمعونة اذا ما طرحتما الله بعيداً عني .

واخضلـّت عيناها بالدموع، وأخذت يداها ترتجفان وهي تغسل الصحون .

قال بافل بلطف :

ـ انك لم تفهمينا .

وقال ريبين بصوته العميق المتماهل :

ـ إصفحي عنا ، يا أماه .

وأرسل ضحكة قصيرة ، وهو يختلس النظر الى بافل ، ثم أضاف :

ـ لقد غاب عن بالي أنك أكبر سناً من ان تستأصلي ما فيك من تآليل .

وتابع بافل :

ـ أنا لم أكن اتحدث عن الله الطيب الرحيم الذي تؤمنين به . بل عن ذلك الإله الذي يحاولون باسمه جعل الشعب بأسره ينحني أمام إرادة البعض الشريرة.

فصاح ريبين ، وهو يضرب الطاولة بقبضة يده :

ـ تلك هي القضية ! لا بل قد استأجروا من أجلنا إلهاً كاذباً . وهم يحاربوننا بكل ما تقع عليه أيديهم دون تفريق ! فكـّري في هذا لحظة ، يا أماه ! ان الله خلق الانسان على صورته ومثاله ، وهذا يعني أنه يشبه الانسان ، ما دام الانسان يشبه الله . ولكننا نحن أشبه بالوحوش الكاسرة منا بالآلهة؛ والكنائس انما تلوّح بفزاعة في وجهنا ليس غير . ان علينا ان نبدّل إلهنا يا أماه ، وعلينا ان نطهّر كذلك . ولقد أحاطوه بالأكاذيب والافتراءات وشوّهوا وجهه كي يقتلوا أرواحنا .

كان يتحدث بعذوبة ، ومع ذلك وقعت كل كلمة من كلماته صفعة على رأس الام الذاهلة التي أجفلت خوفاً من ذلك الوجه العريض المكتئب في إطار لحيته السوداء وعجزت عن تحمل البريق الأسود في عينيه الباعثتين في قلبها جزعاً مؤلماً .

قالت ، وهي تهز رأسها :

ـ لا ، لا ، إني ذاهبة ، فسماع مثل هذه الأمور يتجاوز قواي .

ودلفت الى المطبخ ، فيما ريبين يقول لبافل :

ـ أرأيت ، يا بافل ؟ ليس الرأس ، بل القلب ... ذلك هو الأمر الأهم . القلب هو مكان خاص جداً بالنفس الانسانية ، ولا يمكن ان ينمو فيه شيء آخر على الاطلاق .

فقال بافل بعزم :

ـ العقل وحده يقوى على تحرير الانسان .

فعاد ريبين يقول بصوت مرتفع :

ـ العقل لا يهب الانسان القوة . إن قلبه من يهب القوة ، لا عقله .

وخلعت الام ثيابها ، ومضت الى فراشها دون ان تتلو صلواتها . كان إحساس بارد مقيت يعتصرها في قبضتيه . ولم يعد ريبين ، الذي بدا لها للوهلة الاولى ذكياً باعثاً على الاهتمام ، يثير فيها الآن إلا شعور العداوة والنفور .

كانت تفكر ، وهي تستمع الى صوته :

ـ الكافر ! الملحد ! ما الذي أتى به الى هنا ؟

لكنه تابع حديثه بثقة هادئة :

ـ لا يمكن ان نترك المكان المقدس فارغاً ! فالمكان الذي يحتله الله من القلب البشري هو اكثر الأماكن إيلاماً . فان انت نزعته من هناك ترك جرحاً كبيراً جداً . يجب إذن ان نفكر في ايمان جديد ، يا بافل . يجب ان نخلق إلهاً يكون صديقاً للانسان . تلك هي القضية !

فهتف بافل في حماسة :

ـ هناك المسيح !

ـ المسيح لا يملك جرأة روحية . لقد قال : لو ترفع عني هذه الكأس ! ثم هو اعترف بقيصر . كيف يمكن لله ان يعترف بسلطة دنيوية على مخلوقاته ؟ هو

نفسه القوة المهيمنة الوحيدة . يستحيل ان يقسم نفسه أجزاء ـ هذه حصة الله ، وتلك حصة الانسان . ولكن المسيح قَبِلَ بالتجارة ، وكذلك الزواج . ثم إنه كان مخطئاً عندما لعن شجرة التين ـ أكانت شجرة التين تستحق اللوم لأنها لم تحمل ثمراً ينوعاً ؟ وكذلك النفس البشرية لا تستحق اللوم إنْ لم تحمل ثمراً صالحاً . أأنا الذي بذرت هذا الشرّ في نفسي ؟

ظلّ الصوتان يتشابكان في الغرفة ، يلتحمان ويتدافعان في نضال شديد ، والارض تصرُّ تحت وقع أقدام بافل وهو يذرعها روحةً وجيئة . وعندما كان بافل يتكلم ، كانت سائر الاصداء تتلاشى تماماً ، فاذا تكلم ريبين استطاعت الام ان تسمع صوت تأرجح الرقاص ، وطقيق الجليد على جدران الدار .

– سأقول ذلك بكلماتي الخاصة ، كلمات الوقّاد : ان الله لهيب خالص ، وهو يعيش في القلب . وقديماً قيل : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان الله » . وهكذا ، فان الكلمة هي الروح .

فعقّب بافل يقول باصرار :

– الكلمة هي العقل !

– حسناً ، فالله إذن في القلب والعقل معاً ، وليس في الكنيسة . الكنيسة هي لحد الله .

واستغرقت الام في النوم ، فلم تشعر بريبين وقتما غادر المنزل ...

بَيْد أنه اصبح منذ ذلك الحين ضيفاً دائماً . فان كان ثمة احد من رفاق بافل جلس ريبين في احدى الزوايا دون ان يقول شيئاً ، أللهم إلا ان ينطق – فيما ندر – بهذه الكلمات :

– تلك هي القضية !

وفي ذات مرة لفّ الجماعة بنظرته السوداء ، وقال مستاءً :

– يجب ان نتحدث عن الاشياء كما هي في الواقع لا كما سوف تكون ... من يعرف ذلك ؟ عندما يحصل الناس على حريتهم ، فعندئذ يقررون أفضل الأمور لهم . لقد كفاهم ما حُشِيَت أدمغتهم به حتى الآن دون أن يطلبوا ذلك . لقد آن الوقت ليعطوا فرصة يفعلون بها شيئاً من تلقاء أنفسهم ، ولربما أرادوا ان يرفضوا كل شيء ، بمجمل الحياة والمعرفة . ولربما وجدوا ان كل شيء كإله الكنيسة ، موجّه ضدهم . ضعوا الكتب بين أيديهم ، يجدوا بأنفسهم الأجوبة على أسئلتهم . تلك هي القضية !

وان كان وبافل معاً ، دخلا مباشرة في نقاش لا ينتهي ، لا يفقدان خلاله ابداً زمام نفسيهما . وكانت الام تصغي اليهما في قلق واضطراب ، وتلاحق كل كلمة من كلماتهما ، جاهدة ان تفهم معنى أقوالهما . وكان يخيل اليها احياناً ان الرجل العريض المنكبين ، الأسود الذقن ، وابنها المديد القامة ، المتين البنيان ، فقدا البصر تماماً . فهما ينطلقان اولاً في احد الاتجاهات ، ثم في اتجاه آخر ، يفتشان عن طريق للخروج ، ويمسكان بكل شيء بين أصابعهما القوية العمياء ، متنقلين من مكان الى آخر ، دافعين بالاشياء على الأرض ليطآها بأقدامهما . كانا يرتطمان بالأشياء ويتحسسانها ، ثم يقذفان بها بعيداً دون ان يفقدا إيمانهما وآمالهما .

علّماها ان تسمع كلمات مخيفة في صراحتها وجرأتها . ولكن هذه الكلمات لم تعد تؤلمها بذات القوة التي أوجعتها بها في المرة الأولى – لقد تعلمت ان تدفع بها بعيداً عنها . وكانت تميز ، احياناً ، وراء الكلمات الجاحدة بالله إيماناً ثابتاً به ، فتبتسم عندئذ ابتسامة هادئة صفوحا . واستمر ريبين لا يروق في عينيها ، وإن لم يعد يثير نفورها أبداً .

وفي كل اسبوع ، كانت تحمل الى الاوكراني في سجنه كتباً وثياباً نظيفة ، ونالت الاذن مرة في رؤيته ؛ فروت بحنان ، عندما عادت ، أثرَ تلك المقابلة فيها . قالت :

– انه لم يتبدل ابداً . طيب على الدوام لكل الناس ، وكل الناس يمازحونه. إن ذلك يؤلمه جداً ، ولا يظهر أوجاعه .

فعلق ريبين على ذلك بقوله :

– هذا حسن . فالحزن مخبأ ، ونحن في داخله وقد تعودنا مثل هذا الثوب . وليس في هـــذا ما يستحق الفخر . ولكن لم يضع الناس جميعاً عصابات على أعينهم ? ثم ان بعضهم يسجنون أنفسهم بأنفسهم ، تلك هي القضية ! فان كنا أغبياء ، فليس أمامنا إلا التجهم وتحمل ذلك ...

١٢

أخذ اهتمام الضاحية بمنزل آل فلاسوف الصغير الأغبر يتضاعف يوماً بعد يوم . وكان ذلك الاهتمام ممزوجاً بالريبة وبشعور غير واعٍ بالعداوة والنفور . لكن فضولاً آمناً كان يغلي في قلب البعض، فيقترب غريب من بافل أحياناً وهو يختلس النظر يمنة ويسرة ، ويقول :

– إسمع ايها الأخ ، انك تقرأ الكتب وتعرف القوانين ، أفلا تستطيع ان توضح لي ؟ . . .

ويروي له الملتمس قصة ظلامة ارتكبها رجال الشرطة أو ادارة المعمل . ذا كانت الحالة معقدة عسيرة ، أعطى بافل الرجل كلمة منه الى محام من معارفه في المدينة . ولكنه كان يوضح القضية بنفسه كلما استطاع الى ذلك سبيلاً .

وبدأ الناس يحترمون ، شيئاً فشيئاً ، هذا الشاب الرزين الذي يتكلم ببساطة وجرأة ، ويحتفظ بعينيه مفتوحتين أبداً ، وأذنيه واعيتين على الدوام ، ويغوص بعناد الى أعماق كل نزاع ، ويجد دون انقطاع ، وفي كل مكان ، السلك المشترك الذي يربط الناس بعضهم ببعض .

ولقد اكتسب بافل هيبةً خاصة بعد حادث « كوبيك المستنقع » . . .

كان مستنقع كبير مكسو بشجر الشوح والبتولا يمتد حول المعمل حتى يكاد أن يحيط به في شبه حلقة منفرجة . وكان هذا المستنقع ينشر في الصيف أبخرة

صفراً كثيفة ، وسحباً عظيمة من بعوض يبذر الحمّى في طول المؤسسة وعرضها. ولما كان ملكاً المعمل ، فقد قرر المدير الجديد تجفيفه بحيث يستخرج منه الوقود ويستفيد من الارض في الوقت ذاته . فأصدر أمره ان يُحسم كوبيك واحد من كل روبل من أجور العمال ليخصّص لمصاريف تجفيف المستنقع ، متذرعاً بأنه إنما لجأ الى ذلك في سبيل تحسين شروط معيشة العمال .

واستشاط العمال غيظاً واعترضوا ، بصورة خاصة ، على ان هذا الحسم الجديد من أجورهم لا يشمل العمال الذين سيجففون المستنقع نفسه .

وكان المرض قد احتجز بافل في الدار يوم السبت الذي أعلن فيه المدير تلك الضريبة الجديدة ، فلم يدرِ بها . وفي اليوم التالي ، قدم سيزوف لزيارته ، وهو سبّاك محترم ، يرافقه ماخوتين الميكانيكي ، المديد القامة ، السريع الانفعال . وبعد ان تحدث ماخوتين الى بافل عن قرار المدير ، قال له سيزوف بلهجة ذات مغزى :

– ان الاكبر سناً بيننا قد اجتمعوا وناقشوا الأمر ملياً . ولقد قرر الرفاق ان يرسلونا اليك باعتبارك شخصاً مطّلعاً لتعلمنا عما اذا كان ثمة قانون يسمح للمدير ان يكافح البعوض بقروشنا .

وقال ماخوتين ، وعيناه الضيقتان تبثان اللهب :

– تذكروا فقط ! ان هؤلاء اللصوص أخذوا أموالنا منذ اربعة أعوام كي يبنوا حمّاماً . ولقد جمعوا ثلاثة آلاف وثمانمائة روبل يومذاك . أين هي الآن ؟ نحن لم نرَ أثراً لأي حمّام على الاطلاق .

وأوضح لهما بافل عدم شرعية ذلك الحسم ، والفائدة الأكيدة التي يجنيها المعمل من تجفيف المستنقع ، فخرج الرجلان عابسين . وبعد ان شيعتهما الام ، قالت وهي ترسل ضحكة قصيرة :

– ان الشيوخ أنفسهم قد بدأوا يستعملونك أدمغةً لهم .

ولم يجبها بافل ، بل جلس الى المائدة وشرع يكتب طوال عدة دقائق ، ثم توجه اليها قائلاً :

– لي رجاء عندك يا أماه ، ألا وهو الذهاب الى المدينة وتسليم هذه الرسالة الى صاحبها .

– أهي خطرة ؟

– نعم ، فاني مرسلك الى المكان الذي يطبعون فيه جريدتنا ، فمن الضروري جداً ان تظهر قصة هذا الكوبيك في العدد المقبل .

– حسناً ، اني ذاهبة في الحال .

قالت هذا ، وشرعت ترتدي ثيابها ...

كانت تلك هي المهمة الأولى التي ينتدبها ولدها لها ، وقد قبلتها سعيدة بصراحته في شرح الموقف دون خداع او مواربة .

قالت :

– اني افهم ، يا باشا ، فهم يسرقونهم دون حياء . ما هو اسم ذلك الرجل . ييجور إيفانوفيتش ؟

وعادت الى الدار مساءً شديـــدة الاعياء ، لكنها كثيرة المرح والبهجة ، وقالت لابنها :

– لقد رأيت ساشا ، وهي ترسل اليك تحياتها ؛ أما ييجور إيفانوفيتش هذا فرجل بسيط كثير المرح ، وان له لأسلوباً طريفاً في الحديث .

فقال بافل في عذوبة :

– إني سعيد باستلطافك لهم .

– إنهم أناس بسطاء ، يا باشا ، وانه لشيء جميل ان يتواضع الانسان ولا يشمخ بأنفه . ثم انهم يحترمونك كثيراً ...

ولازم بافل الدار يوم الاثنين أيضاً لانه لم يستردّ عافيته بعد . وقدم فيدور مازين اثناء فرصة الغداء يعدو منقطع الأنفاس ، منفعلاً ، سعيداً ، وصاح :

– هيا بنا ، فالمعمل بأسره في هياج هادر ، ولقد بعثوا بي في طلبك . سيزوف وماخوتين يقولان إن بامكانك شرح الأمور أفضل من أي انسان آخر . ولسوف ترى ماذا يجري هناك ...

وأخذ بافل يرتدي ثيابه ، دون ان ينطق حرفاً ...

– لقد جاءت النسوة ايضاً ، وهنّ يضفن زعيقهن الى صراخ الرجال .

وقالت الام :

– إني قادمة أيضاً ! ماذا هم فاعلون ، يا تُرى ؟ إني قادمة أيضاً !

فقال بافل :

– تعالي ، هيا بنا !

مضوا يحثون الخطا ، في صمت ، خـــلال الشوارع ... كانت الأم منقطعة الأنفاس تقريباً لشدة انفعالها ، تشعر ان أمراً عظيم الخطورة سيحدث عمـــا قريب ... وكان جمهور من النساء يتخاصمن ويتصايحن عند بوابة المعمل . وما تسلل ثلاثتهم الى الساحة الكبيرة ، حتى وجدوا أنفسهم وسط حشدٍ كبيرٍ يزمجر في هياج شديد. ولاحظت الام ان سائر الانظار متجهة نحو حائط المصهر، حيث كان سيزوف ، وماخوتين ، وفيالوف ، وخمسة او ستة آخرون من العمال ذوي النفوذ ، يعلون كومة من الحديد تجاه الحائط الآجريّ تماماً .

صاح بعضهم :

– هذا هو فلاسوف آتٍ .

– فلاسوف ؟ فليأتِ الى هنا !

وصاحت أصوات من اماكن مختلفة :

– هدوءاً !

وتعالى صوت ريبين المنتظم من مكان قريب :

– لسنا نناضل من اجل الكوبيك، بل في سبيل العدالة ! تلك هي القضية ! وليس الكوبيك بالعزيز علينا حتى هذه الدرجة ، فهو ليس أكثر استدارة من سواه وان كان أثقل ، لأن فيه من الدم الانساني أكثر مما في روبل المدير بما لا يقاس . ليست القيمة في الكوبيك ، بل في الدم ، في العدالة . تلك هي القضية !



« نحن تلك القوة الحية التي يطعم منها الجميع ويحيون منذ المهد حتى اللحد »

سقطت كلماته في قلب الحشد الذي تلقـّفها بلهفةٍ ، فأثارت بينه هتافات حادة :

– انت على حق ، يا ريبين !

– حسناً قلتَ ، أيها الوقاد !

– ها هوذا فلاسوف !

واختلطت الاصوات في إعصار من الضجيج طغى على زمجرة الآلات ، وصفير البخار ، وطنين المعادن . وتراكض العمال من كل حدب وصوب وهم يلوّحون بأذرعتهم ، ويحرّضون بعضهم بعضاً بكلمات حادة قاسية . كان الاستياء الكامن أبداً في تلك الصدور المتعبة يولد الآن ويطلب مخرجاً . كان يحلـّق في الجوّ منتصراً ، وينشر اجنحته أوسع فأوسع ، ويشدُّ قبضته على خناق الناس ، ويجرهم في يقظته ، ويلقي بهم بعضهم في وجه بعض ، ويغمرهم بلهيب تحوُّله المنتقم . وهبَّ فوق الحشد سحابة من الغبار والهباب ، فالتمعت انفعالاً الوجوه المتصببة عرقاً ، وبكت الخدود دموعاً سوداً ، وبرقت العيون والأسنان جميعاً في الوجوه المسودة .

وظهر بافل فوق كومة الحديد ، حيث كان سيزوف وماخوتين واقفين ، وصاح :

– أيها الرفاق !

ولاحظت الام شحوباً شديداً في وجهه ، وارتعاشاً في شفتيه ، فتحركت الى الامام دون وعي ، تشقُّ لنفسها طريقاً خلال الازدحام الشديد .

صاحوا بها في حدة :

– ما بالك ، أيتها العجوز ؟ إبقي مكانك !

ودفعوها بالمناكب ؛ فلم تأبه لذلك ، ولم تنِ عن عزمها ، بل استمرت تشقُّ طريقها بكتفيها ومرفقيها ، تحدوها الرغبة في الوقوف الى جانب ابنها .

وعندما أفرغ بافل ما في صدره من الكلمات التي كانت تطفح معنىً ومغزىً بالنسبة اليه أحس قلبه ينقبض في فرحة المناضل وهنائه . وامتلكته الرغبـــة الجامحة في إلقاء قلبه الى هؤلاء الناس ، هذا القلب الملتهب بأحلام العدالة .

– أيها الرفاق !

هتف بهم ، وهو يستقي من هذه الكلمة قوته وإشراقه ، ثم أضاف :

– نحن الذين نبني الكنائس والمعامل ، نحن الذين نصهر القيود ، ونصوغ النقود ، نحن تلك القـــوة الحية التي يطعم منها الجميع ويحيون منذ المهد حتى اللحد ...

فصاح ر.بين :

– تلك هي القضية !

– دائماً ، وفي كل مكان ، نحن الاولون في العمل ، والآخرون في اكتساب الاعتبار . من يهتم بنا ؟ من ذا الذي فعل يوماً أبسط الاشياء من أجل منفعتنا وخيرنا ؟ لا بل هل نظر الينا أحد ، في يوم من الايام ، على اننا كائنات بشرية ؟ أبداً !

فردد صوت كرجع الصدى :

– أبداً !

ويزداد كلام بافل بساطة وهدوءاً كلما انطلق فيه ، بينا الحشد يزداد منه اقتراباً ، ويذوب في جسدٍ وحيدٍ يعيش بألف رأس ورأس ، ويحملق في وجه بافل بآلاف الأعين ، ويلتقف بلهفة العطشان كل كلمة من كلماته ...

– إننا لن نكون أحسن حظاً ما لم ندرك اننا رفاق جميعاً، اننا عائلة واحدة من الاصدقاء الذين يجمعهم رباط وحيد ، ألا وهو النضال من أجل حقوقنا .

فصاح أحد الحاضرين بصوت جاف ، وكان يقف قريباً من الام :

– تكلم عن الموضوع .

فصفعه صوتان ينصبان من جهتين مختلفتين :

– لا تقاطعه .

وعبست الوجوه المسودة تفصح عن ارتياب متشائم ، ولكن عيوناً كثيرة كانت تبحث ، متأملة ، عن وجه بافل حيث يقف فوق أكوام الفولاذ .

ولاحظ بعضهم :

– انه اشتراكي ، ولكنه ليس أحمق .

وقال عامل طويل أعور ، وهو يدفع الام من كتفها :

– انه يتكلم بجرأة وشجاعة ، وهذا عظيم جداً !

– لقد آن الأوان لنا ، أيها الرفاق ، كي نقاوم القوة الجشعة التي تعيش من جهدنا وعملنا ، لقد دقت الساعة كي ندافع عن نفوسنا ، وكي ندرك أنه ليس من يغيثنا سوى أنفسنا . المجموع للفرد ، والفرد للمجموع، ذلك يجب ان يكون شعارنا اذا أردنا التغلب على العدو .

فصاح ماخوتين ، وهو يهز قبضته في الهواء :

– انه يقول الحقيقة ، ايها الاخوان !

وتابع بافل :

– ادعوا المدير !

وكأن إعصاراً مباغتاً من ريح صرصر جفول اكتسح الحشد بأسره ، فترنح كموجة عاتية ، فيما انطلقت عشرات الاصوات تصيح :

– ادعوا المدير !

– أرسلوا وفداً اليه !

شقت الام ، من جديد ، طريقها مقتربة من ولدها ، ونظرت اليه ووجهها يطفح فخراً واعتزازاً . هوذا بافل ، فتاها ، يقف بين هؤلاء العمال الشيوخ المحترمين ، والجميع اليه مصغون ، يوافقون على أقواله ... وكانت سعيدة لانه لم يحتدم غيظاً ، لا ولم يقسم الايمان المغلظة كما يفعل الباقون .

كانت الشتائم ، والهتافات ، والكلمات الجارحة ، تنهال من كل حدب وصوب كالبرَد فوق سطح من القصدير الرنان . وتطلع بافل نحو القوم الذين احتفوا به ، وبدا عليه أنه يفتش عن شيء ما بعينيه الواسعتين العريضتين .

– عيّنوا الوفد !

– فلاسوف !

– ريبين ، فان له أسناناً مخيفة .

وفجأة ، تعالت هتافات مكتومة بين المحتشدين :

– لقد جاء من تلقاء نفسه .

– المدير ، المدير !

وأفسح المتجمهرون الطريق لرجل طويل القامة ، متطاول الوجه ، مدبب اللحية :

– اسمحوا لي .

كان يقول ذلك ، وهو يدفع العمال عن طريقه باشارة خفيفة من يـــده لم يكن يريدها ان تنال منهم مساً . وكانت عيناه متضيقتين ، وهو يتفحص وجوه العمال بنظرات خبيرة تدل عن سيد للرجال واسع التجربة . وأخذ القوم ينتزعون قبعاتهم وينحنون له أثناء مروره ، فيما هو يتابع طريقه دون ان يردّ

تحياتهم ، زارعاً الصمت والبلبلة بين المحتشدين الذين طفقوا يبتسمون في حيرة واضطراب ، ويرسلون صيحات مكتومة كالاطفال حين يعبّرون عن ندمهم وتوبتهم بعد ان يضبطوا في الجرم المشهود .

واجتاز الام ، فانزلقت نظراته القاسية على وجهها انزلاقاً ، ثم توقف تجاه كومة الحديد . ومدّ أحدهم يده ليساعده على اعتلائها، فرفض تلك اليد وتسلق الكومة من تلقاء نفسه بحركة نشيطة ، ووقف مقابل بافل وسيزوف :

– ما معنى هذا الاجتماع ؟ ولماذا توقفتم عن العمل ؟

خيّم الصمت برهة وجيزة ، وتموجت رؤوس القوم كسنابل القمح ، ولوّح سيزوف بقبعته ، وهز كتفيه ، وصر الى الارض مطرقاً .

صاح المدير بحدة :

– أجيبوا على سؤالي .

فتقدم بافل وقال في صوت مرتفع ، وهو يشير الى سيزوف وريبين :

– لقد انتخب ثلاثتنا ، من قبل رفاقنا ، كي نطلب اليك إلغاء قرارك المتعلق بحسم الكوبيك .

فسأل المدير ، دون ان يتكلف التطلع الى بافل :

– لِمَ ؟

فأجاب بافل بصوت مرتفع ايضاً :

– لاننا نعتبر مثل هذه الضريبة ظلماً .

– أتعتقدون ان نيتي في تجفيف المستنقع أملتها عليّ الرغبة في استثمار العمال لا الرغبة في تحسين شروط معيشتهم ؟ أهذا ما تظنون ؟

فهمهم بافل :

– نعم !

فاستدار المدير الى ريبين ، وسأل :

– وأنت ايضاً ؟

– اننا جميعاً نعتقد الشيء نفسه .

فاستدار الى سيزوف :

– وأنت ، ايها الرجل الطيب ؟

– وانا ايضاً ، ليفضل ان تترك لنا كوبيكاتنا هذه .

ونكس سيزوف رأسه مرة اخرى ، وعلت شفتيه ابتسامة مذنبة .

فاكتسح المدير الجمهور بنظرة بطيئة ، وهز كتفيه ، ثم استدار نحو بافل وحدجه بنظرة فاحصة :

– يبدو عليك انك رجل مثقف نوعاً ما . أيعقل انك ، انت الآخر ، لا تدرك حسنات مثل هذا التدبير ؟

فأجاب بافل بصوت أراده ان يكون مسموعاً من الجميع :

– لو ان المعمل يجفف المستنقع على حسابه الخاص ، لأدركنا جميعاً عندئذ تلك الحسنات .

فقال المدير في جفوة :

– ليس المعمل مؤسسة خيرية . اني آمركم جميعاً بالعودة الى عملكم .

وشرع يهبط عن الكومة ، وهو يتحسس الحديد بعناية فائقة ، دون ان ينظر الى اي من المحتشدين .

فارتفع دويٌ استياء شديد من الحشد ...

توقف المدير مكانه ، وسأل :

– ما بالكم ؟

فحطّم السكونَ صوتٌ وحيد :

– إذهب واشتغل بنفسك .

فرَعد المدير في جفاء ، وبلهجة ذات مغزى :

– ان لم تعودوا الى العمل في خمس عشرة دقيقة ، فسأصدر أمري بتسريحكم جميعاً .

وشق طريقه مرة أخرى وسط الحشد ، فاذا زمجرة ثقيلة ترتفع خلفه هذه المرة وتروح تشتد كلما ابتعد ...

– جربوا ان تتكلموا معه !

– إليكم عدالتكم ! يا لها من حياة !

واستداروا نحو بافل ، وصاحوا :

– ماذا ينبغي علينا ان نفعل الآن ، أيها اللبيب ؟

– لقد ألقيت خطبة رائعة ، ولكن عندما أطلّ الرئيس بوجهه تبدلت جهة الريح .

– هيا يا فلاسوف ، قل لنا ما نفعل .

ولما ازدادت الاسئلة والصيحات إلحاحاً ولجاجة ، قال بافل :

– إني أقترح ، أيها الرفاق ، ان نترك العمل حتى يتنازل عن فكرة الحسم الجائرة .

فقفزت التعليقات في هياج وانفعال شديدين :

– أتعتقد اننا مجانين لا ندرك ؟

– ولكن هذا يعني الاضراب !

– أمن اجل كوبيكين اصفرين نفعل ذلك ؟

– لماذا لا ُنضرب ؟

– سيسرحوننا جميعاً !

– ومن يقوم بالعمل له عندئذ ؟

– انه سيجد الكثيرين الذين يرضون بذلك .

– يا للخونة !

١٣

هبط بافل عن كومة الحديد ، واتخذ موقفه الى جانب أمه .

كان هياج شديد يطغي على الحشد كله فيلغطون ، ويتناقشون ، ويتصايحون في حمية فائقة .

واقترب ريبين من بافل ، وقال له :

– انك لن تستطيع أبداً ان تحملهم على الاضراب . هم جماعة شرهون جداً ولكنهم بليدون خامدون ، تلك هي القضية ! ولن يتبعك اكثر من ثلاثمائة منهم . ان السماد كثير جداً ، ولن تستطيع مذراة واحدة ان ترفعه كله ...

واعتصم بافل بالصمت ... كان الحشد الاسود الجسيم يتموج امامه ، يبحث عن عينيه في رجاء ملحاح . وراح قلبه يخفق في لوعة ، وبدت له كلماته وقد تلاشت دون ان تترك اي أثر ، مثل قطرات منفردة من المطر سقطت على أرض ظمأى . واقترب العمال منه ، الواحد تلو الآخر ، يهنئونه على خطابه ، ويبدون جميعاً ارتيابهم من نجاح الاضراب لأن العمال ، في رأيهم ، لم يدركوا بعد قوتهم جيداً ، ولم يفهموا مصلحتهم كما يجب .

كانت موجة من الاستياء تغمر قلب بافل الذي شرع يشك في قوته . انه يشكو صداعاً يثقل على رأسه ، ويحسّ خواء هائلاً في هذا الرأس المتعب . ولقد كانت الحماسة تفعم قلبه فيما مضى ، اذ يتصور انتصار الحقيقة التي يتعشقها ، أما

الآن فقد اصبح ذلك الايمان يبدو له ، بعد ان أفاض بالتعبير عنه أمام ذلك الحشد، شاحباً، ضعيفاً، أعجز عن الوصول الى تحقيق أبسط الامور وأيسرها . وطفق يتهم نفسه . كان يحسب انه خلع على حلمه ثوباً لا يليق به ، ثوباً قاتماً ، حقيراً، أخفى عن عيون العمال جمال الحقيقة التي يكسوها وأبعدهم عن روعتها . وعاد الى بيته متعباً ، ذليلاً ، مطأطأ الرأس ، يتبعه – عن قرب – امه وسيزوف ، فيما ريبين يسير بجانبه ، ولا ينقطع عن الطنين في أذنه :

– لقد تكلمت حسناً ، وانما لم تتوجه الى القلب . تلك هي القضية ! ينبغي عليك ان تتحدث الى قلوبهم وان تلقي بالشرر في المركز بالضبط . لست تستطيع إقناع الشعب بمحاكمتك ، فهذا الحذاء لا يناسب تلك القدم ، انه صغير جداً وضيق جداً .

وكان سيزوف يقول :

– لقد حان الوقت لكي نفتش ، نحن الشيوخ ، عن مكان لنا في المقبرة يا بيلاجيا . ثمة نوع جديد من البشر ينمو حالياً . كيف عشنا ، انت وانا، جاثيين على ركبنا ، ضاربين الارض بجباهنا ، منحنيين لمن هم أفضل منا . اما في هذه الايام ، فلعلّ الناس استعادوا رشْدهم – لست أدري – او لعلهم يرتكبون خطأ أفدح منا ، ولكنهم ليسوا مثلنا على أية حال . خذي الشبيبة مثلاً، هم يخاطبون اليوم المدير وكأنهم مساوون له ... حسناً ، وداعاً ، يا بافل ميخائيلوفيتش . لقد كانت طريقتك في الدفاع عن الشعب رائعة حقاً . فليكن الله في عونك .

ومضى ...

غمغم ريبين :

– هيا ، اذهب ، وامضِ الى الموت ! ان الناس أمثاله ليسوا بكائنات انسانية ، بل طين يصلح ان يكون ملاطاً للحجارة . لاحظ مَنْ صاحوا

يريدونك ان تكون موفَداً ، يا بافل . انهم هم الذين أذاعوا تلك الاشاعات القائلة انك اشتراكي مشاغب . انهم هم انفسهم . لقد فكروا : انه سيسرّح ، وهو يستحقّ ذلك .

فقال بافل :

– انهم على حق ، اذا اعتبرنا الاشياء من وجهة نظرهم .

– الذئاب ايضاً على حق عندما تمزق اخوتها إرباً إرباً .

كانت سحابة غبراء تغشى وجه ريبين ، وصوته يكشف عن اضطراب غير معهود :

– ان الناس لا يريدون الاستماع الى الكلمات العارية – يجب ان تتألم ، ينبغي ان تغمس كلماتك في الدم ...

ظل بافل طوال النهار حائراً مبلبل الفكر ، يتنقّل في أرجاء الدار على غير هدى ، متعباً ، كئيباً ، مضطرباً بصورة غريبة ، تلتهب عيناه وتبدوان كأنهما تفتشان عن شيء ضائع . أدركت الام ذلك فاستوضحته في حذر :

– ما بالك ، يا باشا ؟

– لقد أصابني صداع .

– هلا اضطجعت ، وسأدعو لك طبيباً .

فأسرع يجيب :

– كلا ، لا تزعجي نفسك .

ثم أضاف ، في همس خفيض :

– اني صغير جداً وضعيف جداً . ذلك هو العناء . انهم لا يصدقونني ، ولا ينضمُّون الى قضيتي ، وهذا يعني اني لا أعرف ان أشرحها لهم وأبيِّن معانيها . اني أحسّ بعجزي وبالاشمئزاز من نفسي .

فشخصت الى وجهه المتأمّل ، وسعت الى مواساته فأعلنت في رقة :

– انتظر . لسوف يفهمون غداً ما لم يفهموا اليوم .

فهتف :

– لقد آن لهم ان يفهموا !

– حتى انا أرى أنك على حق .

فاقترب بافل منها :

– انت رائعة ، يا أماه .

قال هذا ، ثم استدار عنها مبتعداً، فأجفلت وكأنما طعنتها كلماته الهادئة . والتفتت اليه ، ويدها تضغط على قلبها ، تنعم بعطفه وحنانه ...

في تلك الليلة بعد ان رقد واضطجع بافل في سريره يقرأ كعادته، جاء رجال الدرك وأخذوا ينقبون البيت وهم يهددون في غضب ، يصعدون الى السطح ويخرجون الى الفناء في حركة دائبة. وتصرّف الضابط الاصفر الوجه في سخرية مهينة كما فعل في المرة الاولى ، وهو يتلذذ بتصويب طعناته الى القلب من بافل وأمه . وقبعت الام صامتة في احدى الزوايا لا تحيد بعينيها عن وجه فتاها الذي يحاول إخفاء عواطفه ، وان كانت أصابعه تهتز كلما ضحك الضابط . وأدركت مبلغ ما يبذل من جهدٍ ومن ألم كي يمتنع عن الرد عليه ، ومبلغ ما يحز في قلبه وهو يتحمل نكات الدرك وسخريتهم . ولم تكن خائفة هذه المرة مثلها في المرة الاولى . لقد نما بغضها لهؤلاء الضيوف الرماديين الليليين فاستهلك مخاوفها وطغى عليها .

وهمس بافل في أذنها :

– سيأخذونني معهم .

فأجابت بصوت خافت ، وهي تحني رأسها :

ـ أعلم ذلك .

انها تدرك انهم سيلقون به في السجن بسبب مـــا قاله للعمال في ذلك الصباح ... ولكن الجميع وافقوه فيما ذهب اليه . وهكذا فسوف يهبون كرجل واحد للدفاع عنه بحيث لن يطول اعتقاله ...



ألقت رأسها الى الوراء ، وأطلقت صيحة طويلة بطيئة ...

وأرادت ان تلقي بذراعيها حول عنقه ، وان تبكي . وكان الضابط يقف الى جانبها يراقبها بعينيه الضيقتين ، ترتجف شفتاه وشارباه وكأنه يضحك في

سره . وصوّر لبيلاجيا ان هذا الرجل انما ينتظر دموعها ، وشكاواها وتوسلاتها فجمعت كل قواها ، وضغطت على يد ابنها وهي تقول ببطء ، وصوت خافت ، وتنفس ضعيف :

– الى اللقاء ، يا باشا ! هل أخذت جميع ما تحتاج اليه ؟

– نعم . لا تستوحشي !

– فليكن الله معك ...

وبعدما ساقوه بعيداً تهالكت على دكة ، وراحت تجهش في البكاء دون ضوضاء . جلست وظهرها الى الحائط ، كما اعتاد زوجها ان يفعل ، يرهقها الحزن والادراك المؤلم لعجزها وضعفها . ألقت رأسها الى الوراء ، واطلقت صيحة طويلة بطيئة سكبت فيها كل مرارة قلبها المكلوم ، بينما طفق ذلك الوجه الاصفر الجامد بشاربيه الرفيعين ، وعينيه الضيقتين اللتين تبرقان سروراً ولذة ، يُثقل على فكرها ويعذبها . وتراكمت في صدرها سحب سود من المرارة والكراهية لأولئك الناس الذين يحرمون الأمهات من أبنائهن لأن هؤلاء يسعون وراء العدالة والحقّ ليس غير .

كان البرد قاسياً ، وقطرات المطر تضرب على النوافذ في عنف ، وهُدْهِدَ لها ان اشباحاً ذات وجوه حمر لا عيون فيها ، وسواعد طويلة جداً ، تخطو في الليل حول بيتها كالحرس ، ومهاميزها تدوّي في خفوت . جمجمت في فكرها :

– لو انهم اخذوني ، انا الأخرى !

ودوّت الصفارة تدعو الناس الى العمل ، فارتفع دويها ذلك الصباح بطيئاً ، أجش الصوت ، متردداً .

وأبلق الباب ودلف ريبين منه . وقف تجاهها وسأل ، ماسحاً عن لحيته قطرات المطر :

– هل أخذوه ؟

فأجابت ، وهي تلنهد :

– نعم ، لقد فعلوا ! لعنة الله عليهم !

فضحك ريبين ضحكة مقتضبة ، وقال :

– كان يجب ان ينتظر ذلك . لقد فتشوا بيتي أيضاً ، ومروا بأصابعهم على كل شيء ، وتفوهوا بشتائم كثيرة . انما لم يرتكبوا إلا قليلاً من الأذى . وهكذا ، لقد أخذوا بافل اذن ! ان المدير يغمز بعينيه ، والدركي يومىء برأسه ، واذا شخص آخر موقوف ! انهما متفاهمان على العمل بصورة مدهشة ، فأحدهما يمسك الشعب من القرنين ، والآخر يستدر لبنه حتى يجف .

صاحت الأم ، وهي تنهض :

– ينبغي لكم ان تدافعوا عن بافل . فما فعله كان في سبيل الجميع .

– من ينبغي له ؟

– الجميع !

– كذا اذن ، فذلك هو رأيك ؟ هذا لن يحدث أبداً ! انهم يستجمعون قواهم منذ مئات السنين ... وقد اغمدوا في قلوبنا عدداً لا يحصى من الحراب ، فكيف نستطيع توحيد صفوفنا دفعة واحدة ؟ يجب أولاً ان ننزع تلك الحراب ، بعضنا من قلوب البعض ... تلك الحراب هي التي تحول دون تكتُّلنا في صفوف متراصة متحدة .

ومضى بخطا وئيدة وهو يضحك ... وقد تركت كلماتُه اليائسة الأمَ اكثر بؤساً منها في أي وقت آخر .

– ماذا اذا ضربوه ؟ اذا عذبوه ؟ ...

وتخيلت جسد ولدها محطماً يدمى من الضرب ، فعصف بقلبها خوف بارد ، وراحت عيناها توجعانها .

وفي ذلك اليوم ، لم تشعل النار في الموقد ، ولم تهيىء غدائها ، ولم تحتسي الشاي . واذ حلّ المساء، تناولت كسرة من الخبز فقط . ولما حبت الى فراشها تلك الليلة، أحست ان حياتها لم تكن في يوم من الأيام باردة موحشة مثلها الآن. لقـــد اعتادت ، خلال السنين القليلة الأخيرة ، ان تعيش وهي تتوقع باستمرار شيئاً عظيماً رائعاً ، محوطاً بنشاط الشبان المبتهج وضجيجهم ، معتادة على رؤية وجه ابنها المحرّض على تلك الحياة الجيدة ، لكن الخطرة في الوقت ذاته . أما الآن ، فلقد ذهب ... وذهب معه كل شيء آخر ...

١٤

لم ينقض ذلك النهار ، والليلة التي أعقبته ، إلا بعد طول سهاد لا ينتهي . وحلّ اليوم التالي ، فاذا هو يجرُّ أذياله أكثر تمهلاً من اليوم السابق . كانت تنتظر وفود شخص ما ، لا تدري هويته على وجه التحقيق ، لكن أحداً لم يأتِ . وهبــط المساء ، وجُنَّ ... الليل ايضاً . وزفر المطر البارد فوق الجدران وتدحرج عليها ؛ وصفرت الرياح ، وهي تعصف من خلال المدخنة ؛ وأسرع شيء يجري تحت أرض المنزل مثيراً ضوضاء خافتة ؛ وانزلقت قطرات من المطر عن السطوح ، فاختلط صدى سقوطها على الارض مع دقات الساعة بصورة غريبة ؛ وبدا لها المنزل بكامله وكأنه يتأرجح مترنحاً ، وقد أحال الحزن كل ما يحيط بها غريباً ، ميتاً ، عديم الحياة ...

وقُرع زجاج النافذة ... مرة ... مرتين . كانت قد تعودت مثل هذا القرع فلم يعد يخيفها مطلقاً ، ولكنها هبت هذه المرة في انتفاضة سرور ، وقد لمست شرارة غبطة قلبها الكئيب . ان آمالاً غامضة غير منتظرة تهيب بها ، فتلقي على كتفيها وشاحاً ، وتهرول الى الباب تفتحه .

ودخل صموئيلوف ، يتبعه شخص آخر اختبأ وجهــه وراء ياقة معطفه المرفوعة ، والقبعة الغارقة في جبينه حتى الحاجبين . سألها صموئيلوف ، دون ان يلقي عليها تحية المساء :

أأيقظناك ؟

كان صوته ، على خلاف عادته ، قلقاً مكتئباً ...

أجابت الام ، وهي تراقب القادمين بنظرات مستفهمة :

– لم أكن نائمة .

ونزع رفيق صموئيلوف القبعة عن رأسه ، وصعّد زفرة عميقة مبحوحة ، ومدّ للأم يداً عريضة غليظة الاصابع ، وهو يسألها مثل صديق قديم :

– سلاماً ، يا أماه ! أفلا تذكرينني !

فهتفت بيلاجيا ، وقد أحست بالسعادة بغتة لسبب لم تدركه جيداً :

– أهذا انت ، يا ييجور ايفانوفيتش ؟

فأجاب ، وهو يومىء برأسه العريض الذي طال شعره حتى أشبه رأس شماس الكنيسة :

– هو ذاته !

كانت ابتسامة جميلة تعلو محياه ، وعيناه الصغيرتان الرماديتان ترنوان بعطف جم الى الام . وكان في نظر جميع الناس أشبه بالسماور ، صغير القامة ، مستدير الجثة ، ثخين العنق ، قصير الذراعين . وكان وجهه يبرق بكل أساريره ، وتنفسه صاخباً يجيش ويدمدم على الدوام بشيء غريب يجتاح صدره بعمق وسعة .

قالت الام :

– أدخلا الغرفة الاخرى ريثما أرتدي ثيابي .

قال صموئيلوف بصوت مرتفع :

– ان نيقولاي إيفانوفيتش ، وانتِ فيما يبدو تعرفينه جيداً ، قد خرج من السجن هذا الصباح ، يا أم ...

فقاطعته الأم بقولها :

– ما كنت أدري انه في السجن .

– لقد بقي فيه طوال شهرين وأحد عشر يوماً ، وشاهد الاوكراني هناك ، وهــذا الأخير يهديكِ تحياته ، وكذلك شاهد بافل الذي يسألك ألا تقلقي أبداً . وهو يقول أخبروها ان كلّ من اختار طريقه فقد اختارها بكل ثقة كي يتمتع من حينٍ لآخر بلذة الراحة في السجن ، وهذا ما يكفله لنا حرص رؤسائنا الدائب وعطفهم علينا . والآن ، فسأنتقل الى العمل ، يا أماه : هل تعلمين عدد الأشخاص الذين اعتـُقلوا البارحة ؟

فهتفت الأم :

– لماذا ؟ وهل أوقف احد خلاف بافل ؟

فقاطعها ييجور إيفانوفيتش بهدوء قائلاً :

– لقد كان بافل الموقوف التاسع والأربعين ، ولا ريب ان الادارة ستسعى الى توقيف عشرة آخرين . هذا الشاب مثلاً .

فقال صموئيلوف عابساً :

– نعم ، أنا ايضاً .

وأحست بيلاجيا ان التنفس ، لسببٍ ما ، قد أصبح أيسر عليها . وومضت هذه الفكرة خلال ذهنها :

– على الأقل ، فهو ليس وحيداً هناك .

وعندما انتهت من ارتداء ثيابها لحقت بضيفيها ، وهي تبتسم لهما في مرح :

– لست اعتقــد انهم سيحتفظون بهم طويلاً ما داموا أخذوا هذا العدد الكثير .

فقال ييجور إيفانوفيتش :

— لقد أصبتِ . واذا استطعنا ان نفسد عليهم ـ بطريقةٍ ما ـ هذا المشهد، فلسوف يتراجعون وقد لفوا أذنابهم بين أقدامهم . وإليك المشكلة كلها : اذا توقفنا عن توزيع المناشير في المعمل ، فان رجال الدرك سيستفيدون من هذه الفرصة ويستغلونها ضد بافل وبقية رفاقه النبلاء المعتقلين .

فصاحت الأم في جزع :

— ماذا تعني ؟

فأجاب ييجور إيفانوفيتش في هدوء :

— الأمر بسيط جداً ، يا أم ! ان الدرك يفكرون احياناً بصورة منطقية ويجيدون الاستنتاج . تصوري ذلك جيداً : لقد كان بافل طليقاً ... فكانت هناك صحف ومناشير . لقد اعتُقل بافل ... فلم يعد هناك صحف او مناشير . النتيجة : لقد كان بافل هو الذي يوزع تلك الصحف والمناشير ، أليس كذلك ؟ وعندئذ يأخذون يتهمون الجميع . لقد اعتاد رجال الدرك افتراس الناس بصورة فظيعة ، حتى لا يتركوا منهم إلا بعض آثار لا تغني شيئاً .

فجمجمت الام في كآبة :

— إني أفهم ، يا إلهي ! ولكن ماذا عسانا نفعل في هذا الشأن ؟

فجاء صوت صموئيلوف من المطبخ يقول :

— لقد ألقوا القبض على سائر رفاقنا تقريباً ، فليأخذهم الشيطان . وينبغي علينا متابعة العمل الآن، لا من اجل قضيتنا فحسب ، بل كي ننقذ رفاقنا ايضاً.

وأضاف ييجور ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

— وليس ثمة من يعمل. ان لدينا الكثير من المناشير الرائعة، أعددتها بنفسي جميعها . ولكن ، كيف السبيل لادخالها الى المعمل ؟ ... تلك مشكلة لم نجد لها حلاً بعد .

وقال صموئيلوف :

– لقد شرعوا يفتّشون سائر الداخلين عند البوابة .

وأحست الام انهما ينتظران منها شيئاً ، فقالت في لهفة :

– كيف يمكن إنجاز ذلك ؟ كيف ؟

فظهر صموئيلوف في مدخل الباب :

– ألك معرفة بالبائعة كورزونوفا ، يا بيلاجيا نيلوفنا ؟

– نعم ، وماذا في ذلك ؟

– تحدثي إليها ، ولعلها تقبل ان تحمل المناشير الى الداخل .

فهزّت الام رأسها معارضة ، وقالت :

– أوه ، كلّا ! انها ثرثارة . ومنذ اللحظة التي يعرفون فيها انها حصلتْ عليها بواسطتي ... ان المناشير تخرج من هذا البيت ... أوه كلّا !

ثم أضافت ، على حين غرة ، وكأن وحياً هبط عليها :

– أعطيانيها ... لي انا ! وسأدبر الامر وأجد طريقة ناجعة . سأطلب الى ماريا ان تصطحبني كمساعدة لها ، اذ لا بدّ لي من كسب عيشي بطريقة ما ، وهكذا سأحمل طعاماً لأبيعه للعمال في المصنع ... سأدبر الأمر على أحسن وجه ...

وضمت يديها الى صدرها ، وأسرعت تؤكد لزائريها أنها ستنجز كل شيء على أكمل وجه دون ان تلفت الانظار ، او تسمح بافتضاحِ أمرها . ثم أضافت اخيراً في شبه إشراق :

– وليروا ان يد بافل تمتد إليهم حتى من السجن ، فليروا ذلك جيداً .

أشرق وجه الثلاثة معاً ، وفرك ييجور إيفانوفيتش يديه وقال :

– عظيم ، يا أم ! لا بل انك لا تقدّرين روعة ذلك . انه ، بكل بساطة ، فخم للغاية .

وقال صموئيلوف ، وهو يفرك يديه ايضاً :

– اذ نجح هذا فسأذهب الى السجن وكأني ذاهب الى فراش النوم .

وصاح ييجور بصوت أبح :

– إنك أروع نساء العالم إطلاقاً ، يا أم ! إنك كنزٌ لا يقدّر بثمن .

فابتسمت الام . . . كان من الواضح بالنسبة إليها ان الادارة لا تستطيع اتهام بافل بتوزيع المناشير ، اذا استمرت هذه على الظهور في المعمل . وشعرت انها قادرة على القيام بهذا الواجب ، فارتعش جسدها كله فرحاً وبهجة .

قال ييجور :

– عندما تزورين بافل في سجنه ، أخبريه ان له أماً رائعة .

فضحك صموئيلوف ، وقال :

– سوف أكون الأسبق الى رؤيته .

– قل له إني سأقوم بكل ما يجب ، وليطمئن بالاً .

وسأل ييجور :

– واذا لم يرسلوا صموئيلوف الى السجن ؟

– إذن ، فلا حيلة لنا في ذلك .

وانفجر كلا الرجلين ضحكاً . وعندما أدركت الام غفلتها ، راحت هي الاخرى تضحك في ارتباك هادىء ، وقد انحنت قليلاً الى الامام . ثم قالت ، مطرقة الى الارض ببصرها :

– ما أصعب ان يرى المرء الآخرين يزعجون أنفسهم من اجل ذويه ؟!

فهتف ييجور :

– ذلك طبيعي جداً ، ثم لا تجزعي من اجل بافل ولا تُراعي ، فلسوف يعود من السجن أفضل منه حين دخل اليه . فالمرء يجد هناك راحة جيدة وفرصة للتحصيل ايضاً ، وهذا ما لا يتهيأ لأمثالنا وقتما نكون أحراراً طليقين . لقد دخلت السجن ثلاث مرات ، وكل مرة خرجت بجليل الفائدة قلباً وعقلاً ، ولو لم يكن ذلك لذة بالمعنى الصحيح للكلمة .

فقالت ، وهي تتطلع الى وجهه ، بصراحة ودون مواربة :

– ان التنفس يكلـّفك جهداً كبيراً .

فرفع إصبعه في وجهها ، وأجابها :

– ان لذلك سبباً خاصاً . إذن ، فلقد اتفقنا على كل شيء ، يا أم ؟ غداً سأرسل تلك البضاعة إليك ، فيأخذ الدولاب بالدوران من جديد مبدداً ظلمات العصور . والآن ، لا مناص من ان نهتف مرحى ثلاث مرات من أجل حرية الكلام ، وثلاث مرات من اجل القلب الانساني ايضاً . الى اللقاء في فرصة اخرى .

وقال صموئيلوف ، وهو يصافحها :

– وداعاً . لم يكن في استطاعتي اقتراح مثل هذا الأمر على أمي نفسها .

فقالت بيلاجيا ، وهي تودُّ التخفيف عنه :

– الجميع سيفهمون يوماً ما .

وبعد ان مضيا أترست الباب خلفهما بالمزلاج ، وجثت في وسط الغرفة تمزج صلواتها بأصداء المطر المتساقط . كانت تصلي دون كلمات ، لمجرد قلقها على أولئك القوم الذين أدخلهم بافل في حياتها . وهُدْهِدَ اليها أن سائر هؤلاء الناس البسطاء ،

القريبين الى بعضهم البعض بصورة غريبة ، الوحيدين مع ذلك من دون البشر جميعاً ، هُدْهِدَ اليها أنهم يتحركون رائحين غادين بينها وبين الأيقونات .

وفي صباح اليوم التالي ذهبت لزيارة ماريا كورزونوفا في ساعة مبكرة ، فاستقبلتها هذه وسخة الثياب كثيرة الضوضاء كعادتها أبداً ، واستوضحتها في لطف وهي تضرب على كتفها بيد قذرة :

– أتحسين الوحدة ؟ خففي عنك ! لقد امسكوا به وساقوه بعيداً ، أليس كذلك ؟ حسناً ، فليس ثمة ما يخجل المرء منه . لقد كانوا قبلاً يسجنون الناس لأنهم يسرقون ، اما الآن فهم يزجون بهم هناك لأنهم يقولون الحقيقة . لعل بافل لم يفه بما كان يجب عليه ان يقول ، ولكن ما فعله كان من اجل صالح الجميع ، والكل يعرفون ذلك ، فلا تقلقي . حتى اذا رفضوا الاعتراف به ، فانهم يعلمون على الأقل من هو المذنب في هذا كله . لقد أردت ان آتي لزيارتك ، ولكني لم اجد فسحة من الوقت ، فالنهار ينقضي في الطبخ والبيع ، ولكنك سترين ... أني سأموت شحادة تستندي الأكفَّ رغم كل شيء . مـــا أبشع ذلك ! انهم يسرقونني هنا ، ويسرقونني هناك ، مثل سرب من الصراصير ! وكلمـــا اقتصدت عشرة روبلات جاء أحد أولئك السكيرين وابتلعها . ان يُرزق المرء امرأة ، تلك صفقة خاسرة محزنة ! ذلك آخر ما أتمنى لأي انسان على الارض . اذا عشت وحيدةً ... فالحياة لا معنى لها ، وان أتاكِ رجلٌ ... فقد انتهت حياتك اذن ...

فقالت بيلاجيا ، تقطع عليها ثرثرتها :

– لقد جئت اسألك ان تتخذيني مساعدة لك .

– ما معنى هذا ؟

وحينما شرحت لها الام ما ترمي اليه وتصبو ، هزت ماريا رأسها وأعلنت :

– طبعاً . أتذكرين كيف كنت تخبئينني من زوجي ؟ والآن فاني سأخفيك

عن الجوع . ان من واجب الجميع ان يقدموا العون لك ، باعتبار ان ابنك اعتُقِل في سبيل المصلحة العامة ... انه فتى رائع ، والجميع يقولون ذلك وهم يشعرون جميعاً بالأسف من اجله . صدقيني ... لن يستفيد الرؤساء شيئاً من هذه الاعتقالات . أنظري الى ما يجري في المعمل ! الأمور سيئة للغاية هناك ، يا عزيزتي . انهم يعتقدون ، هؤلاء الرؤساء ، انهم اذا نهشوا المرء من عقبيــه فسيتوقف عن الركض . انهم يضربون عشرة . فاذا مائة يجنون . فليحذروا من الشعب ، فهو يتحمّل طويلاً ، ولكنه ينفجر بعنف في النهاية .

وظهرت الام ، بنتيجة هذا الحديث ، في المعمل ظهر اليوم التالي ، وهي تحمل سلتين مملوءتين بأطعمة ماريا ، بينما ذهبت البائعة نفسها الى السوق تعقد هناك الصفقات مع التجار .

١٥

التفّ العمال حول البائعة الجديدة في الحال ، وسألوها وهم يهزون رؤوسهم دلالة الموافقة :

– أبدأتِ تعملين ، يا بيلاجيا !

وأسرع بعضهم يؤكدون لها ان غيبة بافل لن تطول ، وحرّك آخرون عواطفها بكلمات قليلة عطوفة . لا بل ذهب البعض الى أبعد من ذلك فلعنوا المدير والدرك ، الامر الذي وجد له صدىً وترجيعاً حلوين في قلبها المكلوم . ولكنها لم تعدم من يتفرّس فيها بنظرات تعبر عن الرضى والسرور . بل إن اشعيا غوربوف ، مراقب الدوام ، قال لها من خلال اسنانه المنطبقة :

– لو كنتُ الحاكم لشنقت ابنك ! وهو يستحق ذلك لانه يقود الناس نحو الضلال .

أرسل هذا الوعيد السافل قشعريرة باردة في جميع أعضائها. ولم تجب اشعيا، بل اكتفت بالنظر طويلاً في وجهـــه الصغير المغضّن ثم أطرقت بعينيها وهي تصعّد الزفرات .

كان المصنع يفور باضطراب شديد ويمـــور ؛ والعمال يتكتلون في جماعات صغيرة يتهامسون ويلغطون ؛ والمراقبون القلقون ينقلون من مكان الى آخر ؛ والشتائم ترتفع من هنا وهناك ، ترافقها في بعض الاحيان ضحكات خبيثة .

ومرَّ بجانبها شرطيان يقودان صموئيلوف . كان يسير بينهما ويده الواحدة في جيبه ، ويده الاخرى تعبث بشعره ، يتبعهم حوالي مئة من العمال يشتمون الشرطيين ويوسعونهما سخرية وتهكماً . هتف أحدهم :

– أأنت ذاهب في عطلة ، يا صموئيلوف ؟

وأضاف آخرون :

– إنهم يكرِّمون رفاقنا في هذه الايام ، ويرسلون إلينا حرساً يرافقوننا في تطوافنا .

وتبع ذلك شتيمة بذيئة ...

صاح عامل طويل أعور :

– يبدو ان إلقاء القبض على اللصوص لم يعد اليوم أمراً ذا بال ، وهكذا فقد شرعوا يعتقلون الناس الشرفاء .

وارتفع صوت من بين ذلك الحشد يقول :

– لو انهم يتحلون بما يكفي من الادب فيمسكوهم ليلاً على الاقل . ولكنهم يفعلون ذلك في وضح النهار ... أولئك الكلاب .

عبس الشرطيان ، وراحا يستحثّان الخطا محاولَيْن ألا يلاحظا شيئاً ، متظاهرَين انهما لا يسمعان تلك النعوت المنهالة عليهما من كل حدب وصوب ...

وتقدم منهما ثلاثة عمال يحملون قضباناً طويلة من المعدن ، وهم يصيحون :

– حذارِ ، ايها الصيادان !

وأومأ صموئيلوف الى الام ، وقال باسماً :

– ها نحن ذاهبون الى هناك !

فانحنت له في صمت ... لقد أثـّر في قلبهـــا رؤية هؤلاء الفتيان الشرفاء الاذكياء يذهبون الى السجن وابتسامة تعلو شفاههم ، فطفحت نفسها عليهم بعاطفة الام الرؤوم وحنانها .

وبعدما عادت من العمل ، قضت بقية النهار مع ماريا تساعدها في عملها ، وتستمع إليها في ثرثرتها التي لا تنتهي . ولم تعُد الى بيتها الخـــاوي ، البارد ، الكئيب ، إلا في ساعة متأخرة من المساء . ظلت طويلاً تهيم على وجهها من مكان الى آخر ، مضطربة لا تجـــد السكينة الى قلبها درباً ، لا تدري ماذا تصنع بنفسها، يراودها القلق لان ييجور إيفانوفيتش قد تأخر كثيراً رغم هبوط الليل وحلول الظلام ، فلم يحمل اليها المناشير الموعودة بها .

وكانت ندف ثقيلة من ثلج الخريف تتساقط وراء النافذة ، متعلقة بإطارها برهة وجيزة من الزمن قبـــل ان تذوب بسكينة وتنزلق عنها تاركة وراءها خطوطاً ندية . وراحت تفكر في ولدها ...

وُقرع الباب في حذر ، فطارت الام اليه ترفع عنه المزلاج ، فدلفت منه ساشا . ان الأم لم ترها منذ زمن بعيـــدٍ بعيد ، فكانت أولى الانطباعات التي تركتها فيها الآن بدانة لم تعدها فيها من قبل قط .

هتفت بها مستبشرة بقدوم من يزجي ولو جزءاً صغيراً من الليـــل معها ، فينقذها من وحدتها المؤلمة :

– نعمتِ مساءً . لم أرك منذ زمن بعيد ، هل كنت في سفر ؟

فعالنتها الفتاة ، وهي تبتسم :

– كلا ، وإنما كنت في السجن ، أنا ونيقولاي إيفانوفيتش معاً ... هـــل تذكرينه ؟

– بالطبع أذكره ! لقد روى لي ييجور إيفانوفيتش البارحة أنهم أطلقوا

سراحه . ولكني لم أكن اعرف شيئاً عنـــك ... لم يذكر لي أحد مطلقاً انك كنتِ هناك انت الاخرى ...

فقالت ساشا ، وهي تجيل نظرها في الغرفة :

– لا بأس عليك . أرغب في تبديل ثيابي قبل قدوم ييجور إيفانوفيتش .

– لقد ابتللتِ كثيراً ؟

– لقد جلبت معي الصحف والمناشير ...

فصاحت الام في لهفة :

– هاتيها ! هاتيها !

فحلّت الفتاة أزرار معطفها وهزّت جسدها بقوة فاذا النشرات تتساقط على الارض كما تتساقط الاوراق عن أشجارها ، فتسرع الام في جمعها ضاحكة طروباً :

لقد كنت أتساءل من أين جئت بكل هذه السمنة حالما رأيتك ... ظننت أنك تزوجت ، وتنتظرين الآن وليداً . يا إلهي ! ما أكثر ما حملتِ ! هـــل قطعت الطريق بأسرها مشياً على الاقدام ؟

فقالت ساشا :

– نعم .

وعادت ، كعهد الام بها أبداً ، باسقة القامة ناحلة العود . ولكن بيلاجيـا لاحظت ان في خديها ضموراً زاد في اتساع عينيها ، وان ثمة دوائر سوداً تحيط بهما من الاسفل ، فهتفت وهي تزفر وتهز رأسها في أسى :

– وكيف تفعلين هذا ، وأنت في أشد الحاجة الى الراحة بعد خروجك من السجن البارحة فقط ؟

فقالت الفتاة المرتعشة الاوصال :

– هكذا اقتضى الامر . هاتي حدثيني عن بافل ميخائيلوفيتش . أكان شديد الاضطراب عندما أخذوه ؟

ولم تنظر ساشا الى الامام عندما طرحت هذا السؤال ، بل حنت رأسها ، وراحت تصفّف شعرها بأصابع مرتجفة . قالت الام :

– لم يضطرب كثيراً ، فهو ليس من الذين يخونهم جلَدُهم .

فسألت الفتاة في صوت مخفوض :

– أهو قوي البنية ؟

– لم يمرض قط في حياته . ولكنك ترتجفين بكليتك . لحظة وأقدم لك قدحاً من الشاي مع قليل من شراب العنَّاب .

– ذلك لطف عظيم منك ، إلا أنه سيزعجك كثيراً ... فالوقت متأخر جداً . دعيني أهيىء ذلك بنفسي .

فأجابت الام في لهجة عتاب ، وهي تضرم النار في السماور :

– أأتركك تفعلين وأنت على هذا الاعياء ؟

ودلفت ساشا بدورها الى المطبخ ، واقتعدت دكة هناك ، وقد وضعت احدى يديها فوق رأسها . قالت :

– لينهك السجن قوى الانسان في كل شيء . آه من ذلك المرض الملعون ! ليس شيء أسوأ منه ابداً ! عندما تعلمين ان هنالك كثيراً من العمل ، ومع ذلك فأنت تجلسين كالحيوانات في أقفاصها ...

فسألت الام :

– ومن سيكافئكم من أجل هذا كله ؟

ثم ردّت على سؤالها بنفسها ، وهي تتنهد :

– لا احد إلا الله ! ولكني اعتقد انك لا تؤمنين به أنت ايضاً .

فأجابت الفتاة في اقتضاب ، وهي تهز رأسها نفياً :

– كلا !

فقالت الام في اندفاع :

– لست أصدقكم .

ثم أضافت في اقتناع عميق راسخ ، وهي تمسح غبار الفحم عن أصابعها بمئزرها :

– أنتم لا تفهمون إيمانكم نفسه . كيف يمكن ان تعيشوا مثل هذه الحياة ان كنتم لا تؤمنون بالله ؟

وفجأة ، علا ضجيج أقدام في الرواق الخارجي وصدى غمغمة خافتة ، فأجفلت الام ، وهبت الفتاة على قدميها بسرعة وهمست :

– لا تفتحي الباب . اذا كانوا من الشرطة فانكريني ! ... لقد أخطأت المنزل وأغمي عليّ على وصيد الباب ، وأنت نضيتِ عني ثيابي ووجدت المناشير هل فهمتِ ؟

فأسرّت الام ، وقد تأثرت حتى اعماق قلبها :

– ايتها العزيزة المسكينة ، ولمَ يجب ان أقول هذا ؟

ونبرت الفتاة ، وهي تصيخ السمع عند الباب :

– انتظري لحظة ، فقد يكون ييجور ...

كان هو حقاً ، مبلل الثياب حتى الجسد ، تعباً حتى الاجهاد . قال :

– آه ! ارى انك أطلقتِ العنان للسماور ! ليس ما ينعش قواك ، يا أماه ، مثل السماور ابداً . وانتِ وصلت هنا ، يا ساشا ؟

واستمر يتكلم دون انقطاع ، وهو يخلع معطفه الثقيل ، ويملأ المطبخ بصدى تنفسه الأجش :

– ان السلطات لا تحب هذه الصغيرة ، يا أماه ، فاذا جرؤ السجان على إهانتها ، أعلنت الاضراب عن الطعام حتى يعتذر . ولقد ظلت طوال ثمانية أيام دون ان تأكل ، فأوشكت على مغادرة الحياة نتيجةً لذلك . ما رأيك في هذا ؟ ليس سيئاً ، أليس كذلك ؟ هل رأيت في حياتك مثل بطني ؟

وأمسك معدته المنتفخة بشكل يبعث على الضحك ، ومرق الى الغرفة الاخرى وهو لا ينقطع عن الحديث حتى اغلق الباب خلفه .

سألت الام في دهشة :

– أرفضتِ الطعام حقاً طوال ثمانية ايام ؟

فأجابت ساشا ، وهي ترتعش برداً :

– كان يجب ان افعل شيئاً لأجبره على الاعتذار .

ووجدت الام في صراحة الفتاة وثبات جأشها ظلاً من اللوم والعتاب . فكرت :

– تلك هي حقيقتها إذن !

واستفهمت بعد برهة :

– وماذا لو متّ ؟

فقالت الفتاة في صوت خافت :

– لم يكن لي في ذلك حيلة . ولكنه اعتذر ، لست تستطعين السماح للناس بالاعتلاء عليك .

فزمزمت الام في تماهل :

– ك ... ذا ! ومع ذلك فهذا كل ما يفعله الرجال ... ان يعتلوا علينا ، نحن النساء ، طوال حياتنا .

وقال ييجور ، وهو يفتح الباب :

– حسناً ، لقد تخلصت من حملي. هل جُهزَ السماور ؟ إسمحي لي باحضاره.

وحمل السماور الى الغرفة المجاورة ، قائلاً أثناء ذلك :

لقد كان ابي العزيز يشرب ما يقل عن عشرين قــدحاً من الشاي يومياً ، وبفضل ذلك عاش في سلام وصحة جيدة حتى الثالثة والسبعين، ووزنه يتجاوز المائة كيلو غراماً وهو يخدم كاهناً في مدينة فوسكريسنك ...

فهتفت الام :

– هل انت ابن الاب إيفان ؟

– هو كذلك ، ولكن من اين لك المعرفة بسيدي المحترم ؟

– اني من مدينة فوسكريسنك انا الاخرى .

– من مسقط رأسي إذن ؟ وابنة من تكونين ؟

– ابنة جيرانكم ، آل سيريجين .

– ابنة الاعرج نيل ؟ اني اعرفه جيداً ، فلقــد سنحت لي الفرصة السعيدة أكثر من مرة بالتمتع بشده أذنيَّ .

ووقفا تجاه بعضهما البعض يضحكان ويتطارحان آلاف الاسئلة . وراحت ساشا تنظر إليهما مبتسمة ، وهي تترشف الشاي في نهم كثير . ولكن رنــين الأقداح نبّه الام أخيراً الى واجباتها :

– أوه ، أرجو المعذرة . لقد استرسلت في الثرثرة وغابت كل الأشياء عن بالي ... حقاً ! ما أجمل ان يلقى المرء شخصاً آخر من مرتع صباه وملهى فتوته !

– بل انا التي يجب ان أستميحك العذر لاني تصرفت كما لو كنت في بيتي الخاص . لكن الساعة تجاوزت الحادية عشرة وما يزال أمامي طريق طويلة لا بدّ من عبورها .

فسألت الام في دهشة :

– الى اين تذهبين؟ أإلى المدينة ؟

– نعم .

– ولماذا تذهبين ؟ لقد هبط الليل ، والمطر ينهمر بشدة ، وأنت منهكة القوى شديدة الاعياء . إقضي الليل ههنا . سينام ييجور إيفانوفيتش في المطبخ. وننام، انت وانا ، هنا سوية .

فقالت الفتاة بكل بساطة :

– كلا ، يجب ان أذهب .

وقال ييجور :

– من سوء الحظ ان الآنسة مضطرة الى الذهاب. إنهم يعرفونها ههنا ويجب ألا تُرى غداً في الشوارع .

– لكن كيف تذهب ؟ وحدها ؟

فقال ييجور ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

– وحدها .

صبت الفتاة قدحاً من الشاي ، وتناولت قطعة من الخبز الاسود وذرّت عليها شيئاً من الملح ، وانثالت تأكل وهي تنظر الى الام مفكرة متمعنة .

قالت بيلاجيا :

– كيف تجرؤين على ذلك ؟ وناتاشا ايضاً ؟ انا لن أقدر على ذلك مطلقاً .. إني أخاف .

فقال ييجور :

– وهي تخاف ايضاً . أنت تخافين ، أليس كذلك ، يا ساشا ؟

فأجابت الفتاة :

– بالطبع أخاف .

وتطلعت الام اليها والى ييجور ، وهتفت :

– يا لكم من قوم ... متيني الاعواد .

وعندما انتهت ساشا من احتساء قدح الشاي صافحت ييجور في صمت وعبرت الى المطبخ ، فلحقت بها الام تشيعها . قالت ساشا :

– اذا رأيت بافل ميخائيلوفيتش ، فبلغيه اطيب تحياتي . لا تنسي هذا ، ارجوك .

واستدارت على حين غرة، بعد ان وضعت يدها على قبضة الباب، وقالت :

– هل أستطيع ان أقبلك ؟

فعانقتها الام في سكون وقبلتها بحرارة ...

– شكراً لك !

قالت الفتاة هذا وهي تومىء برأسها ، ثم اختفت .

وعندما عادت الام الى الغرفة أنفذت بصرها من خلال النافذة قلقة وجلى ... كانت ندف رطبة من الثلج تتساقط في الظلمة البهيمة المخيمة ...

سأل ييجور :

ـ هل تذكرين آل بروزدروف ؟

كان يجلس ، وقد بد ما بين ساقيه ، يحتسي الشاي مثيراً ضوضاء صاخبة . وكان وجهه محمراً ، راضياً ، ندياً بما يتصبب عليه من عرق .

قالت الام مفكرة ، وهي تتجه صوب المائدة :

ـ نعم اني اذكرهم .

وجلست ، وشرعت ترنو الى ييجور في أسى :

ـ يا إلهي ! مسكينة ساشا ! كيف تصل المدينة ؟

ـ ستبلغها متهدمة القوى ، لا ريب في ذلك . ان السجن أضناها . كانت في الماضي أقوى منها الآن . لقد نشأت لتعيش حياة رغيدة سهلة ... يخيل إليّ انها أضحت الآن مصابة في رئتيها ...

فسألت الام في رقة :

ـ من عساها تكون ؟

ـ إبنة احد ملاكي الارض . وأبوها ، حسب أقوالها ، خنزير كبير . هل تعلمين ، يا أماه ، انهما كانا ينويان الزواج ؟

ـ من هما ؟

ـ هي وبافل . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، كما ترين بعينك ... عندما يكون هو طليقاً ، تكون هي في السجن ، والعكس بالعكس .

وقالت الام ، بعد برهة من الصمت :

ـ ما كنت أعلم . ان بافل لا يتحدث عن نفسه أبداً .

وعظم إشفاقها على الفتاة ، فالتفتت الى ضيفها وقالت في استياء غير مقصود :

ـ لمَ لم ترافقها الى بيتها ؟

فأجاب في هدوء :

ـ لاني لا استطيع ذلك ، فلدي كثير من المشاكل هنا في الضاحية . ولسوف

أقضي النهار ، منذ الصباح الباكر ، متنقلاً من مكان لآخر . وهذا ليس بالامر السهل لمصاب بالربو مثلي .

ـ انها فتاة رائعة !

جهرت الام بهذا ، وقد شغل بالها ما رواه لها ييجور تواً ، وآلمها ان تعرف ذلك من غريب ولا تعرفه من ولدها مباشرة ... فعبست ، وعقدت ما بين حاجبيها ، وضمت شفتيها بقوة وعنف .

وأومأ ييجور برأسه ، وأبان :

ـ وإنها لكذلك حقاً . لأرى أنك تأسفين من أجلها ، وانك لتخطئين في ذلك . ان قلبك سينهار اذا أخذت تحسين الاشفاق من اجلنا جميعاً نحن المتمردين . فالحقيقة ان احداً منا لا يتمتع بحياة سهلة . لقد عاد أحد رفاقي منذ مدة قريبة من المنفى ، وعندما بلغ نيجني نوفجورود كانت زوجته وابنه ينتظران في سمولنسك ، وعندما ذهب الى سمولنسك ، كانا قد أصبحا في سجن موسكو . لقد جاء دور زوجته الآن في الذهاب الى سيبيريا . ولقد كانت لي ، انا ايضاً ، زوجة جميلة رائعة كما يهواها القلب ... لكن أعواماً خمسة من مثل هذه الحياة أودت بها الى القبر .

وأفرغ كأس الشاي دفعة واحدة في جوفه وتابع قصته . حدثها عن الاشهر التي قضاها في السجن ، وعن السنوات التي سلخها في المنفى . حدثها عن مصائب مختلفة ، عن أساليب الضرب والتعذيب في السجن ، وعن أخبار الجوع في سيبيريا . وراحت تراقبه ، وتعجب لتلك البساطة الهادئة التي يروي بها سيرة حياته الطافحة عذاباً واضطهاداً ...

ـ ولكن ، فلنمضِ الى العمل الآن ...

وتبدلت لهجته ، وأصبح وجهه اكثر رزانة ، وجَهَرَ يسألها ـ بدقة كبيرة ـ

كيف تنوي إدخال المطبوعات الى المعمل ، حتى ذهلت لمعرفته التامة بكل التفاصيل ودقائق الامور .

وعندما انتهيا من هذا الموضوع ، عادا يتذكران مدينتها الاولى . كان هو يتحدث مازحاً ، اما هي فتهيم متأملة خلال شعاب ماضيها ، فيُصوّر لها انه يشبه ، الى حد بعيد ، مستنقعاً شبّت فيه بين أكوام التراب أشتال صغيرة من التنوب الابيض والحور النحيل ترتجف فرقاً وجزعاً ، وأن تلك الاشتال تنمو ببطء شديد ، ثم تسقط وتذوب بعد خمس سنوات من العيش في هذه التربة المتعفنة . شهدت تلك الرؤيا فانبثق في صدرها حزن عميق ، وظهر امام عينيها من جديد شبح فتاة قاسية الملامح ، عنيدة القسمات ، تشقُّ دربها خلال ندف الثلج الرطبة ، وحيدة ، متعبة ، محطمة القوى ... وان ابنها يجثم الآن في السجن ، في غرفة ضيقة ذات طاقة صغيرة مشبكة الحديد . لعله لم ينم بعد ، بل يضطجع في تلك الساعة من الليل ويفكر ... لا يفكر فيها ، في أمه ، وإنما يفكر في شخص آخر أعزّ على قلبه . وتتالت أفكارها المؤلمة ، مثـل سحب كثيفة سود تغمر روحها بالظلمة القاتمة ...

وقال ييجور باسماً :

– أنت متعبة ، يا أماه ، هيا بنا الى الفراش .

فتمنّت له ليلة طيبة ، وحَبَت الى المطبخ بحذر وقد أفعمت قلبها مرارة تحزُّ في نفسها .

وفي اليوم التالي ، توجه ييجور إليها ، وهما على مائدة الافطار ، وأعلن :

– إذا ألقوا القبض عليك ، وسألوك من أين جئت بهذه المناشير الهرطوقية ، فماذا أنت قائلة لهم ؟

– سأقول : ذلك ليس من شأنكم .

– أخاف ألا يوافقوك في هذا . فهم واثقون كل الثقة ان ذلك العمل من شأنهم وحدهم . وسيظلون يسألونك بقسوة زمناً طويلاً .

– ولكني لن أخبرهم شيئاً .

– إذن ، يزجون بك في السجن .

فقالت ، وهي تتنهد :

– وما أهمية ذلك ؟ اني لأشكر الله إذن ، اذ أصلح لهذا على الاقل ! ومن ذا الذي يحتاج إليّ ؟ لا أحد البتة ! وهم لن يعذبوني . يقال ان ...

فغمغم ييجور ، وهو يرنو إليها بانتباه :

– وَيْ ! كلا ، لن يعذبوك . لكنّ القوم الصالحين الطيبين يجب ان يوفروا أنفسهم .

فأجابت الام ضاحكة :

– ما أحسنك إذ تقول هذا !

فطفق ييجور يجوس الغرفة صامتاً أخرس ، ومن ثم اتجه نحوها ، وعالنها :

– ذلك شاق جداً ، يا أماه ، وانا أعرف ثقل وقعه عليك .

فردّت ، وهي تحرك يدها :

– انه شاق على الجميع ، ولعله أسهل على الذين يفهمون ... ولقد بدأت أفهم ، شيئاً فشيئاً ، ما يسعى إليه أفضل الناس .

فقال بصرامة :

– ما دمت قد فهمت ذلك ، فالجميع في حاجة اليك ، أيتها الام . الجميع !

فشخصت اليه وابتسمت ...

واستعدت ، حوالي منتصف النهار ، للانطلاق الى المعمل وهي تحشو نفسها بالمناشير باحتراسٍ ودقة ، بحيث تلمظ ييجور بلسانه مغتبطاً راضياً ، وهـــو يفحصها ويقول :

— « زرغوت ! » ، كما يقول سائر الالمان الطيبين عندما يُفرغون البرميل الاول من الجعة . ان المطبوعات لم تبدل منك شيئاً ، ايتها الام — فما زلت المرأة ذاتها ، متوسطة العمر ، طويلة ، تميـــل الى البدانة . فلتبارككِ الآلهة العديدة لبدايتك المتواضعة !

وما مضت نصف ساعة حتى كانت الام تقف أمام باب المعمل ، في هدوء وثقة تامة بالنفس ، منحنية تحت عبء ما تحمل من سلال . وكان ثمة حارسان يتحريان بأيديهما الخشنة كل شخص يدلف الى الساحـــة ، فيكافئهما ضحاياهما بالشتائم والسباب، ويطلق العمال ألسنتهم بالسخرية منهما . وكان شرطي ورجل آخر طويل الساقين ، أحمر الوجه ، ذو عينين ضيقتين سريعتي الحركة ، يعتصمان بإحـــدى الزوايا . نقلت الام حملها من كتف الى أخرى ، وهي ترقب ذلك الطويل الساقين من تحت حاجبيها ، فقد عرفت فيه جاسوساً ...

قال احد العمال ، وهو طويل القوام أجعد الشعر ، مخاطباً الحارسين اللذين يتحسسان ثيابه :

— يحسن بكما ، ايها الشيطانان ، ان تفتشا رؤوسنا لا جيوبنا .

فأجاب أحدهما :

— ليس في رأسك سوى القمل .

— إذن ابحثا عنه .

فحدجه الجاسوس بنظرة خاطفة ، وبصق في ازدراء .

قالت الام :

– أفسحا لي الطريق للمرور ... ألا تريان ان ظهر الانسان يكاد ينقصف تحت مثل هذا الحمل الثقيل ؟

فصاح الحارس حانقاً :

– إمضي ، إمضي ! لا تكثري من الثرثرة ، أنت ايضاً !

ولما بلغت الام مكانها ، أنزلت السلال الى الارض ، ومسحت العرق عن وجهها ، وتطلعت حولها ...

وأسرع اليها الاخوان الميكانيكيان جوسيف في الحال ...

سأل فاسيلي ، وهو البكر ، وقد قطّب وجهه :

– ألديك فطائر ؟

– سأحضر شيئاً منها في الغداة .

كانت هذه كلمة السرّ ... فأشرق وجه الاخوين .

وانفجر إيفان ، أصغرهما ، قائلا :

– آهٍ ، أيتها الام ! يا أمي الطيبة !

وانحنى فاسيلي يلقي نظرة الى السلة ، وفي تلك اللحظة اتخذت رزمة من المناشير طريقها الى صدره . قال في صوت عالٍ :

– ولمَ نذهب الى البيت ، يا إيفان ؟ سنشتري غداءنا منها .

واختفت رزمة أخرى من المناشير في قمة جزمته :

– فلنشجّع هذه البائعة المتجولة ، ولنشترِ منها شيئاً .

فوافق إيفان ضاحكاً :

– هذا صحيح !

وألقت الام نظرها ، محترسة ، على ما حولها ... وصاحت :

ـ حساء ! معكرونة ساخنة !

وراحت تخرج المناشير رزمة رزمة ، وتناولها بسرعة الى الاخوين . وكلما دست في ايديهما رزمة، ومض أمامها وجه الضابط الاصغر كلهيبِ عود كبريت مشتعل ، فتخنخن في نفسها باغتباط :

ـ إليك ! خذ هذا ، ايها الشاب الرائع !

ثم تقول ، وهي تناول الأخوين رزمة أخرى :

ـ وهذه ايضاً !

وتدفّق العمال يأتون اليها ، وقصعاتهم في أيديهم ؛ وكلما اقترب أحدهم راح إيفان جوسيف يضحك بصوت مرتفع ، فتمتنع الام عن إعطاء المناشير ، وتلتفت الى معكرونتها .

وضحك الأخوان قائلين :

ـ إنك لبارعة ، يا بيلاجيا نيلوفنا !

فقال وقّاد كان قريباً منهما :

ـ إنها الحاجة التي دفعتها الى ذلك ، فلقد جرّوا كاسب خبزها بعيداً عنها ، أولئك الأوباش ! والآن ، أعطيني معكرونة بثلاثة كوبيكات . لا بأس ، أيتها الأم ، فلسوف تدبرين أمرك بطريقة ما .

فأجابت ، وهي تبتسم :

ـ شكراً لك على هذه الكلمات اللطيفة .

فغمغم ، وهو يبتعد :

ـ إن قول بعض الكلمات اللطيفة لا يكلّف كثيراً .

وعادت الام تصيح :

ـ حساء حار ! معكرونة ! ملفوف !

وشرعت تفكر وتفكر كيف تتمكن من إخبار ولدها عن تجربتها الاولى في حمل المناشير ، ووجه الضابط الغاضب ، الاصفر ، المشدوه ، يتراءى من خلف أفكارها ! كان شارباه الأسودان يرقصان باضطراب ، وأسنانه المنتظمة تلتمع بياضاً من تحت شفتـــه المتقلصة . فاضت السعادة في صدرها تشدو كالعصفور ، فحركت حاجبيها وقوّستها ، واستمرت تمجمج في نفسها ، وهي تتابع عملها :

ـ إليك هذه ايضاً !

١٦

في تلك العشية ، فيما هي تتناول الشاي ، طرق سمعها وقـــع أقدام تحطم الوحل المتجمد ، وصوت مألوف لديها ... فاستوت على قدميها ، واندفعت عبر المطبخ ـ متهافتة على الباب . وتردَّد صدى خطوات سريعة عند مدخل البيت، فأظلم كل شيء في عينيها ، وأسرعت تدفع الباب بقدمها وتستند ، واهنة القوى على صفحته .

وجاء الصوت المألوف هاتفاً :

ـ ليلتك سعيدة ، يا أميمة !

وأحاطت ذراعان طويلتان نحيلتان بكتفيها ، وعانقتاها بحرارة .

حزَّ في قلبها شعور بخيبـــة الامل ... والفرح لرؤية اندريه ... وذاب الاحساسان في انفعال واحد ، عظيم ، مرهق ، اكتسحها في موجة عاتية دافئة، ورفعها عالياً حتى سقطت ووجهها على كتف الاوكراني . فضمها اليه بذراعين مرتجفتين ، بينما طفقت الام تبكي في هدوء وسكينة ... وراح يمسح على شعرها ويقول :

ـ لا تبكي، يا أميمة ، ولا ترهقي قلبك. أقسم لك بشرفي انهم سيُفرجون عنه سريعاً ! فهم لا يستطيعون إثبات شيء ضده ـ والرفاق جميعاً يعتصمون بالصمت كالسمك المسلوق ...



يحسن بكما ، ايها الشيطانان ، ان تفتشا رؤوسنا لا جيوبنا

اقتاد الام ، وذراعه ملتفة حول كتفيها ، الى الغرفة الاخرى . فالتصقت به بشدة ، تشرب بتعطشٍ وجشعٍ كل كلمة من كلماته ، وهي تمسح الدموع من عينيها بحركات سريعة تشبه حركات سنجابٍ صغير .

بافل يقرئك تحياته . هو على احسن ما يتمنى المرء من السعادة والسرور . والازدحام شديد هناك ! لقد ألقوا القبض على اكثر من مائة شاب ـ وهم شباب من المدينة في مثل شبابنا طيبة وصلابة ـ وعيّنوا يطيحون بهم ، كل ثلاثة او اربعة ، في زنزانة واحدة . ان مديري السجن رجال طيبون ، وهم متخمون

من كل ذلك العمل الذي يرهقهم به أولئك الشرطة الملاعـــين ، ليس المديرين أفظاظاً ، فهم يقولون دائماً : « احتفظوا بهدوئكم ، ايها السادة ، كي لا تسببوا المتاعب لنا » . وهكذا يسير كل شيء على ما يرام . والشبان يتحادثون سوية ، ويتبادلون الكتب ، ويتشاركون في الطعام . انه سجن بديع ـ قديم وسخ ، ولكنه خفيف الوطأة على المرء. وان المساجين المجرمين عدد عديد، وهم يسدون لنا مساعدات كثيرة . ولقد أخلي سبيلي ، وسبيل بوكين ، وأربعة آخرين . وإني لعلى يقين من ان دور بافل سيحين سريعاً ، اما فيزوفشيكوف فسيكون ترتيبه الاخير ـ إنهم حانقون عليه لفظاظته معهم، ورجال الدرك لا يستطيعون تحمل رؤيته ! وسيقدمونه الى المحاكمة او يجلدونه في يوم من الايام ! اما بافل فيقول له دون انقطاع : كفّ عن ذلك ، يا نيقولاي ! فشتائمك المتواصلة لن تفيد شيئاً في إصلاحهم . ولكن نيقولاي يصيح : « سوف أسحقهم بقدميّ كما أسحق الحشرة الدنيئة ! » . امـــا بافل فينصرف بصورة رائعة ـ في ثبات وصلابة : اني على يقين من انهم سيطلقونه سريعاً . . .

فرددت الام متعزية ، وهي تبتسم في لطف :

– سريعاً ! اني متأكدة ان ذلك سيكون سريعاً !

– وهكذا فان ذلك يجعل الأمور تسير سيرها الحسن ! ما قولك في أن تصبي لي من الشاي قدحاً ، وتحدثينني عن أمورك هذه الايام ؟

كان يرنو إليها باسماً ، بلطف ورقة ، ووميض حب يشع من عينيه اللتين خيم عليهما ظل من الكآبة .

وصعّدت الام زفرة عميقة ، وهي تدرس تقاطيع وجهه النحيل ، المكسوّ بأدغال سوداء من الشعر بصورة تبعث على الضحك :

– إني مغرمة بك يا اندريوشا !

فأجاب ، متأرجحاً الى الأمام والخلف على كرسيه :

– ان النزر القليل يكفي لان يجعل مني رجلاً سعيداً . انا أعرف أنك مغرمة . ان لك قلباً كبيراً يتسع لمحبة البشر جميعاً .

فقالت بإلحاح :

– ولكنني أحبك حباً خاصاً ! ولو ان لك أماً لحسدها جميع الناس على مثل هذا الابن الرائع .

فهزّ الأوكراني رأسه ، وحكّه بشدة بكلتا يديه .

وجاء صوته ضعيفاً بطيئاً :

– ان لي أماً في مكان ما ...

فهتفت الام في حمية :

– أتدري ما صنعت اليوم ؟

وراحت تروي له في حماسة وحميّة كيف حملت المناشير الى المعمل ، وهي تنمق وصفها ، وتتلمظ بلسانها فرحاً وغيرة وحماساً .

ففتح عينيه ، بادىء الأمر ، دهشة ؛ ومن ثم انفجر ضاحكاً ، وصاح والفرح يغمر قلبه :

– أوْ هُوْ ! هذا شيء عظيم ! تلك هي القضية ! أفلن يكون بافل مسروراً . هذا رائع ، يا أميمة . رائع بالنسبة لبافل ، وللآخرين جميعاً .

وراح جسده يهتز الى الامام والخلف . وطفق يفرقع بأصابعه ، ويصفر متحمساً ، ويتألق فرحاً ، باعثاً في قلب الام ترجيعاً شديداً غير منقوص .

قالت ، وكأن قلبها قد فتح ليتدفق منه تيار الكلمات الذي اندفع يتناثر ويتلألأ في بهجة هادئة :

– إيه ، أيها الحبيب المبارك أندريوشا . عندما أفكر في حياتي الخاصة ...

آه، أيها السيد يسوع ! لماذا عشت حياتي؟ لأعمل... وأجلد ... ولا أرى أحداً سوى وجه زوجي ... ولا أعرف سوى الخوف والهلع ! اني لم ألحظ كيف شبَّ بافل ونما . ولم أعرف ، طيلة حياة زوجي ، ان كنت أحبه أم لا ! لقد كانت أفكاري وسائر رغباتي منصرفة لأمر واحد : ان أغذي وأسمن بالطعام الجيد ذلك الوحش الذي يخصني ، وأفعل ما يسرُّه ويبهج قلبه دون تباطؤ او تأخير ، كيلا يغضب ويهدد منذراً بضربي . وكنت أتمنى ان يشفق عليَّ مرة واحدة ، ولكني لا اذكر انه فعل ذلك أبداً . لقد اعتاد ان يضربني وكأنه لا يضرب زوجته ، بل يضرب شخصاً يريد الانتقام منه . لقد عشت على هذا المنوال طوال عشرين سنة ولم أعد اذكر ابداً كيف كانت الحياة قبل ان أتزوج. وعندما أحاول ان أذكر ذلك الماضي أصبح كالعمياء ، ولا استطيع رؤية أي شيء على الاطلاق . لقد كان ييجوو إيفانوفيتش هنا – وكلانا من المدينة نفسها – وحدثني عن أمور عدة ، أما أنا ... فقد رحت أتذكر الناس وأتذكر البيوت ، ولكني لم أستطع أن أتذكر كيف كانوا يعيشون ، وماذا كانوا يقولون ، وماذا حدث لكل واحد منهم. وإني لأتذكر حريقاً ، لا بل حريقين. يخيل إليَّ ان كل شيء قد طُرد من نفسي طرداً وان روحي أغلقت عليها المنافذ فأصبحت صماء عمياء ...

وأخذت تتنفس بصعوبة كالسمكة حُرمت من الماء . ثم تابعت بصوت خافت ، وقد مالت بكل جسدها الى الأمام .

– ومات زوجي فالتفتُّ الى ابني ، ولكنه انصرف عني الى هذا العمل... وكان ذلك قاسياً بالنسبة إليَّ ، ولقد أشفقت عليه هو ايضاً . كيف أستطيع الاستمرار في الحياة اذا اصابه حَدَثٌ ما ؟ لكم خفت وارتعشت ... كان قلبي ينفجر انفجاراً كلما فكرت فيما قد يحدث له ...

وصمتت لحظة ، ثم أضافت وهي تومىء برأسها إيماءة ذات مغزى :

– انه ليس حباً خالصاً ، حبنا النسائي . اننا نحب ما نحتاجه من اجل

مصلحتنا الخاصة . ولكنني عندما أنظر اليك تتألم هكذا من أجل أمك – ما هي بالنسبة اليك ؟ وسائر هؤلاء الناس الذين يتعذبون هكذا من اجل الشعب كله ، ويذهبون الى السجن والى سيبيريا ... ويمـوتون ... وفتيان يمشين ، وحدهن ، في الليل مسافات شاسعة ، يغصن في الوحل ، ولا يأبهن بالأمطار والثلوج، يمشين سبعة فراسخ من المدينة حتى بيتنا هذا ! من يضطرهم الى ذلك؟ ولماذا يفعلونه ؟ لان في قلبهم حباً كبيراً طاهراً ... ولانهم يملكون الايمان ، الايمان ، العميق الراسخ ، يا أندريوشا . أما انا ... انا لا استطيع ان أحب هكذا ! أنا أحب ما يخصني فقط ، ما هو قريب مني !

فقال الاوكراني ، وقد أشاح بوجهه ، وراح يفرك رأسه وخديه وعينيه بشدة كما هي عادته :

– أجل انك تقدرين . كل انسان يحبُّ ما هو قريب منه . والقلب الكبير يجعل الامور البعيدة جداً قريباً أيضاً . انـك تستطيعين فعل أشياء عظيمة جداً – لانك تملكين في نفسك حباً أمومياً كبيراً .

فغمغمت :

– فليساعدني الله على ذلك ! إني أشعر ان هذه طريق جيدة وأسلوب حسن في الحياة . إني احبك الآن ، يا اندريه – ولربما أحبك اكثر من ساشا ايضاً . فهو منطوٍ على نفسه كثيراً ... أنظر مثلاً ، لقد كان يريد الزواج من ساشا ، ولكنه لم يقل كلمة واحدة لي ، انا أمه ...

فاعترض الاوكراني بقوله :

– هـذا ليس صحيحاً . أنا متأكد من عدم صحته . انه يحبها ، وهي تحبه ... هذا صحيح ، لكنهما لن يتزوجا إطلاقاً . قد ترغب هي في ذلك ، أما هو فلا يريده ابداً .

فقالت الام ، وهي تشخص متفكرة الى وجه الاوكراني :

– تلك هي حقيقة الامر إذن ... الناس يرفضون حتى سعادتهم ...

فجاء صوت الاوكراني عذباً ناعماً :

– ان بافل شخص نادر ، شخص ذو ارادة فولاذية .

فتابعت الام في ذهول :

– وهو الآن قابع في السجن . انه لأمر مخيف ... لكنه ليس مخيفاً مثله فيما مضى . لقد اختلفت الحياة ، ومخاوفي اختلفت ايضاً . انا الآن أخاف من أجل الجميع . ولقد اختلف قلبي أيضاً لان نفسي فتحت عين قلبي ، فهو ينظر الى العالم ويحسن الكآبة والفرح في الوقت ذاته . ثمة كثير من اشياء لا أفهمها ، والاكثر إيلاماً منها أنكم لا تؤمنون بالرب الإله . ولكن ، ما أقدر ان أفعل في هذا المضمار ؟ اني أرى انكم جميعاً طيبون حقاً وصدقاً ، ولقد وطنتم النفس على حياة عسيرة شاقة في سبيل الشعب ، حياة صعبة في سبيل الحقيقة . وأنا الآن أفهم حقيقتكم : ما دام هناك أغنياء ، فان عامة الشعب سيظلون عاجزين عن تحصيل اي شيء كان ... فلا فرح ، ولا عدالة ، ولا أي شيء على الاطلاق . والآن ، اذ أعيش بينكم ، أفكر احياناً في الماضي ، أفكر في قواي الفتية المسحوقة تحت الاقدام ، وقلبي الفتي المسحوق ايضاً تحت وطأة قبضة قاسية ، فيأخذني الاشفاق على نفسي وتثور المرارة في قلبي . ولكنني أرى العيش أيسر عليَّ الآن . واني أستطيع ان أرى نفسي شيئاً فشيئاً وأنا ...

فنهض الاوكراني واقفاً ، طويلاً ، ناحلاً ، مفكراً ... وطفق يمشي في الغرفة جاهداً ألا يثير أي ضوضاء على الاطلاق . وهتف في صوت خافت :

– إنك تعبرين عن أشياء بصورة رائعة ، بصورة رائعة جداً . لقد كان يعيش في كيرش يهودي شاب يقرض الشعر ، ولقد كتب ذات يوم هذه الكلمات :

« وأولئك الابرياء الذين يقتلون غدراً ستبعثهم الى الحياة ، يوماً ما ، قوة الحقيقة ... »

ولقد اغتاله ، بـــدوره ، البوليس في كيرش ، إنما هذا ليس بذي بال . لقد فهم الحقيقة وزرع بذورها بين الناس . إنك ، انت ايضاً ، واحـــدة من أولئك الابرياء الذين يقتلون غدراً .

وعادت الام تقول :

– اما انا الآن فاني أتكلم ، وأسمع كلماتي الخاصة وأكاد لا أصدق أذني – إني لم افكر ، طوال حياتي ، الا في شيء واحد : كيف أتخلّص من كل نهـــار جديد ، كيف أقضيه بعيدة عن الرقباء بحيث لا يمسني احد من الناس . اما الآن ، فاني أطفح بالتفكير في الآخرين . وربما لا أفهم قضيتكم تماماً ، لكنكم جميعاً أعزاء عليَّ . وإني لأتألم من اجلكم جميعاً ، وأريدكم دون استثناء ان تكونوا سعداء . وخاصة أنت يا اندريوشا .

فاقترب منها ، وقال :

– شكراً لك .

ثم اخذ يدها بين يديه وضغط عليها بشدة وابتعد مسرعاً . وأخذت الام ، مثقلة بانفعالاتها وعواطفها ، تغسل الاقداح في صمت وهدوء وبطء ، وهي تحتضن الفرح الهادىء الذي يملأ قلبها .

قال لها الاوكراني ، وهو يذرع أرض المطبخ جيئة وروحة :

– يجب ان تظهري بعض العطف لفيزوفشيكوف ، يا أميمة . ان أباه في السجن ، ذلك السكير العديم النفع . وكلمـــا وقعت عينا نيقولاي عليه من النافذة ، راح يلعنه ويشتمه . وان هذا الامر سيىء جداً ! ان نيقولاي لطيف في الاصل ... وهو يحب الكلاب والفئران وكل انواع الحيوانات ، ولكنه يبغض الناس . أترين اين يمكن ان يبلغ الامر بالانسان ؟

فكـَّرت الام في نفسها :

– لقد ذهبت أمه ... وأبوه لص عربيد ...

وعندما غادرها اندريه الى فراشه رسمت ، سراً ، إشارة الصليب عليه ثم سألته بصوت خافت ، بعد مضي نصف ساعة تقريباً :

– أأنت نائم يا اندريوشا ؟

– كلا ، لماذا ؟

– طابت ليلتك .

فقال في لهجة امتنان :

– شكراً لك ، يا أميمة .

١٧

حينما بلغت بيلاجيا في اليوم التالي بوابة المعمل ، أوقفها الحراس وأمروها بوضع سلالها أرضاً حتى يفتشوها ؛ فقالت معترضة في هـــدوء ، بينما راحت ايديهم تتحسس ثيابها في قسوة :

– ولكن كل شيء سيبرد .

فقال أحد الحراس بصوت أجش :

– إخرسي .

وقال حارس آخر ، وهو يدفعها في كتفها بلطف :

– لقد قلت لكم إنهم ألقو بها من فوق السور .

وعندما أصبحت داخل الفناء ، كان العجوز سيزوف اول من جاء إليها . قال لها وهو يختلس النظر حوله :

– أبلغك الخبر يا أماه ؟

– اي خبر ؟

– أوراقهم . لقد عادت الى الظهور مجدداً تنتثر في كل مكان كما ينتشر الملح في الخبز الذي تبيعين . ان التحريات والاعتقالات لم تجدهم فتيلاً . لقد ألقوا بابن اخي مازين في السجن ... لماذا ؟ ولقد ساقوا ابنك ايضاً ، اما الآن فالجميع

يرون ان ذلك لم يكن من صنع أيديهم . ليست القضية قضية اشخاص ، بل افكار ، والافكار لا يمكن اصطيادها كالقمل ...

وأمسك بلحيته في قبضة يده ، وراح يرمقها بنظرات ذات معنى، ثم قال :

– لمَ لا تأتين لزيارتي ؟ لا ريب انك تشعرين بالوحشة وحدك ...

فشكرته ، وراحت تنادي على بضائعها ، وهي تراقب الضوضاء غير العادية التي تسيطر على المصنع . كان سائر العمال في هياج مستمر ، يجتمعون ثم يفترقون، وهم يتراكضون من بناء الى آخر . وأحست الام شيئاً جريئاً في الجو المشحون بالهباب والدخان . وكانت الحماسة تتجلى في عبارات التشجيع او ملاحظات التهكم التي يتبادلها العمال بين الحين والحين ، والكهول منهم يبتسمون ابتسامات مختصرة سريعة ، والمدراء يروحون ويغدون والقلق بادٍ على وجوههم ، ورجال الشرطة يتراكضون ، فاذا وقعت أنظار جماعات العمال عليهم تفرقوا او توقفوا عن الكلام بكل بساطة ، وهم يثبتون انظارهم ، بصمت ، في الوجوه الثائرة الغاضبة .

وكان العمال يبدون على جانب عظيم من النظافة ، وكأنهم قد اغتسلوا جميعاً لتوّهم . ومرّ البكر جوسيف بقامته الطويلة بالقرب من الام ، يعدو في اعقابه أخوه ضاحكاً في سره . وكذلك مرّ من أمامها فافيلوف، معلم احدى ورشات النجارة ، واشعيا مراقب الدوام . وكان رأس هذا الاخير يدور فوق كتفيه دون انقطاع ، وهو ينظر في وجه النجار الساهم الضخم ، ولحيته الليفية ترتجف دون انقطاع .

– أنظر يا إيفان إيفانوفيتش ، انهم يبتهجون لذلك ويضحكون ، وان كان يعني دمار الدولة كما أشار الى ذلك المدير المحترم . ان الارض هنا لا تحتاج الى اجتثاث الاعشاب الرديئة فحسب ، بل الى حراثة تقتلع منها كل الاشواك من جذورها ...

وكان فافيلوف يسير ويداه خلف ظهره ، وأصابعه منقبضة بشدة . قال بصوت مرتفع :

– اذهبوا واصنعوا ما تشاؤون ، يا أبناء الكلبة ، ولكن إياكم ان تمسوني بسوء .

وجاء فاسيلي جوسيف الى الام ، وقال لها :

– أعتقد اني سأجرب غذاءك مرة ثانية ، يا أماه ، فطعامك لذيذ حقاً . ثم أضاف ، وهو يخفض صوته ويضيّق فتحة عينيه :

– لقد أصابتهم في النقطة المؤلمة تماماً ، يا أماه . انه لعمل عظيم ! فأومأت إليه برأسها في عطف . كانت سعيدة بكون هذا الشاب ، وهو الذي يعتبرونه أكثر اهل الضاحية شراسة وأذية ، يخاطبها بمثل هذا الاحترام . وكذلك كانت سعيدة بذلك الهياج في المعمل ، وهي لا تفتأ تفكر :

– لو لم افعل انا ذلك ...

ووقف ثلاثة من العمال غير بعيد عنها . وسمعت أحدهم يقول بصوت خافت وبلهجة حزينة متألمة :

– لم أستطع ان اجده الآن ...

فلاحظ احد رفيقيه :

– ولماذا لا تتعلمين ؟

– في مثل عمري ؟ .. لكي أجعل الناس يسخرون مني ؟

فتناول اندريه عن الرف كتاباً ، وأشار الى احد حروف الغلاف :

– ما هذا ؟

– راء .

– وهذا ؟

– ألف .

كانت مضطربة خجلة من نفسها ، يصورُ لها ان عيني اندريه تضحكان منها في الخفاء ، فتتجنب نظراته وتروع منها . لكن صوته كان هادئاً لطيفاً ، ووجهه رزيناً لا أثر فيه للسخرية مطلقاً .

استفهمت ، وهي ترسل ضحكة قصيرة غير مقصودة :

– أتنوي حقاً ان تعلمني ، يا اندريوشا ؟

فأجاب :

– ولِمَ لا ؟ فما دمت قد تعلـّمت القراءة فيما مضى ، فلن يكون ذلك شاقاً . واذا نجحنا فيها فزنا ، وإلا فاننا لن نخسر شيئاً .

– ولكنهم يقولون : انك لا تصبح قديساً بمجرد الشخوص الى الايقونات . فقال الاوكراني ، وهو يؤرجح رأسه :

– آه ... ان ثمـــة اقوالاً كثيرة ! ما رأيك مثلاً في هذا : « كلما قلـّت معرفتك ، طال رقادك » ؟ انما المعدة وحدها تستطيع التفكير هكذا . انهم يسعون لارهاق الروح بمثل هذه الاقوال ، حتى يسهل قيادها عليهم . ما هو هذا الحرف ؟

– لام .

– عظيم . أترين كيف تصطف الاحرف بصورة جميلة ، جميعها في خـــط واحد ؟ وهذا ؟

فحملقت بعينيها ، وزوّت ما بـــين حاجبيها جاهدة ان تتذكر الاحرف المنسية ، غافلة عن كل شيء آخر . وسرعان مـــا ارهقت عيناها ، فذرفتا في البدء دموع الاجهاد ، ثم دموع اليأس . همست :

– أتعلّم القراءة ؟ في الاربعين من عمري، وأبدأ أتعلم احرف الهجاء !

فقال الاوكراني في عذوبة بالغة :

– لا تبكي ! انك لا تستطيعين اختيار حياتك ، ولكنك تدركين على الاقل مبلغ ما كانت عليه من الفساد . ان آلاف الناس قادرون على العيش افضل مما يعيشون لو أرادوا ذلك ، ولكنهم يستمرون يعيشون كالحيوانات ، لا بل يرضون بذلك ايضاً . اية حسنة في ان الانسان يعمل ويأكل اليوم ، ويعمل ويأكل غداً ، وهكذا ايام حياته ... يقضيها في العمل والاكل ، وهو يتدبر امره اثناء ذلك كي ينجب اولاداً يتسلى بهم حتى يبدأوا يطلبون الكثير من الطعام . وعندئذ يغضب ، ويروح يلعنهم : هيا ، عجلوا واكبروا ايها الخنازير، فقد آن الوقت كي تجدوا لكم عملاً . وانه ليودّ ان يجعل من اولاده حيوانات أليفة ، ولكنهم يبدأون العمل في سبيل بطونهم الخاصة ، وهم يقضون حياتهم معاً وكانهم قطعة من العلكة دون سرور في النفس او بهجة في القلب . بعضهم يستجدي على الدوام كالشحاذين ، والآخرون يختلسون كاللصوص ما يحتاجون اليه من سواهم . ولقد سنّت لهم قوانين سيئة وأقيم عليهم رجال مسلحون بالهراوات ، وقيل لهم : أقيموا حرمة شرائعنا فهي صالحة تيسّر لنا امتصاص دم الانسان . واذا أرهق الانسان ، وبدأ يتمرد على الخضوع . أدخلوا في رأسه عنوة تعاليم تقيد عقله وتشله .

واتكأ بمرفقه على المنضدة ، وتفرس بأنظاره في الام ، ثم تابع :

– ان الناس الذين يستحقون لقب الانسان هم أولئك الذين ينذرون انفسهم وحياتهم من اجل تحطيم القيود التي تغلّ عقل الانسان . ولقد بدأت انت ايضاً ، حسب طاقتك وإمكانياتك ، تساهمين في هذا العمل .

فقالت في لهجة استغفار :

– انا ؟ وماذا استطيع ان افعل ؟

– لماذا تقولين ذلك ؟ اننا اشبه بالمطر ، كل قطرة منا تسقي البـــذور . وعندما تبدأين القراءة ...

واغرق في الضحك ، ثم نهض وعبّد يذرع ارض الغرفة بخطواته :

– يجب ان تتعلمي بكل تأكيد ، ولسوف يعود بافل الى البيت في القريب العاجل ، واذا بك ... يا الله !

فقالت الام :

ـ آه ، يا اندريوشا ! ان كل شيء سهل بسيط عندما يكون المرء شاباً . اما فيما بعد ، فالهموم كثيرة ، والقوى قليلة ، وليس من ذهن على الاطلاق ...

١٨

في تلك العشية ، بعد ان غادر الاوكراني المـــنزل ، أشعلت الام مصباحاً وشرعت تخيط بعض الجوارب . وسرعان ما نهضت ، وسعت على غير هدى عبر الغرفة ، ودلفت الى المطبخ ، وأغلقت الباب بالمزلاج ، ثم عادت وجفناها يرفان ، وحاجباها يتراقصان في عصبية ظاهرة . وبعد ان اسدلت الستائر على النافذتين ، تناولت كتاباً عن الرف وعادت فجلست الى المائدة . وبالرغم من كل هذه الاحتياطات ، لم تستطع الا ان تختلس النظر فيما حولها قبل ان تكبّ على الكتاب ، وتأخذ شفتاها تتحركان بلفظ الاحرف . وكانت تجفل لدى كل صدى يرتفع من الشارع ، فتستر الكتاب بيدها وترهف سمعها ، ثم تعود الى همسها ، وهي تفتح عيناها وتغلقهما دون انقطاع :

ـ لام ... باء ...

وقرع الباب ، فهبت الام على قدميها ، وألقت بالكتاب في مكانه على الرف ، ثم سألت في لهفة وجزع :

ـ من الطارق ؟

ـ انا !

ودخل ريبين ، وهو يمشط لحيته بأصابعه ، وقال :

– انك لم تعتادي السؤال عن الطارق ! وحدكِ ؟ ظننت ان الاوكراني لا بدّ ان يكون هنا . لقد رأيته اليوم ، ويبدو ان السجن لم يؤذِهِ قط .

جلس ، واستدار نحو الأم ...

– فلنتحدث قليلا .

وملأتها نظرته الغامضة بجزع مبهم لم تدرِكه ، وقد بدأ يقول بصوته الأجش :

– ان كل شيء يكلف مالاً . الولادة تكلف مالاً ، والموت يكلف مالاً ، والكتب والكراريس تكلف مالاً أيضاً ... هل تعلمين من أين يأتي المال الذي ينفق على هذه الكتب ؟

فقالت الأم بصوت خافت ، وهي تحسّ أن الامور ليست على ما يُرام :

– كلا ، لا أعلم !

– وأنا لا أعلم أيضاً ! والسؤال الثاني – من يكتبها ؟

أولئك الذين تعلموا في الكتب ...

فقال ريبين، ووميض أسود ينزلق على وجهه الملتحي :

– تعنين الأسياد ! وبكلام آخر ، فان الأسياد يكتبون الكتب ويوزعونها . ولكن الكتب موجهة ضد الاسياد . والآن ، جربي أن توضحي لي ما معنى ذلك ! ولماذا ينفقون المال كي يثيروا ضدهم عامة الناس ؟ إيه ؟

فأطلقت الام صرخة رعب ، وطرفت بعينيها :

– وماذا ترى أنت ؟

فقال ريبين ، وقد صار أشبه ما يكون بالدب :

– آها ! ها أنت ترتجفين . وأنا أيضاً – حالما مرت هذه الفكرة في خاطري اقشعرّ لها بدني كله .

ـ هل اكتشفت شيئاً ؟

ـ خُدعنا ! إنني أشعر أننا خُدعنا . لا وقائع لدي ، ولكنني أحس أن ثمة خديعة في الأمر . تلك هي القضية ! إن عشيرتك الخبيثة خداعة . وأنا انسان مع الحق . ولقد عرفت الحقيقة الآن ، ولن أسير مع الأسياد بعد اليوم أبداً ، فسوف يطرحون بي أرضاً، عندما يجدون ذلك ملائماً لهم ، ويسيرون فوق عظامي كما لو كنت جسراً ...

واعتصرت كلماته قلب الأم ، فكأنها به أخذ بين فكّي كماشة .

صاحت في ألم :

ـ يا يسوع الحبيب . أيمكن أن باشا لم يفهم ؟ وكل أولئك الذين ...

ومثلت أمامها وجوه ييجور، ونيقولاي إيفانوفيتش ، وساشا ، هذه الوجوه الرزينة ، الطافحة شرفاً وإخلاصاً . وثار قلبها احتجاجاً . فقالت وهي تهزّ رأسها نفياً :

ـ لا ، لا ! لا أستطيع أن أصدق ذلك ... انهم أناس يملكون وجداناً .

فسأل ريبين مذهولاً :

ـ من تعنين ؟

ـ جميعهم ! حتى آخر من رأيت منهم .

فأطرق ريبين ، وقال :

ـ انك لعلى ضلال ، يا أماه ! ولست تنظرين حيث يجب ان تنظري . أرسلي بصرك الى أبعد كثيراً . ان أولئك الذين انضموا الينا ـ لعلهم هم أنفسهم لا يدرون شيئاً . انهم ... يملكون الإيمان ... وهذا كل شيء . ولكن ربما كان يقف ... وراءهم ... أناس لا يهتمون الا بمصلحتهم الخاصة . ان الانسان لا يعمل ضد نفسه من اجل لا شيء ...

ثم اضاف ، في اقتناع الفلاح المرهق بارتياب اجيال طويلة :

ـ ان شيئاً صالحاً لن يخرج من الأسياد قط .

وسألت الأم ، وقد تسلط الشك عيلها مرة اخرى :

ـ وماذا تفكر ان تعمل ؟

ـ أنا ؟

وشخص ريبين اليها ، وصمت ثم ردد :

ـ كلما ابتعدنا عن الاسياد كان ذلك أفضل ، تلك هي القضية !

ومرة أخرى ، عَبَسَ وانطوى على نفسه ...

ـ كنت أريد ان التحق بالرفاق ، وأسير جنباً الى جنب وإياهم . اني صالح لمثل هذه الامور ، وأعرف ما أقول للناس . اما الآن فإني ذاهب ، فقد فقدت الايمان ، ولم يبق أمامي سوى الذهاب .

وأطرق برأسه ، وغرق في لجة من الافكار :

ـ سوف أذهب وحيداً ، خلال القرى والارياف ، أستنهض عامة الناس . فقد آن لهم ان يأخذوا الاشياء بين ايديهم . واذا فهموا مرة ، فلسوف يجدون طريقهم الخاصة . وستكون مهمتي ان أساعدهم على الفهم . ان أملهم الوحيد هو في داخلهم ... فملكيتهم الوحيدة هي عقولهم ، تلك هي القضية !

وبدأت تشفق على هذا الرجل وتخاف من أجله . وأضحى ، هو الذي كان دائماً مثاراً لنفورها ، عزيزاً عليها الآن لسببٍ لم تدرِ له تعليلاً . فقالت له في رقة :

ـ ولكنهم سيقبضون عليك ...

فحدجها ريبين بنظرة :

– سوف يوقفونني ، ثم يطلقون سراحي فأبدأ كل شيء من جديد .

– ان الفلاحين أنفسهم سيسلمونك ... وسيلقون بك في السجن .

– سأبقى فيه ما شاءوا ، ثم أخرج، وأبدأ من جديد . اما الفلاحون فسوف يسلمونني مرة ، ومرتين ، ثم مرة ثالثة ، وعندئذ يدركون أن الاصغاء الى مـــا اقوله لهم أفضل ما يفعلون . ولسوف أقول : لا تصدقونني ... إستمعوا إلي فقط . واذا استمعوا اليّ مرة فسوف يصدقون .

كان يتكلم ببطء شديد ، وكأنه يزن كل كلمة قبل ان يلفظها .

– لقد تلقنت أموراً كثيرة في المدة الاخيرة وتعلمت شيئاً او شيئين .

فقالت وهي تهزُّ رأسها في اسى :

– وتلك ستكون نهايتك ، يا ميخائيلو إيفانوفيتش .

فتفرّس فيها ، متسائلاً متحفزاً ، بعينيه السوداوين العميقتين . ومال جسده المتين الى الامام ، وأطبقت يداه على مسند المقعد ، وبدا وجهه الذي لوحته الشمس شاحباً في إطار لحيته السوداء :

– أتذكرين ما قال المسيح عن حبة القمح ؟ لا بدّ لها أن تموت كي تولد مجدداً ... وكل انسان حبة من الحقيقة ، تلك هي القضية ! ولكن الموت لن ينزل بساحتي قريباً ، فأنا ثعلب عجوز داهية .

وتململ في مقعده ، ثم نهض متثاقلاً :

– سأذهب الى الحانة ، وأجلس بعض الوقت مع روادها . يبدو أن الاوكراني لن يعود سريعاً . هل عاد الى العمل القديم ؟

فأجابت الام مبتسمة :

– نعم .

– حسناً ! حدثيه عني ...

وسارا متماهلين عبر المطهى ، وقد تلاصق كتفاهما ، وراحا يتبادلان الملاحظات دون ان ينظرا الى بعضهما بعض .

– حسناً ، الى اللقاء !

– الى اللقاء ! متى ستستقيل من العمل ؟

– لقد استقلت .

– ومتى تسافر ؟

– غداً ، في الصباح الباكر ! الى اللقاء !

انحنى ، وخرج من الباب متعثراً ، مكرهاً ... وظلت الام برهة تصغي الى خطواته والى الشكوك المستيقظة في صدرها ، ثم استدارت في هدوء ، ودلفت الى الغرفة الثانية ، ورفعت الستائر عن النافذة . كانت الظلمة تنبسط دون حراك فيما وراء الزجاج ... فكـّرت :

– إني أحيا في الظلام أبداً .

وأحست الاسف لذلك الموجيك المنقبض النفس ، القوي البنية ، العريض المنكبين .

وعاد أندريه مشرق الوجـــه منشرح الصدر ، وهتف عندما حدثته بأمر ريبين :

– فلينطلق ، وليطوّف عبر القرى ، ينادي بالعدالة ويستنهض الشعب . يصعب عليه كثيراً ان يسير وإيانا . ان رأسه ممتلىء بآراء الموجيك ... وليس فيه موضع لآرائنا .

فقالت الام في حذر :

– لقد تحدث عن الاسياد ـ وفي حديثه شيء من الحقيقة . انتبهوا ألّا يخدعوكم .

فضحك الاوكراني ، وقال :

– انهم يوجهونك في الطريق الضالة. آه يا أميمة ، المال المال ! لو كنا نملك مالاً فقط ! اننا ما نزال نعيش على نفقة الآخرين . فنيقولاي إيفانوفيتش مثلاً يتناول خمسة وسبعين روبلاً في الشهر ، وهو يعطينا خمسين منها ، وكذلك الامر مع الآخرين . وفي بعض الاحيان ، يرسل الينا طلاب الجامعات ، الذين يكادون يموتون جوعاً ، بعض الهبات التي جمعوها قرشاً قرشاً . ولا ريب ان هناك مختلف الانواع من الاسياد ، البعض منهم يتركوننا، والبعض يخدعوننا ، ولكن افضلهم يربطون مصيرهم بمصيرنا . . .

وضم يديه ، وتابع في لهفة :

– ان انتصارنا الاخير ما يزال أبعد مسافة مما يستطيع النسر ان يطير . ومع ذلك فسوف نحتفل بعيد أول أيار . ولسوف يكون احتفالاً رائعاً .

وبعثرت حماسته كل الشكوك التي زرعها ريبين . كان يسير ذهاباً وإياباً في الغرفة ، يداعب شعره بإحدى يديه ، ويشخص الى الارض مفكراً :

– ان قلبك ليطفح بالاحساسات أحياناً ـ ما أروع ذلك ! ويخيل اليك انك ، أيان ذهبت ، فكل انسان رفيق لك ـ انهم جميعاً يلتهبون باللهيب نفسه . كلهم طيّبون ، لطيفون ، مرحون . . . وليس من حاجة للكلام كي تتفاهمي وإياهم . انك تعيشين معهم مثل جوقة كبيرة ، يغني كل قلب فيها لحنه الخاص . وكل الالحان اشبه بتيارات تنصب في نهر واحد ، والنهر يتدفق ، واسعاً حراً طليقاً ، في بحر الحياة الجديدة الصاخب المبتهج . واني لأقول في نفسي على الدوام ان هذا واقع لا محالة ، واقع اذا ما أردناه نحن . . . فيطفح قلبي المأخوذ سروراً . . . وتستدر السعادة دموع عينيّ .

كانت الام تحاول ألا تأتي نأمة تقطع عليه أفكاره ، وتعترض حديثه . كانت تصغي اليــه دائماً بانتباه أكثر منها الى اي شخص آخر ، فهو يتحدث ببساطة اكثر من الباقين ، فتذهب كلماته الى القلب باستقامة نافذة . ولم يكن بافل يتكلم ابداً عن رؤاه في المستقبل ، أما الاوكراني فكان يبدو أنه يعيش على الدوام في ذلك المستقبل ! كانت أحاديثه تروي كل الفرح الذي سيهبط على شعوب الارض قاطبة . وكان هذا ، في نظر الام ، ما يعطي لحياة ابنها وبقية رفاقه وعملهم معنى ومغزى .

وتابع الاوكراني ، وهو يهز رأسه :

– ثم تستردين شعورك على حين غرة ، وتنظرين حولك فاذا الاشياء كلها باردة وسخة ، واذا الناس كلهم متعبون ساخطون ...

وأضاف في كآبة عظيمة :

– يجب ألا تضعي إيمانك في الناس : هذا يؤلم ويؤذي ، وأنا اعلم ذلك ، ولكن يجب أن تخافي منهم ، لا بل أن ... تبغضيهم ايضاً . ان لكل انسان جانبين في ذاته . وانت تودين فقط ان تحبيه ، ولكن كيف تستطيعين ذلك ؟ كيف يمكن ان تصفحي عن شخص هاجمك كالوحش المفترس ، وضرب صفحاً عن نفسك الحية ، وسحق مظهر الانسان المتجلّي فيك ؟ انك لا تستطيعين غفران هذا ، لا لأنه يتصل بك – فأنت تستطيعين ان تتحملي كل شيء – ولكن لانك لا تستطيعين ان تتركيهم يعتقدون بموافقتك واستسلامك . إنــك لا تستطيعين ان تسمحي لهم باستعمال ظهرك كي يتعلموا كيف يجلدون الآخرين .

كانت عيناه تلتهبان بشعلة باردة ، ورأسه منحنياً في كآبة ، وحديثه اكثر حزماً منه في أي وقت مضى .

– أنا لا أملك الحق في غفران أي شرٍّ كان وان لم يؤذني . فأنا لست الوحيد على هذه الارض . فقد أصفح اليوم عن إهانة يوجهها أحدهم لي ، وربما ضحكت

منها لانها من التفاهة بمكان ـ ولكنه غداً قد يسنُّ سكينه على عنق سواي بعد أن جرب قوته فيَّ انك لا تستطيعين ان تنظري الى الناس سواء ، بل يجب ان تنتقي وتختاري على مهل : هذا يصلح لي ، وهذا لا يصلح ! كل هذا صحيح ، ولكنه لا يعزي كثيراً .

ولسبب ما فكرت الام في ساشا ، ثم في الضابط . وقالت ، وهي تتنهد :

— أي ثمر يمكن ان تنتظره من زهر لم ينضج بعد ؟

فهتف الاوكراني :

— تلك هي المشكلة كلها ! ان علينا ان نرى العالم بعيون جديدة ... وثمة قلبان ينبضان في صدر كل واحد منا ، أحدهما يعشق الكون والآخر يقول لنا : قفوا واحترسوا ! وهكذا يُشطر الانسان ...

— نعم .

وثارت في ذاكرتها صورة زوجها ثقيلة ، كئيبة ، كصخرة كبيرة عـــلاها الوحل والطحلب . وتخيلت كيف تصبح الامور لو تزوج الاوكراني ناتاشا ، وابنها ... ساشا .

وقال الاوكراني ، وهو يعود الى موضوعه :

— ولمَ تكون الاشياء هكذا ؟ ذلك واضح وضوح الأنف في وجهك . سبب ذلك كله أن الناس لا يقفون على مستوى واحد . فلنضعهم في صف واحد اذن ، ولنقسم بينهم كل ما أنتجه الفكر ، وما صنعته اليد . فلنحرر الناس من عبودية الخوف ، والحسد ، وأثر الجشع ، والبلاهة والجهل ...

ولقد تبادلا ، فيما بعد ، الكثير من مثل هذه الاحاديث .

وقبل ناخودكا في المعمل من جديد ، فراح يعطي الام كل أجوره التي تقبلتها منه بكل بساطة ، وكأنها تأخذ من بافل نفسه .

وكان أندريه يقول لها أحياناً ، وهو يغمز بعينه :

– ما رأيك في ان نقرأ شيئاً ، يا أميمة ؟

فتضحك ، ولكنها ترفض بحزم ... كانت تلك الغمزة من عينه تؤذيها . فتفكر في نفسها .

– ما دمت تعتبر ذلك هزلاً ، فما معنى الازعاج ؟

ولكنها كانت تطلب منـــه ، اكثر فأكثر ، ان يشرح لها بعض الكلمات الأدبية ، وهي تتطلع جانباً عندما تسأله، متظاهرة بعدم المبالاة . ولكنه ادرك أنها تدرس في الخفاء . فأقلع تقديراً لما تبذل من جهد ، عن سؤالها القراءة معه .

قالت له ذات يوم :

– ان عينيّ تزدادان ضعفاً يا أندريوشا ، وأنا في حاجة الى نظارات .

– هذا أمر يسهل تدبيره . ولسوف أصحبك يوم الاحد الى طبيب في المدينة فتحصلين على حاجتك .

١٩

طلبت السماح لها برؤية بافل ثلاث مرات ، وفي كل مرة كان رئيس الدرك ، وهو رجل عجوز أشيب الشعر ، متورد الخدين ، كبير الانف ، يردها خائبة في لطف ورفق :

– يجب ان تنتظري أسبوعاً آخر على الاقل ، ايتها الام . بعد أسبوع سوف نرى ... اما الآن فذلك مستحيل .

كان ممتلىء الجسم ، مستديره ، يذكرها بثمرة ناضجة قطفت منذ زمن بعيد ، حتى اكتست بعفن وبري ناعم . وكانت تجده ، ابداً ، يحفر في أسنانه الحادة البيض الصغيرة بعود أصفر اللون ، تبتسم عيناه الخضراوان الصغيرتان في لطف، وهو يخاطبها على الدوام بصوت متودّد بشوش .

كانت تقول للاوكراني :

– انه أديب كثيراً ، يبتسم بصورة مستمرة . هذا غير لائق في نظري ... عندما يكون الانسان رئيساً يجب ان يقتصد في الضحك .

فيجيب الاوكراني :

– أوه ، نعم ! هُمُ ، جميعاً ، لطيفون جداً ، متأدبون ، يبتسمون أبداً . ويقال لهم : ها هو ذا شاب ذكيّ شريف وجدناه خطراً علينا ، فاشنقوه ان

كان ذلك لا يقلقكم أو يزعجكم . فيبتسمون ويشنقونه . وبعد انتهاء ذلك – يستمرون في الابتسام .

– ان الامر يختلف تماماً مع ذلك الذي قام بالتفتيش هنا ! لتستطيع ان ترى ، للوهلة الاولى ، أي خنزير كان .

– ليس بينهم كائن بشري – ليسوا سوى مطارق يدقون الشعب بها، وآلات ينحتون بها أمثالنا كي يتصرفوا بنا ، كما يشؤون ، بسهولة ويسر . وهم انفسهم قد جُعِلوا على صورة تلائم الرؤساء تماماً بحيث يفعلون كل ما يؤمرون به دونما تفكير على الاطلاق ، ودون ان يسألوا عن أسبابه البتة ...

وأذنوا لها أخيراً برؤيته ، فوجدت نفسها ، ذات يوم أحد ، جالسة بتواضع في احدى زوايا مكتب السجن . وكان هناك عدد آخر من الاشخاص في الغرفة الصغيرة ، الوسخة ، المنخفضة السقف ، ينتظرون السماح لهم بزيارة المسجونين . وكان من الواضح أنها ليست المرة الاولى التي يزورون فيها السجن ، فقد كانوا متعارفين ، ينسجون حديثاً هادئاً ، خافت الجرس ، يشبه نسيج العنكبوت .

وقالت امرأة بدينة ذات وجه منتفخ، وقد وضعت حقيبة سفر على ركبتيها:

– هل بلغكم الخبر ؟ لقد كاد استاذ الترتيل في الكاتدرائية ، هذا الصباح ، يقتلع أذن احد أفراد الجوقة في خدمة الصباح الاولى .

فأجاب شيخ يرتدي ثياب ضابط متقاعد :

– انهم لخبثاء هؤلاء الصبيان المرتلون ...

وكان ثمة رجل صغير الجثة ، أصلع الرأس ، ذو ساقين قصيرتين ، وذراعين طويلتين ، وذقن مدببة ، يغدو في المكتب ويجيء مضطرب الاعصاب ، وهو يلقي بملاحظاته دون انقطاع في صوت متحشرج خشن :

– ان الاسعار في صعود مستمر ، وهذا ما يجعل الناس ادنياء سفهاء . ان

الرطل من الصنف الثاني من لحم الخنزير يكلف أربعة عشر كوبيكاً . والخبز ارتفع حتى اصبح يساوي ، من جديد ، كوبيكين ونصف الكوبيك ...

وكان المساجين ، من وقت لآخر ، يلجون الى المكتب ، وهم يرتدون ثياباً رمادية متشابهة ، واحذية ضخمة جلدية ، فتطرف عيونهم حالما يدلفون الى الغرفة الباهتة النور . وكان احدهم مقيد الساقين بسلسلة حديدية ضخمة ...

كان الهدوء والسكينة والصمت تخيم بصورة غريبة مزعجة على السجن وما يحيط به ... وكان يبدو ان هؤلاء القوم اعتادوا هذا المكان منذ أمد بعيد ، وقنعوا بنصيبهم المقدر واستكانوا اليه . وكان يبدو على بعضهم أنهم يقومون بواجبات مفروضة ، والبعض الآخر يقفون للحراسة بكسل وفتور عظيمين ؛ والبعض الآخر يأتون بانتظام وضجر لزيارة مساجينهم . وخفق قلب الام وقد نفذ صبرها ... راحت تتلفت بحيرة حواليها ، مشدوهة من بساطة كل شيء يحيط بها وكآبته .

وكانت تجلس الى جوارها امرأة صغيرة عجوز ، ذات وجه مجعد الخدين ، وعينين صغيرتين فتيتين . وكانت تتطاول برقبتها الناحلة لتستمع الى ما يدور حولها من حديث ، وتشخص الى كل انسان ونظرة وقحة تطل من عينيها .

استوضحتها بيلاجيا بلطف :

— من لك هنا ؟

فأجابت العجوز بصوتٍ مرٍّ عالٍ :

— ولدي . طالب في الجامعة . وأنت ؟

— ولدي ايضاً . عامل .

— وما اسمه ؟

— فلاسوف .

– لم أسمع به . أمضى عليه زمن طويل هنا ؟

– قرابة سبعة أسابيع .

فقالت العجوز ، وفي نبرات صوتها خيلاء وتكبُّر لم يخفيا على بيلاجيا .

– اما ولدي فقد قضى عشرة أشهر حتى الآن .

فدمدم العجوز الأصلع :

– نعم، نعم ! لم يعد ثمة صبر – لقد عيل صبر الجميع، فهم يصيحون عالياً . والاسعار ما زالت ترتفع ... وقيمة الناس تهبط بصورة مطردة مع ارتفاعها . وليس من يرفع صوته ليضع لذلك حداً .

فقال الضابط :

– أنت محق ! لقد طفح الكيل ! وحان الوقت كي يصدر احدهم أوامره بصوت جهوري قوي : « صمتاً ! » فيصمت الجميع ، هذا ما نحن اليه في حاجة . صوت قوي حازم ...

وانضم الجميع الى الحديث الذي اصبح بذلك حامي الوطيس ، اكثر حيوية من ذي قبل ، ونشط كل واحد منهم يريد إبداء رأيه في الحياة ، ولكن بصوت خافت . وتبينت الام ان كل ما يقولون انما هو غريب عن أفكارها ، فأحاديث البيت تختلف كل الاختلاف عن هذه – انها أوضح وأبسط ، وأعلى نبرة ايضاً .

ونادى باسمها اخيراً سجّان سمين ذو لحيـــة مربعة حمراء ، ثم تفحصها من ذؤابة رأسها حتى أخمص قدميها ، وقال :

– اتبعيني .

ومضى وهو يطلع . وأحست الام في الطريق رغبة تحدوها الى دفعه في ظهره حتى يحث الخطو .

كان بافل واقفاً في غرفة صغيرة يبتسم لها ماداً إحدى يديه ، فتناولتها الأم، وأطلقت ضحكة قصيرة ، وعيناها تطرفان بشدة بالغة . قالت وقد خانتها الكلمات :

– مرحباً ... مرحباً ...

فقال بافل ، وهو يمسح على يدها :

– هدئي روعك ؛ يا اماه .

– حسناً ، حسناً .

فقال السجان ، متنهداً :

– إليك أمك !

وأضاف ، وقد أطلق من فمه تثاؤباً طويلاً :

– لكن يحسن ان تقفي بعيدة عنه ، حتى يكون بينكما مسافة كافية .

سألها بافل عن صحتها ، وعن امور البيت ... وكانت هي تتوقع أسئلة أخرى مختلفة ، فراحت تفتش عنها ، عبثاً ، في عيني ولدها . كان هادئاً كعادته على الدوام ، وان ازداد شحوبه قليلاً وبدت عيناه وكأنهما اتسعتا وكبرتا .

قالت :

– ان ساشا تذكّرك بنفسها .

فاضطرب جفناه وارتعشا ؛ ورقّت ملامحه ، وارتسمت على وجهه ابتسامة حلوة ، فاستشعرت الام غصة مرّة تتدفق في قلبها بحدة .

سألت ، مغتاظة كلمى :

– أتعتقد انهم سيطلقون سراحك عما قريب ؟ ولمَ ألقوا القبض عليك واحتجزوك ؟ تلك المناشير قد عاودت ظهورها مرة ثانية في المعمل .

فالتمعت عينا بافل سروراً ...

استفهم بسرعة :

– أصحيح هذا ؟

فقال السجان بصوت وسنان :

– التحدث عن مثل هذه الامور ممنوع . تستطيعان التحـدث عن الامور العائلية فقط ...

فاحتجت الام بقولها :

– أوليست هذه اموراً عائلية ؟

فأجاب الحارس في عدم مبالاة :

– لا أستطيع الجواب على هذا . وإنما – ذلك ممنوع .

فقال بافل :

– حسناً ، حدثيني عن أمور البيت . ماذا تعملين فيه ؟

فأجابت ، وعيناها تلمعان ببريق فتي مذنب :

– أوه ! لقد كنت أحمل الى المصنع كل تلك الاشياء ...

وأمسكت عن الكلام ، ثم تابعت وهي تبتسم :

– أنت تعلم ماذا ... الحساء ، الملفوف ، وكل الزاد الذي تطهيه ماريا ... وأشياء أخرى ايضاً ...

وأدرك بافل ما تقصد اليه ، فوضع إحـــدى يديه في شعره بينا تقلصت عضلات وجهه من جرّاء عاطفة مكبوتة من الضحك .

قال بصوت حنون لم تسمعه منه أبداً فيما مضى :

– إنه لأمر رائع ان تجدي شيئاً يشغلك ... وهكذا لا تستوحشين فأعلنت في شيء من الخيلاء :

– عندما بدأت تلك المناشير تظهر ، راحوا يتحرونني بدوري .

فقال السجان مغتاظاً :

– أعدنا الى ذلك الموضوع ؟ لقد قلت لكما إنه ممنوع . إنهم يسجنون المرء كي لا يعرف ماذا يجري في الخارج ، ومع ذلك فأنتما تثرثران هنا . لقد آن الوقت كي تفهما ان الممنوع ممنوع .

قال بافل :

– كفى ، يا أماه . ان ماتفي إيفانوفيتش رجل رائع جداً ولا معنى لاثارة غضبه . نحن صديقان حميمان ، ولقد أرادت المصادفة المحضة ان يكون السجان الذي سيحضر زيارتك اليوم . فالعادة ان يحضرها مساعد المدير .

قال السجان ، متطلعاً الى ساعته :

– لقد انتهى الوقت .

وقال بافل :

– شكراً ، يا أماه الحبيبة ! لا تقلقي ، فلسوف يُطلقون سراحي سريعاً .

وعانقها بحرارة وقبّلها ، فبكت سروراً وتأثراً .

– هيا بنا !

قال السجان هذا ، ثم غمغم وهو يقودها في طريق العودة :

– لا تبكي ، سوف يتركونه عن قريب ، سيتركونهم جميعاً ... فالازدحام شديد هنا .

عندما بلغت الدار حدَّثت الاوكراني بكل شيء ، وهي تبتسم بأشراق ويرتعش جفناها فرحاً وغبطة :

– لقد أخبرته ذلك بأسلوب بارع حقاً ، ولقد فهم .

ثم أضافت وهي تتنهد :

– لقد فهم من دون ريب ، وإلا ما تدفق حناناً حتى هذه الدرجة . انه لم يكُ كذلك أبداً ...

فقال الاوكراني ضاحكاً :

– ما أحيلاك ! الناس يطلبون ابداً اشياء عديدة ، أما الام فكل ما تبغيه هو الحب .

فهتفت ، وقد دبّ النشاط فيها بغتة .

– أوه ! كلا ، يا أندريوشا : كان يجب ان ترى أولئك الناس ، وكيف ألِفوا ذلك الواقع ! لقد انتزعوا منهم أبناءهم وألقوا بهم في فحمة السجن ، ومع ذلك فهم يتصرفون كأن شيئاً لم يحدث أبداً – يأتون الى هناك ، ويقعدون ، وينتظرون ، ويتكلمون عن الاخبار . اذا كان المثقفون يألفون الامر هكذا فماذا يُنتظر اذن من الناس الجاهلين ؟

فأجاب الاوكراني في سخرية غير معهودة :

– ذلك واضح كل الوضوح . فالقانون ، على أية حال ، أخف وطأة عليهم منه علينا نحن ؛ فاذا أصابهم بلطمة على رأسهم مرة ، كشّروا بعض الوقت ، ثم تناسوا كل شيء . فأخفُّ عليك دائماً تحمل أذى اهلك وخاصتك من تحمل أذى البعداء .

٢٠

ذات مساء بينا الام جالسة الى الطاولة ترفأ بعض الجوارب ، والاوكراني يقرأ لها عن ثورة العبيد في روما القديمة ، اذ الباب يقرع قرعاً شديداً . وعندما فتح الاوكراني الباب دخل فيزوفشيكوف يتأبط حزمة كبيرة ، وقبعة عالقة بمؤخرة رأسه ، وساقاه ملطختان بالوحل حتى الركبتين .

قال بصوت غريب :

— كنت ماراً بكما ، فرأيت النور ، فدخلت لأحييكما . لقد خرجت من السجن توّاً .

وتناول يد بيلاجيا ، وهزها بحرارة ، وأردف يقول :

— بافل يبعث اليك تحيّاته .

جلس متململاً ، وأجال في الغرفة نظرة فاحصة حزينة .

لم تكن الام تحبه ... فهي تجد شيئاً مخيفاً مروّعاً يطل من رأسه الحليق المربّع وعينيه الصغيرتين . غـــير أنها كانت سعيدة هذه الليلة بلقائه . راحت تبتسم في ودٍّ وحنان ، وهي تقول له :

— لكم أصبحت نحيلا ! هلّا صببتِ له قدحاً من الشاي يا أندريوشا ؟

فصاح الاوكراني من المطبخ :

- إني أهيء السماور .

- حسناً ، وكيف هو بافل ؟ أأخلوا سبيل غيرك ؟

فأطرق نيقولاي برأسه :

- ان بافل ينتظر بصبر . لقد أخلو سبيلي فقط .

ثم رفع عينيه الى وجه الام ، وقال ببطء من بين أسنانه المنطبقة :

- لقد صحت بهم : اني نلت الكفاية ، ونفذ صبري ، فأطلقوا سراحي ! وإلا فسأقتل أحدكم وأنتحر . ولذا أخلوا سبيلي .

- آه !

قالت الام ذلك وهي تبتعد عنه . وعندما التقت عيناها بنظرته القاسية غضت طرفها بالرغم منها .

صاح الاوكراني من المطبخ :

- كيف حال فيدور مازين ؟ أما يزال يقرض الشعر ؟

فردّ نيقولاي ، وهو يهز رأسه :

- نعم ، وهذا ما لا أفهمه . ماذا يظن نفسه ؟ عندليب ؟ ضعه في قفص ، وهو يأخذ يغني . ولكن ثمة شيئاً واحداً أفهمه تماماً ... وهو أني لا أريد الذهاب الى البيت .

وقالت الام :

- وما عساك تفعل في البيت ؟ منزل خاوٍ ، ولا نار في الموقد ، وكل شيء بارد ...

ولم يقل شيئاً ، بل أطبق جفنيه ، ثم تناول من جيبه علبة لفائف وأشعل

واحدة منها ، وراح يلاحق بنظراته دخانها وهو يتلاشى ، تعلو وجهه سيماء الكآبة والغم :

– نعم ، لا ريب ان كل شيء بارد . خنافس متجلدة على الارض ، وفئران متجمدة ايضاً .

وصمت لحظة ، ثم سأل بصوت أجش دون ان يتطلع الى الام :

– هلّا سمحت لي بقضاء الليل ههنا ، يا بيلاجيا نيلوفنا ؟

فأسرعت تجيب :

– بالطبع ، وبكل طيبة خاطر .

وأحست شيئاً من الضيق في حضرته .

– في هذه الايام اصبح الشبان يخجلون من آبائهم ...

فسألت الام ، وقد انتفضت :

– ماذا ؟

فحدجها بنظره ، ثم أغلق عينيه بحيث اتخذ وجهه المجدور مظهراً يوحي بأن صاحبه ضرير فاقد البصر ، ثم ردّد وهو يتنهد :

– قلت ان الفتيان أصبحوا يخجلون من آبائهم . ألم يخجل بافل منك ابداً ، اما انا فأخجل من والدي العجوز ولن أضع رجلي في بيته ثانية ابداً . ليس لي أب ، ولا بيت ايضاً . ولو لم أكن تحت مراقبة الشرطة لذهبت الى سيبيريا ، وسأحرر الناس في المنفى هناك – أساعدهم على الفرار .

وأدركت الام بقلبها الحساس ، ان هذا الصبي يتألم ، لكن ألمه لم يثر فيها عطفاً وحناناً .

قالت ، كي لا تسيء اليه بالامتناع عن الكلام :

– ان كنت تشعر بذلك حقاً ، فانك تفعل حسناً بالذهاب .

وجاء أندريه من المطبخ ضاحكاً :

– بماذا تترافعان ؟

فقالت الام ، وهي تنهض :

– سأمضي لأهيىء بعض الطعام .

وأعلن نيقولاي بغتة ، بعد ان تفرس في الاوكراني برهة من الزمن :

– يخيل إليّ ان بعض الناس يستحقون القتل .

فاستفسر الاوكراني .

– يا لله ! ولِمَ ؟

– للتخلص منهم .

– وهل لك الحق في اخماد شعلة الحياة ؟

– نعم .

– ومن أعطاك هذا الحق ؟

– لقد منحني إياه البشر .

وقف الاوكراني ، طويل القامة نحيل القوام ، يتأرجح على عقبيه في وسط الغرفة ، ويتطلع الى نيقولاي الذي جلس على مقعده في بلادة ، غارقاً في عجاج من دخان التبغ ، وقد بدت على وجهه لطخات حمر قانية :

وعاد فيزوفشيكوف يقول ، وقد جمع قبضة يده :

– نعم ، لقد منحني إياه البشر . ما دمت أتلقى الرفسات ، فلي الحق أن أقابل المثل بالمثل ... وان أدق الاعناق ... وأن أفقأ الاعين ... أما اذا لم

يؤذني أحد فلن أمسَّ مخلوقاً على الاطلاق . واذا تُركت أحيا وحدي وفق هواي فسأعيش هادئاً ، ولن أزعج احداً البتة ... إني أقسم على ذلك . لنفرض اني أريد استيطان الغابة ، وبناء كوخ في منخفض على احد الانهار ، والمكث هناك ... وحيداً ...

فقال الاوكراني ، وهو يهز كتفيه :

– حسناً ... إفعل ذلك اذن .

– الآن !

ورفع رأسه ، وهتف وهو يضرب بقبعته على احدى ركبتيه :

– هذا مستحيل الآن .

– ومن يمنعك ؟

– البشر . إني لاصق بهم كل اللصوق حتى الموت ... لقد أوثقوا قلبي بالبغضاء ... وربطوني بهم عن طريق الشر ... وانه لوثاق متين ذلك الذي قيدوني به ... اني أبغضهم ، وسأنغّص عليهم عيشهم حيثما حللت ... إنهم يزعجونني، ولذلك سوف ازعجهم ... انا اتحمل تبعة عملي ... وعملي وحده ... ولا طاقة لي على احتمال تبعات ما يرتكبه سواي ... واذا كان والدي لصاً ...

فهتف الاوكراني بصوت خافت ، وهو يدنو من فيزوفشيكوف :

– آهٍ !

– سوف أدق عنق اشعيا خوربوف . سوف ترى كيف أفعل ذلك .

– ولمَ ؟

فقال فيزوفشيكوف ، وهو ينظر الى اندريه بجفاء :

– انه جاسوس وثرثار ، وهو الذي دمّر والدي ... وهو يريد ان يجعل منه مخبراً عند الشرطة .

فصاح الاوكراني :

– اذن فهذه هي المشكلة ! ولكن ليس سوى الاحمق يستطيع ان يلومك على هذا ...

فقال فيزوفشيكوف في عناد :

– ان الاذكياء والحمقى سواء . فأنت وبافل مثلاً، كلاكما ذكي . ولكن هل أنا في نظركما مثل فيودور مازين او صموئيلوف ، او مثل أحدكما في نظر الآخر ؟ لا تكذب ، فأنا لن أصدقك على أية حال . انكم جميعاً تدفعونني جانباً – وتضعونني في مكان خاص ...

فقال الاوكراني بلطف وعذوبة ، وهو يجلس الى جانبه :

– انك مريض النفس يا نيقولاي .

– اني مريض النفس ، حسناً . ولكن نفوسكم مريضـــة ايضاً . انما أنتم تحسبون ان ما يمرضكم هو أسمى ما يمرضني . كلنا يعامل بعضنا بعضاً بنذالة . هذا جلّ ما استطيع ان اقول . ما عندك أنت ؟ هيا وهاته .

وثبّت عينيه القاسيتين في وجه أندريه ، وراح ينتظر الجواب منطبق الفكين . ولم تتبدل ملامح وجهه المبقع ، ولكن شفتاه أخذتا ترتعشان وكأنه مصاب بالحمى .

قال الاوكراني ، وهو يقابل نظرة العداوة في عيني فيزوفشيكوف بابتسامة عينيه الزرقاوين الدافئة :

– اني لن اقول شيئاً ، فأنا اعلم ان النقاش مع فتى تدمى كل الجروح في قلبه لا يُنتج إلا الأذية وحدها . اني اعلم ذلك ، يا اخي .

فغمغم فيزوفشيكوف ، وهو يغضّ طرفه :

– لا تستطيع ان تناقشني – انا لا أعلم كيف ...

فتابع الاوكراني :

– يخيل إليّ ان كلاً منا قد سلك يوماً طريقه الشائكة ، وان كلاً منا قد زمجر مثلك في ساعاته السود المظلمة ...

فقال فيزوفشيكوف في بطء :

– ليس هناك ما تقوله لي . ان روحي تعوي كالذئب الكاسر .

– لست أريد ان اقول لك اي شيء على الاطلاق ... اني اعرف فقط ان ذلك سيمضي ... وربما لن يمضي كلـه ، ولكنه سيمضي على أية حال .

وأرسل ضحكة قصيرة ، ثم استرسل وهو يربت على كتف نيقولاي :

– هذا مرض طفولي كالحصبة ، يصاب به كل منا يوماً ما – والاقوياء تكون إصابتهم خفيفة ، أما الضعفاء فإصابتهم شديدة . انه يرمي بنا أرضاً ويقعدنا في ذات اللحظة التي نسير فيها في طريق العثور على ذواتنا قبل ان تكمل نظرتنا عن الحياة ... او ينضج إدراكنا لموضعنا فيها . ويخيل اليك عندئذ انك أطيب قطعة حلوى في الوجود ، وان كل انسان يريد ان ينال منك كسرة . ولكنك لا تلبث قليلاً حتى تجد ان للباقين في صدورهم نفساً لا تقل خساسة ودناءة عن نفسك ، الامر الذي يسهل الامور كثيراً ، وعندئذ تخجل قليلاً لانك تسلقت الى قبة الناقوس بجرسك التافه العاجز عن رفع صوته في هذا الصخب الشامل . ولكنك تكتشف ان جرسك ينسجم تماماً مع جوقة الاجراس ويزيدها روعة ، وان كانت النواقيس الكبيرة تغرقه في رنينها ، او كان وحيداً ، كما تغرق الذبابة في إناء من الزيت . هل تفهم ما أحاول ان اقول ؟

فقال نيقولاي ، وهو يهز رأسه :

– ربما أفهم ولكني لا ... أصدق .

فهب الاوكراني واقفاً وهو يضحك ، وأخذ يمشي جيئة وروحة في ضوضاء وحمية :

– وانا ايضاً لم اصدق في الماضي ، ايها المتحجر الرأس .

فسأل فيزوفشيكوف ضاحكاً ، وهو يرمي الاوكراني بنظرة كئيبة :

– ولمَ تدعوني متحجر الرأس ؟

– لان تلك هي حقيقتك .

وفجأة اخذ نيقولاي يزمجر ضاحكاً مـــلء شدقيه ، فسأل الاوكراني مشدوهاً ، وهو يقف تجاهه :

– ماذا دهاك ؟

– لقد كنت أفكر – كم يجب ان يكون المرء احمق كي يجرح إحساساتك .

فهزّ الاوكراني كتفيه :

– وكيف يمكن لأي شخص كان ان يجرح إحساساتي ؟

فقال فيزوفشيكوف مبتسماً بجذل :

– لست ادري ، ولكنني أعني فقط ان المرء سيشعر بالنقمة على نفسه اذا آذاك مرة .

فضحك الاوكراني :

– تلك هي فكرتك إذن !

وصاحت الام من المطبخ :

– أندريوشا .

فغادر أندريه الغرفة ...

وبعد ان اصبح فيزوفشيكوف وحيداً ، تطلع حوله ، ومدّ رجلاً حُبست في حذاء ضخم ، وتفحصها باعتناء شديد ، وراح يتحسس بطة ساقه . ورفع يده يتمعن في راحتها الثخينة ، وفي ظهر اصابعها الضخمة المكسوة بشعر اصفر اللون . واخيراً نهض وهو يلوح بيده في اشارة اشمئزاز .

وعندما رجع أندريه بالسماور ، كان نيقولاي يقف مقابل المرآة . قال في ابتسامة ملتوية :

– انها المرة الاولى التي أرى فيها فمي هذا منذ زمن طويل . انه قبيح حتى ليخيف اي انسان كان .

فسأل أندريه ، وهو ينظر اليه في فضول :

ـ وما الذي يجعلك تفكر في مظهرك ؟

ـ تقول ساشا ان الوجه يعكس النفس .

فصاح الاوكراني :

ـ هراء ! ان لها أنفاً اشبه بصنارة الصيد ، وعظام وجنتيها كحد السكين ، ولكن نفسها اشبه بالكوكب المضيء .

فحدق نيقولاي فيه ثم انفجر ضاحكاً ...

وجلس ثلاثتهم يحتسون الشاي ...

تناول فيزوفشيكوف قطعة كبيرة من البطاطا وذر الملح ببطء على كسرة من الخبز ، وابتدأ يمضغ في هدوء وتمهل كالثور العجوز .

سأل ، ممتلىء الشدقين طعاماً :

ـ كيف حال الامور هنا ؟

وعندما قدم له أندريه تقريراً مرحاً عن مجرى دعايتهم في المعمل ، امتقع لونه مرة اخرى وتجهم وقال :

ـ ليتطلب ذلك وقتاً طويلاً ، طويلاً جداً ... يجب ان نعمل بسرعة اكبر.

فنظرت اليه الام ، واختلج في صدرها شعور بالعداء نحوه .

وقال أندريه :

ـ ليست الحياة حصاناً يساق بالسوط .

فهزّ نيقولاي رأسه في أسى ، وقال :

ـ ان هذا يطول بنا جداً ، ولست استطيع ان انتظر هكذا . ماذا يجب ان أفعل ؟

وندت عنه إشارة يأس وهو ينظر الى الاوكراني انتظاراً للجواب ، فقال أندريه وهو يطرق برأسه :

ـ ان علينا جميعاً ان ندرس ونعلم الآخرين ، ذلك ما ينبغي ان نفعل .

فسأل فيزوفشيكوف :

ـ ومتى ابتدأنا النضال ؟

فضحك الاوكراني ، وأجاب :

ـ لست ادري متى ابتدأنا النضال ، ولكني اعلم انهم سيغلبوننا مرات عديدة كثيرة قبل ان ننتصر عليهم . ويبدو لي ، حسب نظرتي للأمور ، انه ينبغي ان نسلح رؤوسنا قبل ان نسلح أيدينا .

واستدار نيقولاي الى الطعام من جديد ، اما الام فراحت تسترق نظرة الى وجهه العريض وهي تحاول ان تكشف هناك شيئاً يصالحها مع ذلك الجسد الثقيل المربع البنيان .

ولاقت اخيراً النظرة الشائكة في عينيه الصغيرتين فراح حاجباها يرتجفان . اما أندريه فقد فقَدَ هدوءه ، على حـــين غرة ، وأضحى كثير الاضطراب والتململ ، وانطلق يضحك ويتكلم دون حساب ، ثم توقف عن الحديث بغتة ، دون ان يكمل الجملة التي بدأها ، وراح يصفر لحنه المعتاد .

وأحست الام انها تفهم ما الذي يقلقه . اما نيقولاي فقد جلس صامتاً ، يردّ على أقوال الاوكراني بأجوبة مقتضبة بادية الامتعاض .

وأصبحت الغرفة الصغيرة ثقيلة الوطأة على الام وأندريه معاً ، وراح كل منهما ، بدوره ، يرمق الضيف بنظرات خاطفة سريعة .

نهض نيقولاي اخيراً ، وقال :

– اظن اني سأذهب الى الفراش . لقد لبثت جالساً طويلاً في ذلك السجن ، ثم أطلقوا سراحي على حين فجأة وبدون انتظار ، فخرجت حراً طليقاً ، وأنا متعب الآن ...

وترهل في المطبخ حيث ظل يتململ فترة من الزمن في فراشه ، ثم تلاشت ضوضاؤه تماماً وكأن الموت نزل بساحته . فأصاخت الام بسمعها الى السكون برهة ثم همست في أذن اندريه :

– لقد اكتسب أفكاراً مخيفة .

فوافق الاوكراني ، وهو يهزّ رأسه :

نعم ، وإنه لانسان صعب معقد . ولكن ذلك سيمضي . لقد كنت هكذا أنا ايضاً في فترة من الزمن . ان النار ترسل الكثير من الهباب والدخان قبل ان تلتهب مضطرمة في قلبك . إذهبي الى الفراش يا أميمة ، فأنا أريد ان اقرأ قليلاً .

فسعت الى احدى الزوايا حيث كان سرير يقبع وراءه ستائر مصنوعة من

القطن . وظل اندريه طويلا يسمع حفيف تنهدلتها وصلواتها الدافىء ، وسرعان ما استغرق في كتابه يقلب صفحاته في عجلة وهو يحك جبينه او يفتل شاربيه بين أصابعه الطويلة ، ويحرك قدميه دون انقطاع . وكانت الساعة تـــدق في انتظام ، والريح لا تني عن الانين وراء النافذة .

وجاء صوت الام الناعم يقول :

– آه ، يا إلهي ! هؤلاء البشر في العالم ، كل منهم يتألم على طريقته الخاصة ! أين هم السعداء بينهم ؟

فأجاب الاوكراني :

– ان ثمة اناساً سعداء يا أميمة ، وعما قريب سيكون عددهم عظيماً ... عظيماً جداً .

٢١

وتدفقت الحياة في سرعة تتلاحق أيامها متباينة مفعمة بالحوادث ، وكل منها يحمل الى الوجود شيئاً جديداً غير معهود، فلا يثير ذلك جزع الام وقلقها ابداً .

وكانَ يفِدُ على بيتها ، أكثر فأكثر ، أناس مجهولون يأتون في العشية . ويتحدثون الى اندريه طويلاً بأصوات قلقة خافتة ، ثم يرفعون ياقات معاطفهم ، ويجرون قبعاتهم حتى تستر كل جباههم ، ويختفون في الظلمة في حذر وبدون أي ضوضاء . وكانت تدرك ذلك الانفعال المكبوت الذي يحسه كل منهم ، فهم جميعاً ، فيما يبدو ، يريدون ان يضحكوا او يغنوا ، فلا يجدون لذلك متسعاً من الوقت لانهم أبداً يحثون الخطا الى مكان ما . وكان بعضهم وقورين ابـــداً ، متجهمين عابسي الوجوه ؛ وبعضهم الآخر مرحين على الدوام يشعون فتوة وشباباً ، وفئة ثالثة ايضاً أفرادها هادئون غارقون في التفكير دون انقطاع . ولكن الجميع كانوا يتحلون ، في نظر الام ، بذلك العزم الواثق بذاته . وكانت وجوههم جميعاً ، وان يكن لكل منها مظهره الفردي الخاص المتحيز ، تذوب في وجه واحد ، نحيل هادىء ، طافح بالحزم ، ذي عينين عميقتين صافيتين سوداوين تطل منهما نظرة لطيفة وصارمة في الوقت ذاته ، مثل نظرة المسيح على طريق عماس .

وكانت الام تُحصي عددهم ، وهي تجمع في ذهنها حشداً كبيراً حول بافـــل يختبىء هذا في وسطه عن عين العدو . وفي ذات يوم قدمت من المدينة فتاة

متوقدة الذكاء ، مجعدة الشعر ، تحمل طرداً الى أندريه ، وبينما هي تغادر الدار استدارت نحو الام وفي عينيها المرحتين بريق شديد اللمعان ، وقالت :

ـ الى اللقاء يا رفيقة .

فأجابت الام ، وهي تكبح ابتسامة هجمت على شفتيها :

ـ الى اللقاء .

وبعد ان شيعت الفتاة ، ذهبت الى النافذة وراحت تراقب رفيقتها هـــذه تقطع الشارع في خطوات صغيرة سريعة، خفيفة كالفراشة ، ممتلئة حيوية كوردة ربيعية . غمغمت :

ـ يا رفيقة ! يا أيها الشيء الصغير الحبيب ! فليهبك الله رفيقاً حقيقياً يرافقك طوال الحياة .

كانت تميز في كل أولئك الناس الذين يأتون من المدينة شيئاً طفولياً ، فتبتسم في تعطف وتواضع . ولكنها كانت تتأثر ، وفي نفسها مزيج من الدهشة والفرح والحبور ، بإيمانهم المتجلي لها ثباته ورسوخه اكثر فأكثر على مرّ الايام وكرّها . وكانت أحلامهم عن انتصار العدالة تداعب قلبها وتبثُّ فيه الحرارة والسعادة ، فتتنهد مصغيةً إليهم في كآبة لا تدرك لها كنهاً . ولكنها كانت تتأثر ، بصورة خاصة ، ببساطتهم التامة ، وبتلك اللامبالاة الرائعة تجاه هنائهم الخاص .

ولقد أصبحت تفهم الكثير مما يقولون عن الحياة ، فتحس أنهم اكتشفوا منبع الآلام الانسانية الحقيقي ، وتوافق على اكثر مطاليبهم . ولكنها لم تكن تثق ، في اعماق نفسها، بأنهم قادرون على تحويل مجرى الحياة او انهم سيصيرون الى ما يكفيهم من القدرة على ضمّ العمّال إليهم . ان كل انسان يهتم باملاء معدته في هذا اليوم ذاته ، وليس ثمة من يرضى بتأجيل ذلك الى الغد .

وقليل هم أولئك الذين يرضون عبور تلك الطريق الطويلة العسيرة ، وقليلة

هي الأعين التي تستطيع إدراك هذه الرؤيا الاسطورية عن مملكة الاخوة الانسانية التي لا مفرّ من بلوغها في نهاية الطريق . ولذلك بدا لها كل هؤلاء الناس الطيبين أطفالاً بالرغم من لحاهم ووجوههم الناضجة التي أذواها التعب المرهق، واضناها الاجهاد الشديد .

وكانت تفكر ، وهي تهز رأسها :

ـ آهٍ يا احبائي المساكين !

ولكنهم الآن يحيون جميعاً حياتهم الرائعة ، رزينة عاقلة . انهم يتكلمون عن عمل الخير ، ولا يُعفون أنفسهم من جهد يبذلونه كي يعلّموا الآخرين ما سبق لهم ان خازوا معرفته ووعوها . واستطاعت ان تدرك كيف يمكن للمرء ان يحب مثل هذه الحياة بالرغم من اخطارها ، فراحت تحدُّ بصرها متنهدة الى شريط ماضيها الاسود الضيق ، فينمو فيها شيئاً فشيئاً إدراك هادىء لأهميتها ، هي ايضاً ، في هذه الحياة الجديدة . فيما مضى لم تحسّ ابداً ان ثمة انساناً يحتاج اليها ، اما الآن فهي ترى بوضوح ان الكثيرين هم في اشدّ حاجة اليها . وكان هذا شيئاً جديداً مفرحاً جعلها ترفع رأسها وتشمخ بأنفها في فخر وخيلاء .

كانت تحمل المناشير الى المعمل بصورة منتظمة ، تجد في ذلك واجباً عليها يجب اداؤه . واعتاد رجال الشرطة والتحري رؤيتها ، فكفوا عن إعارتها ادنى انتباه . وكثيراً ما فتشوها ، لكن دائماً في اليوم التالي لظهور المناشير في المصنع . واذا لم تكُ تحمل شيئاً على كتفها فهي تجري ، جاهدة ان تثير اشتباه الحرس حتى يمسكوا بها ويفتشوها ، بينما تذهب هي في مناقشتهم شوطاً طويلاً ، تفصح عن امتعاضها ، واعتبار ذلك إهانة موجهة الى كرامتها ، فاذا ثبتت براءتها انطلقت فخوراً معجبة ببراعتها تيّاهة بذكائها . تلك كانت لعبة تتمتع بها وتلقى فيها اللذة كل اللذة .

ولم يُقبل فيزوفشيكوف مرة اخرى في المعمل ، فوجد عملاً لدى تاجر

أرسله يبيع جذوع الاشجار وحطب الوقود والألواح الخشبية . وكانت الام تراه وحمله الثقيل ، كل يوم تقريباً ، اثناء مروره في جوار بيتها : فيبدو لها اولاً جوادان هزيلان اسودان ترتجف اطرافهما من عناء الجهد الذي يبذلانه ، ويهتز رأساهما في ضجر وكلل ، بينما تطرف عيونهما المعذبة المرهقة ، ثم يأتي بعدهما جذع طويل رطب أو كومة من الالواح تتلاطم في ضجيج هائل ، والى جانبها يتدحرج نيقولاي ، ممسكاً بالأعنة في تراخٍ بين يديه ... وسخاً ، رثّ الثياب، ثقيل الحذائين ، قد دفع قبعته حتى مؤخرة رأسه ، سميك الوجه، غليظ السحنة مثل أرومة مقتلعة من الارض . وكان هو الآخر يؤرجح رأسه وهو يسير ، وقد أطرق بعينيه الى الارض ، وجواداه يتعثران دون رادعٍ بالعربات والمارة على طوال الطريق ، فيوجه هؤلاء الى نيقولاي صيحات قاسية حادة او شتائم غاضبة تحاصره مثل سرب من الزنابير الثائرة ، فلا يجيب ، ولا يرفع رأسه ، بل يرسل من بين أسنانه صفيراً حاداً ، ويغمغم متوجهاً الى الجوادين :

– هيا ! هيا !

وكل مرة يدعو اندريه رفاقه فيها لقراءة العدد الاخير من صحيفة اجنبية ، أو كتيباً حديثاً ، كان نيقولاي يأتي أيضاً وينزوي في احدى الزوايا منصتاً ، في صمت ، ساعة او ساعتين . وبعد القراءة ، كان الفتيان يدخلون في نقاش حامٍ لا يساهم فيه فيزوفشيكوف أبداً ، بل يبقى بعد انصراف الجميع ، ويتحدث الى اندريه وحده .

كان يقول مغتماً :

– مَن مِنَ الناس يستحق اللوم اكثر من غيره ؟

فيجيب الاوكراني مازحاً :

– ان اكثر الناس ملامة هو أول من قال : هذا ملكي . ولقد مات هذا

الشخص قبل ألفٍ من السنوات أو يزيد ، ولذا فليس في سخطنا عليه معنى او جدوى . ولكن إمارات القلق كانت تبدو في عينيه ...

– ما رأيك في الاغنياء ، وأولئك الذين يحمونهم ويذودون عنهم ؟

كان الاوكراني يعبث بشعره ، ويشد شاربيه ، وهو ينتقي كلمات بسيطة يتحدث بها عن الحياة وعن البشر . وكان يتضح من حديثه دائماً ان سائر الناس ملومون على السواء ، الامر الذي لم يكن يقنع نيقولاي او يرضيه ، فيضغط على شفتيه ويهز رأسه ويغمغم بأن الامر ليس كما أعلن صاحبه مطلقاً . ويستأذن أخيراً ، وينصرف مستاء ممتعضاً .

وجهر ذات يوم :

– كلا ينبغي ان يكون هنالك أناس مسؤولون عن هذه الامور كلها، وانهم لموجودون هنا أيضاً . لقد اخبرتك ان علينا قلبَ حياتنا بأجمعها رأساً على عقب ، مثل حقل من الاشواك الضارة ... وذلك دون أدنى أثر للرحمة .

فعلّقت الام على كلامه :

– هذا ما قاله عنكم مرة اشعيا ، مراقب الدوام .

فسأل فيزوفشيكوف بعد برهة وجيزة من الصمت :

– أشعيا ؟

– نعم . انــه انسان وضيع ، يراقب جميع الناس ولا يكفُّ عن إلقاء الأسئلة . ولقد شرع يأتي شارعنا ويتلصّص من النافذة .

فردد نيقولاي :

– يتلصّص من النافذة ؟

كانت الام قد لجأت الى الفراش بحيث لا تستطيع رؤية وجهه ، بيد أنهـــا

ادركت خطأها فيما صرحت به من تسرّع الاوكراني بالتعليق على ذلك قائلاً :

ـ فليأتِ وليتلصص ان كان يملك كثيراً من الفراغ ...

أما نيقولاي فهتف بصوت أجش ، وهو يشدّ على المقاطع :

ـ انتظر ... انه واحد من الذين يتحملون المسؤولية .

فسأل الاوكراني بعجلةٍ :

ـ وما هو ذنبه ؟ ألأنه غبي أبله ؟

فخرج فيزوفشيكوف دون ان يحوي جواباً ...

شرع الاوكراني يتمشى في الغرفة على مَهْلتِهِ جارّاً ساقيه الطويلتين العنكبوتيتين في هدوء وسكينة . وكان قد خلع حذاءيه كعادته ابداً كيلا يُحدث ضوضاء تزعج بيلاجيا او توقظها . ولكنها لم تكن نائمة ، بل قالت في قلق بعد ذهاب نيقولاي :

ـ اني خائفة منه .

فهمهم الاوكراني ، وهو يتشدق بالكلمات :

ـ هم ... م ، نعم . وانه لجادّ كل الجد فيما يذهب اليه . لا تذكري اشعيا امامه بعد الآن ابداً ، يا اميمة . اشعيا ذلك جاسوس حقاً وفعلاً ... وانه يتقاضى راتباً على ذلك .

ـ لا غرابة في هذا . فأحد اقربائه دركي .

وتابع أندريه وفي نبراته رعشات من قلق :

ـ لجدير نيقولاي بأن يُعدمه الحياة . أترين هذه المشاعر التي غذاها أولئك السادة القائمون على السلطة في قلوب عامة الناس ؟ ماذا سيحدث عندما يدرك

الناس ، أمثال نيقولاي ، انهم قد خدعوا ، ولم يعد لهم في قوس الصبر منزع ؟ لسوف يلطخون وجه السماء بالدماء ويغرقون الارض بها اغراقاً .

فهتفت الام في صوت خفيض :

ـ ذلك مخيف ، يا أندريوشا .

فأضبّ أندريه لحظة ، ثم قال :

ـ حسناً ، من يلاعب القــط يجب ان يتحمل وخزات مخالبه . لكن كل قطرة من دماء البرجوازيين قد غُسلتْ سلفاً في بحار دموع ذرفها عامة الناس بسببهم .

وأغرق بعد ذلك في الضحك ، وأضاف :

ـ ذلك عدل ... عدل لا يريح الضمير كثيراً .

٢٢

عادت الام من السوق ذات أحد ، ولم تفتح الباب حتى وقفت على العتبة دون حراك ، وقد اجتاح الفرح سائر اعضائها مثل مطر الصيف الدافيء . كان صوت بافل يرتفع من الغرفة الداخلية .

صاح الاوكراني :

ـ ها هي ذي ...

ورأت الام بافل يستدير في سرعة واندفاع ، ثم يشرق وجهه بنور طافح بالوعود الجمة لها .

قالت متلعثمة :

ـ ها هو ذا ... في البيت اخيراً .

وجلست ذاهلة لعودته غير المنتظرة .

انحنى بوجهه الشاحب عليها ، وقد التمع بعض الندى في زاوية عينه ... ولم يقل شيئاً طوال هنيهات ، بينما امه تتفرس فيه في سكون ايضاً .

تركهما الاوكراني وخرج الى الفناء ، وهو يصفّر لحناً ناعماً .

قال بافل همساً ، وهو يشد على يدها بأصبعه المرتجفة :

ـ شكراً ، يا أماه ... شكراً لك ، يا حبيبتي .

وأخذت تمسح على رأس ابنها ، وقد طغى عليها الفرح لرؤية ذلك التعبير في وجهه ، وسماع تلك النغمة في صوته ، وراحت تحاول ان تهدىء من خفقان قلبها الشديد . قالت :

ـ يا إلهي ، ولِمَ ؟

فثنّى يقول :

ـ من أجل مساعدتك في عملنا العظيم ، شكراً لك إنها لسعادة نادرة عندما يستطيع المرء ان يقول انه وأمه روحان منسجمان .

اعتصمت بالصمت ، وهي تعبّ في شراهة من كلماته بجوارح متفتحة ، معجبة بهذا الابن الذي يقف أمامها ، طيب القلب ، عزيزاً محبوباً حتى الدرجة القصوى .

ـ كنت أرى مبلغ صعوبة ذلك بالنسبة اليك ، يا أماه ، وأتخيل ما فيه من أمور لم يحبها قلبك . وكنت أظنك لن تتصالحي معنا أبداً ، وان افكارنا لن تصبح أفكاراً لك ، بل انك ستستمرين على تحملنا في سكون كما تحملت الامور طوال حياتك . وكان ذلك صعباً بالنسبة إليّ .

فقالت :

ـ لقد ساعدني أندريوشا على فهم كثير من الامور .

فضحك بافل وأعلن :

ـ لقد حدثني عنك .

ـ وييجور كذلك ، فكلانا من القرية نفسها . لا بل ان أندريوشا اراد تعليمي القراءة .

ـ وكنت انت خجلة ، فأخذت تدرسين وحدك في الخفاء .

فهتفت :

ـ وهكذا فقد حزر إذن .

وقالت لبافل ، وهي متعبة من تخمة الغبطة من قلبها :

ـ فلندْعه ، لقد خرج عامداً كيلا يضايقنا. ليس له أم خاصة به ... فصاح بافل ، وهو يفتح الباب :

ـ أندريه ! أين انت ؟

ـ ها أنذا ، كنت اقتطع بعض الحطب .

ـ تعال هنا !

ولم يأتِ رأساً ... وعندما دخل المطبخ أخيراً ، شرع يتحدث عن قضايا البيت :

ـ لا بد ان نطلب من نيقولاي تأمين بعض الحطب لنا ، فلم يبق الكثير منه . لكن انظري الى فتاك بافل هذا ، يا أميمة . يبدو انهم يسمّنون المتمردين بدلاً من ان يعاقبوهم .

ضحكت الام ولم تقلْ شيئاً . كانت ما تزال ذاهلة من الفرح وقلبها يخفق في بهجة وحلاوة ، في حين اثار القلق في نفسها إحساساً بالحذر والحيطة ، جعلها تتمنى رؤية بافل يستعيد هدوءه المعتاد . كان كل شيء رائعاً جداً ، وهي تود ان تحتفظ في قلبها الى الابد بهذه السعادة الكبيرة الأولى في حياتها ، قوية حية مثلها الآن . وأسرعت ، خشية ان تتلاشى ، تضعها في القفص كهاوي عصافير إذ يمسك ، على غير انتظار ، نموذجاً نادراً من الطيور .

قالت :

ـ فلنتناول الغداء ، فلست اعتقد انك طعمت شيئاً ، يا باشا .

ـ كلا ، فقد اخبرني السجان البارحة انهم قرروا إطلاق سراحي ، فلم يتح لي ان آكل او اشرب شيئاً .

ثم تابع بعد برهة :

كان سيزوف اول من صادفت بعد خروجي، ولقد اجتاز الشارع حين رآني كي يرحب بي ، فأوصيته بأن يكون اكثر روية وحذراً . ذلك أفضل ـ فأنا شخص خطر في هذه الايام ، تراقبني العيون في كل مكان ـ فقال : « هـــذا عظيم » .

وكان يجب ان تسمعا كيف راح يسألني عن ابن أخيه. قال: « هل يتصرف فيدور كما يجب ؟ » فقلت : « وكيف يمكن ان يتصرف المرء جيداً عندما يكون في السجن » . فقال : « حسناً ، ولكنه لم يش ِ بأحد من رفاقه مثلاً » . وعندما قلت له ان فيدور شاب عظيم ـ شريف وذكي ـ مشّط لحيته ونـــبر مفتخراً : « ليس ثمة أنذال بيننا ، نحن آل سيزوف » .

فقال الاوكراني ، وهو يهزُّ رأسه :

ـ ان للرجل العجوز عقلاً يدرك الامور ، فلقد تحادثت واياه طويلاً . هو رجل طيب . هل سيطلقون سراح فيدور عن قريب ؟

ـ أعتقد انهم سيطلقون سراح الجميع ، فليس لديهم اي دليل ضدهم على الاطلاق باستثناء ما رواه اشعيا العجوز . ترى ما الذي قاله ؟

كانت الام تروح وتغدو وعيناها معلقتان بولدها ، وأندريه يقف عند النافذة ويداه خلف ظهره ، يصغي الى ما يقول بافل الذي يجوس الغرفة ذهاباً وإياباً . كان قد أطلق لحيته ، فنمت على خديه حلقات صغيرة من الشعر الناعم المجعد الكث تليِّن من قساوة ملامحه قليلاً .

قالت الام ، وهي تحمل الغداء :

- هيا اجلسا .

وحدثه أندريه ، اثناء الطعام ، عن ريبين . فهتف بافل في أسف عندما أنهى الاوكراني حديثه :

- لو كنت حراً لما تركته يذهب . ماذا أخذ معه ؟ لا شيء سوى رأس مشوش وسخط عظيم .

فقال الاوكراني ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

- حسناً ، عندما يبلغ المرء سن الاربعين ، وقد قضى جلّ هذا الزمن يصارع الريبة في نفسه ، فلن يكون من السهل إقناعه أبداً .

وابتدأت احدى تلك المناقشات التي كانت اكثر كلماتها عسيرة على فهم الام

وانتهى الغداء ، ولكنهم استمرا يتراشقان بسيل من الكلمات الرنانة . ومن وقت لآخر كانا يتكلمان ببساطة ، فيقول بافل في حزم :

- يجب علينا ان نتقدم باستمرار دون ان نتراجع خطوة واحدة .

- ونصطدم بعشرات الملايين من الناس الذين سيعتبروننا اعداء لهم ...

وفهمت الام ، وهي تستمع الى نقاشهما ، ان بافل لا يدري ماذا يفعل بالفلاحين ، بينما يقف الاوكراني في صفهم ، جاهداً ان يبرهن ان من حق الموجيك ايضاً الاطلاع على الحقيقة . ولقد فهمت الام أندريه بصورة أوضح ، وخيل اليها انه أقرب الى الحقيقة ، لكن أعصابها كانت تتوتر ، فتقف على أهبة الاستعداد ، كلما قال أندريه لبافل شيئاً ، تنتظر منقطعة الانفاس جواب ابنها لتتأكد من ان الاوكراني لم يجرح شعوره . ولكنهما استمرا يتناوبان الصياح دون ان تثور ثائرتهما .

وكانت الام تتوجه احياناً الى ابنها ، وتقول :

– هل الامر كذلك حقاً ، يا بافل ؟

فيجيب مبتسماً :

– انه لكذلك .

وقال الاوكراني في سخرية حلوة :

– آه ، ايها الرجل الطيب . لقد تناولت طعاماً ولكنك لم تمضغ جيداً ... وان هناك شيئاً منه عالقاً في حلقك ، ومن الافضل ان تزدرد شيئاً يدفعه .

فقال بافل :

– دع الهزل عنك الآن .

– اني لجادّ كما لو كنت في مأتم .

فضحكت الام في رقة ، وهزّت رأسها ...

٢٣

جاء الربيع وذاب الثلج ، فكشف عن الاوحال والاوساخ تحته . وازداد الطين ظهوراً يوماً بعد يوم ، حتى بدت الضاحية جميعها رثة ، قذرة ، مرتدية الاسمال البالية . وكانت المياه تتساقط طوال النهار من السطوح ، وأبخرة كثيفة تتصاعد كالدخان من جدران المنازل . وأصبحت الشمس اكثر ظهوراً من ذي قبل، اما في الليل فكانت قطع الجليد المبعثرة المتناثرة في كل مكان ترسل لمعاناً ضئيلاً تكاد العين لا تميزه . وكان في استطاعة المرء الاستماع الى خرير الجداول وهي تترقرق ، مثل اغنية ربيعية جميلة الالحان ، في المستنقع القريب .

وكانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق للاحتفال بأول أيار ، فوزعت في المعمل والضاحية بأسرها مناشير يوضح معنى هذا العيد ، فاذا الفتيان الذين لم يتأثروا قبلاً بدعاية الاشتراكيين يقولون وهم يقرأونها :

– ينبغي لنا ان نهيىء شيئاً .

وكان فيزوفشيكوف يقول ، وهو يبتسم :

– لقد حان الوقت ! كفانا نلعب بالطميمة .

وكان فيودور مازين بادي الحماس ، يشبه القُبَّرة السجينة ، وقد أصبح شديد النحول ، عصبي الحديث والحركات معاً . وكان يوكوف سوموف الصامت يرافقه ابداً ، وهو صبي يعمل في المدينة ، يتجاوز وقاره حداثة سنه . وكان

صموئيلوف ـ الذي بدا شعره وقد ازداد حمرة خلال مدة حبسه – وفاسيلي جوسيف وبوكين ودراجونوف وآخرون ايضاً ، يصرون على ان تكون المظاهرة مسلحة ؛ اما بافل والاوكراني وسوموف وآخرون مثلهم فلم يوافقوا على ذلك الرأي .

وقد أحال ييجور نقاشهم مزاحاً ، وكان كعادته مقعباً ، منقطع الانفاس ، يرشح عرقاً . قال ، وهو يشير الى حذائيه الباليين الرطبين :

– ايها الرفاق ، ان الجهود التي نبذلها في سبيل تبديـــل النظام الاجتماعي القائم لنبيلة في الحقيقة . لكن لا بدّ ، كي نيسّر لها سبيل النجاح ، من ان أشتري لنفسي زوجاً جديداً من الاحذية . وكذلك فان جزمتي قد بلغت حالة من الاهتراء تتحدى كل إصلاح بحيث تنفذ الرطوبة الى قدميّ كل يوم . وانا لا أرغب استقراراً في احشاء الارض حتى يحين الوقت الذي نفضح فيه ، بصورة علنية صارمة ، النظام العتيق . وعلى هذا الاساس فأنا أرفض اقتراح الرفيق صموئيلوف الرامي الى القيام بمظاهرة مسلحة ، مستبدلاً اياه باقتراحي الخاص بأن أتسلح بزوج جديد من الاحذية ، لاني على يقين تام راسخ بكون مثل هذا التدبير اكثر فائدة في تقريب انتصار الاشتراكية من أي اصطدام مسلح واسع النطاق .

وراح يروي لهم ، بتلك الكلمات الزاهية ، كيف يناضل الشعب في البلدان الاخرى من اجل تحسين شروط حياته .

وكانت الام تهوى الاصغاء الى أحاديثه التي تترك فيها شعوراً غريباً، فيخيل اليها ان اكثر اعداء الشعب ضراوة ، أولئك الذين يخدعونه كثيراً ويقسون عليه بصورة وحشية ، هم رجال قصار القامة ، ضخام الابدان ، حمر الوجوه ، لصوص وقساة وأشرار جشعون ، اذا ثقلت وطأة الحاكم عليهم حرضوا عامة الشعب عليه ، فاذا قلب هؤلاء الحاكم استولى أولئك الرجال الصغار على السلطة

بأساليب بارعة ، وطردوا الشعب بعيداً عنها ، وقتلوا المئات والالوف اذا حدثته نفسه بمقاومتهم .

وفي ذات يوم ، جمعت الام شجاعتها ووصفت لييجور الصورة التي رسمتها أحاديثه في مخيلتها ، وسألته وهي تبتسم في اضطراب واستحياء :

– أليست الامور هكذا ، يا ييجور ايفانوفيتش ؟

فأغرق في الضحك طويلاً وقد جحظت عيناه ، وراح يفرك صدره كي يلتقط انفاسه المنقطعة :

– ان الامر كذلك حقاً ! لقد أمسكت ثور التاريخ بقرنيه ! ان فيما تقولين شيئاً من الزينة ، وقليلاً من الخيال المنسوج على قعر الصورة ، ولكن الحقائق جميعها هي في مواضعها الخاصة . ان هؤلاء الرجال الصغار البدينين هم بالضبط اكبر الخطاة وأسمُّ الحشرات التي تمتص دماء الشعب . وان الفرنسيين لعلى حق عندما يسمونهم بورجوازيين... تذكري هذا جيداً، يا أماه... بور ـ جوازيين. بورٌ قاحلٌ هُمُ لا يرتوي غليله أبداً ، يتناولون نصيبهم ونصيب غيرهم من الذين يستطيعون الاستفادة من جهلهم ، ويروحون يمتصون دماءهم ...

– أتعني الاغنياء ؟

– بالضبط . وتلك هي مصيبتهم ، فأنت اذا رحت تضيفين النحاس الى طعام الطفل الصغير ، تدخّل ذلك في نمو عظامه وجعله قميئاً ، اما اذا سمَّمتِ انساناً بالذهب فان نفسه هي التي تصبح صغيرة ، وضيعة ، مجردة عن الحياة مثل احدى الدمى المصنوعة من المطاط التي يشتريها الاولاد بخمسة كوبيكات .

وفي ذات يوم ، وكانوا يتحدثون عن ييجور ، قال بافل :

– الواقع ، يا أندريه ، ان الناس الذين يكثرون من المزاح ، هم الذين يتألمون اكثر من سواهم .

فسكت الاوكراني قليلاً قبل ان يجيب ، وهو يضيّق فرجة عينيه :

– لو كنت محقاً لوجب ان نتوقع اذن ان تموت روسيا كلها من الضحك .

وعادت ناتاشا الى الظهور من جديد – كانت في السجن هي ايضاً في مدينة أخرى ، ولكن التجربة فيما يبدو لم تبدل فيها شيئاً على الاطلاق . وقد لاحظت الام ان الاوكراني يصبح اكثر حيوية في حضورها ، فيمزح ويسخر من الجميع حتى يحملها تضحك في سرور وغبطة . ولكنها لا تكاد تمضي حتى يشرع يصفّر أغنيته الحزينة المعهودة ، وهو يتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً ، ويجرّ قدميه في ضجر واجهاد .

وكثيراً ما كانت ساشا تأتي برهة قصيرة جداً ، عابسة ابداً ، وفي عجلة من أمرها على الدوام . وقد أضحت ، لسببٍ ما ، اكثر تعظماً وجفاء منها قبلاً .

وذات مرة ، عندما رافقها بافل الى الباب يشيعها ، ونسي ان يغلق الباب خلفهما ، استطاعت الام ان تسمع حديثهما المتدفق في سرعة ولهفة .

قالت الفتاة :

– هل ستحمل الراية ؟

– نعم .

– أهذا امر مقرر ؟

– نعم ، فذاك من حقي .

– الى السجن مرة ثانية إذن ؟

فلم يحرْ بافل جواباً ...

– ألا تستطيع ...

ولكنها لم تكمل حديثها .

ـ ماذا ؟

ـ ان تترك سواك يفعل ذلك ؟

فقال في عزم :

ـ كلا !

ـ فكـّر في ذلك جيداً ، فأنت ذو نفوذ كبير هنا ، والجميع يحبونك ... أنت وناخودكا اكثر الجميع شعبية ، وكم من خير عميم تستطيع ان تفعل ههنا ! اما حمل الراية ... فسوف يرسلونك من أجله بعيداً ... بعيداً جداً ... ولزمن طويل جداً .

واستطاعت الام ان تميِّز في صوت الفتاة انفعالات الخوف واللهفة المعهودة اليها ، فسقطت كلمات ساشا على قلبها مثل قطرات من الماء المثلج .

قال بافل :

ـ كلا ... لقد قررت ذلك ، ولن يثنيني شيء عن عزمي .

ـ ولو سألتك ، أنا ، ذلك ؟

وأصبح صوت بافل ، بغتة ، سريعاً قاسياً :

ـ ليس من شأنك ان تتكلمي هكذا ، ليس لك الحق فيه .

فقالت بصوت خافت :

ـ إنما أنا كائن بشري .

فأجاب بمثل صوتها الخافت ، لكن كمن يغصُّ بدموعه :

ـ كائن بشري رائع ، كائن عزيز عليَّ جداً ، وهذا هو السبب ... هـــذا هو السبب ... ينبغي ألا تقولي مثل هذه الاشياء .

فقالت الفتاة :

– الى اللقاء .

وأدركت الام ، من صدى وقع أقدامها ، أنها تركض . وانطفق بافل وراءها في الفناء .

انقبض قلب الام خوفاً وجزعاً . انها لم تفهم موضوع حديثهما ، ولكنها أحست ان كارثة كبيرة تنتظرها .

– ترى ، ماذا ينوي ان يفعل ؟

وعاد بافل يرافقه أندريه . كان الاوكراني يقول ، وهو يهزّ رأسه :

– أواه ! يا لأشعيا هذا ! ما عسانا فاعلون معه ؟

فقال بافل عابساً :

ـ الافضل ان تنذره بالاقلاع عن هذا العمل .

فسألت الام ، مطرقة برأسها :

ـ بافل ، ماذا تنوي ان تفعل ؟

ـ متى ؟ الآن ؟

ـ في الاول ... في الاول من أيار .

فهتف بافل ، مخفضاً صوته :

ـ آه ! سوف أحمل رايتنا ... في طليعة المظاهرة . واعتقد انهم سيلقون بي من جديد في السجن بسبب ذلك .

وأحست الام وخزاً في عينيها ، وأصبح فمها جافاً كل الجفاف ، فأخذ بافل بيدها ومسح عليها برفق ، قائلا :



بافـــل

– ينبغي عليّ ذلك . جربي ان تفهمي ، يا أماه .

فأجابته ، وهي ترفع رأسها ببطء :

– انا لم أقل شيئاً .

ولكن عزيمتها وهنت عندما التقت عيناها بما في عينيه من بريق عنيد .

تنهد بافل وأفلت يدها ...

قال في لهجة عتاب :

– يجب ان يبعث ذلك الغبطة في قلبك بدلاً من ان يحزنك . متى يصبح لدينا أمهات يرسلن أبناءهن الى الموت وهن يبتسمن ؟

فغمغم الاوكراني :

– وَيْ ! وَيْ ! لقد استبدّ صبينا برأيه ، وراح يشمخ بأنفه في الهواء ...

وعادت الام تقول :

– أنا لم أقل شيئاً ، ولست أبغي الوقوف في طريقك ، وان يكن ذلك قاسياً عليّ ... اذ لست أستطيع الامتناع عن ان اكون اماً ...

فابتعد عنها ، وأحست طعن كلماته الجارحة :

– ان ثمة حباً يمنع المرء ان يحيا كما يودّ ويتمنى ...

فقالت الام ، مرتعشة خوفاً من ان يقول شيئاً آخر يجرح قلبها :

– لا ، يا باشا ، لا تقل هذا . اني أفهم – لست تستطيع ان تفعل شيئاً آخر ... من اجل رفاقك ...

– كلا ، بل من اجلي انا .

وظهر أندريه في مدخل الباب الذي كان واطئاً جـداً بالنسبة اليه حتى اضطر الى ثني ركبتيـه بصورة غريبة ، واتكأ بإحدى كتفيه على مصراع الباب ، وألقى برأسه والكتف الاخرى الى الامام .

قال بنغمة خاصة ، وعيناه الجاحظتان مثبتتان بوجه بافل :

– انك لتحسن صنيعاً اذا أقللت من هذا الكلام ، ايها السيد الشهم .

كان أشبه بحرباء في شق صخري ...

وكانت الام على وشك الانفجار باكية ...

غمغمت ، مسرعة الى خارج الدار حتى لا يراها ابنها تبكي :

– يا إلهي ! لقد نسيت ان اغسل الصحون ...

وعندما أصبحت خارج الابواب، تكومت في احدى زوايا الفناء، وأطلقت العنان للدموع صامتة مؤلمة فكأن دم قلبها يسيل مع دموعها .

وسمعت من خلال الباب نصف المغلق صوتيهما الخافتين يتجادلان .

قال الاوكراني :

– ماذا دهاك ؟ أتتلذذ بتعذيبها ؟

فصاح بافل :

– ليس من حقك ان تخاطبني هكذا !

– اكون صديقاً رائعاً اذاً لو التزمت جانب الصمت والهدوء وانا اراك على جنون وسخف . ما الذي يدعوك الى التفوّه بذلك ؟ ألا تفهم شيئاً ؟

– يجب ان تكون راسخ القدم ، لا تخاف ان تقول « نعم » او « لا » .

– لأمك ؟

– للجميع ! لست اريد حباً او صداقة يعترضان سبيلي او يثقلان على ظهري ...

– يا لك من بطل مغوار ! كفاك تبجّحاً ... قل ذلك لساشا . فهي التي ...

– لقد فعلتُ ...

– فعلتَ ؟ انت تكذب . لقد خاطبتها بلطف ، خاطبتها بودّ وتحبب . اعرف ذلك ، بالرغم من انني لم اسمعك ابداً . ولكنك تلعب دور البطل العظيم مع امك . ان كل خيلائك ، لو تدري لا تساوي قلامة ظفرك .

مسحت بيلاجيا الدموع عن خديها بسرعة ، وأهذبت تفتح الباب وتدلف الى المطبخ خوفاً من ان يقول الاوكراني شيئاً قاسياً لابنها .

قالت بصوت مرتفع يرتعش جزعاً وحزناً :

— بر – ر ر ... ما أبرد الطقس ! يكاد المرء لا يصدق انه الربيع .

وراحت تنقل الاشياء ، دون غاية ، من مكان الى آخر ، ساعية الى إغراق الصوتين في الغرفة المجاورة .

وعادت تقول بصوت اكثر ارتفاعاً :

— لقد تبدل كل شيء ، فأصبح الناس اكثر حرارة والطقس اكثر بروداً . لقد كانت الحرارة ترتفع في مثل هذه الايام ، فتشرق الشمس ، وتصحو السماء...

وانقطع الصوتان ، فوقفت تصيخ السمع في وسط المطبخ ...

قال الاوكراني بصوت خافت :

ــ أسمعت هذا ؟ لقد آن لك ان تفهم ! يا للشيطان ! انها لأكبر قلباً منك .

وسألت بصوت مرتجف :

ــ ما رأيكما في قليل من الشاي ؟

وانثالت تضيف ، كي تفسر سبب ارتعاشها :

ــ يا إلهي ! لقد تجمدت !

ذهب بافل اليها ببطء ، مطرق الرأس ، تحوم على شفتيه ابتسامة مذنبة . قال :

ــ اصفحي عني ، يا أماه . فأنا لمّا أزل غراً ... احمق .

فصاحت شقية الفؤاد ، وهي تدفن رأسه في صدرها :

ـ دعني وحدي ، ولا تزدْ شيئاً . الله يعلم ان حياتك ملكٌ لك تتصرف بها كما تشاء . ولكن ... دع قلبي وحيداً . كيف يمكن الأمّ ألا تحبّ ؟ ان حقها ان تفعل . أنا احبكم جميعاً ، وجميعكم اعزاء على قلبي ، وجميعكم تستحقون المحبة والحنان. من يشفق عليكم إن لم افعل انا؟ تذهبون جميعاً... وانت في المقدمة... والآخرون خلفك ... وتهجرون كل شيء ... آه ، يا باشا !

كانت افكار كبيرة ملتهبة تخفق في صدرها وتتدفق ، وسرور مفجع يمزق قلبها فلا تجد الكلمات كي تعبر عنه ، فتروح في عذاب صمتها الجبري تنظر الى فتاها بعينين تطفحان ألماً حاداً عنيفاً .

ـ حسناً ، يا أمّ ، اصفحي عني . اني افهم ذلك الآن ، ولن أنساه ابداً . أقسم اني لن أنساه .

واستدار عنها مبتسماً سعيداً ، وفي الوقت نفسه مرتكباً خجلان .

تركته وطفقت من باب الغرفة الثانية ، وقالت في نغمة نداءٍ لطيف :

ـ أندريوشا ، لا تَقْسُ عليه ... إنك تكبره سناً ...

فصاح اندريه ، وظهره اليها ، دون ان يلتفت :

ـ أفٍ ! بل سأقسو عليه ، ولسوف أضربه أيضاً .

فذهبت اليه ومدّت له يدها :

ـ يا لك من انسان طيب ...

فاستدار الاوكراني ، ومضى عنها الى المطبخ ، ويداه خلف ظهره ، مطأطأ الرأس كالثور . ودفّ اليها صوته يقول في نغمة تبعث على الضحك :

ـ اغرب عن وجهي يا بافل ، قبل ان أدق عنقك . اني امزح فقط يا أميمة ،

فلا تخافي . سأهيىء السماور ، أتوافقين ؟ يا للفحم الرائع الذي تملكين ... يعصر ماء .

وسكت ... واذ دخلت الام الى المطبخ وجدته جالساً على الارض ينفخ في السماور .

قال ، دون ان يرفع رأسه :

ـ لا تخافي، فلن أمسّه بسوء . فأنا رقيق مثل اللفت المطبوخ . وأنا ـ هِي، أنت هناك ، أيها البطل ، لا تسمع ـ وأنا في الحقيقة مغرم به جداً ، ولكنني لا أحبُّ ذلك الثوب الذي يرتديه . انه يملك سترة جديدة ويظن انها جميلة جداً . فيروح يتخطر منتفخ البطن ، يقتحم كل انسان في طريقه وهو يقول : انظروا فقط ما أجمل السترة التي أملكُ ! ان السترة لجيدة ، ولكن ما معنى اقتحام الناس ؟ أيصعب عليه جداً ان يتجنب الناس وهو يرتديها ؟

قال بافل ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

ـ الى مَ ستستمر على هذا ؟ لقد غلبتني مرة ... ولقد تعادلنا الآن .

فتطلع اليه الاوكراني ، وساقاه يحيطان بالسماور ؛ من حيث يجلس على الارض . كانت الام تقف في مدخل الباب ، تشخص في حنان الى مؤخرة رأسه ، فالتوى الى الوراء مستنداً على ذراعيه ، ونظر الى الام والابن معاً .

قال ، وعيناه المحمرتان قليلاً تطرفان :

ـ ما اطيبكما ، انتما الاثنان !

فانحنى بافل وامسك بيده ...

قال الاوكراني :

ـ لا تشدّني ، والا رميتني .

فسألت الام :

– ممَّ تخافان ؟ هيا وقبّلا بعضكما بعضاً ، وتعانقا بأقصى ما تستطيعان من قوة .

فاستوضح بافل :

– ما رأيكَ ؟

فقال الاوكراني ، وهو ينهض :

– تعالَ !

وتعانقا بشدة ، فهما جسدان بروح واحدة تضطرم بالصداقة والاخلاص . وانهمرت الدموع على وجنتي الام ، بَيْدَ انها كانت – هذه المرة – دموع السعادة ...

قالت في خجل ، وهي تكفكف دموعها :

– نحن ، معشر النساء ، نحب ان نبكي عندما نكون سعيدات ، وان نبكي عندما نكون تعيسات ...

ودفع الاوكراني بافل عنه بلطف ، وصاح وهو يمسح عينيه :

– كفى ! عندما تُذبح العجول فلا بدَّ من شوائها . ألا لعن الله فحمكما هذا . فلقد نفخت فيه كثيراً حتى امتلأت عيناي منه ، ودمعتا ...

فقال بافل في رقة ، وهو يجلس قرب النافذة :

– ليس في مثل هذه الدموع ما يدعو الى الخجل .

دنت امه منه وجلست الى جانبه . كان قلبها مفعماً بشجاعة جديدة هدأت من روعها ، وبعثت في نفسها الرضى بالرغم من كآبتها . كانت تقول في وليجة ذاتها ، وهي تداعب يد بافل وتمسح عليها :

– لا بأس ! فالأمور لا يمكن ان تكون على غير هذا المنوال ... لا بدَّ ان نكون هكذا .

واضطربت في مخيلتها ذكريات عديدة عن الماضي ، لم تجد بينها ما يليق ان يقارن بالاحساس الذي يساورها في تلك الساعة .

قال الاوكراني ، وهو يخرج من الغرفة :

– سأقوم انا بغسل الآنية . لا تنهضي يا أميمة ، فمن الافضل ان تستريحي قليلاً ، بعد ان غصّ قلبك بكل هذا العنف ...

وجاءهما صدى صوته الغنيّ يدفدف من الخارج :

– لقد تذوقنا قليلاً من حياة رائعة قبل هنيهة ... قليلاً من حياة انسانية دافئة .

فنبر بافل ، وهو يحدج امه بنظراته :

– بلى .

فقالت الام :

– ولقد بدّل ذلك كل شيء . تبدلت آلامنا ، وتبدلت أفراحنا ...

فعقّب الاوكراني :

– وذلك ما ينبغي ان يكون ، لان قلباً جديداً قد ولد يا أميمتي . ان قلباً جديداً بُعث الى الحياة . والانسان يسير قدماً الى الامام ، وهو يضيء كل شيء بنور العقل ، ويصيح وهو يدبُّ في طريقه : يا شعوب جميع البلدان اتحدوا في عائلة واحدة ! فتردُّ القلوب على ندائه فتضمُّ أصواتها اليه ، وتصبح قلباً واحداً كبيراً يشبه في قوته ودويه ناقوساً من الفضة ...

فضمت الام شفتيها بشدة لتحول دون ارتعاشها ، وأحكمت إطباق عينيها لتمنعها من سحّ الدموع .

رفع بافل ذراعه كمن يود الكلام ، فجرته الام صوبها وهمست :

ـ لا تقاطعه .

وجاء الاوكراني ووقف عند العتبة :

ـ وسوف تجتاح الناس آلام عظيمة ، وسيراق بعد كثير من الدماء ؛ ولكن كلّ آلامي ودمائي رخيصة بالنسبة لما أحمل في صدري وعقلي. انني غني كالنجمة بكل ما تشع من اضواء . وأنا استطيع تحمل كل شيء ، ومواجهة كل شيء ، لأني احمل في داخلي فرحاً عظيماً لا يستطيع اي شيء او أي انسان ان يدمّره قط ، وفي هذا الفرح تقوم قوتي .

وظلوا يحتسون الشاي حتى منتصف الليل ، ويتحدثون بوداعة عن الحياة ، والبشر ، والمستقبل ...

وكلما اتضحت فكرة للأم ، ذهبت تبحث متنهدة في ماضيها عن بعض ذكرى قاسية محزنة تجعل منها أساساً تبني الفكرة عليه .

وذابت مخاوفها في تيار حديثهم الدافىء ، وأحست مرة اخرى ذلك الاحساس الذي جرّبته قبل زمن طويل ، يوم قال لها والدها بجفاء : « عبثاً تكشرين وتتكبرين ! فلن تجدي أحمق يقترن بك اذا ما استدار عنك الخاطب الأول ! فهيا ، تقدمي واستفيدي من الفرصة ، فكل الدجاجات يتزوجن ويلدن أولاداً لا يحملون لهن سوى المتاعب والقلق . من تحسبين نفسك ؟ »

وخيل اليها بعد هذه الكلمات انها ترى درباً لا مفراً منها تمتد أمام عينيها ، وتدور عبثاً حول قفر معتم مجدب ، وقد ملأت حتمية المسير على ذلك الدرب صدرها سلاماً أعمى . وهكذا كانت الحال الآن . بيد أنها استمرت تهمس في أذن شخص مجهول ، متوقعة على الدوام حدوث حزن جديد :

ـ تعال ، خذ هذا !

وخفّف هذا عن قلبها الموجع الذي يدوّي في صدرها مثل وتر مشدود .

لكن أملاً ضعيفاً مستمراً راح يعتلج في نفسها ، الأمل بانهم لن ينتزعوا كل شيء منها ، لن ينتزعوا آخر ما تملك ، ولسوف يبقى لها شيء ما بكل تأكيد .

٢٤

في بكرة احد الايام ، إثر خروج بافل وأندريه في طريقهما الى العمـــل ، قرعت كورزونوفا النافذة ، وصاحت :

– لقد قتلوا اشعيا ! فهيا بنا نرى ...

أجفلت الام ، وسرعان ما ومضَ في ذهنها اسم القاتل ...

استفهمت ، وهي تلقي وشاحاً على كتفيها :

– من فعل ذلك ؟

– انه لم ينتظر هناك بجانب اشعيا ! لقد صرعه وولى هارباً !

وقالت ، وهما تهبطان الشارع :

– سيعاودون التحري والبحث من جديد ، وسيحاولون اكتشاف هـــوية القاتل . لمن حسن الحظ ان رَجُليك كانا في الدار البارحة ، وانا شاهدة على ذلك كنت في طريقي الى داري بعد منتصف الليل ، فتطلّعت من نافذتك ـ كنتم جميعاً جالسين حول المنضدة ...

سألت الام ، والرعب بادٍ عليها :

– ماذا تعنين ، يا ماريا ؟ أيمكن لاي انسان ان يرتاب بهما ؟

فقالت كورزونوفا في قناعة :

– حسناً ، ومن قتله إذن ؟ لا بدّ ان يكون متصـــلا بفتيانكم ! والجميع يعرفون انه كان يتجسّس عليهم ...

فوقفت الام لاهثة ، وهي تضغط يدها على صدرها ...

– ماذا دهاك ؟ لا تخافي – لقد نال نصيبه المحتوم . اسرعي ، وإلا أخذوه قبل ان نراه .

كانت شكوك الام في فيزوفشيكوف أشبه بيدٍ ثقيلة تمسك بها وتمنعها عن الحركة . فكرت :

– يا لله ! لقد تجاوز الحدود !

كان حشد من الناس قد تجمهر قرب انقاض منزل محترق غير بعيد عن المعمل وهم يدوون مثل الزنابير ، ويمتهنون بأقدامهم الانقاض المتفحمة فيثيرون عجاجاً من الرماد والتراب . وكان ثمة نساء كثيرات ، وعدد اكـــبر ايضاً من الاولاد الصغار ، والبائسين ، وخدم المقهى ، والشرطة ، يرافقهم الدركي بتلين ، وهو رجل عجوز طويل القامة ، ذو لحية شديدة البياض كالفضة ، وصدر مكسو بأوسمة عديدة .

وكان اشعيا مطروحاً على الارض في نصف استلقاء ، يستند ظهره الى أرومة متفحمة ، ورأسه العاري يميل على كتفه اليمنى . وكانت يده اليمنى مختفية في جيب سرواله ، بينما أطبقت أصابع اليد اليسرى على التربة اللينة .

تطلعت الام الى وجهه . كانت عينه الواحدة تشخص في بلاهة الى قبعته المرتمية بين ساقيه المنفرجتين ، وفكه يتدلى قليلاً فينفرج فمه نصف انفراجـــة وكأنه مدهوش من أمر ما ، ولحيته الحمراء منحرفة الى احد الجانبين دون سبب معقول . وكان جسده الناحل ، برأسه المدبب ووجهه المتعظم المغطى بالنمش ، قد أصبح في انقباضة الموت أصغر منه في اي وقت آخر . رسمت الام إشارة

الصليب وصعّدت زفرة عميقة . لقد كان يثير نفورها حياً ، أما الآن فهي لا تحسُّ تجاهه سوى شفقة هادئة ليس غير .

ولاحظ بعض الواقفين بصوت مخفوض :

– ليس هناك قطرة من دم أبداً ، لا ريب انهم ضربوه بقبضة اليد .

– ليلوح ان فيه نضاضة من حياة .

فقال أحد الحاضرين :

– لقد جاء الطبيب ... وقال ان كل شيء انتهى .

فقال آخر في لهجة تشفٍ وانتقام :

– لقد خرس لسانه الثرثار الى الابد .

فانتفض الدركي ، وشقّ له طريقاً بين جموع النساء ، ثم قال مهدداً :

– من قال هذا ؟

وانفرط عقد الناس أمامه ، لا بل هرب بعضهم ايضاً ، بينما أطلق أحد الواقفين ضحكة شريرة طويلة .

وعادت الام الى الدار ...

قالت في نفسها :

– ان أحداً لا يرثي له .

صوِّر لها أنها ترى أمامها شبح نيقولاي الكثيف يتطلع إليها بعينيه القاسيتين ، الباردتين المتضيقتين ، وذراعه اليمنى تتأرجح فكأن شيئاً اصابها في تلك البرهة وآذاها .

ولم يكد ابنها وأندريه يؤمان الدار ، حتى سألتهما عن الحادث :

– هل أوقف أحد ... بتهمة قتله ؟

فأجاب الاوكراني :

– لم يبلغني شيئاً من هذا القبيل .

وأدركت ان كليهما حزين منقبض النفس ...

استفهمت بصوت لطيف :

– هل أتى احد على ذكر نيقولاي ؟

فأجاب الابن :

– كلا .

كانت عيناه قاسيتين ، وصوته ذا مغزى .

– مما لا شك فيه انهم لا يرتابون فيه . انه متغيب عن الضاحية ، فقد غادرها البارحة ظهراً في اتجاه النهر ولم يَعُدْ بعد . لقد سألت عنه ...

فتنفست الام الصعداء ، وقالت :

– الحمد لله ! الحمد لله !

واختلس الاوكراني النظر اليها ، ثم أطرق برأسه .

قالت الام :

– لقد كان يضطجع وهيئته توحي بأنه لا يفهم شيئاً من كل ما حدث له. ولم يرثِ له احد على الاطلاق ، أو يوجه له كلمة لطيفة يغلق له عينيه بها . كان يلوح صغيراً جداً تافهاً كل التفاهة ، وكأنه شيء ضئيل بُتر عن أصله وسقط أرضاً حيث تُرك مطروحاً في مكانه .

وأثناء الغداء ألقى بافل ملعقته على المائدة بغتة ، وصاح :

– هذا يتجاوز إدراكي .

فسأل الاوكراني :

– ماذا ؟

– إننا نقتل الماشية كي نحصل على الطعام ، وهذا وحده أمر سيىء ؟ ومن الواضح انه يتوجب على المرء قتل الحيوانات المفترسة اذا أصبحت خطرة . وأنا شخصياً على استعداد لان أقتل كائناً إنسانياً اذا انقلب وحشاً مفترساً بالنسبة لأشباهه البشر . أما ان يقتل المرء مثل هذا النموذج الحقير المثير للاشمئزاز ... من يقوى على رفع يده في سبيل ذلك ؟

فهزّ الاوكراني كتفيه ، وقال :

– لقد كان اكثر ضرراً وأذية من اي حيوان مفترس . اننا نقتل البعوض لانه يمتص قطرة واحدة من دمنا فقط .

– هذا صحيح كثيراً ، ولكني لست أعنيه ، بل أعني ان الامر يبعث على النفور والاشمئزاز .

فأجاب أندريه ، وهو يهزّ كتفيه مرة اخرى :

– لا حيلة في ذلك .

فسأل بافل بعد برهة طويلة من الصمت ، وهو يشدّ على المقاطع :

– أنستطيع انت ان تقتل مثل هذا المخلوق ؟

فثبت الاوكراني فيه عينيه الواسعتين ، ثم اختلس من الام نظرة خاطفة ، وقال أخيراً بكآبة وحزم في الوقت ذاته :

– في سبيل رفاقي وفي سبيل قضيتنا أستطيع ان أفعل كل شيء . استطيع ان اقتل ... حتى ابني نفسه .

فهتفت الام بصوت خافت :

– أوه ! أندريوشا !

فابتسم :

– لا حيلة في ذلك ، يا أماه . هي الحياة هكذا ...

وقال بافل :

– انك على حق ، هي الحياة هكذا .

وعلى حين غرة ، هبّ اندريه واقفاً في حالة من الهياج الشديد وكأن شيئاً قد تصدع في داخله ، وصاح وهو يحرك ذراعيه :

– ما عسانا نفعل ؟ اننا مجبورون على بغض الناس كي نعجل بالزمن الذي نستطيع فيه ألا نضمر لهم سوى الحب الخالص . اننا مرغمون على القضاء على كل من يقف في طريق التطور ، كل من يبيع الشعب لقاء المال كي يشتري لنفسه العزّ او الراحة والرفاهية. واذا كان ثمة يهوذا يعترض سبيل الناس الشرفاء، وينتظر أية فرصة كي يخونهم ، فاني اكون انا ايضاً يهوذا آخر اذا لم أقض عليه . تقولان اني لا املك الحق في ذلك ؟ ولكن نبلاءنا أولئك ... ألديهم الحق في الاحتفاظ بجنودهم وجلاديهم ، بدور بغائهم وسجونهم ، بمنافيهم وكل الوسائل الاخرى اللعينة التي يصونون بها راحتهم وأمنهم ؟ أهي خطيئتي اذا جبرت أحياناً على اخذ سوطهم بيدي ؟ حسناً ، لسوف آخذه ، دون ان تطرف عيني أبداً . واذا كانوا يقتلوننا بالعشرات والمئات ، فاني أملك الحق في ان أرفع ذراعي ، وأتركها تهوي على رأس واحد منهم ، على الرأس البغيض الذي اقترب مني اكثر من غيره ، وراح يضرّ بمقومات حياتي اكثر من الباقين . هي الحياة هكذا ، ولكني ضد مثل هذه الحياة . انا أعلم انه لن ينتج عن دمائهم شيء أبداً ... انه دم مجدب لا يثمر مطلقاً . ان دمنا يعطي مولداً للحقيقة عندما ينسكب كوابل المطر على الارض ، اما دماؤهم فتمتص دون ان تترك أثراً ، انا أعلم هذا ... ولكني أتحمل تبعة خطيئتي هذه ... واني سأقتل اذا

رأيت ان لا مندوحة عن ذلك . ولا تنسيا اني اتكلم عن نفسي فقط . وان خطيئتي ستموت معي ، ولن تلوّث المستقبل بأقل لطخة ... انها لن تلوث أي إنسان سواي . أي نفس أبداً .

كان يمشي في الغرفة جيئة وغدوة ، يلوّح بيديه كأنه ينتزع شيئاً ويلقي به بعيداً ... ينتزعه من ذات نفسه . وراحت الام تراقبه في ألمٍ وجزع ، وهي تحسُّ شيئاً قد تحطم في داخله ، وتحس انه يتألم كثيراً بسبب ذلك . ولقد غادرتها الآن أفكار الجريمة المظلمة الخطرة – فاذا كان فيزوفشيكوف لم يرتكبها فليس احد من اصدقاء بافل الآخرين بقادر على ذلك. وجلس بافل مطرق الرأس يصغي الى وابل الكلمات العنيف الدائب الذي ينهمر من الاوكراني كالسيل المدرار :

– إنك مضطر في بعض الاحيان الى ان تحارب نفسك كي تستمرّ على السير قدماً . ينبغي ان تكون قادراً على إعطاء كل شيء ... قلبك بأسره . وانه لأمر سهل أن تهب حياتك فتموت من اجل القضية ... ولكن عليك ان تعطي اكثر من ذلك أيضاً ... ما هو أعزُّ من حياتك نفسها . وعندما تعطي ذلك تعرف كيف تنمو الحقيقة التي تناضل من أجلها قوة وبأساً ... تلك الحقيقة التي هي أعزُّ شيء في العالم على قلبك .

وتوقف في وسط الغرفة ، شاحب الوجه مغمض العينين نصف إغماضة ، مرفوع الذراع في وعد مهيب :

– انا أعلم ان يوماً سيأتي يعجب الناس فيه بذات جمالهم، فيضحي كل واحد منهم كوكباً بالنسبة للآخرين ، ويصغي كل منهم الى كلام غيره وكأنه يسمع ألحاناً موسيقية رائعة . ويومذاك ستكون الارض آهلة بالبشر الاحرار ، العظماء في حريتهم ، وستصبح قلوب الجميع مفتوحة ، وسيكون كل قلب طاهراً من ادران الحسد والغيرة ، بريئاً من الخبث . وعندئذ تتحول الحياة الى تمجيد عظيم

« للانسان » الذي سترتفع صورته حتى السماء ، لان سائر القمم سهلة المرتقى على الانسان الحر ، وعندئذ سيعيش الناس في الحقيقة والحرية ، يسعون وراء الجمال وحده ، وسيكون أخيارهم أولئك الذين تملك قلوبهم قوة اعظم تضم اليها العالم كله وتحبه ، أولئك الذين هم أكثر حرية لان فيهم يقوم الجمال الاعظم . عندئذ تكون الحياة الجديدة عظيمة ، وعظماء البشرُ الذين سيحيونها .

سكت برهة ، ثم استقام وأضاف بصوت آتٍ من أعماق روحه :

– وفي سبيل تلك الحياة ... أنا مستعد لكل شيء . مستعد لان أنتزع قلبي بيدي ، اذا اقتضى الامر ، وأطأه بقدمي ...

ومرت رعشة على وجهه ، وانهمرت دموع كثيرة فوق خديه ...

رفع بافل رأسه ، شاحب الوجه ، ينظر اليه متسع العينين ؛ وهبّت الام عن مقعدها وقد ثار في قلبها قلق غريب مظلم ، راح يعظم وينمو باستمرار .

سأل بافل بصوت خافت :

– ما بالك ، يا اندريه ؟

فهز الاوكراني رأسه ، وتعالى بجسده حتى اقصى ما يستطيع ، وتفرس في الام بنظرات مستقيمة :

– لقد رأيت كيف حدث ذلك ... أنا اعرف ...

فاندفعت الى الامام وأمسكت بيديه ، فجرب ان يحرر اليمنى من قبضتها ، بيد انها تعلقت بها بكل قواها وهي تقول همساً :

– صه ! أواه ، يا عزيزي ، يا صغيري العزيز .

فغمغم الاوكراني بصوت أجش :

– انتظري لحظة ، وسأروي لك كيف كان ذلك ...

فهمست ، وهي ترمقه من خلال دموعها :

– كلا ، لا تفعل ، يا اندريوشا .

ودنا منه بافل شاحب الوجه ، رطب العينين ايضاً . قال وهو يرسل ضحكة قصيرة :

– أمي تخاف ان تكون انت القاتل .

لست ... بخائفة . انا لا اصدق ذلك ، ولن اصدقه وان رأيته بأمّ عينيّ .

فقال الاوكراني ، وهو يلوي رأسه ويحاول من جديد ان يحرّر يديه :

– انتظري لحظة ... لم أكن انا ، انما كان في مقدوري ان أحول دونه ...

فقال بافل :

– اخرس ، يا اندريه .

وأمسك يد صديقه باحدى يديه ، ووضع اليد الثانية على كتفه ، وكأنه يريد ان يهدىء ارتعاش ذلك الجسد المديد . لكن اندريه التفت اليه ، وقال بصوت متكسر :

– انت تعلم ، يا بافل ، أني لم اطلب ذلك ولا كنت أريده ، ولكن اليك كيف جرى : عندما مضيت انت في طريقك ولبثت انا مع دراجونوف في زاوية الشارع ، وجـــاء أشعيا ووقف قريباً منا يراقبنا ويهزأ بنا ، فقال دراجونوف : انظر اليه ، لقد ظل يتبعني طوال الليل ، وسوف اقتله . ثم اتخذ سمت بيته كما توهمت ؛ عندئذ تقدم اشعيا مني .

وأرسل الاوكراني نفساً عميقاً :

– لست اعرف انساناً اهانني كما فعل ذلك الكلب عندئذٍ .

جرّته الام في سكون نحو المنضدة واجبرته على الجلوس ، ثم جلست الى

جانبه وكتفاهما متلامستان ، فيما ظلّ بافل واقفاً ، شقياً بائساً معذباً ، يعبث بلحيته .

– قال لي انهم يعرفون كل اسمائنا ، واننا جميعاً مسجلون في قوائم الدرك ، واننا سنعتقل بالضبط قبل احتفالنا بأول أيار . ولم أحر جواباً ، بل ضحكت منه وانا أغلي وأفور . وانهمر يقول اني شاب ذكي ، واني اخطيء في اختيار تلك الطريق ، وانه من الافضل ان ...

وسكت ، وراح يمسح وجهه بيده اليسرى ، وفي عينيه بريق جاف غريب ...

قال بافل :

– اني افهم .

– انه من الافضل ان اخدم القانون .

وهزّ الاوكراني قبضته ، وغمغم من خلال اسنانه المنطبقة :

– القانون – لعن الله روحه . كان الافضل ان يصفعني على وجهي – اذن كان ذلك أيسر لي ، وله ايضاً . لقد طفح الكيل بالنسبة إليّ وقتما بصق في قلبي بصقته المنتنة تلك .

وانتزع اندريه يده من يد بافل بحركة عنيفة مضطربة ، واسترسل يقول بصوت خفيض يطفح نفوراً :

– صفعته ومضيت . ومن ثم سمعت دراجونوف يقول ورائي بصوت خافت : « لقد أمسكت بك أخيراً » . لا ريب انه كان ينتظر عند زاوية الطريق .

وصمت الاوكراني برهة ، ثم عاد يقول :

– ولم ألتفت – من احساسي أنه ... وسمعت اللطمة ... ولكني تابعت طريقي وكأنني دست على ضفدعة حقيرة . وجاؤوا يصيحون اثناء العمل : لقد

قتلوا أشعيا . ولم أصدق ذلك ، بيد ان ذراعي جعلت تؤلمني حتى عجزت عن الاستمرار في العمل . لم تؤلمني بالضبط، بل احسست بها كأنها جفت وذبلت...

والقى على يده نظرة خاطفة :

– أعتقد أني لن استطيع ، طوال حياتي ، غسل هذه اللطخة ...

فقالت الام بصوت خفيض :

– الشيء المهم هو ان قلبك طاهر .

فقال الاوكراني في عزم :

– لست ألوم نفسي من أجل ذلك – أوه كلا ! ولكن هذا يثير الاشمئزاز ، ولم تكن بي حاجة لأن أندسّ فيه .

وقال بافل ، وهو يهزُّ كتفيه :

– إني لا افهمك . فأنت لم ترتكب الجريمة ، ولكنك لو فعلت ...

– اسمع ، يا أخي . انه انسان بالرغم من كل شيء ، وقتل النفس أمر يبعث على النفور... هبْ انك عرفت ان جريمة قتل سترتكب ولم تفعل شيئاً للحيلولة دونها ...

فأصرّ بافل يقول :

– إني لا افهم . أو لعلي أفهم ، ولكني لا احسُّ ذلك ...

ودوّت الصفارة ، فأصاخ الاوكراني السمع الى النداء العاتي ثم تململ على كرسيه ، وزمزم :

– لن أعود الى العمل .

فتأثره بافل :

– ولا انا ايضاً .

وقال الاوكراني ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

-- إني ذاهب الى الحمام .

وبدأ يجمع ثيابه ، ثم غادر الدار محطم النفس ...

شيّعته الام بنظرة إشفاق ، وقالت بعد خروجه :

– قل ما بـــدا لك ان تقول يا بافل ، فأنا أعلم ان قتل الانسان خطيئة ، ولكنني لا اعتبر احداً مذنباً على الاطلاق . وإني أرثي لأشعيا ، فقد كان رجلاً متداعياً منحلاً . وعندما نظرت اليه اليوم تذكرت كيف هدّد وتوعد بشنقك، لكن ذلك لم يدفعني الى الحقد عليه او الفرح لموته . لقد رثيت له بكل بساطة . وانا الآن ... اني لا أحسُّ حتى الاشفاق ...

وأمسكت عن الكلام برهة واستغرقت في التفكير قبل ان تضيف ، وعلى شفتيها ابتسامة دهشة وعجب :

– يا إلهي ! هل سمعت ما أقول ، يا باشا ؟

لم يسمع ذلك فيما يبدو لانه أجاب مكتئباً ، وهو يذرع الغرفة رائحاً غادياً:

– تلك هي الحياة لك ! أرأيتِ إليهم كيف أثاروا الناس ضـــد بعضهم بعضاً ؟ ها انك تضربين شخصاً دون ان تريدي ذلك . ومن هو الذي تضربين ؟ انه مخلوق مسكين لا يملك من الحقوق اكثر مما تملكين . لا بل انه اكثر بؤساً منك في هذا المضمار ، لانه أحمق غبي . ان الشرطة والدرك والجواسيس جميعاً أعداء لنا ، ولكنهم جميعاً أناس مثلنا ، امتـُصّت دماؤهم كما امتصت دماؤنا ، وجُرِّدوا من كل صفة إنسانية مثلما جردنا نحن ايضاً . حالتنا وحالتهم ، في كل شيء ، سواء . لكن الرؤساء أثاروا فئة ضد أخرى ، وأعموا بصائرهم بالخوف والجهل والهراء ، وأوثقوا أيديهم وأرجلهم ، وراحوا يضطهدونهم ويمتصون دماءهم ويدفعونهم لان يضربوا ويسحقوا بعضهم بعضاً . لقـــد أحالوا الناس بنادق وهراوات وحجارة وقالوا : هذه هي الحكومة .

واقترب من أمه ، وتابع :

– ذلك إجرام ، يا أماه ! انه أبشع قتل لملايين الناس ! انه مجزرة النفوس الانسانية ... هل تفهمين ؟ انهم قتلة النفوس ! هل تدركين الفارق بينهم وبيننا؟ اننا نضرب شخصاً ما ، وهذا مخجل مؤلم مقرف قبل كل شيء . اما هم فيقتلون ألوف الناس بهدوء دون رحمة او تأنيب من ضميرهم ، لا بل في فرح ورضىً ايضاً ! وان حجتهم الوحيدة في اضطهاد الناس حتى الموت هي الاحتفاظ بفضتهم وذهبهم وترفهم وكل ذلك المتاع البائس الذي يمكنهم به الاحتفـــاظ بالسلطة علينا . فكري في ذلك جيداً ... انهم لا يدافعون عن حيواتهم عندما يقتلون الناس ويشوّهون أرواحهم ... ليس في سبيل ذواتهم ، بل في سبيل ممتلكاتهم يفعلون ذلك . انهم لا يدافعون عما في داخلهم ، بل عما في الخارج منهم ...

وأخذ يديها بين يديه وانحنى عليهما يضغطهما بين أصابعه ، وهو يقول :

– ان كنت تدركين ما في ذلك من قرافة ، مـــا فيه من نتانة مخجلة ، فستفهمين الحقيقة التي من اجلها نناضل ، وسوف ترين ما أروعها وأعظمها !

ونهضت الام شديدة الانفعال ، تملؤها الرغبة في ان تذيب قلبها مع قلب ابنها في شعلة براقة واحدة .

غمغمت بصعوبة :

– تمهَّل قليلاً ، يا بافل ، تمهل قليلاً . اني استطيع ان احس ذلك – تمهل قليلاً !

٢٥

دنا شخص من الباب الخارجي مثيراً ضوضاء صاخبة ، فأجفل كلاهما واحدق أحدهما في الآخر .

فتح الباب في بطء ، ومنه دلف ريبين . قال ، وهو يرفع رأسه مبتسماً :

– ها أنا ذا ، ان توما المرتاب ، وفياً لعهده ، يسافر هنا وهنالك ، ويدسّ انفه في كل مكان .

كان يرتدي معطفاً من جلد الخراف ملطخاً بالقطران ، وينتعل صندلين جلديين ويغطي رأسه بقبعة ممزقة ، وقد علق في حزامه زوجاً من القفازات .

– كيف حالكما ؟ وهكذا إذن فقد اطلقوا سراحك ، يا بافل ؟ كيف أنت ، يا بيلاجيا نيلوفنا ؟

وعرّى أسنانه البيض في ابتسامة عريضة ، وقد أصبح صوته اكثر لطفاً ، ووجهه اكثر اكتساء بلحيته الثقيلة .

كانت الام سعيدة برؤيته ، فذهبت اليه وتناولت يده الكبيرة المسودّة . قالت ، وهي تأخذ نفساً عميقاً من رائحة القطران الصحية الحادة :

– يا إلهي ! كم انا سعيدة برؤيتك !

وقال بافل مبتسماً ، وهو ينظر الى ريبين :

– اليكِ هذا الموجيك !

فخلع الضيف ثيابه عنه ببطء ، وهو يقول :

– حسناً ، فاني اسير موجيكاً من جديد . انتم تصبحون مثل السادة اكثر فأكثر ، بينما أسير انا في الاتجاه المعاكس .

وطفق يتمشى في الغرفة يراقبها وهو يصلح من شأنه قميصه المتعدد الالوان .

– لا جديد هنا سوى الكتب . حسناً ، حدثاني عن كل شيء .

جلس وقد بدّ ساقيه ، وأمسك ركبتيه بكلتا يديه يتفحص وجه بافل بعينيه السوداوين ، ويبتسم في انتظار الجواب .

قال بافل :

– كل شيء رائع هنا .

فضحك ريبين ، وقال :

– اننا نحرث ونبذر ونراقب الزرع كيف ينمو ، ثم نحصد قمحنا ونطحنه وننام بقية السنة مرتاحي البال ... هكذا تجري الامور ، أليس كذلك يا صديقي ؟

فسأل بافل . وهو يجلس قبالته :

– حدثنا كيف تسير بك الامور ، يا ميخائيل إيفانوفيتش ؟

– انها تسير على ما يرام . انا اعيش على ييجلدييفو – هل سمعت عنها قط ؟ ييجلدييفو – وهي مدينة صغيرة جميلة ، تقيم سوقين في العام ولا يزيد عدد سكانها عن الألفين ، وهم الى ذلك معشر حقير سافل . لا يملكون ارضاً بل يضطرون الى استئجارها ... ويا لها من ارض فقيرة ! ولقد استأجرني احد المستثمرين هناك ـ والمكان مليء بهم مثل امتلاء الجثة بالديدان ، وأنا احرق

الفحم واصنع منه القطران ولا اكسب إلا ربع ما كنت أكسب هنا وألاقي من العناء ضعفين . حسناً ! نحن سبعة نعمل من أجله، ذلك المستثمر ، والجميع شبان طيبون ، في ميعة العمر ، وكلهم ابناء القرية ما عداي ، وسائرنا نعرف كيف نقرأ ونكتب . وان احدهم ، ويدعى ييفيم ، فتى كثير الطيش حتى لا ادرك ما افعل به .

وسأل بافل في لهفة :

– وكيف تعمل معهم ، أتخوض نقاشاً وإياهم ؟

– أني لا أحتفظ بلساني مقيداً ، يمكنك أن تتأكد من هذا . وقد أخذت معي كل مناشيركم ، أربعة وثلاثين واحداً منها . ولكني أستعين بالتوراة في أغلب الأحايين . ثمة أشياء كثيرة يستطيع المرء أن يستخرجها من التوراة ، وهي كتاب ثخين الحجم ، ورسمي أيضاً ، حائز على تأييد المجمع المقدس . تلك هي القضية ! إنك تستطيع أن تمنحه ثقتك ، ذلك الكتاب .

وأغرق في الضحك ، وهو يغمز بافل بعينه ...

– سوى أن هذا لا يكفي على أية حال ، ولقد جئت أطلب كتاباً منك . ونحن اثنان... إذ أن ييفيم ذلك يقف في صفي. لقد أرسلونا بحملٍ من القطران، فاكتسبنا الفرصة وقمنا بدورة صغيرة ، وها نحن هنا . أعطني الكتب قبل أن يأتي ييفيم هذا ... فليس من المستحسن أن يعرف أشياء كثيرة .

نظرت الأم الى ريبين وخيل إليها أن شيئاً آخر فيه ، الى جانب ثيابه ، قد تبدل . فحركاته قد أصبحت أقل ثقلاً وهيبة ، ونظرته تبدو أكثر حياء وخفراً، وعيناه أقل صراحة مما كانتا عليه .

قال بافل :

– أماه ، هلّا ذهبت لاحضار الكتب ؟ إن القوم هناك يعرفون أياً منها ، قولي لهم إنها ستوجه الى الريف .

فقالت الأم :

– حسناً ، سأذهب حالما يغلي السماور .

وضحك ريبين ، وقال :

– وأنت أيضاً تشتركين في هذا العمل ، يا بيلاجيا نيلوفنا ؟ حسناً ، ثمة عدد كبير يريدون كتباً ، وهذا من عمل الأستاذ المحلي . يقال إنه شاب طيب ، رغم انحداره من الاكليروس . وهناك أيضاً معلمة تبعد عنـــا حوالي سبعة فراسخ . ولكنهما لا يقرآن الكتب الممنوعة . إذ يخافان أن يفقدا عملهما. أما أنا فلي حاجة الى الكتب الممنوعة ، كتب فيها بعض الفلفل اللاذع ، وسأوزعها سراً فاذا وقع عليها مفتش البوليس أو الكاهن لم يتهما بها أحداً سوى المعلمين . وفي أثناء ذلك سأتخذ طريقي الى جهة أخرى .

وكشّر مبتسماً راضياً عن دهائه ومكره .

وفكرت الأم :

– آها إنك تشبه الدب في مظهرك ، ولكنك ثعلب في حقيقتك .

وسأل بافل :

– إذا اشتبهوا في أن المعلمين ينشران مطبوعات غير مشروعة ، أفلن يلقوا بهما في السجن ؟

– بكل تأكيد ، وماذ في ذلك ؟

– ولكن المذنب هو أنت ... لا هما ... فأنت إذن من يجب أن تذهب الى السجن .

فأغرق ريبين في الضحك ، وقال وهو يضرب ركبتيه بيديه :

– أنت غريب الأطوار حقاً . إن أحداً لن يشتبه بي ، الفلاحون لا يصلحون

لمثل هذه الأمور . الكتب من شأن الأسياد وحدهم ، والأسياد هم المسؤولون عنها.

وأحست الأم أن بـــافل لم يفهم ريبين ، إذ لمحته يضيّق عينيه مما يدل على غضبه . قلت في حذر :

- إن ميخائيلوف إيفانوفيتش يريد إنجاز العمل بنفسه، ولكنه يريد الآخرين على تحمُّل المسؤولية ...

فقال ريبين ، وهو يمشط لحيته :



ريبـــين

— ذلك صحيح ، في الوقت الحاضر على الأقل .

وقال بافل في جفوة :

— أماه ! لو ان احداً من فتياننا ، اندريه مثلاً ، اختبأ وراء ظهري وهو يفعل شيئاً يلقون بي من اجله في السجن ، فماذا يكون شعورك ؟

فأجفلت الام ، وسألت وهي تهز رأسها :

— وكيف يستطيع المرء خداع رفيقه على هذا الشكل ؟

فجمجم ريبين متشدقاً :

— آه ! لقد فهمتك ، يا بافل .

ثم استدار نحو الام ، وهو يطرف بباصرتيه في خُيَلاءٍ وعجرفة :

— هذه قضية دقيقة جداً ، يا أماه .

وعاد يلتفت الى بافل من جديد ، وهو يقول في لهجة واعظة :

— ان افكارك لما تنضج ، يا أخي ... ليس للشرف مكان عندما تتعلق الامور بالعمل السري غير المشروع ... احكم على ذلك بنفسك ، ان اول شخص يُلقى به في السجن هو ذلك الذي وُجد الكتاب معه ، لا المعلم ... هذا أولاً ، ثم ان المعلمين ، وان كانا كتباً مسموحاً بها ليس غير ... فان الافكار التي يذيعانها هي نفسها ـ والكلمات وحدها تختلف... انها اقل صدقاً وحقيقة. وبكلمة مختصرة ، هما يتوخيان نفس الغاية التي اتوخاها انا ، إلا انهما يسلكان سبيلاً ملتوياً بينما اذهب انا في الطريق القويمة . ونحن جميعاً ، في نظر المدراء ، نستحق اللوم الشديد . أليس كذلك ؟ والامر الثالث هو أني لا اعبأ بهما ابداً ، يا اخي ! ان فرق المشاة لن تصادق الخيالة . ولعلي لا افعـــل نفس الشيء مع موجيك ابداً . اما هما ـ فان احدهما ابن كاهن ، والثانية ابنة ملاك ارض ـ فماذا يدعوهما الى تحريض الشعب ؟ لا يهمني ، انا الموجيك ، ان اقرأ افكارهما.

فأنا اعرف ما افعل ، وليست عندي اية فكرة عما يسعيان هما وراءه . لقد ظل الاسياد آلاف السنين في اماكنهم الخاصة يسلخون الجلد عن ظهور الفلاحين ، اما الآن فهم يستيقظون بغتة ويشرعون يرفعون العصابات عن عيون الفلاحين بذات ايديهم . وانا لست من الذين يؤمنون بأقاصيص الجنيات . ولكن هذا كله يشبه احدى هذه الاقاصيص الى درجة بعيدة . تلك هي القضية ، فبيني وبين اسيادك هـؤلاء مسافة شاسعة . ذلك اشبه ما يكون بحالك عندما تجتاز الحقول في الشتاء . انك ترى ، على حين غرة ، شيئاً يندفع عبر الطريق الى الامام منك ما هو ؟ ذئب ام ثعلب ام مجرد كلب ليس غير ؟ لست تقدر ان تعين هويته ، فهو بعيد عنك كل البعد ...

واختلست الام النظر الى ابنها . كان يبدو شقياً ، بائساً ...

وبرقت عينا ريبين بنورٍ قاتمٍ وهو يراقب بافل راضياً عن نفسه ، ويمشط لحيته بأصابعه في عصبية ظاهرة . تابع حديثه قائلا :

– هذا الوقت لا يتسع للتفكير في السلوك الحسن ، فالحياة شاقة . وعصبة من الكلاب ليست بقطيع من الغنم ... فكل كلبٍ يعوي على طريقته الخاصة .

وقالت الام ، ممعنة التفكير في وجوه مألوفة لديها :

– لكن ثمة أسياد يلقون الموت في سبيل عامة الناس، ويقضون سنيّ حياتهم في السجون ...

– هؤلاء من طبقة خاصة إذن . الموجيك يثري فيرتفع الى طبقة الأسياد ، والسيد يفتقر فينزل الى مصاف الموجيك . واذا كانت اليد قصيرة ، فالقلب طيب بكل تأكيد . أتذكر ، يا بافل ، يوم أوضحت لي ذات مرة كيف يقرّر أسلوب المرء في الحياة طريقتَهُ في التفكير ؟ تلك هي القضية ! اذا العامل قال: نعم ؛ قال مديره : لا ! وهناك ذات الفرق بين الموجيك والملّاك ، فان معدة السيد تصاب بسوء الهضم اذا وجـد الموجيك يحصل على كفايته من الطعام .

وطبيعي ان يكون لكل طبقة أنذالها ، وأنا لا ادافع عن سائر الفلاحين دون استثناء ...

ونهض على قدميه ، قوياً ، قاتماً ، ممتقع الوجه ، وراحت لحيته ترتعش وكأن أسنانه تصطك دون ضوضاء ؛ وتابع في صوت اقل خفوتاً منه قبلاً :

– لقد همت على وجهي من مصنع الى مصنع طوال خمسة اعوام ، فنسيت كيف تكون حياة القرية . وعندما عدت اليها وألقيت عليها نظرة ، أدركت اني لا استطيع ان اعيش هكذا ابداً . هل تفهم ؟ اني لا استطيع ذلك . عندما يعيش المرء ههنا ، فهو يعجز عن رؤية الشر هناك . وهناك يخيم الجوع على الناس وكأنه ظل لهم ، وليس من أمل في الحصول على الخبز ، ليس من امل مطلقاً . ان الجوع يبتلع ارواحهم ويشوه الوجوه البشرية منهم . انهم لا يعيشون ، أولئك الناس ، انهم يتفسخون فقط ، بينما تقف السلطات لهم بالمرصاد كالغربان لتمنعهم من وضع ايديهم على قطعة زائدة من هذا الشيء او ذاك ، فاذا فعلوا اختطفوها منهم واعطوهم بدلها لطمة على الوجه او لكمة على الحنك ...

وجال ريبين بنظراته فيما حوله، ثم مال نحو بافل من فوق المائدة التي تفصل بينهما ، وتابع :

– لقد تقززت نفسي عندما عدت الى تلك الحياة من جديد، وفكرت انني لن استطيع لها احتمالاً ، ثم قلت في نفسي : كلا ، ينبغي لك ألا تنهزم ، بل ان تقاوم حتى النهاية . لعلك لا تستطيع ان تعطيهم خبزاً ، ولكنك تستطيع ان تجهز على مهل طبخة جيدة . وهكذا بقيت هناك وقلبي يحترق بالحقد الذي أحمل . وهذا الحقد ما يزال هناك ، يحفر في قلبي وكأنه مدية مدببة .

واقترب من بافل ببطء ، والعرق يتصبب على جبينه، ورأسه يرتجف بشدة، وألقى بيده على كتفه قائلاً :

– إني بحاجة الى معونتك . اعطني كتباً من ذلك النوع الذي يذهب بنوم

الانسان طوال ليال عديدة اذا قرأوه مرة . اننا بحاجة لان نضع قنفـــذاً في قحفهم ، قنفذاً ذا اشواك حادة . قل لأولئك الذين يكتبون لكم ان يكتبوا شيئاً للقرية ايضاً . فليكتبوا حتى يصبـــح للأحرف ضجيج ، وحتى يذهب الناس الى حتفهم في سبيل القضية .

ورفع ذراعه وراح يقول ، وهو يلفظ كل كلمة على حدة ، وبصورة شديدة الوضوح :

– ان الموت سينتصر على الموت ، وبكلام آخر : مُتْ كي يُبعث الشعب. وليمت الألوف منا كي يبعثوا ملايين الناس في العالم كله ، تلك هي القضية ! ان الموت لأمر سهل ... في سبيل قضية البعث ، في سبيل قضية الشعب القائم من الموت .

حملت الام السماور وبدأت تختلس النظر الى ريبين ، شاعرة بالانسحاق تحت ثقل كلماته وعنفها . ثمة شيء فيه يذكّرها بزوجها . لقـــد كشّر زوجها عن اسنانه بذات الطريقة ، وهزّ ذراعيه بذات الاسلوب وهو يطوي أكام قميصه ، ولقد كان يملؤه ذات الغضب الهائج - لقد كان غضبه هائجاً لا يجد له تعبيراً ، فيما هذا الرجل يعطي لمشاعره تعبيراً واضحاً ، وهذا مما يجعله أقل إرهاباً .

قال بافل ، وهو يهز رأسه :

– يجب ان نحقق ذلك . اعطنا المعلومات ، ونحن نصدر صحيفة بكم .

ابتسمت الام وهي تنظر الى ولدها، ثم ارتدت ثيابها، مضبّة لا تنبس ببنت شفة ، وبرحت الدار ...

صاح ريبين :

– حسناً ، سنزوّدكم بكل شيء . اكتبوا ببساطة بحيث يستطيع ، حتى العجول ، ان يفهموا ايضاً .

وفـُتح باب المطهى ، ومرق منه شخص ما ...

قال ريبين ، وهو ينظر الى المطهى :

– هذا يفيم . تعال هنا يا يفيم ، ها هو ذا – يفيم – اما هذا فيدعى بافل ، ولقد حدثتك عنه .

ووقف تجاه بافل فتى طويل القامة ، اشقر الشعر ، عريض الوجه ، يتوشّح معطفاً قصيراً من فرو الغنم ويمسك قبعته بيديه ، وراح يتطلع الى بافل من تحت حاجبيه المنخفضين . كان مظهره يوحي بأنه شديد البأس صنديد القوة .

قال بصوت فظ اجش :

– اني سعيد بمعرفتك .

وصافح بافل ، ثم ارسل كلتا يديه في شعره الاملس ، وجال بعدئذ في الغرفة حتى اذا وقع بصره على الكتب مال يتجه نحوها في تمهلٍ ورويّة .

قال ريبين ، وهو يغمز بافل بطرف عينه :

– لقد وجده .

فاستدار يفيم وحملق فيه ، ثم بدأ يتفحص الكتب . هتف :

– ما اكثر ما عندك للقراءة ! ما لا ريبة فيه انك لا تلقى متسعاً من الوقت لذلك . لو كنت تعيش في القرية لوجدت فراغاً اكبر للقراءة .

واستفهم بافل :

– ولكن رغبة اقل ؟

فأجاب الفتى ، وهو يداعب ذقنه :

– ولِمَ ؟ بل رغبة عظيمة ايضاً . لقد بدأ الناس يحثون ادمغتهم . علم طبقات الارض . ما معنى هذا ؟

فأوضح بافل له ذلك ...

قال الفتى ، وهو يردُّ الكتاب الى مكانه على الرف :

– نحن لسنا في حاجة الى هذا ...

وقال ريبين ، متنهداً بصوت مسموع :

– الموجيك لا يعبأ بأصل الارض ومنشئها ، وإنما تقسيمها يثير اهتمامه قبل كل شيء ، وكيف سرقها الملاكون تحت بصره وسمعه . وسواء لديه ان كانت تدور حول نفسها او كانت ثابتة ، بل فلتثبت تحت اقدامه ما دامت تعطيه قمحاً وخبزاً ، ولتسمّر في السماء اذا اعطته الجاودار .

وقرأ ييفيم :

– تاريخ العبودية . أهو يبحث عنا ؟

فأجاب بافل ، وهو يناوله كتاباً آخر :

– ههنا تجد فصلاً عن نظام العبودية في روسيا .

أخذ ييفيم الكتاب ، وقلَّبه بين يديه ، ثم قال وهو يلقي به جانباً :

– هذه امور تتعلق بالماضي .

سأله بافل :

– هل تملك ارضاً خاصة بك ؟

– بكل تأكيد . ان اخويَّ وانا نملك اربعة هكتارات من الارض ، رمل كلها ، تصلح لتنظيف النحاس ولا تفيد شيئاً للزراعة .

وتابع بعد برهة من الصمت :

– ولقد تركت الارض ، فما الفائدة منها ؟ انها لا تطعمك ، بل تربطك بها.

ومنذ اربع سنوات وانا أعمل حارثاً في مزرعة ، وسأقوم بخدمتي العسكرية في الخريف المقبل . والعم ميخائيلو يقول ألا أتقدم اليها ، ويقول انهم يرسلون الجنود ليجلدوا الشعب في هذه الايام . ولكنني أعتقد انني سأذهب ، فالجنود كانوا يضربون الشعب ايام ستيفان رازين وبوجاتشيف ايضاً ، ولقد آن الأوان لنا كي نبدّل الأمور . ما رأيك ؟

وجّه الى بافل هذا السؤال وهو يحدجه بنظرات مستفسرة ، فأجاب بافل مبتسماً :

– بلى ، لقد حلّ الأوان ، لكن ذلك ليس بالأمر السهل . يجب ان نعلم ماذا نقول للجنود وكيف نقوله .

فقال ييفيم :

– سنتعلم .

فلاحظ بافل ، وهو يرمق ييفيم بنظرة مستقصية :

– وإذا اكتشف الضباط ذلك ، فسوف يرمونك بالرصاص .

فوافق الفتى في هدوء ، وهو يعود الى استكشاف الكتب :

– لست أنتظر منهم هذه الرحمة ...

وقال ريبين :

– إشرب الشاي يا ييفيم ، فلا مناصَ لنا من الذهاب عما قريب .

– حسناً ! هل الثورة ... عصيان ؟

ودخل أندريه ، مورّد الوجه ، ينضح البخار منه بعد الحمام ، وتعلو وجهه نظرة كئيبة أسوانة . صافح ييفيم في صمت ، ثم جلس الى جانب ريبين وأرسل ضحكة قصيرة وهو يتفحصه .

سأل ريبين ، وقد ضربه على ركبته :

– ما بالك ؟ لمَ هذا الاكتئاب ؟

فأجاب الاوكراني :

– لا شيء على التعيين .

واستفهم ييفيم ، مشيراً برأسه الى اندريه :

– أهو عامل ايضاً ؟

فرد أندريه :

– نعم ، ولمَ السؤال ؟

فقال ريبين موضحاً :

– انه لم يرَ من قبل عاملاً في مصنع قط . انه يجد هؤلاء العمال طبقة خاصة.

واستعلم بافل :

– بأي معنى ؟

فأعلن ييفيم مجيباً ، بعد ان درس أندريه ملياً :

– ان عظامكم مستدقة ، اما عظام الموجيك فأكثر استدارة .

وأضاف ريبين :

– ان الموجيك يقف بثبات اكبر ، انه يحسُّ الأرض تحت قدميه ، وان لم تكن ملكه . انه يحسُّها ... الارض . اما عامل المصنع أشبه بالعصفور – لا يملك موطناً ولا بيتاً – هو اليوم ههنا ، اما في الغد فيذهب الى مكان آخر . والمرأة نفسها لا تتمكن في ضبطه في بقعة واحدة ، فلا تكاد الأمور تسوء حتى يُودِّعها ... وينطلق سعياً وراء ما هو أفضل ، اما الموجيك فيريد ان يجعل الامور افضل دون ان يبرح مكانه . هذه هي أمك قد عادت .

وسأل ييفيم مقترباً من بافل :

– أتريد إعارتي كتاباً من كتبك هذه ؟

فجهر الآخر :

بكل تأكيد .

فالتمعت عينا الفتى في لهفة وإشراق ، وأسرع يؤكد لبافل :

– سوف أردُّه لك . ان رفاقنا ينقلون القطران دائماً الى هـــذه الجهات ، وسوف يحملونه اليك .

قال ريبين ، بعد ان لبس فروته وحزمها جيداً :

– آن لنا ان نذهب .

وهتف ييفيم ، وهو يشير الى الكتاب ويبتسم ابتسامة عريضة :

– انظر ، لقد اصبح لديّ ما اقرأ .

وبعد ذهابهما ، استدار بافل نحو اندريه في انفعال وهياج ، وهتف :

– ما رأيك فيهما ؟

فقال الاوكراني متشدّقاً :

– هِمْ — مْ مْ . مثل سحابتين تحملان العاصفة .

وقالت الام :

– ميخائيلو ؟ لكأنه لم يعمل في مصنعٍ قط – موجيك حقيقي ، ومخيف أيضاً .

وقال بافل لاندريه ، الذي راح يحملق في قدح الشاي بين يديه عابساً :

– يؤسفني جداً انك لم تكن هنا منذ البدء ، اذن لألقيت نظرة على مـــا يجري في قلبه – فأنت تتكلم ابداً عن القلب البشري . لقد اطلق ريبين ههنا

كثيراً من البخار حتى طرحني ارضاً ، ولم اجد كلمة واحدة أردُّ بها عليه ... ما أقل ايمانه بالكائنات البشرية ، وما ارخصها في نظره . ان أمي لعلى حق... ان قوة مخوفاً تملك هذا الرجل .

فأجاب الاوكراني في كآبة :

– استطيع ان ارى ذلك . لقد سمم الحكامُ أفكار الناس ، ويوم تثور الجماهير ، فستقلب كل شيء وتحطمه . انهم يريدون الارض العارية ، وعارية سوف يجعلونها . انهم سيدمرون كل شيء على الاطلاق .

كان يتكلم في رويَّةٍ ، يتضح حديثه ، بجلاء ووضوح سافرَين ، ان فكره مشغول بشيء آخر . واقتربت الام منه ولمسته في حنان قائلة :

– هدّىء من روعك ، يا أندريوشا ، واستعدْ صوابك .

فأجاب في هدوء وعطف كبيرين :

– رويدك لحظة ، يا أميمتي !

وثارت حمياه على حين غرة ، فضرب المائدة بقبضة يده صائحاً :

– ذلك صحيح ، يا بافل . الموجيك سيجرّد وجه الارض آونة ينهض على قدميه ، ولسوف يحرق كل شيء ويذروه في الهواء ، كما يحدث عقيب الطاعون ، حتى يحيل رماداً كل آثار الاذى الذي تحمّل وقاسى .

فلاحظ بافل بصوت خافت :

– وعندئذٍ سيقف في طريقنا .

– يعود الينا كيلا نسمح بحدوث ذلك ، يعود الامر الينا كي نلجم انطلاقه . نحن اقرب اليه من أي كائن آخر ... ولسوف يثق بنا ويقفو خطانا .

قال بافل :

– لقد طلب ريبين ان نصدر صحيفة خاصة بالريف .

– هذا هو المطلوب حقاً .

فقال بافل ، وهو يطلق ضحكة قصيرة :

– لما يؤسف له اني لم اتناقش وإياه في هذه القضية .

فأعلن الاوكراني في هدوء ، وهو يرسل أصابعه بين خصل شعره :

– لم يزل لدينا الوقت الكافي لذلك. ما عليك الا متابعة العزف على الكمان، حتى يرقص ألحانك أولئك الذين لم تُغرس أقدامهم في الارض . لقد كان ريبين على حق عندما قال اننا لا نحسّ الارض تحت اقدامنا ، ويجب ألا نفعل لأن مهمتنا تهزّها هزاً قوياً شديداً . ولسوف نهزّها مرة فيفقد الناس مواقع أقدامهم ... وعند الهزة الثانية ، يتحررون ...

فقالت الام ضاحكة :

– ان كل الامور بسيطة جداً بالنسبة اليك ، يا اندريوشا .

فقال الاوكراني :

– بكل تأكيد ، بسيطة مثل الحياة ذاتها .

وأضاف بعد عدة دقائق :

– اني خارج الى نزهة في الحقول .

فنبرت الام تحذّره :

– بعد الحمام ؟ ان الريح تعصف هُبّاريةٍ ، وسيصيبك برد .

فأجاب :

– اني لفي مسيس حاجة الى بعض الهواء النقي .

وهمس بافل في عطف :

– إحترس من البرد . ليفضل ان تغفو قليلاً .

– كلا ، بل سأذهب .

وارتدى ثيابه ، وخرج دون ان يقول شيئاً ...

قالت الأم ، وهي تتنهد :

– انه يتألم كثيراً مما حدث .

– اني لسعيد إذ اصبحت اكثر حدباً عليه منذ حدوث ذلك .

– أحقاً ؟ اني لم ألحظ هذا . لقد أصبح عزيزاً جداً عليّ حتى لا ادري كيف أعبّر له عن حبي .

فجهر بافل في لطف ورقة :

– ان لك لقباً لطيفاً ، يا أماه .

– ليتني استطيع ان اساعدك – وأساعد اصدقاءك ايضاً – ولو قليلاً ... بل ليتني أعلم كيف افعل ذلك .

– لا تقلقي ، سوف تتعلمين .

فقالت ، وهي ترسل ضحكة قصيرة خافتة :

– آه ، لو كنت اتعلم فقط ... كيف لا أقلق .

– حسناً ، يا أماه ، الافضل ان ندع هذا الحديث . ولكن تذكري شيئاً واحداً ... وهو اني ممتن لك كثيراً ... كثيراً جداً .

فهرولت الى المطهى حتى لا يرى دموعها ...

كان الوقت متأخراً جداً عندما رجع الاوكراني والليل قد اعتكر ، فذهب الى الفراش رأساً وهو يقول :

– من المؤكد اني مشيت عشرة أميال .

فسأله بافل :

– أخفف عنك ذلك ؟

– صمتاً ، فاني أريد ان أنام .

ولم يفه بعد ذلك ببنت شفة ...

جاء فيزوفشيكوف بعـــد برهة قصيرة ، رثّ الثياب ، وسخاً ، متبرماً كعادته ابداً ، واستوضح بافل وهو يكتكت في الغرفة بخطاً وئيدة :

– هل تعلم من قتل اشعيا ؟

فأجاب بافل باقتضاب :

– كلا .

– لقد وُجِدَ شخص لم يقرف من ارتكاب ذلك . لقد كنت انا ، شخصياً ، على استعداد للاجهاز عليه ، وكان يجب ان افعل هذا ... كنت أليق الجميع به .

فقال بافل بلهجة ودية :

– دع عنك هذا الحديث ، يا نيقولاي .

وأضافت الام في حنان :

– لقد أصبت ! انت تزمجر مثل الأسد وقلبك لا يفوقه شيء رقة وعذوبة ، فلمَ ذلك ؟

كانت سعيدة برؤية نيقولاي في تلك اللحظة ، بل قد بدا لها وجهه المجدور جذاباً لطيفاً .

قال نيقولاي ، وهو يهزُّ كتفيه :

– لست اصلح كثيراً إلا لمثل هذه الامور . إني افكر دون انقطاع... اين هو مكاني ؟ ليس لي مكان . انتم تتحدثون مع الناس ، وأنا لا ادري كيف افعل

ذلك . إني افهم كل شيء ... وأرى سائر الشرور . ولكني لا استطيع وضعها في كلمات . لأشبه حيواناً اخرس ...

وعبر الغرفة حتى محاذاة بافل ، وأطرق بعينيه الى الارض ، وراح يقول بنغمة صبيانية تختلف الاختلاف كله عن لهجته المعتادة ، وهو لا يبرح ينقر على المائدة بأصابعه :

– أعطني عملاً ثقيلاً أقوم به ، ايها الأخ ، فأنا لا اقوى على الاستمرار في العيش هكذا دون هدف . انتم جميعاً منهمكون في اعمالكم، وانا لا أرى كيف تنمو الامور وتتطور ، ولكن اقف في معزل ناءٍ عنها لا أفعل إلا نقل الجذوع والاخشاب . هذا لا يمنح المرء شيئاً يعيش من اجله . اعطني عملاً شاقاً انهض به .

فتناول بافل يده ، وشدّه اليه قائلاً :

– حسناً .

وجاء صوت الاوكراني من وراء الحاجز الخشبي :

– سأعلّمك ان تصفّ الاحرف في مطبعتنا ، يا نيقولاي ... ما رأيك في هذا ؟

فذهب نيقولاي اليه ، وقال :

– اذا علّمتني ، قدّمت لك سكيني ... هدية .

فصاح الاوكراني مقهقهاً :

– الى الجحيم انت وسكينك .

فألحّ نيقولاي قائلاً :

– إنها سكين جيدة .

وانثال بافل يضحك بدوره ، فوقف نيقولاي في وسط الغرفة وخنخن :

– اتضحكان مني ؟

فغمغم الاوكراني ، وهو يقفز من سريره :

– بالطبع . استمعا إليّ ، هيا بنا ننطلق في نزهة الى الحقول . القمر رائع هذه الليلة ... أفلا تريدان ذلك ؟

فثنّى بافل :

– إني اوافق .

وأعلن نيقولاي :

– وأنا ايضاً ، فاني أحب سماع ضحكة الاوكراني .

فجمجم الاوكراني ، وهو يبتسم :

– وأنا أحب رؤيتك تعدني بالهدايا .

وذهب الى المطبخ يرتدي ثيابه ، فحثّته الام قائلة :

– إلبس ثياباً دافئة .

وعندما خرج ثلاثتهم ، راحت تراقبهم من وراء النافذة ، ثم نظرت الى الأيقونات وغمغمت :

– أيها الرب العزيز ، إرفق بهم ... وأعنهم .

٢٦

كرّت الأيام مسرعة حتى لم تترك للأم فرصة للتفكير في عيد أيار ، ولكنها كانت تحسّ ، حين تستلقي ليــــلاً في سريرها مجهدة من أعمال النهار الصاخبة المزعجة ، ألماً يئيد على قلبها ، فتعمل جهدها مفكرة :

– لو يأتي ذلك قريباً . . .

وعنــــد بلجة الفجر كانت صفارة المصنع تدوي ، فيتناول ابنها وأندريه طعام الفطور سريعاً ثم يغادرانها بعد ان يعهد اليها بتنفيذ العديد من المهمات .

وينقضي النهار بطوله وهي تروح تغدو في ارجاء الدار كعصفور حبيس في قفص ، تهيىء الغداء ، وتغلي الغراء وتحضر الحبر الأحمر اللازمين لمطبوعاتهما ، وتستقبل أناساً مجهولين يظهرون بصورة عجيبة محوطة بالأسرار ، ويسلمونها رسائل موجهة الى بافل، ثم يختفون مثلما ظهروا بعد ان يتركوها مصابة بعدوى انفعالهم وحماستهم .

وفي كل ليلة تقريباً ، كانت نداءات موجهة للعمال تـــدعوهم للاشتراك في احتفــــال اول ايار تلصق على الجدران ، بل وأبواب مخفر الشرطة ، وتثبت وجودها يومياً في المعمل، فاذا ما حلّ الصباح كان بعض رجال الشرطة يتجولون عبر الضاحية ينتزعون تلك النداءات ويمزقونها؛ ولكن منشورات جديدة كانت تتطاير رغم أنوفهم مع الهواء ، عند الظهيرة ، فوق رؤوس المارة .

وقدم من المدينة بعض رجال التحري ، فاستقروا في زوايا الشوارع يراقبون وجوه العمال الذاهبين الى بيوتهم والغادين منها برح خلال فرصة الغداء . وكانت جموع الناس تتمتع بما ترى من عجز الشرطة في تدارك الحالة ، بل كان الشيوخ من العمال يبتسمون بدورهم وهم يقولون بعضهم لبعض :

ـ ألا فانظروا الى ما يصنعون !

وكانت جماعات من العمال تشاهد في كل مكان وهي تناقش النداء . إن الحياة لتصخب وتجيش ، وتصبح أبعث على الاهتمام من الربيع نفسه ، لان الجميع يستشعرون دافعاً جديداً يتدفق بين جنباتهم . ولقد وجد بعض هؤلاء في ذلك ذريعة جديدة للغضب والنقمة ، فاذا هم يكيلون الشتائم للمتمردين بصوت عالٍ رنان ؛ وأحس آخرون أملاً غامضاً وجزعاً في الوقت ذاته ؛ فيما البعض الآخر ، وهم الأقلية ، يتمتعون بلذة فائقة إذ يدركون أنهم مسؤولون عن هذا التحفز عند الناس .

وكان بافل وأندريه لا يكادان يذوقان للنوم طعماً ، فهما يأتيان البيت عند الفجر ، شاحبين متعبين قد بُحّ صوتاهما . وكانت الأم تعلم أيضاً أن كتائب من فرسان الشرطة تراقب ليلاً المنطقة المحيطة بالضاحية ، وأن رجال التحري ينبثون في كل مكان ويضبطون العمال المنفردين ويفتشونهم ، ويفرّقون أية جماعة من الناس يقعون عليها ويعتقلون البعض من حين لآخر . وأدركت أن ابنها وأندريه معرضان باستمرار لخطر الاعتقال ، فتمنت لهما ذلك واثقة أنه يكون النصيب الأفضل .

ولسبب ما أسدل الستار على مقتل مراقب الدوام ، فبعد أن تابعت الشرطة المحلية تحقيقها خلال يومين ، واستجوبت عشرة من الناس ، لم تلبث أن فقدت اهتمامها بالجريمة وأهملتها .

وقد عبّرت ماريا كورزونوفا ، في حديث لها مع الأم ، عن رأي الشرطة في الموضوع ، إذ كانت طيبة العلاقات معهم مثلها مع سائر الناس . قالت :

– الأمل ضعيف جداً في معرفة القاتل ، إذ صادف أشعيا ما يزيد عن مائة شخص ذلك الصباح، ومن بينهم تسعون على الاقل يتمنون قتلهم من صميم قلوبهم، منذ سبع سنوات وهو يسيء الى الجميع على السواء .

تغير الاوكراني بشكل جلي ظاهر ، فنحل وجهه ، وترهل جفناه حتى غطيا نصفياً عينيه الجاحظتين ، وبدت خطوط رفيعة تمتد من خيشوميه حتى صِواريه . أصبح أقل كلاماً عن الامور المعتادة ، وإن تضاعفت لحظات هيجانه وحماسته حيث يبعث في المستمعين اليه رؤاه عن مستقبل يظفر العقل فيه تنتصر الحرية .

وحين مات الحديث عن مقتل اشعيا ، قال وابتسامة جافة تمرح على شفتيه :

– انهم لا يهتمون بالشعب ، ولا بأولئك الذين كانوا يطلقونهم كالكلاب في أعقابنا . وهم لا يأسفون لخسارتهم اجرائهم ... بل يأسفون على أموالهم ليس غيره .

قال بافل في حزم :

– كفى حديثاً عن هذا الموضوع .

فردَّ الاوكراني :

– كلما ازددت تفكيراً في هذا الرجل ، ازددت رثاءً له .

فعقـَّبت الام بقولها :

– لقد تفتـَّت الجذع المتعفن لدى اللمسة الاولى ... هذا كل شيء .

فأجاب الاوكراني مكتئباً :

– حقٌّ ما تقولين ، ولكنه لا يعزي .

وأمسى يردد هذه الكلمات كثيراً ، فاذا تفوه بها اتسعت الكلمات حتى أصبحت تعميماً موجعاً شديد المرارة .

واخيراً جاء اليوم المرتقب بفارغ الصبر ... اول ايار .

دوّت صفارة المعمل بعنف أشد ذلك الصباح ، فهبت الام من فراشها ، ولم يغمض لها جفن طوال الليل ، وأضرمت النار في السماور الذي هيأته منذ العشية ، وهمّت ان تقرع باب غرفة الشابين كعادتها ، لكنها فضلت ألا تفعل ، فجلست الى النافذة وقد اعتمدت وجهها على يدها وكأن أضراسها تؤلمها ألماً شديداً .

وسبح عبر السماء الزرقاء الشاحبة عنقود من السحب الوردية والبيض مثل سرب من طيور كبيرة أرعبتها زمجرة بخار المعمل ، فراحت الام تراقبها وتصغي الى أفكارها الخاصة في الوقت ذاته . كان رأسها ثقيلاً جداً وعيناها جافتـــين ملتهبتين من عناء هذه الليلة ، ومع ذلك فان هدوءاً غريباً يملأ نفسها ، وقلبها يخفق في انتظام وسكينة ، وذهنها يعمل جاهداً في أفكار بسيطة عادية :

– لقد بكّرت في إشعال السماور – وسوف يتبخر الماء بأسره ... إنهما مجهدان منهوكا القوى ، فلينالا قسطاً اوفر من الراحة هذا الصباح ...

وأطل شعاع وليدٌ من الشمس يمرح من خلال النافذة ، فمدّت له يدها ، حتى اذا جاء يستريح بدفء على جلدها مسحت عليه بيدها الاخرى وشفتاها تفتران عن ابتسامة لطيفة متأملة ... ثم نهضت ونزعت عن السماور غطاءه ، ومن بعدُ اغتسلت وشرعت تصلي وهي ترسم إشارة الصليب دون انقطاع ، وتحرك شفتيها في سكون غير مثيرة ضوضاء مطلقاً . وبرق وجهها بضوء لامع ، بينهما جفنها الأيمن يرتفع تارة ببطء ، ويتداعى أخرى في وهن .

وجاء الصفير الثاني أقل ارتفاعاً وتسلطاً ، يتماوج في لحنه الكثيف الرطب ارتعاش ضئيل جداً ، فيخيّل للأم ان دويّهُ دام مدة أطول من المعتاد .

وارتفع من الغرفة الثانية صوت الاوكراني العميق الواضح :

– أسمعت هذا ، يا بافل ؟

وانزلقت قدمان حافيتان عبر الغرفة ، يرافق حفيفهما تثاؤب متطاول .

صاحت الام :

– السماور جاهز .

فأجاب بافل مسروراً :

– اننا ناهضان في الحال .

وقال الاوكراني :

– الشمس تشرق ، وفي السماء سحب متلبدة . اننا نستطيع العمل اليوم دون الغيوم .

ودلف الى المطبخ مشعث الشعر ، منتفخ الوجه نعاساً ، لكنه مبتهج النفس مرح الفؤاد . قال :

– أسعدتِ صباحاً ، يا أميمة ! كيف كان رقادك ؟

فزرفت الام إليه ، وقالت بصوت خافت :

– إمشِ الى جانبه ، يا أندريوشا .

فقال الاوكراني همساً :

– بكل تأكيد ! تستطيعين التأكد ، يا أميمة ، من أننا سنمشي جنباً الى جنب ما دمنا معاً .

وسأل بافل :

– بماذا تتهامسان ، أنتما الاثنان ؟

– لا شيء على التعيين ، يا باشا .

وأجاب الاوكراني ، وهو يهمُّ بالاغتسال :

– انها تنصحني بتنظيف ما وراء أذنيّ جيداً لان الفتيات سيتطلعن إليّ هذا النهار .

وأنشد بافل بصوت خافت :

انهضوا الى النضال ، يا ايها العمال ، انهضوا

ازداد الجو نوراً مع تقدم النهار ، بينما هبّت الريح تطرد السحب بعيداً . وهزّت الام رأسها وهي تهيىء مائدة الإفطار ، وتفكر في مبلغ الغرابة التي تحوط كل هذا : ها هما يضحكان ههنا ويتراشقان بالملائح في حين لا يدري أحد ماذا يقبع لهما في الانتظار بعد قليل . وانها لتشعر ، هي الاخرى ، بالهدوء نوعاً ما ، لا بل بالغبطة ايضاً ...

قضيا على الطعام زمناً طويلاً يحاولان تخفيف حدة الانتظار . وكان بافل ، كعادته ، يحرك السكر في كأسه ببطء واعتناء بالغين ، ويذرّ الملح بصورة منتظمة على الخبز المفضل لديه ، ألا وهو قشره . اما الاوكراني فكان يحرك قدميه تحت المائدة دون انقطاع ، وهو لا يجـــد أبداً لقدميه وضعاً مريحاً — يراقب شعاعاً شمسياً يعكسه الشاي المتراقص في قدحه على الجدار والسقف . قال :

— عندما كنت صبياً في العاشرة من عمري خامرتني رغبة ملحّة في التقاط الشمس بكأسي ، فأخذت قدحاً وأطبقت على بقعة من الشمس — فاذا بالقدح يتحطم . وقد جرحت يدي وجُلِدْتُ بالاضافة ايضاً . وبعـــد ان جُلدت خرجت الى الفناء فوقع بصري على الشمس في بركة موحلة ، فأقبلت عليهـــا أدوسها بقدميّ بكل ما فيّ من قوى . وواضح ان ثيابي كلها قد تلطخت ، الامر الذي استأهلت من اجله الجلد مرة ثانية . وكان انتقامي الوحيد من الشمس هو ان أمدّ لهـــا لساني وأصيح فيها : ذلك لم يؤذني ، ايتها الشيطانة الحمراء الرأس ، ذلك لم يؤذني . وقد كان في ذلك بعض المواساة لي .

وضحك بافل ، وسأل :

— ولماذا أسميتها حمراء الرأس ؟

- كان يقطن في الشارع ، مقابل دارنا ، حداد ضخم الجثة ، أحمر الوجه واللحية ، وكان فتى رقيق القلب عذب النفس ، فلاح لي ان الشمس تشبهه .

ولم تعد تطيق مزيداً ، فقالت :

- لمَ لا تتحدثان عما ستقومان به اليوم ؟

فقال الاوكراني بلطف :

- ان الحديث عما سبق واتخذ قرار بشأنه يزيد الامور اختلاطاً ليس غير . واذا حدث واعتقلونا جميعاً يا أميمة ، فسيأتي نيقولاي إيفانوفيتش ويحدثك بما ينبغي لك ان تفعلي .

فقالت الام ، وهي تتنهد :

- حسناً .

وقال بافل حالماً :

- ما علينا لو خرجنا الى النزهة ؟

فأجاب أندريه :

- الافضل ان نبقى في الدار الآن . لمَ نلفت أنظار الشرطة قبل الأوان ؟ انهم يعرفونك جيداً من دون ذلك .

وجاء فيودور مازين يعدو ، مشرق الوجه ، ملتهب الخدين ، فحطمت حماسته المرحة عناء انتظارهما . قال :

- لقد بدأت الأمور تسير ، والناس جميعاً في هياج ، يخرجون الى الشوارع بوجوه كالحة أشبه بالفؤوس . وان فيزوفشيكوف وفاسيا جوزيف وصموئيلوف يخطبون عند بوابات المعمل ، وقد عاد كثير من العمال الى دورهم . هيا بنا ، لقد حان الوقت للذهاب ، وقاربت الساعة العاشرة .

فقال بافل في حزم :

– اني ذاهب .

وقال فيودور :

– سترون كيف ان سائر العمال سيُضربون بعد الغداء .

وذهب يعدو ...

قالت الام :

– انه يلهث مثل شمعة في مهب الريح .

ثم نهضت وحَبَت ْ الى المطهى لتبدل ثيابها .

– الى اين الذهاب ، يا أميمة ؟

فأجابت :

– معكما ...

فشدّ أندريه على شاربه وتطلع الى بافل ، فأرسل الأخير أصابعه بسرعة في شعره وذهب إليها :

– لن أقول لك شيئاً يا أماه ، وانت ... لا تقولي لي شيئاً ... هل اتفقنا ؟

فغمغمت :

– اتفقنا ، اتفقنا ، وليبارككَ الله ...

٢٧

عندما أصبحت خارج الدار ، وسمعت الى لغط الاصوات المتحفز المنتظر يرتفع في الهواء، ورأت تجمهرات الناس عند البوابات وفي نوافذ الدور يتطلمون جميعاً الى ابنها وأندريه بأعين مستقرئة ، انهمرت لطخ خضر تارة ورمادية تارة أخرى تتراقص امام عينيها بسرعة غريبة .

وكان الناس يبادلونها التحية ، فيكمن في الكلمات هذه المرة معنى خاص . وطرق سمعها نتف من الملاحظات التي يتبادلونها بأصوات خافتة هادئة :

– ها هما القائدان !

– اننا لا نعلم من هم القواد .

– انني لم أعْنِ ضرراً او إساءة على الاطلاق .

وصاح صوت متهدج من مكان آخر :

– ان الشرطة ستعتقلهم ، فينتهي أمرهم .

– لقد اعتقلوهم مرة .

وقفز من إحدى النوافذ الى الشارع عويل إمرأة جزعة مذعورة :

– إنتبه لما تقول . فأنت لست عزباً مثلهم ... بل رب عائلة .

مروا امام دار زوسيموف ، وهو رجل فقد إحدى رجليـــه ويتقاضى من

المصنع مرتباً شهرياً تعويضاً عن آفته التي أصيب بها اثناء العمل ، فاذا هو يمدُّ رأسه من احدى النوافذ ويصيح :

– بافل ، سوف يدقون لك عنقك يا وغد ، وبذلك تنال ما تستحق .

فارتعدت فرائص الام وجمدت في مكانها وقد اندلع في نفسها غضب حاد ، وتطلعت الى وجه الاعرج السمين المتورم ، فأخفى هذا رأسه سريعاً وهو يرسل أيماناً مغلظة ... لكن الام حثَّت الخطوَ حتى لحقت بابنها ، ومشت في أعقابه جاهدة ألا تتأخر عنه .

كان يبدو على بافل وأندريه انهما لا يلاحظان شيئاً مما يجري حـــولهما ، ولا يستمعان ضروب الملاحظات التي يرميها الناس عند مرورهما . كانا يسيران في هدوء ودون تسرُّع ، ولم يتوقفا إلا مرة واحدة ، عندما التقيا بميرونوف ، وهو رجل متوسط العمر ، متواضع ، يحترمه الجميع لأسلوبه المستقيم في الحياة وسيرته الطيبة . سأله بافل :

– وأنت ايضاً لم تذهب الى العمل ، يا دانيللو إيفانوفيتش ؟

– ان زوجتي تنتظر مولوداً . ثم ، بالاضافة الى ذلك ، في مثل هذا اليوم الذي يسيطر القلق فيه على الجميع ...

وتطلع بثبات الى رفيقيه ، وهو يسأل بصوت خافت :

– يقولون انكم تنوون إزعاج المدير هـــذا اليوم ... فتحطمون بعض النوافذ ، أصحيح هذا ؟

فهتف بافل :

– نحن لسنا سكارى .

وقال الاوكراني :

– نحن ننوي السير عبر الشارع بأعـــلامنا بكل بساطة ، وإنشاد بعض الاغاني . إستمع الى أغانينا ، فهي تعبير عن ايماننا .

فقال ميرونوف مفكراً :

– اني أعرف إيمانكم من قبل ، ولقد قرأت مناشيركم وصحفكم .

ثم صاح ، وهو يبتسم للأم بعينيه الذكيتين :

– آهٍ ، يا بيلاجيا نيلوفنا ، أتنضمين الى العصيان ؟

– لا بدّ لي ان أسير مع العدالة ، ولو مرة واحدة ، قبل ان أموت .

فقال ميرونوف :

– عظيم ! يبدو انهم مصيبون عندما قالوا انك انت حملت المناشير الى المعمل .

فاستجلى بافل :

– من يقول هذا ؟

– هِمْ مْ ! هذا ما يقولون . حسناً ، الى اللقاء ، احترسوا جيداً .

ابتسمت الأم بهدوء ودعة ، كان يسعدها ان يقول عنها مثل هذه الاقوال...

وقال بافل ، ضاحكاً :

– ستنتهين في السجن يوماً ما ، يا أماه ...

استمرت الشمس تتسلق السماء وتكسب دفأها في طراوة اليوم الربيعي المنعشة . وكانت الغيوم تحبو متباطئة وقد ازدادت ظلالها ضياء وشفوفاً . وراحت تدبُّ في هدوء على طوال الشارع وفوق سطوح المنازل ، وتظلل الجموع وكأنها تريد ان تطهر الضاحية وتنظفها ، فتغسل الغبار والاوسخة عن الجدران والسطوح ، وتمحو الملل والكرب عن وجوه الناس المتعبة . وأضحى كل شيء اكثر بهجة ومرحاً ، فالأصوات تتردد اكثر ارتفاعاً ورنيناً ، تُغرق في لجتها جلبة الآلات ، وزفرات المعمل البعيد .

ومرة أخرى ، راحت الكلمات تتطاير وتدبُّ حول أذني الأم منبعثة من النوافذ والباحات ، بذيئة مضطربة تارة ، حزينة او مرحـــة تارة أخرى . فتتلهف الأم كي تنقضها بالحجـــة الدامغة ، او توضح الامور لأولئك الذين يتفوهون بها وتعـبِّر عن امتنانها لمن يستحقون منهم الشكر والامتنان ، تتلهف بصورة عامة كي تشترك في حياة يوم ذلك الغريب المتباينة الصاخبة .

وكان حشد من الناس يبلغون المائة عدّاً قد تجمهروا عند زاوية زقاق جانبي يرتفع من بينهم صوت فيزوفشيكوف قائلاً :

– إنهم يستنزفون الدماء منا كما يمتصون العصير من الفاكهة .

كانت كلماته تتساقط بعنف وقوة على رؤوس الناس المحتشدين حوله .

وارتفعت ، في الوقت ذاته ، عدة أصوات قاسية تقول :

– هذا صحيح !

وقال الاوكراني :

– ان الفتى يبذل كل جهده ، وأعتقد اني سأذهب لمساعدته .

وقبل ان يتمكن بافل من اعتراض سبيله، كان جسده المديد المرن قد اندس في الحشد كالمبزل في غطاء الزجاجة الفليني ، وهتف بصوته الثري الرنان :

ـ ايها الرفاق ، يقولون ان شعوباً مختلفة تقطن الارض ـ يهوداً وجرماناً ، إنكليزاً وتتاراً . ولكني لا أصدق ذلك . ليس هناك الا شعبان فقط ، شعبان لا يتوافقان ـ الغني والفقير . ان الناس يختلفون في لباسهم وفي لغتهم ، لكن انظروا كيف يعامل الغني الفرنسي او الانكليزي او الالماني الشعب العامل ، لتتحققوا أنهم جميعاً ، بالنسبة إلينا نحن العمال ، أوغاد سفلة ، ألا حلـَّت عليهم لعنة الله .

وضحك شخص بين الحشد ...

ـ واذا نظرتم من جهة أخرى وجدتم العمال الفرنسيين والتتريين والأتراك يعيشون نفس حياة الكلاب التي نعيشها نحن العمال الروسيين .

وازداد عدد الناس الذين يحـــومون في الشارع الجانبي ، يمطون أعناقهم ويتطاولون على رؤوس أصابعهم دون ان يتفوهوا بكلمة على الاطلاق .

ورفع أندريه قائلاً :

ـ ان العمال في الخارج قد فهموا هذه الحقيقة البسيطة . واليوم ، في الاول من ايار ...

ـ الشرطة !

واندفع أربعة من فرسان الشرطة في الزقاق الجانبي بسرعة وعنف وهم يلوّحون بسياطهم ويصرخون :

ـ تفرّقوا .

وعبس الناس وهم يفسحون ، باضطرار ، الطريق أمام الجياد المنطلقة ، وتسلق بعضهم فوق الاسوار .

وصاح آخرون في جرأة ووقاحة :

ـ هذه خنازير على ظهور الجياد تأتينا مزمجرة : أفسحوا الطريق فنحن قادة عظام !

وظل الاوكراني واقفاً في وسط الشارع وقد أقبل عليه جوادان يهزان رأسيهما بقوة ، فوثب جانباً ليفسح لهما سبيلاً . عندئذ امسكت الام به من يده وجرّته وراءها وهي تتمتم :

ـ وعدتَ ان تظل الى جانب بافل ، وهذا أنت هنا تفتش من تلقاء نفسك عن المتاعب .

فقال الاوكراني مبتسماً :

ـ ألف ألف معذرة .

سيطر على بيلاجيا تعب مؤلم ينذر بالسوء هبّ من اعماقها وبلغ رأسها فجعله يسبح في دوار شديد ، وراح يتناوبها إحساس بالفرح والكآبة ، فتشتاق ان تسمع صفير الغداء يدوي معلناً انتصاف النهار .

وبلغوا اخيراً الساحة الكبرى ، حيث تقوم الكنيسة ويحتشد ما يزيد عن خمسمائـــة شخص من الشباب المرحين والنسوة المذعورات والاطفال الصغار ، بعضهم وقوف وبعضهم جلوس يتزاحمون في هرج ومرج ، ويتطاولون برؤوسهم في قلق ، ويتطلعون بعيداً وهم ينتظرون بفارغ الصبر شيئاً ما . وكان الجو مشحوناً بالانفعال والهياج ، وبعض الناس يبدون كأنهم لا يدرون ماذا يفعلون، والآخرون يتخذون مظهر الشجاعة والاستخفاف . وكانت اصوات النساء المكتومة ترتفع في اضطراب ، فيستدير الرجال عنها في ضجر ... ومن حين لآخر تعلو بعض الشتائم الخافتة ، فتحوم فوق الجمهور المتباين المغمور بهزيم ثقيل من العداوة والنفور .

صاحت امرأة بصوت رقيق مرتعش :

ـ ميتيا ، إشفق على نفسك .

فجاء الجواب بفظاظة :

ـ دعيني لشأني .

ورنّ صوت سيزوف القاسي هادئاً مقنعاً :

ـ كلا ، اننا لا نريد ان ننفضّ من حول الفتيان ، فهم اكثر منا ادراكاً وشجاعة ايضاً . من هبّ يدافع عن مصالحنا في قضية كوبيك المستنقع ؟ هم وحدهم ، وهذا ما يجب ألا ننساه . ولقد ألقي بهم في السجن من اجل ذلك ، بينما أفاد جميعنا من جرّاء موقعهم .

ودوّت الصفارة ، فابتلعت أصوات الناس في هديرها الاسود ، وأرسلت في الحشد موجة من الارتعاش الشديد . وانتفض الذين كانوا يجلسون وقوفاً ، وخيم الصمت لحظة على الجميع وقد وقفوا على أهبة الاستعداد ، شاحبة وجوه عدد غفير منهم .

وارتفع صوت بافل القوي الرنان :

ـ أيها الرفاق .

ولفح رذاذٌ حارٌ عيني الام ، فأسرعت بحركة وحيدة سريعة تتخذ مكانها خلف ابنهـــا . واستدار الجميع نحو بافل وأحاطوا به مثل برادة الحديد اذ تنجذب نحو المغناطيس .

تطلعت الام الى وجه فتاها تلاحظ عينيه الفخورين ، الجريئتين ، الملتهبتين بنار متأثرة عظيمة :

ـ يا اخواني ، لقد أزفت الساعة التي ننكر فيها هذه الحياة المفعمة جشعاً وظلمـــة وبغضاء ، حياة الارهاق حيث لا محلّ لنا وحيث لا نُعتبر كائنات انسانية ، لقد أزفت الساعة لننكر هذه الحياة ونتمرد عليها .

وجنح الى الصمت ، فاشتد ازدحام العمال حوله وهم ينصتون اليه في سكون تام .

ـ ايها الرفاق ، لقد قررنا ان نعلن اليوم للملأ ، في صراحة تامة ، عن هويتنا ، وأن نرفع اليوم رايتنا ، راية العقل ، والعدالة والحرية ...

واندفعت في الفضاء عصاً بيضاء طويلة انتصبت هنيهة ثم هوت وغابت بين الجماهير ، فشطرتها وتوارت بينها برهة وجيزة قبل ان ترفرف راية الطبقة العاملة الحمراء ، كأجنحة طائر قرمزي كبير ، فوق الرؤوس المرتفعة والوجوه الناظرة الى العلاء .

رفع بافل ذراعه ، فخفقت الراية ، فاندفعت عشرات الايدي تمسك الخشب الابيض الناعم ، وكانت يدي الام في عدادها .

هتف بافل بأعلى صوته ؟

ـ عاشت الطبقة العاملة .

فزمجرت مئات الاصوات ترجيع هتافه :

ـ عاش حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي ، حزبنا ايها الرفاق ، وينبوع أفكارنا .

وثارت حميّا الجماهير ، فاندفع الذين ادركوا معنى الراية يشقون طريقهم نحوها . وسرعان ما كان مازين وصموئيلوف والآخران جوسيف يقفون الى جانب بافل . وشقّ نيقولاي طريقه ، منخفض الرأس ، خلال الحشد ، فيما أحست الام فتى ملتمع العينين لا تعرفه يدفعها جانباً في انطلاقه نحو الراية .

صاح بافل :

ـ عاش عمال العالم ! عاشت الحرية !

فتلقى الجواب شيحة عميقة خرجت من آلاف الحناجر ترنُّ في فرح وقوة ، وتلهب في النفس الحماسة والعزم .

وأمسكت الأم بيد نيقولاي وشخص آخر، وهي تغصُّ بالعبرات . ولكنها لم تبكِ ... وراحت ركبتاها ترتجفان، وهي تغمغم من خلال شفتين مرتعشتين:

ـ يا أعزائي ...

وانتشرت على وجه نيقولاي المجدور ابتسامة عريضة ، وطفق يتمتم بشيء ما ناظراً الى الراية ، ماداً يده في اتجاهها . وعلى حين غرة ، ألقى بيده هذه على عنق الأم ، واندفع يقبّلها ، وهو يضحك أثناء ذلك .

قال الاوكراني ، مقاطعاً زمجرة الحشد ، بلكنة حديثه الاوكراني الرخيمة العذبة :

– أيها الرفاق ! لقد نهضنا الى حرب صليبية جديدة باسم إله جديد ، إله النور والعقل ، إله المحبة والحقيقة . ان هدفنا الاخير لبعيد جداً ، امـا اكليل الشوك ففي متناول اليد . فان فقد أحد الايمان بانتصار الحقيقة ، ان فقد أحد الشجاعة على إعطاء حياته من الحقيقة ، ان ارتاب أحدٌ بقواه الخاصة وانتابه الخوف من العذاب ، فليخرج من صفوفنا إذن ، وليقف جانباً ... نحن نتوجه الى أولئك الذين يؤمنون بانتصارنا من دون سواهم ، وأولئك الذين لم يدركوا رؤيانا عن المستقبل لا يملكون المسير معنا ، لأنهم لن يدركوا سوى الحزن والكآبة وحدهما . انضموا الى الصفوف ، ايهـــا الرفاق ! عاش عيد الانسانية الحرة ! عاش اول ايار !

وتكاثف الازدحام شدة فرفع بافل الراية عالياً ، فانبسطت وراحت تخفق مغمورة بأشعة الشمس ، اذ سار بها يبتسم ابتسامته العريضة البراقة ...

وشرع فيدور مازين يُنشد :

« فلنتخلص من العالم القديم الى الابد ! »

فانضمت إليه عشرات الاصوات في الشطر الثاني !

« ولننفض الغبار عن أقدامنا »

كانت الأم تسير وراء مازين ، وابتسامة سعيدة تمرح على شفتيها ، وعيناها تسعيان – من وراء رأس فيدور – نحو الراية ونحو فتاها . كان كل ما يحيط بها وجوهاً فرحة وعيوناً براقة . بينما ولدها وأندريه يسيران في المقدمة فتستطيع ان تسمع الى كليهما ينشدان ، وصوت أندريه الجهوري الرنان يذوب مع صوت بافل الخفيض العميق :

« إنهضوا الى النضال يا ايها العمال ، إنهضوا إنهضوا ،

يا ايها الجياع ، وثوروا ! ... »

وهرع عدد كبير من الناس لملاقاة الراية عَدْواً ، وهم يصيحون أثناء ركضهم ، فتنسجم هتافاتهم مع اصداء النشيد – ذات ذلك النشيد الذي كانوا يغنّون بأصوات مكنومة في المنزل ، والذي يتعالى الآن في الشارع بقوة عنيفة لا تعبأ بالعقبات . كان يتردد بجرأة لا يُكبح لها جماح ، يدعو الناس الى الطريق الطويلة المؤدية نحو المستقبل ، معلناً لهم في الوقت نفسه – بكل صراحة – مبلغ ما ستكون عليه هذه الطريق من صعوبة وعناء .

« وسنمضي الى لقاء إخواننا الذين يتألمون ... »

كان لهيب النشيد الهادىء يحرق سائر فحوم الماضي السود ، ويذيب كل ما ألف الناس من إحساسات تقليدية ، ويحيل الخوف من كل جديد في الحياة هباءً منثوراً .

وتأرجح الى جانب الأم وجه شخص مذعور ، لكنه سعيد مغتبط ، فيما هتف صوت مرتجف بجهش في البكاء .

– ميتيا ، الى اين انت ذاهب ؟

فقالت الام ، دون ان تتوقف عن المسير :

– دعيه يذهب ، لا تقلقي من أجله . لقد كنت اخاف مثلك في البدء – ان ولدي هناك في المقدمة – وهو الذي يحمل الراية .

وارتفع صوت يقول :

– الى اين انتم ذاهبون ، ايها المجانين ؟ ان الجنود ينتظرون غير بعيد هناك !

وفجأة أمسكت المرأة الناحلة الطويلة يد الام بيدها الجافة ، وصاحت :

— أواه! اسمعي اليهم كيف ينشدون! يا إلهي، وميتيا ينشد بينهم ايضاً...
فحثتها الام بقولها :

— لا تجزعي ! فهذا عمل مقدس . فكري ، أكان ثمة مسيح لو لم يلقَ الناس حتفهم من أجله ؟

ولمعت تلك الفكرة ، بغتـــة خلال ذهنها ، وغمرتها بحقيقتها الواضحة البسيطة !

فرفعت نظرها نحو وجـــه المرأة التي لم تُفلت بعد يدها ، وعادت تقول وشفتاها تفتران عن ابتسامة دهشة وعجب :

— لو لم يمت الناس من اجل المسيح ، من اجل الرب، لما كان ثمة مسيح ابداً!

وظهر سيزوف الى جانبها . قال ، وقد رفع قبعته وراح يلوح بها في الهواء في توافق مع إيقاع النشيد :

— إنهم يعلون على المكشوف هذا النهار ، أليس كذلك ؟ وينشدون أغنية، ويا لها أغنية ، يا أماه ! ما رأيك ؟

« القيصر في حاجة الى الجنود لحروبه ،
فأرسلوا اليه أبنائكم اذن ... »

قال سيزوف :

— انهم لا يخافون شيئاً! وابني المسكين ينام في لحده... لقد قتله المصنع...

راح قلب الام يخفـــق بشدة حتى اضطرت الى التباطؤ عن الآخرين . وسرعان ما دُفعت جانباً ، والتقمت على إحدى الأسوار . بينما الناس يتدفقون أمامها مثل موجة شاسعة الابعاد . كان ثمة عدد لا يحصى منهم ، فامتـــلأت جوانحها غبطة وسعادة .

« انهضوا الى النضال ، يا ايها العمال ، انهضوا ! »

كان يتراءى ان بوقاً ضخماً من الناس يصبُّ ذلـــك النشيد في الهواء صباً فيوقظ الناس، ويبعث في بعضهم استعداداً للقتال، وفي الآخرين فضولاً وتشوقاً لاهبين ، وتوقعاً سعداً غامضاً لحدَثٍ جديد . كان يوقظ هنا آمالاً مترددة ، ويفتح هنالك سبيلاً واسعاً لما تراكم من الغضب خلال السنين . وكانت الانظار جميعها تتطلع الى حيث ترفرف الراية الحمراء يخفق بها النسيم العليل ويلهو .

زمجر صوت يلتهب حماسة :

– ها هم يسيرون ! ما أروعكم ، أيها الفتيان !

واذ كان صاحب الهتاف يجيش باحساس عظيم جداً يصعب التعبير عنـــه بالكلمات العادية ، فقد طفق يعبّر عنه بالايمان المغلـَّظة . ولكن حقداً أعمى ايضاً ، حقد العبودية المظلم ، راح يفحُّ كالأفعى التي أزعجها ضياء الشمس ، ويتلوّى في كلمات دنيئة شريرة ...

صاح بعضهم ، من نافذة احد المنازل ، وهو يهزُّ قبضته في الفضاء :

– يا للهراطقة !

وقرع سمع الام صوت صارخ ظل يتردد في أذنيها مدة طويلة دون انقطاع :

– يثورون ضد جلالة الامبراطور ؛ ضد جلالة القيصر ؟ ينظمون عصياناً ؟

كانت تلمح ، في نظرات خاطفة ، وجوهاً مضطربة تتلاحق امامها ، رجالاً ونساء ينصبون في حشد متزايد الكثافة باستمرار كحمم بركان ثائر ، يجرهم النشيد الى الامام دائماً ، فكأن هذا النشيد يجرف كل شيء من أمامه ويجـــلو الطريق بقوة إنطلاقه العاتية . وتصورت وجه ابنها دون ان تراه ، وهي تتطلع الى الراية الحمراء المرفرفة في المقدمـــة ، وتخيلت جبينه البرونزي ، وعينيه اللامعتين ، وقد برقت جميعاً بنار الايمان اللاهبة . واعتلجت في صدرها رغبة عنيفة في ان تصيح بكل هؤلاء الناس حولها ، وبكل ما أوتيت من قوى :

– يا أحبائي ، ما أعزّكم جميعاً على قلبي !

وجدت نفسها اخيراً في مؤخرة الموكب ، بين أناس يسيرون على مهـــل ، ويتطلعون في لامبالاة المتفرجين الذين يدركون نهاية القصة فلا تثير فضولهم . كانوا يتكلمون بلهجة جدية ، وبقناعة تامة مطلقة :

– ثمة ثلة من الجند معسكرة في المدرسة ، وثلة أخرى في المعمل .

– لقد جاء الحاكم .

– حقاً ؟

– لقد رأيته بأمّ عينيّ ، وصل قبل برهة وجيزة .

– لا ريب أنهم طفقوا يرهبوننا ، ألا تصوروا – الجنود والحاكم ...

وأرسل المتكلم بعض الشتائم المرحة ...

وقالت الام في نفسها :

– يا لكم من نفوس طيبة !

لكن الكلمات التي سمعتها ترددت في نفسها ميتة باردة ، فاستحثت خطاها بغيـــة الابتعاد عن هؤلاء القوم ، فلم يصعب عليها تجاوزهم ، لشدة تماهلهم وتكاسلهم في المسير .

وفجأة ، تراجع الموكب الى الخلف وهو يرسل زمجرة خافتـــة متوعدة ، وكأن مقدمته قد اصطدمت بشيء مـــا . وارتعش النشيد قليلاً ، كي يعود فيتصاعد اكثر ارتفاعاً وأسرع نغماً منه قبلاً . ثم عاد الرنين فخبا من جديد ، وسكتت الاصوات الواحد تلو الآخر عن الانشاد ، وارتفعت هتافات متفرقة هنا وهناك تحاول ان تردّ الى النشيد عظمته السابقة ، وان تستمرّ به قدماً :

« انهضوا الى النضال ، يا ايها العمال ، انهضوا انهضوا ،
يا ايها الجياع ، وثوروا ! ... »

ولكن هذا الجهد كان ينقصه الارادة المشتركة ، والايمان المتراص . وكانت الاصوات فيه مشوبة بالقلق وبشيء من الجزع ايضاً .

ولم تعد الام ترى شيئاً ، ولا استطاعت ان تعرف ما أصاب الموكب في صفوفه الامامية ، فراحت تدفع المشاة جانباً ذات اليمين وذات اليسار، وتشقُّ طريقها قدماً الى الامام ؛ فلا تفتأ تصطدم ، في تقدمها ، بقوم يتراجعون ، وقد عبس بعضهم وطأطأوا الرؤوس ، وراح بعضهم الآخر يبتسمون ابتسامة الفشل والهزيمة، وفريق ثالث يصفرون ساخرين هازئين . شرعت تتفرس في وجوههم، وعيناها مليئتان بالاستفهام ، والرجاء ، والدعاء ...

وارتفع صوت بافل يقول :

– يا ايها الرفاق ، ان الجنود أناس مثلنا ، ولن يمسونا بسوء . ولمَ يفعلون ذلك ؟ لاننا ننادي بحقيقة تنطبق على الجميع دون تفريق ؟ انهم يحتاجون اليها مثل حاجتنا ، ولعلهم لم يدركوها بعد . ولكن الزمن الذي ينضمون فيه الى صفوفنا تحت راية الحرية ، بدلاً من ان يقاومونا تحت راية القتل والسرقة ، هذا الزمن ليس ببعيد ... وينبغي لنا ، كي نعجِّل في إدراكهم لهذه الحقيقة ، ان نتابع مسيرنا الى الامام . الى الامام ، ايها الرفاق ، الى الامام .

كان صوت بافل يتردد في ثبات وعزم ، وكلماته ترن حادة واضحة ، ومع ذلك انفرط عقد الحشد . وأخذ الناس ، الواحد تلو الآخر ، يتركون الصفوف ويتجهون الى البيوت او يستندون الى الاسوار . واتخذ الموكب الآن شكل الاسفين وبافل في رأسه . ترفرف الراية الحمراء بتألق فوق رأسه . او لعل الموكب كان يشبه بالأحرى طيراً اسود منشور الجناحين يتهيأ للطيران . وكان بافل يمثل منقار ذلك الطير ...

٢٨

رأت الأم ، في نهاية الشارع ، جـــداراً رمادياً رتيباً مؤلفاً من أناس لا وجوه لهم يسدون المنفذ الى الساحة العامة، ينذُّ عن كتف كل واحد منهم لمعان حربة رقيقة باردة . وكان ذلك السور الصامت العديم الحركة ينفث ريحاً باردة تغمر العمال وترسل في قلب الام قشعريرة عنيفة .

شقت طريقها بين الحشد ساعية الى بلوغ الراية ، والالتحاق بالقـــوم الذين تعرفهم ، والذين اختلطوا بقوم آخرين لا تعرفهم وكأنهم ينتظرون العون منهم، فاذا هي تلتصق برجل أعور ، طويل القامة، حليق الذقن ، التفت نحوها نصف التفاتة ينظر اليها من طرف عينه ، ثم قال :

– ماذا ترين ؟ من أنت ؟

فقالت ، وهي تحسُّ رجفاناً في ركبتها ، وعجز عن ضبط شفتها السفلى :

– اني أم بافل فلاسوف .

فأبانَ الرجل الأعور :

– آه !

هتف بافل :

– ايها الرفاق ، يجب ان نستمر على التقدم الى الامام طوال حياتنا ، وليس هناك اي اتجاهٍ آخر أمامنا .

وأضحى الجو هادئاً متحفزاً ، وارتفعت الراية عالياً في الهواء ، وترنحت لحظة قصيرة ، ثم خفقت فوق رؤوس القوم وهي تنطبق بثبات واستقامة نحو جدار الجنود الرمادي ، فارتجفت الام وأغمضت عينيها وهي ترسل أنيناً عالياً ... ان أربعة أشخاص ليس غير ، هم بافل وأندريه وصموئيلوف ومازين ، قد انفصلوا عن الحشد المتجمهر .

واخترق الهواء صوت مازين الواضح رناناً هادئاً :

« لقد سقتم ضحايا نبيلة . »

فارتفع الجواب ، مثل زفرة عميقة من عدة أصوات خافتة ، وكأن أنين ثقيل :

« في هذا القتال الرهيب ... »

وتقدم الاربعة في خطوات موزونة مع لحن النشيد ...

وتدحرج صوت فيودور مثل شريط لامع ، طافحاً عزماً وهو يعلن في ثبات وقوة :

« لقد أعطيتم كل ما تملكون ... »

فانضمت اليه أصوات رفاقه في البيت التالي :

« في سبيل الحرية ... »

فصاح بعضهم في وقاحة وخبث :

– آه ، انهم ينشدون مرثاة ، أبناء الكلاب هؤلاء .

فهتف صوت غاضب :

– حطموا له حنكه ، هذا اللعين .

ضغطت الام يدها على صدرها وتطلعت حولها . فوجدت الجماهير التي كانت

تغمر الشارع بأسره قبل قليل ، قـــد ثبتت في مراكزها الآن مترددة تراقب الاربعة وهم يتقدمون برايتهم، فلا يلحق بهم إلا بضع عشرات من الناس فقط، يتخلف واحـــد منهم في خطوة ، فكأن بلاط الشارع يلتهب ويحرق نعال أحذيتهم .

« ولسوف يوضع للعنف حد ... »

تنبأ النشيد بذلك على لسان فيدور ، فردّ عليه جوق من الاصوات القوية العنيفة يقول في لهجة وعيد :

« وسينهض الشعب من غفوته ... »

لكن همساً حذراً كان يمتزج بالنشيد :

– ان القائد يتأهب لإصدار أوامره .

وفي اللحظة نفسها ، علا صراخ حاد في المقدمة يأمر :

– خفضوا البنادق .

فخفضت الحراب في موجة واحـــدة واستقبلت الراية بابتسامة فولاذية ماكرة :

– الى الامام سِرْ !

فقال الرجل الاعور ، وهو يدسّ يديه في جيبه ويمضي بخطاً واسعة الى جانب الطريق :

– ها هم قد انطلقوا .

وراحت الام ترقب ما يجري امام عينيها دون ان يرتعش لها جفن .

لقد انتشرت موجة الجنود الرمادية على عرض الشارع كله ، وطفقت تتقدم في حزم بارد ، يلتمع المشط الفضي في مقدمتها . وأهذبت الام، بخطوات سريعة

قليلة ، تقترب من ابنها ، فرأت أندريه يتقدم الى الامــــام منه يحميه بجسده المديد . بيد ان بافل صاح به في حدة وقسوة بالغتين :

– عُدْ الى مكانك ، ايها الرفيق .

كان أندريه يُنشد وقد ألقى برأسه الى الخلف ، ووضع يديه خلف ظهره ، فدفعه بافل بكتفه ، وصاح مرة أخرى :

– عُدْ الى مكانك ، فليس لك الحقّ في ان تفعل هذا . يجب ان تكون الراية في الطليعة ؟



« وسينهض الشعب من غفوته ... »

وصاح ضابط قصير بلهجة الآمر ، وهو يسحب سيفه من غمده :

– تفرّقوا .

كان يسير وهو يرفع قدميه عالياً ، دون ان يثني ركبتيه ، ضارباً الارض بعنف وقسوة بنَعْلي حذائه . ولفت أنظارَ الام لمعانُ هذا الحذاء .

وكان رجل طويل ، أملس الشعر ، رمادي الشعر الكثّ ، يسير الى جانبه ، متأخراً عنه قليلاً ، يرتدي معطفاً رمادياً طويلاً احمر الطوق ، وسروالاً عريضاً يمتد على جانبيه شريط أصفر ؛ كان يتقدم ويداه خلف ظهره ، مثل الاوكراني تماماً ، وعيناه مثبتتان في بافل ، وحاجباه الكثيفان مرتفعان في تقطيبة استياء .

ولم تستطع نظرة الام ان تشمل كل ما تراه عيناها . اما صدرها فقد امتلأ بصيحة عالية تهدّد ، في كل زفير ، ان تفلت منفجرة بكل قوة وعنف ... وكانت تلك الصيحة تضيّق الخناق عليها فتضغط على صدرها بشدة لتردّها وتمنعها من الانطلاق ... وراح الناس يتدافعونها ... فتمايل يمنة ويسرة وهي تتقدم دون تفكير ، بل دون وعي تقريباً ... وأحسّت الحشد يهزل من ورائها دون انقطاع ، فكأنما تلك الموجة الباردة الزاحفة لملاقاته تبعثره وتكنسه .

تقدمت الجماعة ذات الراية الحمراء الى الامام ُقدماً فيما الموجة الصلبة المصنوعة من القوم الرماديين تقترب كذلك باستمرار حتى استطاعت الام رؤية وجهها ، هذا الوجه المشوه الذي تهشم الى شريط وسخ أصفر اللون ينتشر على عرض الشارع كله . تنقّطه هنا وهناك أعين متباينة الالوان . والى الامام منهم كانت سنان الفولاذ الرهيبة تلتمع ، وهي مصوبة نحو صدور المشاة تقطعهم الواحدة في إثر الآخر حتى قبل ان تمسهم ، فتفرّق الجماهير بذلك وتشتتها .

وسمعت الام أناساً يتراكضون خلفها ، وأصواتاً مضطربة تصيح :

– تفرقوا ، ايها الفتيان .

– أهرب ، يا فلاسوف .

– عُدْ ، يا بافل .

وقال فيزوفشيكوف في كآبة :

– أنزل الراية يا بافل ، أعطني إياها وسأخفيها .

وامسكا بالعصا . فاضطربت الراية ومالت الى الخلف قليلاً ...

وزعق بافل :

– اتركها .

فردّ نيقولاي يده الى الخلف وكأن لهيباً محرقاً قد أصابها . ومات النشيد ، وتوقف القوم عن المسير وقد أحاطوا بافل والراية ، بَيْدَ أنه شقّ طريقه من جديد قدُماً . وعلى حين غرة ، ساد صمت مطبق فكأنه وقع من علٍ ولفّ الجميع في سحابة شفافة غير منظورة .

كان ثمة عشرون رجلاً تقريباً – لا أكثر – يحتفّون بالراية ، قد ثبتوا في مراكزهم في عزم وتصميم . وجُذبت الام إليهم يدفعها ما يعمّر قلبها من قلق عارم وتستحثها رغبة غامضة في ان تقول لهم شيئاً ما .

قال الرجل العجوز الطويل ، مشيراً الى الراية :

– ايها الملازم ، خُذْ هذا الشيء منه .

فركض الملازم القصير الى بافل وأمسك بالراية ، زاعقاً :

– أعطني هذه .

فقال بافل بصوت مرتفع :

– إرفع يديك عنها .

واضطربت الراية ، برّاقة ، في الفضاء ؛ وتمايلت ذات اليمين وذات اليسار، ثم عادت فارتفعت مستقيمة من جديد ، بينما قفز الملازم القصير الى الوراء بعنف ثم وقع أرضاً ، وركض نيقولاي امام الام وهو يهزّ قبضته .

صاح الرجل العجوز ، وهو يضرب الارض بقدمه :

— ألقوا القبض عليهم .

فركض عدة جنود الى الامام ، ولوّح أحدهم بعقب بندقية ... فترنحت الراية ، ثم سقطت الى الامام ، واختفت في كتلة الجنود الرمادية .

وهتف بعضهم في مرارة :

— آه !

وأطلقت الأم عويل حيوان جريح ، فجاء صوت بافل الواضح من بين الجنود يردّ عليها :

— الى اللقاء ، يا أماه ، الى اللقاء ، يا حبيبتي .

وانبثقت في خاطر الام فكرتان : انه لما يزل حياً ، وهو يذكرني .

— الى اللقاء ، يا أميمتي .

فتطاولت الأم على رؤوس أصابعها كي تلمحهما مرة أخيرة ، فرأت من فوق رؤوس الجنود وجه أندريه . كان يبتسم وينحني لها .

صاحت :

— آه ، يا عزيزيَّ ... أندريوشا ...

فهتف كلاهما من بين الجنود :

— الى اللقاء ايها الرفاق .

فأجابهما صدى متعدد الموجات ، انطلق من النوافذ ، ومن مكانٍ الى الأعلى منها ، ومن السطوح ذاتها ...

٢٩

دفعها بعضهم في صدرها ، فتبينت من خلال السحابة التي تغشى عينيها وجه الضابط القصير الاحمر المنتفخ كان يقف أمامها ويصيح :

– هيّا تواري ، يا امرأة .

فغمرته بنظراتها، وبصرت بعصا الراية محطمة عند قدميه وقد علقت باحدى نهايتها قطعة من القماش الاحمر ، فانحنت مسرعة وتناولتها . لكن الضابط انتزعها من يدها ورماها جانباً وهو يزمجر ويضرب الارض بقدميه :

– إذهبي ، أقول لك .

فارتفع من بين إنشاد مجلجل :

« انهضوا الى النضال ، يا ايها العمال ، انهضوا »

فترنح كل شيء ، وسبح وارتجف ، وامتلأ الجو بزمجرة متوعدة أشبه بطنين الأشرطة البرقية ، واندفع الضابط هادراً في غضب :

– كفوا عن الانشاد ... ايها الرقيب كرينوف ...

واندفعت الام ، مترنحة ، الى حيث ألقى بقطعة الراية والتقطتها من جديد .

– سُدّ لهم حلوقهم الفاجرة .

وناضلت الأغنية ، وارتعشت ، ثم تقطعت وتلاشت ... وأمسك بعضهم بالأم من كتفها ودار بها ثم راح يدفعها في ظهرها ، قائلاً :

إمضي ، إمضي .

وزعق الضابط :

– هيا ، تفرقوا واتركوا الشارع .

والتقت الام ، على بعد عشر خطوات ، بحشد آخر من الناس . كانوا يرسلون الصياح ، والشتائم ، والصفير ، وهم يعودون أدراجهم عبر الشارع ويختفون في باحات المنازل .

صاح جندي شاب مرسل الشاربين في أذن الام تقريباً ، وهو يدفعها جانباً نحو الرصيف .

– هيا تحركي ، ايتها الشيطانة . . .

سارت الام وهي تعتمد عصا الراية مسترخية الركبتين ، وتتمسك بيدها الأخرى بالأسوار وجدران الدور حتى لا تسقط ارضاً . واستمر الناس يتراجعون الى الامام منها ، والجنود يسيرون الى جانبها والى الوراء منها ، وهم يصيحون دون انقطاع :

– إمضي ، إمضي .

تركت الجنود يتجاوزونها ، ثم توقفت وألقت حواليها نظرة فاحصة . كان أفراد آخرون من الجنود يقفون في صفٍّ واحدٍ في نهاية الشارع يسدون مدخل الساحة الكبيرة المقفرة ، والى الامام كانت الاجساد الرمادية تتقدم ببطء مقتربة من الناس المتقهقرين .

واشتاقت ان تعود على أعقابها ، لكنها شرعت مرة أخرى ، دون وعي منها او ارادة ، تسير قدماً حتى بلغت زقاقاً جانبياً ، ضيقاً خالياً ، فانعطفت فيه .

وقفت فيه مرة أخرى ، وصعَّدت زفرة عميقة ، وأصاخت بسمعها . كانت

همهمة حشد من الناس تبلغ أذنيها ، آتيةً من مكان ما ، هناك ، غير بعيد عنها ...

وانطلقت من جديد ، تتوكأ على العصا دائماً ، منقعة الانفاس هذه المرة ، يرتجف حاجباها ، وتتحرك شفتاها وتضطرب يداها في حركات متناسقة ، بينما كلمات ملتهبة تومض كلمعان البرق خلال ذهنها ، وهي تنمو حجماً باستمرار حتى اندلعت في لهيب رغبة جموع عاتية تطلب البوح بتلك الكلمات ، والهتاف بها عالياً ، على رؤوس الاشهاد .

وانعطف الزقاق الجانبي ، بغتة ، الى اليسار ... وعند الزاوية بصرت الام بجمعٍ غفيرٍ من الناس .

قال بعضهم بصوت مرتفع قوي النبرات :

– المرء لا يتقدم لملاقات صف من الحراب من أجل التسلية وحدها ، ايها الاخوان .

– يا إلهي ! أنظرتم إليهم بالرغم من ذلك ؟ كانت الحراب تتجـــه نحوهم مباشرة . وهم يقفون هناك ، ثابتين كالجبل ، ايها الاخوان ، ولا أثر للخوف في قلوبهم .

– ان بافل فلاسوف بطل مقدام .

– والاوكراني ؟

– يداه وراء ظهره ، وهو يبتسم طوال الوقت ، ذلك الشيطان !

صاحت الام ، وهي تشقُّ طريقها الى وسطهم :

– ايها الاصدقاء .

فتحني الناس ، في احترام ، يوسعون لها الطريق . وضحك أحدهم وقال : أنظروا ، لقد أخذت الراية ، ان الراية بين يديها .

فنبر صوت في جفوة :

ـ صمتاً !

فتحت الام ذراعيها واسعتين ، وراحت تقول :

إسمعوا ، محبـــة بالمسيح ! أنتم جميعاً ايها الناس الطيبون ، أنتم جميعاً ايها الناس الاعزاء ، افتحوا عيونكم جيداً وانظروا دون ذعرٍ الى ما حدث اليوم . ان اولادنا ، فلذات أكبادنا ، قد خرجوا الى العالم باسم العدالة - العدالة لسائر الناس . خرجوا في سبيلهم جميعاً ... وفي سبيل أولادكم الذين لم يولدوا بعد — ولقد حملوا هذا الصليب ، سعياً وراء أيام اكثر إشراقاً . إنهم يريـــدون حياة أخرى - الحياة في الحقيقة والعدالة ، وإنه الخــير العميم للشعب بأسره ما يطلبون .

كان قلبها يتأرث في صدرها ، وحنجرتها ملتهبة جافة . وفي أعماقها كانت كلمات جديدة تولد ، كلمات حب يضمُّ كل شيء في احضانه ويغمر سائر الكائنات ، فتلذع لسانها لذعاً تضطره قسراً الى النطق في حرية وقوة تعبـــير تتضاعفان باستمرار .

واستطاعت ان تراهم ينصتون جميعاً في صمت وهدوء ، وأدركت ان هؤلاء المتجمهرين حولها يفكرون ، فولدت في داخلها رغبة أضحت الآن تعيها بكل وضوح، رغبة تناديها ان تحشّهم وتدفعهم نحو ابنها وأندريه وسائر أولئك الفتيان الذين تركوهم وحدهم وقفلوا راجعين .

استرسلت تقول في قوة وعذوبة ، وهي تتفرس في الوجوه العابسة المنتبهة المحتفة بها :

- ان ابناءنا قد خرجوا قدماً الى العالم يبحثون عن الفرح ويفتشون . وفي سبيل الجميع خرجوا ، وفي سبيل حقيقة المسيح ايضاً . إنهم يسيرون ضد كل شيء يخنقنا به أشرار هذا العالم الكاذبون الجشعون ، ويقيدون أيدينا ويجلدون

ظهورنا بواسطته ... ايها القوم الاعزاء ، ان ابناءنا قد نهضوا في سبيل كل هذا ، في سبيل العالم أجمع ، في سبيل العمال حيثما وجدوا . لا تتركوهم ، لا تنكدوهم، لا تجبروا أبناءكم على الذهاب في الطريق وحيدين منفردين . إرحموا أنفسكم ، وثقوا وآمنوا بقلوب أبنائكم الذين أعطوا الحقيقة مولداً ، هذه الحقيقة التي يضحون بحياتهم في سبيلها بكل طيبة خاطر ... آمنوا بهم ...

وتكسّر صوتها ، وترنحت خائرة القوى تكاد ان يُغمى عليها ، إلا ان بعضهم أسرع يمسك بها ويسندها .

صاح أحدهم بصوت مضطرب منفعل :

– هذا صوت الله يتكلم ، ايها القوم الطيبون ، انه صوت الله فاسمعوا !

وقال آخر في لطف وحنان :

– أنظروا كيف تعذّب نفسها !

فأجاب آخر :

– إنها لا تعذب نفسها ، بل نحن الذين نتعذب . يا لنا من مجانين . لقد حان الوقت كي نفهم هذا .

وصاحت امرأة بصوت مرتفع يرتعش :

– أيها المسيحيون المؤمنون ، ان ولدي ميتيا ... روح طاهرة نقية . ماذا ارتكب من شر ؟ لقد لحق برفاقه ، هم الذين يحبهم . انها تقول الحقيقة ... لماذا يجب ان نتخلى عن ابنائنا ؟ ما هو الخطأ الذي ارتكبوه ؟

طفقت الام ترتجف حين سمعت هذه الكلمات ، وراحت تبكي في هدوء وسكينة ...

قال سيزوف :

– إمضي الى البيت ، يا بيلاجيا نيلوفنا . إذهبي ايتها الام ، لقد كفاك ما لاقيته اليوم .

كان محياه شاحباً ولحيته مشعثة . انتصب فجأة ، وألقى حواليه نظرة صارمة ، ثم قال بلهجة مؤثرة :

إنكم تعرفون جميعاً كيف ُقتل ابني ماتفي في المعمل . ولكنه لو كان حياً، لأرسلته بنفسي وراء هؤلاء الآخرين ، وقلت له بنفسي إذن : إذهب انت الآخر يا ماتفي ، فهذه هي الطريق الحقة الوحيدة ، الطريق الشريفة الوحيدة .

جنح الى الصمت ، فأضبّ الباقون جميعاً وفي سيماهم كآبة ، يعتصرهم شيء جديد جبار لم يعودوا يخافون منه أبداً ... وهزّ سيزوف قبضته في الهواء ، وتابع :

– إنه لشيخ عجوز هذا الذي يخاطبكم ، وأنتم جميعاً تعرفونني . إني اعيش على هذه الارض منذ ثلاثة وخمسين عاماً ، وعمل هنا منذ تسعة وثلاثين . وفي هذا اليوم اعتقلوا ابن أخي مرة أخرى ، وفتى طيب ذكي . لقد كان ، هو الآخر ، يسير في المقدمة الى جانب فلاسوف ، وراء الراية تماماً ...

وتراخى بحركة من يده ، ثم أمسك بيد الام وأضاف :

– ان ما قالت هذه المرأة هو الحقيقة بعينها. يريد أبناؤنا ان يعيشوا شرفاء، بحسب العقل والمنطق . ومع ذلك فقد تخلينا عنهم . لقد هربنا ، هذا امر لا يمكن إنكاره . تعالي ، يا بيلاجيا نيلوفنا .

فأذاعت ، وهي تنظر حولها بعينين محمرتين من البكاء :

– أيها القوم الطيبون ، ان الحياة لأبنائنا ، والأرض لهم ايضاً .

فقال سيزوف ، وهو يناولها ما تبقى من الراية :

– تعالي ، يا بيلاجيا نيلوفنا . خذي ، هذه عصاك .

وأخذ الناس يراقبون الام في ألم واحترام وهم يشبّعونها بدويٍّ من الملاحظات المشفقة . وشقّ سيزوف الطريق أمامها في سكون ، والناس يتنحون لها جانباً دون ان ينطقوا بكلمة واحدة ... ثم لحقوا بها ، تجذبهم قوة غامضة على طوال الشارع ، وهم يتبادلون اثناء ذلك بعض الملاحظات بأصوات خافتة هامسة .

وعندما بلغوا بوابة بيتها استدارت اليهم ، وانحنت وهي تعتمد على العصا ، ثم قالت بنغمة رقيقة تطفح امتناناً :

– شكراً لكم .

واذ تذكرت مرة اخرى تلك الفكرة الجديدة ، الفكرة الجديدة التي خيل اليها أنها ولدت في أعماق قلبها ، أضافت :

– ما وُجد الرب يسوع لو لم يقدّم البشر حياتهم في سبيل مجده .

فنظر اليها الحشد في صمت وهدوء ...

انحنت مرة اخرى لهم ، ثم دلفت الى دارها ، فخفض سيزوف رأسه ولحق بها ...

وبقي الناس حيناً عند البوابة يتحدثون .

ثم انصرفوا في خطاً بطيئة متثاقلة ...

القسم الثاني

١

انقضت بقية النهار في ضباب كثيف من الذكريات ، وفي عناء مثقل أطبق على روحها وجسدها جميعاً . كانت بقعة رمادية تمثّل الضابط القصير تتراقص أمام عينها ، والى جانبها يُضيء محيا بافـــل البرونزي ، وتبسم عينا أندريه الضاحكتان .

هامت على وجهها في أرجاء الغرفة ، تجلس الى النافذة تارة تتطلع الى الشارع ، ثم تنهض من جديد تتيه في الغرفة معقودة الحاجبين ، تجفل لدى أقل ضجة وهي تتطلع هنا وهناك على غير هدى ، او تبحث شاردة الذهن عن شيء مـــا . وأقبلت على الماء تعبُّ منه ، فلا يروي ظمأها ، ولا يُطفىء ذلك الأتون من الأذية واللهفة المُستعر في صدرها . لقد فُلق اليوم الى شطرين ، كان الشطر الاول منها يملك معنى ومحتوى ، ولكن كل المعنى قد تبخر من الشطر الثاني وتلاشى ، فاذا هي بفراغ يائس مؤلم يفغر الآن فاه امامها ، ويبعث فيها هـــذا السؤال صارخاً دون ان يتلقى جواباً :

— ما العمل الآن ؟ . . .

وجـــاءت كوزونوفا ، فلوّحت بيديها واكثرت من الصراخ ، وبكت واستغرقت في حماسة عظيمة ، وضربت الارض بقدميها ، وتوعدت شخصاً ما ، وتعهدت بأمور عديدة ، وقدمت الاقتراحات تترى ، غير أن شيئاً من كل هذا لم يحرّك في الام ساكناً .

صاحت البائعة بصوتها الحاد :

– نعم ، لقد وخزهم ذلك ، الناس . أخيراً ، فهبوا جميعاً . ألم ترى ذلك ؟ لقد نهض المعمل غاضباً ، المعمل كله ...

فقالت الام في هدوء ، وهي تهزّ رأسها :

– بلى .

كانت عيناها معلقتين بكل ما أصبح جزءاً من الماضي ، بسائر الأمور التي ذهبت مع بافل وأندريه وخلفتها وراءها . ولم تستطع الى البكاء سبيلاً ، فقلبها قد انقبض واعتُصِرَ وجفّ تماماً . وكذلك يبست شفتاها جافتين ، ونأت الرطوبة عن فمها ، وراحت يداها ترتجفان ، وقشعريرات صغيرة تتلاحق على طول ظهرها .

وجاء الدرك ذلك المساء ، فاستقبلتهم دون دهشة او جزع . دخلوا المنزل في جلبة عظيمة ، تبدو عليهم علائم الغبطة والرضى ، ثم كشّر الضابط الاصفر الوجه عن أسنانه مبتسماً وعالنها :

– كيف حالك ؟ هذه المرة الثالثة التي نلتقي فيها ، ان لم أكُ مخطئاً . أليس كذلك ؟

فلزمت الصمت ، واكتفت بإمرار لسانها الجاف على شفتيها .

أكثر الضابط من الحديث في غطرسة وعجرفة لا حدود لها . وأدركتْ الام ان الحديث يروقه فيبتهج بسماع ما تنطق به شفتاه ، فلم تزعجها كلماته على الاطلاق ، لا بل لم تكن تبلغ منها سمعاً ، أللهم إلا عندما قال :

– إنك ، أنت ايضاً ، مسؤولة يا أم ؛ لأنك لم تحسني تلقين ابنك احترام الواجب عليه تجاه الله والقيصر .

فأجابته في جفوة ، من حيث كانت تقف قرب الباب :

– إن أبنائنا هم قضاتنا ، ولسوف يدينوننا كما نستحق لاننا انفضضنا من حولهم وهم يسلكون مثل هذه الدرب العسيرة .

فصاح الضابط :

– ماذا ؟ تكلمي بصوت أعلى .

فأجابت الام ، وهي تتنهد :

– قلت ان ابنائنا هم قضاتنا .

فغمغم شيئاً في سرعة وغضب ، لكن إعصار كلماته أخطأ الام ولم ينل منها مأرباً . . .

واستُدعيت ماريا كورزونوفا لتكن شاهدة على التفتيش ، فوقفت الى جانب الام دون ان تنظر اليها . كانت تنحني كثيراً ، كلما توجه الضابط اليها بسؤال ما ، وتردد على الدوام ذات الجواب بذات اللهجة الرتيبة :

– لا أدري يا صاحب السعادة ، فأنا امرأة جاهلة اكسب خبزي بتجارتي ، وحمقاء حتى لا اعرف شيئاً على الاطلاق .

فيصيح الضابط بها ، وهو يفتل شاربه :

– حسناً ، امسكي لسانك عن الكلام .

فتنحني مرة اخرى ، حتى اذا أدار ظهره ، لوت له أنفها وهمست في أذن الام :

– هذه من أجله .

وعندما أمرتْ ان تتحرى بيلاجيا ، راحت تطرف بعينيها ، وتشخص في ذهول الى الضابط وهي تقول بصوت مذعور :

– أواه ! ولكنني لا اعلم كيف أقوم بمثل هذا العمل ، يا صاحب السعادة .

فضرب الارض بقدمــه وصرخ في وجهها ، فأسبلت ماريا جفنيها وقالت للام بصوت خافت :

– حسناً إذن . الافضل ان تفكي أزرارك ، يا بيلاجيا نيلوفنا .

واصطبغ وجهها باللون القرمزي، وهي تتحسس بيديها ملابس الام وتهمس:

– تفو . . . يا لهم من كلاب اوغاد .

فصاح الضابط ، وهــو يختلس النظر الى الزاوية حيث كانت تنجز المهمة الموكلة اليها :

– ماذا تقولين ؟

فتمتمت ماريا بصوت مذعور :

– تلك أمور نسائية ، يا صاحب السعادة .

وأخيراً أمر الام ان توقّـع الاوراق، فخطت يدها غير المجرّبة هذه الكلمات بأحرف مطبعية عريضة : بيلاجيا نيلوفنا فلاسوف ، أرملة رجل عامل .

فزمجر الضابط مكشراً :

ما هذا الذي كتبتِ هنا ؟ لماذا كتبتِ هذا ؟

ثم أضاف ، وهو يرسل ضحكة ازدراء قصيرة :

– يا لكم من برابرة !

وذهبوا ، فبقيت الام قرب النافذة ، وذراعاها متصالبتان فوق صدرها ، تشخص في المدى البعيد أمامها دون ان تطرف عيناها، ودون ان ترى شيئاً على الاطلاق ، وقد ارتفع حاجباها ، وانضمت شفتاها ، وانطبق فكاها بعزم وقوة حتى أحسّت سريعاً الألم ينتابها . وجفّ المصباح الزيتي ، فأخذت الفتيلة تنوص ، والشعلة ترتجف وتتضاءل ، فأطفأته الام وبقيت في الظلمة الحالكة .

كان صدرها يطفح بشوق لا هدف له ، يشدّد الخناق عليها حتى يمنع قلبها عن الخفقان . ولبثت واقفة على قدميها في سكون ، لا تبدي حراكاً ، حتى آلمتها عيناها وقدماها معاً . عندئذ سمعت ماريا تردُّ النافذة وتناديها بصوت ثمل :

– أنت نائمة ، يا بيلاجيا ? يا لك شهيدة منكرة الحظ ... هيا اذهبي الى فراشك .

فرقدت الام دون ان تخلع ثيابها ، وما أسرع ان غرقت في نوم عميق غمرها مثل مياه بركة واسعة .



... وذهبوا ، فبقيت الام قرب النافذة .

ورأت ، فيما يرى النائم ، أنها تجتاز هضبة ، رملية صفراء تقع وراء المستنقعات ، على الطريق المؤدية الى المدينة . وكان بافل يقف على شفا جرف يستخرج بعضُ العمال الرمال منه ، وهو ينشد بصوت اندريه الهادىء الموسيقي :

« انهضوا الى النضال يا ايها العمال ، انهضوا ... »

أخذت تمرُّ من أمام الهضبة ، تتطلع الى ابنها وهي تضغط جبينها بإحدى يديها . وكانت صورته تتجلى بوضوح وجلاء تامين على صفحة السماء الزرقاء ، وهي لا تجسر على الدنوّ منه خجلاً ، لانها كانت حاملاً ، كما انها تحمل في ذات الوقت طفلاً بين ذراعيها . وتابعت المسير حتى بلغت حقلاً يلعب فيه بعض الاولاد بطابة كبيرة . كانوا كثرة ، وكانت الطابة حمراء اللون ، فراح الطفل بين ذراعيها يتطاول طلباً للكرة وقد أجهش باكياً فأعطته ثديها وعادت أدراجها .

لكن ثمة جنوداً كانوا يحتلون الهضبة هذه المرة ، وقد صوبوا حرابهم نحوها ، فأسرعت تعدو نحو كنيسة تنهض في وسط احدى الحقول ، كنيسة بيضاء ، بيضاء ، أثرية ، ترتفع عالياً جداً في الجو وتبدو كأنها شُيِّدت من السحب وحدها . وكان الناس يقيمون فيها مأتماً ، والنعش كبيراً جداً ، أسود اللون ، مغلقاً باحكام تام . وكان الكاهن والشماس يتجولان في أرجاء الكنيسة ، مرتديين ثياباً بيضاء ، وهما يرتلان :

هللويا ، المسيح قام ...

وانحنى الشماس مبتسماً لها وهو يهز المبخرة في يده . كان احمر الشعر برّاقه ، ذا محيا جميل أشبه ما يكون بوجه صموئيلوف . وكانت اشعة عريضة من نور الشمس تسقط كأوشحة بيضاء من علٍ حيث الابراج تضيع في السماء .

وفي كلا المنصّتين بعض الاطفال يرتلون :

هللويا ، المسيح قام ...

وصاح الكاهن فجأة ، وهو يقف في وسط الكنيسة :

– ألقوا القبض عليهم .

واختفت ثيابه البيضاء ، وبدا شارب أشيب كثيف فوق شفته العليا ، فأطلق الجميع سيقانهم للريح ، بما فيهم الشماس الذي طرح المبخرة جانباً وولى الأدبار هارباً وقد أمسك رأسه بكلتا يديه على طريقة الاوكراني . وألقت الام طفلها عند اقدام القوم الهاربين ، لكنهم تجنبوه وهم يختلسون النظر بأعين مذعورة الى جسده العاري ؛ فيما جثت هي على ركبتيها وراحت تصيح بهم :

– لا تتركوا الطفل ، خذوه معكم .

ورتل الاوكراني وهو يبتسم ، مخفياً يديه وراء ظهره :

هللويا ، المسيح قام ...

فانحنت والتقطت الطفل ووضعته في عربة محملة بألواح من خشب ، يسير فيزوفشيكوف بتماهل الى جانبها وهو يضحك ويقول :

– وهكذا فقد أعطوني عملاً ثقيلاً ...

كانت الطرقات وسخة موحلة ، ومن نوافذ البيوت يطلُّ بعض الناس وهم يصيحون ، ويصفّرون ، ويلوّحون بأيديهم . وكان الطقس صافياً ، والشمس تشع ببهاء ، وليس من أثر للظل في اي مكان .

صاح الاوكراني :

– رتلي ، يا أميمتي ! هكذا هي الحياة .

وانطلق يرتل ، فيعلو صوته الرنان على سائر الاصداء . وسارت الام تتعقب خطواته . فتعثرت على حين غرة ، وسقطت في هاوية سحيقة لا قرار لها هبَّ فراغها يتجه لملاقاتها وهو يزمجر مرسلاً صفيراً حاداً مرعباً ...

واستيقظت والعرق البارد يغمرها ، فكأن يداً ثقيلة قاسية تقبض على قلبها، وتتسلى باعتصاره في بطء وتماهل . وكانت صفارة المعمل تدعو العمال في عنف وعناد ، فعرفت الام في جؤارها النداء الثاني المعتاد . وكانت الكتب مبعثرة على أرض الغرفة ، والفوضى منتشرة في أرجائها ، والبلاط يحمل انطباعات أحذية الدرك الموحلة .

نهضت ، وشرعت ترتب الغرفة دون ان تعبأ بغسل وجهها او تـــلاوة صلواتها . ووقعت عيناها في المطبخ على العصا ، وقطعة القماش الاحمر ما برحت عالقة بها ، فالتقطتها وهمَّت بإلقائها تحت الموقد ، ولكنها رجعت عن ذلك بعد قليل من التفكير ، وانتزعت منها وهي تتنهد بقايا القماش وطوتها وخبأتها في جيبها، وأخيراً كسرت العصا على ركبتها وطوّحت بها تحت المدفأة . ثم غسلت النوافذ والارض بالماء البارد ، وحشّت النار في السماور، وراحت ترتدي ثيابها . وعندما فرغت من ذلك جلست في زاوية المطبخ تواجه السؤال من جديد :

— وما العمل الآن ؟

وإذ تذكرت أنها لم تتلُ بعد صلوات الصباح، نهضت واقتربت من الايقونات، واذا هي تجلس من جديد بعد ان وقفت تجاهها بضع ثوان ... لقد كان قلبها فارغاً .

كان سكون غريب حقاً يجثم في كل مكان ، فكأن الناس الذين كانوا البارحة يزعقون بكل ذينك العنف والقوة في الشوارع ، قد اختبأوا اليـــوم في بيوتهم يفكرون بهدوء في حوادث الامس غير المعهودة .

وفجأة ، تذكرت مشهداً رأته مرة في ايام صباها ... كان في الحديقة القديمة الملحقة بالدار التي يملكها آل زوسايلوف حوض ماء كبير يغمره النيلوفر من سائر جهاته . ولقد لاحظت ذات يوم خريفي قاتم ، وهي تدَلدِلُ الى جانب ذلك الحوض ، قارباً يتهادى في وسطه تماماً ، ويكاد ألا يتحرك من مكانه خطوة .

وكان الحوض أسود هادئاً ، والقارب يبدو كأنه قد التصق بالمياه السود بحليتها الكئيبة المؤلفة من الاوراق الصفر . كانت رؤية هذا القارب الوحيد المجرّد عن المجاذيف ، الخالي من كل كائن حي ، المرتمي هناك دون حراك فوق منبسط المياه الأسوانة بين الاوراق الميتة ، يبعث في النفس حزناً عميقاً غامضاً مجهول المنشأ والسبب . ولقد وقفت بيلاجيا طويلاً عند حافة الحوض ، تتساءل من عساه دفع بالقارب الى وسط المياه ، وما هي بغيته من وراء ذلك . وفي تلك العشية بلغها ان زوجة وكيل القصر ، وهي امرأة صغيرة ذات شعر أسود متمرد مشعث ابداً ، تمشي الأزفَى دائماً في اضطراب ، قد أغرقت نفسها في الحوض ذلك الصباح .

ومرّت الام بيدها على جبينها وأفكارها تسبح مرتعشة بين انطباعات الامس المنصرم . غمرتها هذه الانطباعات واجتاحتها ، فقبعت مدة طويلة تحت تأثيرها وعيناها شاخصتان أمامها الى كأس الشاي البارد ، بينما راحت تنمو في صدرها الرغبة في رؤية شخصٍ حكيمٍ بسيطٍ تتوجه اليه بالعديد من الاسئلة فيجيب عليها جميعاً .

وزارها نيقولاي إيفانوفيتش بعد الغداء ، وكأنه يردّ على لهفتها وحنينها ، ويحقق أمنيتها ومطالبها ، ومع ذلك فقد امتلكها الجزع والقلق لدن رؤيته ، فأسرعت تقول بصوت خافت دون ان ترد تحيته :

– فيم مجيئك ؟ ذلك عمل أحمق . سيقبضون عليك انت الآخر بكل تأكيد اذا ما شاهدوك هنا .

فشدّ على يدها بقوة وحرارة ، وأصلح من وضع نظارتيه ، ثم انحنى عليها حتى صاقب وجهه وجهها وقال موضحاً ، والكلمات تنسال من فمه مسرعة كعادته في الحديث :

– لقد اتفقنا ، بافل وأندريه وأنا ، ان آخذك الى المدينة مباشرة إذا ما ألقى القبض عليها .

كان صوته لطيفاً ، يطفح اهتماماً براحتها ومصلحتها :

– هل تحرّوا البيت ؟

فهتفت :

– نعم ، لقد نبشوا كل شيء وتحروني انا ايضاً دون خجل او وجدان .

فسأل نيقولاي ، وهو يهزّ كتفيه :

– ولمَ يخجلون ؟

ثم انهمر يشرح لها السبب في ضرورة انتقالها الى المدينة، فأنصتت الى صوته الرقيق الودود ، وابتسامة ضئيلة تتيه على شفتيها . ولم تدرك من حججه شيئاً ، غير انها دهشت لتلك الثقة وذلك الايمان الحنونـــين اللذين بعثهما في نفسها . قالت :

– ان كانت تلك مشيئة باشا ، وان كنت لا أسبب لك اي إزعاج ...

فقاطعها قائلاً :

– لا تقلقي ابداً ولا تهتمي بهذا ، فأنا أعيش وحيداً ، وليس من يزورني سوى أختي من وقت لآخر .

فقالت :

– لست أريد التهام خبزك مقابل لا شيء .

فأجاب :

– في وسعنا إيجاد عمل لك ، اذا رغبت في ذلك .

كانت فكرة العمل عندها مرتبطة بصورة لا تنفصم عن ابنها وأندريه وبقية رفاقها ، فطفقت من نيقولاي اكثر من ذي قبل واستعلمت :

– أتستطيع ذلك حقاً ؟

– ليس في منزلي كثير من العمل ما دمت أعزب ...

فهمست بصوتٍ خافت :

– لم أكن أعني هذا النوع من العمل ...

وأرسلت زفرة حرّى ، متألمة لانه لم يفهمها ، فابتسم بعينيه القصيرتي الرؤية وقال متألماً :

– اذا ما استطعت ، يوم ترين بافل ، ان تعرفي منه عنوان أولئك الفلاحين الذين طلبوا منا إصدار جريدة لهم ...

فصاحت في بهجة :

– إني أعرفهم ، ولسوف أجدهم وأفعل كل ما تريدون مني . ولن يرتاب أحد فقط في أني أزوّدهم بالمطبوعات غير المشروعة . بارك الله فيك ، أفلم أحمل المناشير الى قلب المعمل ؟

وامتلكتها بغتة رغبة عنيفة في التطواف في أرجاء البلاد ، تعبر الغابات وتجوب القرى ، وعلى ظهرها خرج ، وفي يدها عصا . قالت :

– أرجوك ان توكل إليّ هذه المهمة ، يا صديقي العزيز . سأمضي الى سائر الاماكن . لا تخف من أجلي ، فسأجد طريقي في سائر الولايات ، وسأكون صيفاً وشتاءً – حتى الممات – حاجّةً تضرب في طول الآفاق وعرضها حباً بالحقيقة . أهو نصيب سيىء بالنسبة إليّ ؟

واعتراها الغمُّ إذ تصورت نفسها هائمة على وجهها شريدة دون مأوى ، تستجدي الناس باسم المسيح تحت نوافذ الاكواخ في القرى النائية .

أخذ نيقولاي بيدها في لطف ، وربت عليها براحته الدافئة ، ثم نظر الى ساعته وقال :

– سنتحدث عن هذا فيما بعد . أنت تكلـّفين نفسك القيام بعمل خطر ... فكري في ذلك جيداً ...

فصاحت :

– يا صديقي الطيب، ما جدوى التفكير ؟ إذا كان أبناؤنا، فلذات اكبادنا، يضحـّون بحريتهم وحياتهم ، ويموتون دونما تفكير بأنفسهم مطلقاً ، فماذا يُنتظر مني إذن ، أنا الام ؟ وأي شيء لا أستطيع القيام به ؟

فعـــلا الشحوب وجه نيقولاي ، وقال بصوت خفيض متفرساً في وجهها بانتباه حنون :

– إنها المرة الاولى ، لو تعلمين ، أسمع فيها مثل هذه الكلمات .

فاستفسرت ، وهي تهزّ رأسها في أسىً ، وتلوّح بيديها في حركة عاجزة :

– ماذا أستطيع ان أقول ؟ لو كانت لديَّ الكلمات فقط كي أتحدث عمـــا يخفق في قلبي الذي أضمه بين أحشائي ...

وهبَّت على قدميها ، ترفعها قـــوة عاتية تضجُّ في صدرها ، وتجعل رأسها يدوّم في تيار من الكلمات الثائرة :

– إذن لبكى الكثيرون منهم عندئذ ... حتى اكثرهم ضعة وصفاقة وشراً.

ونهض نيقولاي ايضاً ونظر الى الساعة مرة أخرى ...

– إذن فقد اتفقنا ، وستنتقلين الى بيتي في المدينة .

فأومأت بالايجاب .

وأضاف نيقولاي في لطف :

– متى ؟ في أسرع وقت ممكن . سأظل قلقاً من أجلك حتى تمثـــلي في داري .

فنظرت اليه في دهشة وذهول : من هي بالنسبة اليه ؟ ههنا يقف رجل في معطف أسود ، مطأطأ الرأس ، منحنياً ، قصير النظر ، يبتسم في حياء ... ان مظهره ليناقض طبيعته .

سأل ، وهو يغضّ طرفه :

– ألديك مال ؟

– كلا ! ...

فأسرع يدسّ يده في جيبه ، ويتناول منها حافظة نقوده ، ثم يدفع اليها يده ببعض النقود . قال :

– اليك هذا . أرجوك ان تقبليه .

فابتسمت الام رغماً عنها ، وقالت وهي تهزّ رأسها :

– ان كل شيء فيكم يختلف عنه في الآخرين . وحتى المال يبدو عديم القيمة بالنسبة إليكم . بعض الناس يبيعون حتى أرواحهم كي يحصلوا عليه ؛ اما انتم، فكأنه لا شيء عندكم. ولكأنكم لا تحتفظون به إلا لمساعدة الآخرين فقط .

فقهقه نيقولاي في عذوبة :

– ان المال لحاجة رديئة مقلقة ، أخذه مزعج كثيراً ، وكذلك إعطاؤه .

وأمسك بيدها ، وضغط عليها بشدة ، ثم عاد يقول :

– إنتقلي في أسرع وقت ممكن .

ثم خرج في هدوء كعادته على الدوام .

وبينا هي تشيّعه ، راحت تفكر :

– يا له من رجل طيب ، ولكنه لم يرثِ لي .

ولم تستطع ان تجزم ان كان ذلك قد أساء اليها ، أم انه أدهشها فقط .

٢

انتقلت الى بيته في اليوم الرابع لزيارته . وعندما اجتازت العربة التي تقلّها مع حقيبتها الضاحية وبلغت الحقول الواقعة ما وراءها ، استدارت الام تلقي نظرة أخيرة الى الوراء منها ، فأدركت بغتة انها تغادر الى الابد ذلك المكان حيث قضت اكثر مراحل حياتها صعوبة وظلاماً ، وبدأت فيه مرحلة اخرى طافحـــة بأفراح وأتراح جديدة شرعت تلتهم الايام سريعاً حتى لا يُشعر بمرورها .

كان المصنع ، بمداخنه المتعالية في الفضاء، يستلقي على التربة المسودة بالهباب والدخان ، أشبه بعنكبوت ضخم الجثة ، أحمر اللون قانيه . ومن حوله تتأصص بيوت العمال الوحيدة الطبقة ، متراكمة بعضها فوق بعض ، غبراء اللون ، قزمة الجثة ، تحتشد على شفا المستنقع تماماً وهي تتراشق النظر ، من خلال نوافذها الصغيرة الكئيبة ، بصورة تبعث على الشفقة والرثاء . والى الأعلى منها كانت ترتفع الكنيسة ، حمراء مسودة كالمصنع ، لكن ناقوسها تنخفض عن مداخنه فلا تستطيع ان تطاولها .

وحلّت الام باقـــة قميصها اذ أحسته يُضايقها ويُعيق تنفسها ، وراحت تطلق الزفرات تترى في غم وألم كثيرين .

صاح الحوذي ، وهو يهزّ أعنة الحصان :

– هيا .

كان رجلاً صغيراً ، مقوّس الساقين ، غامض السن ، ذا شعر قليل باهت اللون نما على رأسه ووجهه دون ترتيب ، وعينين غاض اللون منهما تماماً ، يسير الى جانب العربة مترنحاً ، غير آبه بوجهها فيما يبدو او مبالٍ بهدف الرحلة كلها .

— هيا !

كان يزعق بهذه الكلمة ، بين الفينة والفينة ، بصوت عديم اللون ، وهو ينقل رفساً ، بصورة تبعث على الضحك والسخرية ، ساقيه المعوجتين بحذائيهما الثقيلين المغمورين بالاوحال. وحملقت الام في ما حولها... كانت الحقول فارغة، مثل فراغ روحها تماماً .

وكان الحصان يهزّ رأسه بصورة رتيبة ، وهو يحرث بحوافره الرمل العميق المستدفىء بحرارة الشمس ؛ والرمال ترسل حفيفاً خشناً ؛ والعربة الكسيحة ترسل صريراً حاداً ، فتتعلق هذه الاصداء بالفضاء وراءها ممتزجة بالغبار المثار بعجلاتها ...

كان نيقولاي إيفانوفيتش في منزل هادىء في ضاحية المدينة ، وقد استقرّ في شقة صغيرة خضراء اللون في دارةٍ ذات طابقين تكاد ان تتداعى لقدمها ... وكانت حديقة صغيرة تقوم أمام هذه الدار ، بحيث كانت أغصان الليلك والأكاسيا ، والاوراق الفضية لأشجار فتية من الحور ، تُطلّ من خلال نوافذ غرف الشقة الثلاث . وكان كل شيء في الداخل نظيفاً ساكناً ، وظلال عذبة تلقي على الارض رسوماً مرتجفة ، ورفوف الكتب تصطف على طول الجدران تحت صور اشخاص تطفح نظراتهم برزانة وجدٍّ عظيمين .

قاد نيقولاي الام الى غرفة صغيرة تشرف إحدى نافذتيها على الحديقة ، وتكشف الاخرى عن فناء تطاول فيه عشب غزير ، وقد امتلأت جدران هذه الغرفة برفوف الكتب ايضاً ، ثم قال :

– هل تكونين مرتاحة ههنا ؟

فهمهمت :

– إني أفضّل الاقامة في المطبخ ، فهو جميل ، رائع ، ونظيف ...

وتراءى لديها ان كلماتها ألقت الذعر في قلبه ، حتى اذا رضخت اخـــيراً لجهوده العنيدة في إقناعها في العدول عن رأيها في العيش في المطبخ ، عاد التألق في الحال يُبرق في وجهه .

كانت الغرف الثلاث مليئة بجوٍّ خاص . ان المرء ليتنفس بسهولة وسرور ههنا ، ولكنه يتردد في الكلام بصوت مرتفع ، خوفـــاً ان يعكر صفو التأمل الخاشع الذي يستغرق فيه أولئك القوم الشاخصون اليه من أعلى الجدران بكل ذلك الانتباه المركز .

قالت الام ، وهي تتحسس التراب في أحواض الورد على النوافذ :

– يجب إرواء هذه النباتات .

فقال صاحب الورد بلهجة المذنب :

– أواه ! نعم . إني مغرم بها كثيراً . إنما لا أجد الوقت ، كما ترين ، للاعتناء بها ...

ولاحظت الام ، وهي تراقبه ، انه يسير في حذر وارتباك ، حتى في شقته الانيقة المستوفية لسائر اسباب الراحة ، فكأن كل ما يكتنفه غريب عنه . وكان يدنو بوجهه من سائر الاشياء المختلفة في الغرفة حتى يلاصقها ، وهو يصلح من وضع نظارتيه بأصابع يده اليمنى النحيلة ، وينظر شزراً ، وفي تسائل أخرس ، الى كل ما يسترعي انتباهه . وأحياناً كان يأخذ الشيء بين يديه ، ويرفعه حتى يلامس وجهه ، ويروح يتحسسه بعينيه بكل عناية . وشخص للام انه ، مثلها ، قد دخل الشقة للمرة الاولى ، وان كل شيء بالنسبة اليه ، كما هو بالنسبة اليها ، جديد غير مألوف ، الامر الذي طمأنها سريعاً ، وأراق في فؤادها الراحة والحرية

في بيتها الجديد . وراحت تخبُّ في اعقاب نيقولاي ، وهي تلاحظ أمكنة الاشياء ومواضعها ، وتسأله عن نظام حياته فيجيبها بلهجة المذنب الذي يعلم أنه لا يتصرف كما يجدر به ان يفعل ، ولكنه يدرك مع ذلك انه لا يستطيع الى غير ذلك سبيلاً .

وسقت الورد ، ورتبت أوراق الموسيقى المبعثرة على البيان ، ثم قالت ، ملقية نظرة سريعة على السماور :

– انه في حاجة الى تنظيف .

فمرَّ بأصابعه على المعدن الوسخ ، ثم رفعه الى انفه يتفحصه . فلم تستطع الام إلا ان تبتسم في عطف وإشفاق .

ووقتما سعت الى فراشها تلك الليلة ، وطفقت تستعرض في ذاكرتها أحداث ذلك النهار ، رفعت رأسها عن الوسادة ، وراحت تجيل النظر فيما حولها في إنكار وارتياب . كانت تقضي الليل تحت سقف غريب للمرة الاولى في حياتها ، ومع ذلك فهي لا تحسُّ أدنى ضيق او قلق . وفكرت بنيقولاي في عطف وامتنان ، وقد امتلأت رغبة في ان تيسّر عليه الحياة ، وتُبدي له من ضروب الحنان ما يُضفي على وجود الدفء والراحة . ولقد تأثرت حتى اعماق قلبها من ارتباك مضيفها ، وعجزه المضحك ، وبعده عن مجرى حياة الناس المألوف ، وأخيراً من ذلك التعبير الصبياني في عينيه الصافيتين . ثم رجع بها فكرها الى فتاها ، فراحت حوادث اول ايار تتلاحق مرة اخرى امام عينيها ، ولكنها ملحقة بأصداء ، جديدة ، ومجنَّحة بمعنى جديد . ان ألم ذلك اليوم من نوع خاص ، مثله في ذلك مثل اليوم نفسه : انه لا يحني الهامة حتى الارض كما تفعل لكمة عنيفة يدور الرأس لها ، بل يحزُّ في القلب ويخزه بآلاف الابر فيثير فيه غضباً هادئاً تنتصب به الهامة المنحنية وتتقيم .

ان ابناءنا قد خرجوا قدماً الى العالم .

راحت تفكر في ذلك ، منصتة الى الاصداء غير المألوفة التي تبعثها المدينة ليلاً فتتسرب مع حفيف الاوراق في الحديقة من خلال النافذة المفتوحة . كانت تلك الاصداء تأتي من بعيد جداً ، متعبة باهتة ، ثم تموت برفق وهدوء داخل الغرفة .

وفي بكور الغداة ، نظـّفت السماور ... وأرّجت النار فيه ... وهيأت المائدة دونما إثارة أدنى ضوضاء ... ثم قعدت الى المطبخ تنتظر يقظة نيقولاي . وأخيراً ظهر هذا الاخير وهو يسعل ، ممسكاً بنظارتيه في يده الواحـــدة ، وبقميصه في يده الثانية . وبعد ان تبادلا تحية الصباح ، حملت السماور الى الغرفة المجاورة ، بينما راح نيقولاي يتمسّح بالماء وهو يصبّه رذاذاً على الارض ويُفلت من يده الصابون او فرشاة الاسنان ، فيدمـــدم متأففاً من نفسه ساخطاً من خرافته .

قال لها اثناء الافطار :

— ان عمـــلي في إدارة الولاية مزعج للغاية ، إني أراقب فلاحينا وهم يُفلسون ...

ثم أضاف ، وعلى شفتيه ابتسامة مذنبة :

— ان نقص التغذية والجوع المزمن يقودان فلاحينا الى القبر في سن مبكرة ، وأولادهم يولدون ضعفاء ثم يموتون كالذباب في الخريف . اننـــا نعرف هذا ، ونعرف أسبابه ايضاً ، لا بل نتناول أجوراً كي نراقب تلك العملية ، وهذا كل ما نفعل في الحقيقة ...

فسألته :

— أأنت طالب ؟

— كلا ، بل معلم مدرسة . ان أبي مدير معمل في فياتسكا ، أما انا فقـــد احترفت مهنة التدريس . ولقـــد رحت أعير الفلاحين في القرية كتباً ، الامر

الذي ألقوا بي في السجن من اجله . وبعد ذلك عملت مستخدماً في إحدى المكتبات ، ولكنهم أرسلوني الى السجن مرة أخرى بسبب طيشي وعدم انتباهي ، ثم نفيت الى آركانجل . وهناك ايضاً تخاصمت مع الحاكم ، فأقصاني الى قرية صغيرة على شاطىء البحر الابيض حيث عشت طوال خمس سنوات ...

كان صوته يسبح بعذوبة وتناسق في الغرفة النيّرة، المغمورة بأشعة الشمس . ولقد سمعت الام حتى ذلك الحين كثيراً من أمثال هـذه القصة ، ولكنها لم



نيقولاي

تستطع ابداً ان تفهم سبباً لهدوء أولئك الذين يروونها ، فكأنهم يتحدثون عن أشياء محتومة لا سبيل الى الفرار منها .

قال :

– ستأتي أختي هذا اليوم .

– أهي متزوجة ؟

– إنها أرملة . لقد نفي زوجها الى سيبيريا ، ولكنه هرب منها ، ثم مات قبل سنتين في أوروبا بداء السل .

– أهي أصغر منك سناً ؟

فأجاب :

– بل تكبرني بست سنوات ، وانا مدين لها بالشيء الكثير . انتظري حتى تسمعي عزفها على البيان ، هذا البيان ملكها ، بل ان الكثير من هذه الاشياء تخصها على العموم ، اما الكتب فملكي .

– وأين تقطن ؟

فأجاب مبتسماً :

– أيان يحتاجون الى شخص مقدام ، تكون هي هناك .

– أهي تشترك ايضاً في ... هذا العمل ؟

– بكل تأكيد .

وسرعان ما غادر الدار ، فراحت الام تفكر في « هـــذا العمل » ، وفي الاشخاص الذين ينذرون أنفسهم له يوماً بعد يوم ، في هدوء وعناد لا يتزعزعان . إنهم يثيرون فيها الاحساس بتفاهتها ، فكأنها تجابه ، في ظلمة الليل الدامسة ، عظمة جبل هائل مهيب .

وقدمت ، حوالي منتصف النهار ، إمرأة جميلة المحيا ، طويلة القامـــة ، ترتدي ثوباً اسود . وعندما دَلَفَت الام الباب لها ، رمت حقيبتها الصغيرة الصفراء على الارض ، وأسرعت تقبض على يد الام وتقول :

– أعتقد انك ام بافل ميخائيلوفيتش ؟

فأجابت الام ، مرتبكة تجاه أناقة المرأة وثيابها الثمينة :

– نعم .

فقالت المرأة ، وهي تخلع قبعتها أمام المرآة :

– أنت مثلما تخيلتك تماماً. كتب اليّ أخي يقول إنك ستأتين للسكن هنا . اني صديقة بافل ميخائيلوفيتش منذ زمن طويل ، ولقد حدثني عنك .

كان صوتها أجش وحـــديثها بطيئاً ، ولكن حركاتها كانت سريعة قوية . وكانت الخطوط الصغيرة الناعمة المرتسمة على صدغيها ، والشعر الابيض الملتمع فوق إطاري أذنيها الدقيقين ، تتباين بصورة جلية تلفت الانظار مع تلك الفتوة البادية في عينيها الرماديتين الضاحكتين .

أعلنت :

– إني جائعة ، ونفسي تشتهي قدحاً من القهوة .

فردّت الام مجيبةً :

– سأهيئه لك في الحال .

ثم سألت ، وهي تتناول غلاية القهوة من خزانة الآنية الزجاجية :

– أحقاً ان بافل حدّثك عني ؟

– كثيراً .

وتناولت المرأة علبة سجاير جلدية من جيبها ، ثم أشعلت لفافة منها .

سألت ، وهي تجوس الغرفة في غدوة ورواح :

– أأنت خائفة كثيراً من أجله ؟

فراحت الام تراقب شعلة المصباح الكحولي الزرقاء الصغيرة تحت غـــلاية القهوة وتبتسم ، وقد ابتلع الفرح كل الارتباك الذي شعرت به في حضور هذه المرأة . فكرت في وليجة نفسها :

– وهكذا فقد حدثها عني ، ذلك الابن الحبيب ...

ثم قالت في تماهل :

– بالطبع ، فذلك ليس أمراً سهلاً ... ولكنه كان من قبل أشدّ إيلاماً ، اما الآن فاني أعلم على الاقل انه ليس وحيداً .

وسألت المرأة عن اسمها ، وهي تحدق في وجهها ، فأتاها الجواب :

– صوفيا .

فتمعنت بيلاجيا فيها ملياً . ثمة شيء فيها يستحيل وصفه ، وان أمكن ان يقال انه كثير الجرأة ، والاندفاع ، والهوس ايضاً .

وقالت صوفيا بلهجة التأكيد :

– الامر الرئيسي هو ألا يطول بقاؤهم في السجن ، بل ان يعجلوا بمحاكمتهم ما أمكن . ولسوف نمهد لبافل ميخائيلوفيتش سبيل الفرار فـــور وصوله الى المنفى . اننا لفي حاجة ماسة اليه ههنا .

ونظرت الام الى صوفيا في تردد . كانت تفتش عن شيء تضـــع فيه عقب لفافها . وعندما سحقته أخيراً في تراب احد احواض الورد قالت الام بالرغم منها :

– هذا يضرّ الزهور ويتلفها .

فقالت صوفيا :

– أرجو المعذرة . ان نيقولاي يقول لي ذلك دائماً .

واستردت العقب من الحوض ، ثم ألقت به من النافذة .

وفي ذات اللحظة أخذ الارتباك بجامع الام ، فقالت :

– أرجو عفوك ، فأنا لم أفكر فيما قلت . كيف أجرؤ من تلقينك ما تفعلين ؟

فأجابت صوفيا ، وهي تهزّ كتفيها :

– ولمَ لا ما دمتُ مهملة ؟ هل صارت القهوة ؟ شكراً لك. ولكن لمَ لم تصبي إلا قدحاً واحداً ؟ أفلا تتناولين شيئاً بدورك ؟

وعلى حين غرة أمسكت الام من كتفيها ، وجرتها اليها ، وقالت وهي تنظر عميقاً في عينيها :

– هل انت خجلة ؟

فابتسمت الام ، وقالت :

– أتسألينني هذا بعدما صدر مني عن اللفافة بكل ذلك التسرّع المقوت ؟

ثم أضافت ، دون ان تحاول إخفاء دهشتها ، بلهجة فيها شيء من التساؤل :

– لقد جئت هذا المكان البارحة فقط ، وها ذا أتصرف وكأنني في بيتي ، لا أخاف شيئاً ، وأقول كل ما يعنّ على بالي ...

فهتفت صوفيا :

– وذلك ما هو بالضبط ما يجب ان تفعليه .

فتابعت الام تقول :

– رأسي يدور ويدور ، وانا كالغريبة عن ذاتي . كان ينقصني زمن طويل فيما مضى قبـــل ان أقول لاي امرئ شيئاً من صميم قلبي ، اما الآن فان قلبي مفتوحاً على الدوام ، وانا اقول اشياء لم احلم بالتفوّه بها من قبل قط .

وتناولت صوفيا لفافة أخرى ، ثم صوبت بريق عينيها الرماديتين الناعمتين الى وجه الام .

استوضحت الام ، وهي تلقي عن قلبها عبء ذلك السؤال المقلق :

– قلت انكم ستمهدون له سبيل الفرار ، ولكن كيف يعيش من بعدها ... هارباً .

فأجابت صوفيا ، وهي تصبُّ لنفسها قدحاً ثانياً من القهوة :

– ليس هذا بالامر العسير . فلسوف يعيش مثلما يعيش عشرات سواه من الهاربين . لقد التقيت قبل قليل بواحد منهم ، وصحبته الى المكان الذي سيعيش فيه . وهو رجل ثمين جداً حـــكم عليه بالنفي خمس سنوات ، ولكنه لم يقض هناك اكثر من ثلاثة أشهر ونصف شهر .

فحدجتها الام بنظراتها بعض الوقت ، ثم ابتسمت ، وهزت رأسها وهي تقول بصوت خافت :

– يبدو كأن اول ايار هذا قد فعل بي شيئاً ، فلا استطيع ان اجد نفسي الضائعة ، وكأنني أسير على طريقين مختلفين في الوقت ذاته . يخيل إليّ أحياناً اني أفهم كل شيء ، ثم يضيع كل شيء في أحايين أخرى في ضباب كثيف . انت مثلاً ... امرأة من الطبقة الراقية وتشتركين في هذا العمل ... وانت تعرفين بافل وتتحدثين خيراً عنه ، واني لأشكرك من أجل هذا .

فضحكت صوفيا :

– انك انت التي تستأهلين الشكر .

فقالت الام ، وهي تتنهد :

– وماذا فعلت انا ؟ لست انا التي علمته كل هذا .

ثم تابعت أفكارها تقول :

يبدو لي كل شيء بسيطاً حيناً ، وحيناً لا أستطيع تعليل هذه البساطة ، وتارة أحس الاطمئنان كله ، وتارة يداخلني الخوف من ذلك الاطمئنان ذاته . فقد كانت كل حياتي خوفاً مستمراً ، اما الآن ، وقـــد تعددت أسباب ذلك الخوف فأكاد لا أشعر به على الاطلاق ... لمَ الامر هكذا ؟ لا أدري .

فأجابت صوفيا ، وهي غارقة في لجة من التفكير :

– سوف يأتي يوم تفهمين فيه كل شيء .

وسحقت لفافتها في قدح القهوة ، وهزّت رأسها بحيث سقط شعرها الذهبي على صدرها في كتل كثيفة ، وقالت وهي تنهض وتتجه نحو باب الغرفة :

– لقد آن لي ان أتخلص من هذه الأناقة كلها ...

٣

عاد نيقولاي في العشية، وفيما هم يتناولون طعام العشاء طفقت صوفيا تروي في مرح وحبور كيف التقت بذلك الفارّ من المنفى وخبأته، وكيف انتابتها المخاوف من الجواسيس فراحت تجدهم في كل من تصادفه، وكيف كان سلوك الهارب رائعاً كل الروعة ومثاراً للاعجاب والتقدير. واكتشفت الام في لهجتها بعض التباهي والغرور، فكأنها عامل يروي قصة عمل شاق أنجزه على أكمل وجه — وهو سعيد بذلك.

كانت صوفيا ترتدي الآن ثوباً صيفياً رمادي اللون، وقميصاً ضيقاً يُظهرها أطول قامة، ويُضاعف عن ظلمة عينيها، ويزيد حركاتها تناسقاً وهدوءاً.

أعلن نيقولاي بعد العشاء:

— ان مهمة جديدة تنتظرك، يا صوفيا. لقد حدثتك أننا أخذنا على عاتقنا إصدار صحيفة خاصة بالفلاحين، فاذا نحن نفقد، بسبب الاعتقالات الاخيرة، كل احتكاك بالرجـــل الذي سيقوم بتوزيعها. وبيلاجيا نيلوفنا هي الشخص الوحيد القادر على مساعدتنا في العثور عليه من جديد، فعليك إذن القيام برحلة قصيرة الى الريف برفقتها، وإنجاز ذلك في أقرب وقت ممكن.

فقالت صوفيا، وهي تسحب نفساً طويلاً من لفافتها:

— حسناً، سنذهب ... أليس كذلك، يا بيلاجيا نيلوفنا؟

– طبعاً .

– هل المسافة طويلة ؟

– حوالي الثمانين فرسخاً .

– عظيم ! والآن أودُّ ان أعزف قليلاً . أتؤمنـــين ، يا بيلاجيا نيلوفنا ، بقدرتك على احتمال عزفي بعض الوقت ؟

فأجابت الام ، وهي تنسحب الى زاوية الاريكة :

– لا تهتمي بي على الاطلاق ، افعلي ما يحلو لك ولا تأبهي لوجودي .

كانت ترى ان الاخ والاخت يتظاهران بأنهما لا يعيرانها انتباهاً ، ولكنهما في واقع الامر يجرّانها دائماً ، في مهارة ، الى الاشتراك في الحديث .

– أصغِ يا نيقولاي ، هذه قطعة من موسيقى « جريج » ، لقد جلبتها اليوم معي ... أغلق النوافذ .

فتحت كناشة الموسيقى وضربت المفاتيح في رقة بيدها اليسرى ، فتتالت الاوتار تغني في عمق وانسجام رائعين . ثم تلت الاصداء الاولى جملة أخرى من الانغام ، وهبّ من تحت أصابع اليد اليمنى سرب شافّ من رعشات مذهبة حلّقت في اضطراب وراحت ، وهي ترسل زفرة خافتة ، تدوم وتخفـــق بجناحيها ، مثـــل جماعة من عصافير مذعورة ، فوق قعر الاصوات الخفيضة القاتم .

ولم تحرك الموسيقى أية خالجة في نفس الام لأول وهلة ، بل لم تكن تميّز في تيارها إلا تيهاً من الضجيج والاصوات . كانت أذنها عاجزة عن تمييز اللحن في بنية الاصوات المنسجمة المعقدة فاذا هي تحدّق ، حالمةً ، في نيقولاي القابع على الطرف الآخر من الأريكة طاوياً ساقيه تحتـــه ، يشخص الى صورة صوفيا الجانبية القاسية المتوجة بكتلة من الشعر المذهب . وكانت الشمس تضيء بشعاعها

الدافىء رأس صوفيا وكتفيها ، ثم تنزلق فوق صف المفاتيح لتداعب أصابعها اللطيفة ، وتلاحق الانغام يملأ جو الغرفة فيستيقظ قلب الام للحن العذب دون شعور واع منها .

ولسبب ما ، أفاق فجأة من هاوية ماضيها السحيق ألم عظيم طواه النسيان منذ زمن بعيد بعيد . ولكنه بُعث الآن الى الحياة في وضوح مرير عظيم القسوة.

في ذات ليلة ، رجع زوجها الى البيت متأخراً شديد السكر ، فأمسك بها من ذراعها وجرّها من فراشها حتى أوقعها على الارض، ثم صاح بها وهو يرفسها في خاصرتها :

– هيا اخرجي من هنا ، ايتها الكلبة ! لقد مللت منك ...

فأخذت بين ذراعيها ابنها البالغ من العمر سنتين ، ورفعته أمامها كالدرع ، وهي جاثية على الارض لتدرأ عن نفسها لطمات زوجها ولكماته ، وبافل يصيح ويناضل بين ذراعيها ، دافئاً ، عارياً ، مذعوراً ...

وزمجر ميخائيل :

– أخرجي من هنا !

فقفزت على قدميها واندفعت الى المطبخ حيث ألقت سترة على كتفيها ، ولفّت الطفل بوشاحها ، وخرجت الى الشارع في صمت دون عبرة او شكوى ، حافية القدمين ، لا يسترها إلا قميص النوم وتلك السترة . وكان ذلك في شهر ايار ، والليل قارص البرد عفيف الريح ، وغبار الطريق يعلق بارداً بأخمص قدميها ويتغلغل بين أصابعها . وطفق الطفل بين ذراعيها يبكي ويتخبط ، فضمته الى جسدها تحت السترة ، وهرعت عبر الشارع يلاحقها الخوف ، وهي تهدهد الطفل اثناء ذلك :

– أو – أو ، يا عزيزي ، أو – أو ...

وقرب الصباح داخلها الحياء والخوف من ان يراها بعض الناس هكذا نصف عارية ، حافية القدمين . فاتجهت نحو المستنقع وجلست على الارض تحت أشجار الحور الصغيرة . جلست هناك زمناً طويلاً ، تحدق في الظلام بعينين متسعتين وهي لا تفتأ تهدهـــد الطفل لتخفف من عليله ومن الألم المر الذي يحزّ في قلبها ايضاً .

أو -- أو ، يا عزيزي ، أو -- أو ...

وبينما هي جالسة هناك اذا بطائر أسود يحلق صامتاً في الفضاء فوق رأسها ثم يبتعد في طيران سريـع . ولقد أيقظها الطائر من همودها دفعها الى النهوض على قدميها ، فقفلت راجعة ، مرتجفة الاوصال من البرد ، نحو البيت حيث ينتظرها الخوف المألوف من الضرب والاهانة ...

وتردّد رنين الوتر الاخير ، ثم تلاشت الموسيقى وهي ترسل زفيراً بارداً لامبالياً ...

واستدارت صوفيا نحو أخيها ، وسألته في هدوء :

– هل أجبتَ ذلك ؟

فأجاب ، وهو ينتفض يُهبُّ من النوم :

– كثيراً ، كثيراً جداً .

وارتجف في صدر الام ذكراها وثنّى ، بينما انبثقت الى جانبه من مكان ما الفكرة التالية :

– هل ترين ؟ هؤلاء قوم يعيشون معاً عيشة مسالمة ودية ، لا يتخاصمون ولا يسكرون ، ولا يتقاتلون لدى تناول كل كسرة من الخـــبز كما يفعل أولئك في تلك الحياة المظلمة الاخرى .

وتناولت صوفيا لفافة ، ودخّنت فـــترة من الوقت ، وبصورة متواصلة تقريباً . قالت :

– كانت هذه الموسيقى أحبّ قطعة الى قلب كوستيا .

وسحبت نفساً عميقـــاً ، ثم استدارت نحو المفاتيح مرة أخرى ، وضربت وتراً أرسل نغمة ناعمة مفعمة بالكآبة :

– كم كنت أحبُّ ان أعزف له ، ولكم كان بـــدوره رقيق الاحساس ، تتجاوب نفسه مع كلا الاشياء ، ويطفح قلبه ابداً حتى ليكاد ينفجر ...

وفكرت الام :

– لا ريب انها تتحدث عن زوجها ! وهي تبتسم مع ذلك ...

وتابعت صوفيا بصوت خافت ، وهي تصاحب أفكارها بصوت رقيق :

– ما اكثر ما أسعدني ! ولكم كان يعرف كيف يعيش !

فوافق نيقولاي ، وهو يمشّط لحيته :

– بلى ، لقد كان روحاً تغني .

ألقت صوفيا باللفافة التي أشعلتها لآونتها . ثم استدارت نحو الام قائلة :

– آمل ألا تكون ضوضائي قد أزعجتك .

فلم تستطع الام إخفاء امتعاضها :

– لا تعيريني التفاتاً ، اني لا أفهم شيئاً في هذا الموضوع ، بل اجلس ههنا ، وأجترُّ أفكاري الخاصة .

وقالت صوفيا :

– ولكني أريدك ان تفهمي ، فمن الضروري للمرأة ان تفهم الموسيقى ، ولا سيما حين تكون حزينة .

وضربت المفاتيح بقوة ، فأرسل البيان صياحاً حاداً ، صياح إنسان تلقى أنباء رهيبة أصابته في صميم القلب فانتزعت منه هذه الصيحة المروعة التي ردَّت عليها أصوات فتية مذعورة وثبت على غير انتظار ثم تلاشت . ومرة أخرى ، ارتفعت صيحة عالية غاضبة أغرقت في ضجيجها كل شيء آخر . لا ريب ان كارثة كبرى قد وقعت . ولكنها تثير شعوراً الى الغضب والنقمة اكثر منه الى الشفقة والرثاء . وتلا ذلك صوت عنيف ينشد لحناً جميلاً رائعاً يُقنع ويُغري في وقت واحد .

وامتلأ قلب الام رغبة ملحة في التفوّه بكلمات لطيفة توجهها الى هذين الانسانين . كانت سكرى بالموسيقى ، فانشقت شفتاها عن ابتسامة عذبة ، مقتنعة بقدرتها على ان تكون عوناً للأخ والأخت جميعاً .

وصعّدت النظر فيما حولها ... ماذا عساها تصنع ؟ وتسللت في هدوء الى المطهى تجمر النار في السماور .

لكنّ ذلك لم يُشبع لهفتها تجاههما . فقالت ، وهي تصبُّ الشاي وترسل ضحكة مرتبكة ، وكأنها تعزّي قلبهـــا بكلمات موجهة الى نفسها مثلما هي موجهة اليهما :

– نحن ابناء تلك الحياة المظلمة نحسُّ كل شيء ، إنما يصعب علينا وضعه في كلمات فنخجل لكوننا ، كما تريان ، نفهم ولكن نعجز عن التعبير عما نفهم . وكثيراً ما ننقم ، بسبب من ذلك ، على ذات أفكارنا . ان الحياة لا تفتأ تنهال علينا ضرباً من كل جانب ، فنريد ان ننعم بشيء من الراحة ، فتأبى افكارنا علينا هذا النعيم .

كان نيقولاي ينظّف نظارته وقد أذِنَ لها أحسن الاذن ، بينــــا فتحت صوفيا عينيها الكبيرتين تحملق في الام ناسية ان تدخن لفافتها التي كادت ان تنطفيء . كانت ما تزال تجلس الى البيان، وقد استدارت نحوه نصف استدارة، تداعب المفاتيح برقة من وقت لآخر بأصابع يدها اليمنى ، فتختلط الانغام في

عذوبة جمة مع الكلمات البسيطة المنطلقة من أعماق القلب المتألم المعبّر بها عن مشاعره وإحساساته .

– أستطيع الآن ان أقول شيئاً عن نفسي وعن الناس الآخرين ، فقد بدأت أفهم وأصبح في مقدوري ان أقارن بين الاشياء ايضاً . ان حياة الانسان سواء في وجودنا نحن الآخرين ، فليس لدينا شيء يستأهل المقارنة . اما الآن ، حين أعرف كيف يعيش بقية البشر ، وأتذكر كيف عشت انا – فان المرارة تتضاعف إذن .

وخفـّضت صوتها ، وتابعت :

– ربما لا أعبّر عن ذلك كما ينبغي ، وربما لا معنى في التصريح بذلك على الاطلاق ، فالكائنات التي مثلكم تعلم ...

وغصّت كلماتها بالدموع ، وابتسمت عيناها وقد حملقت فيهما قائلة :

– أريد أن أفتح لكما قلبي حتى تعلما كم أتمنى الخير لكما .

فقال نيقولاي بصوت رقيق :

– إننا نعرف ذلك جيداً .

كان يبدو أنها عاجزة كل العجز عن إرضاء رغبتها ، فراحت تروي لهما مرة أخرى كل ما في حياتها من جديد ، وما تجده عظيم الاهمية فوق كل حدود . وشرعت تتحدث عن حياتها المريرة وعن عذابها الذي صبرت عليه ، تسرد ذلك كله دون غضب، ولكن في ظل من الاسف الساخر . راحت تنشر شريط تلك الايام الرمادية القاتمة التي تؤلف حياتها السابقة ، وتحصي ما أذاقها زوجها من لكمات ، متعجبة هي نفسها من تفاهة الدوافع التي كانت تقود اليها ، وفي الوقت ذاته من عجزها عن تفاديها وإيقافها عند حدّ ...

كانا يصغيان اليها في صمت متأثرين بالمعنى العميق الكامن وراء هذه القصة

البسيطة عن حياة كائن لم ترفعه نظرة الناس اليه عن مصاف العجماوات إلا قليلاً جداً جداً ، فطفق هو يعتبر نفسه طويلاً ، في خضوع ودون أدنى تذمر على الاطلاق ، مثلما ينظرون اليه تماماً . وكان يبدو لهما ان آلاف الحيوانات تنطق بلسانها . ان كل ما عاشته بسيط مألوف مثل حياة الاغلبية الساحقة من الناس على وجه هذه الارض ، ولذلك فان قصتها تكسب معنى رمز عام شامـــل . وارتفق نيقولاي المائدة ، واعتمد رأسه بين يديه ، وقد أطمح بصره إليها يراقبها من وراء نظارتيه بعينين خزراوين . اما صوفيا فقد استلقت على مقعدها وهي ترتعش وتهزّ رأسها من حـــين لآخر ، يلوح وجهها وكأنه يزداد نحولاً وشحوباً . ولم تكن تدخن .

قالت في هدوء ، وهي تطرق برأسها :

— لقد اعتقدت مرة أني بائسة ، وخيل إليّ ان حياتي عبارة عن هذيان ليس غير . وكان ذلك عندما كنت في المنفى في ضاحية صغيرة في إحـــدى الولايات البعيدة ، حيث لم يكن لديّ ما أفعل او أفكر فيه إلا شخصي وحده ، فرحت لذلك أحصي كل مصائبي مـــا دمت لا أجد شيئاً أفضل أصنعه : لقد تشاجرت مع والدي الذي أحبه ؛ وطـُردت من المدرسة حيث جعلوا مني مثالاً مخجلاً ، وسجنت ؛ كما أن رفيقاً مقرباً إليّ قد خانني . ولقد اعتـُقلَ زوجي ، ثم كان السجن والمنفى مرة أخرى ، ومن بَعدُ وفاة زوجي . ولقد هُدْهِد لي أني أكثر الكائنات في العالم بؤساً وشقاء . ولكن سائر مصائبي ، مضروبة في عشرة أمثالها ، لا تساوي شهراً واحداً من حياتك ، يا بيلاجيا نيلوفنا ... لقد كانت حياتك عذاباً سرمدياً يتتابع سنة بعد سنة ... من أين يستقي الناس تلك القوى كي يتحملوا هذا العذاب الأليم ؟

فاشرأبت بيلاجيا تجيب ، وهي تتنهد :

- إنهم يعتادون عليه .

وقال نيقولاي مفكراً :

– يخيـــل إليّ أني أعرف الحياة كثيراً . وبخاصّة عندما أطـّلع عليها عن كثب ، لا في كتاب ولا في انطباعاتي الخاصة عنها ، بل حين تنتصب هي نفسها أمامي ... إن ذلك لرهيبٌ إذن . وإن التفاصيل رهيبة كذلك ، وحتى التوافه أيضاً . كل تلك اللحظات التي تنسج السنوات ...

واستمر الحديث واتسع ، يتناول كل مظاهر هذه الحياة المظلمة . وراحت الأم تحفر عميقاً في ذكرياتها ، وهي تنبش سلسلة الامتهانات والاهانات اليومية التي جعلت من صباها خوفاً دائماً لا ينقطع . قالت أخيراً :

– ولكن ما بالي أثرثر وأثرثر ، في حين آن لكما أن تذهبا إلى الفراش . لن يستطيع المرء أبداً البَوْحَ بكل ما عنده ...

واستأذن الأخ والأخت منها في سكون فصوِّر لها أن نيقولاي قد انحنى أكثر من المعتاد ، كما ضغط على يدها بقوة أكبر . أمـــا صوفيا فرافقتها حتى غرفتها ، ثم همست وهي تتركها عند الباب :

– نوماً هنيئاً . طابت ليلتك .

كان صوتها مفعماً بالحرارة ، وعيناها الرماديتان تداعبان وجه الأم في حلاوة .

تناولت الأم يد صوفيا وضغطت عليها بين كلتا يديها ، وقالت :

– شكراً لك ! ...

٤

بعد أربعة ايام وقفت الام وصوفيا امام نيقولاي وهما ترتديان أسمال امرأتين فقيرتين من سكان المدن : رداء قطنياً ممزقاً وسترة حقيرة مهترئة ، وعلى ظهر كلتيهما خرج ، وفي يديها عصا ثخينة . ولقد بدت صوفيا في هذه الثياب اقصر من قامتها ، ووجهها الشاحب اكثر رزانة وجداً أيضاً ...

ضغط نيقولاي يد اخته بشدة وهو يودّعها ، فلفت انتباه الام مرة اخرى تلك البساطة الهادئة السائدة علاقاتهما . إنهما لا يتبادلان القبل ولا يتناديان باسماء تحبّبٍ ، ولا يُغدق احدهما على الآخر مظاهر الحنان ، وان كانا أبداً يُعنيان كلٌّ بأمر الآخر في كثيرٍ من العطف والودّ أما حيث عاشت الام ، فقد كان الناس يتبادلون القبل وعبارات الاكرام أبداً ، لكن يستمرون في الوقت نفسه يعضّون بعضهم بعضاً مثل الكلاب الجائعة .

وخرجت المرأتان في صمت الى شوارع المدينة ، ومنها الى الحقول ، وهما تسيران كتفاً الى كتف على طوال طريق متّسعة عريضة ، غير معبدة ، تمتد بين صفين من اشجار البتولا العجوز .

سألت الام رفيقتها :

– أفلن تتعبي ؟

– أتظنين اني لم أمشِ كثيراً طوال حياتي ؟ ان ذلك مألوف لديَّ .

وراحت صوفيا تتحدث في مرح عن نشاطها الثوري ، وكأنها تروي نزوات طفولتها ... لقد عاشت باسماء مختلفة وأوراق مزوّرة ؛ وكثيراً ما تنكرت كي تفلت من الجواسيس؛ كما نقلت قناطير من الكتب غير المشرعة من مدينة لاخرى؛ ونظمت هرب كثير من الرفاق من المنفى ؛ واجتازت بهم الحدود ورافقتهم الى مدن اجنبية ... وذات مرة أخفت مطبعة سرية في بيتها ، وعندما بلغ خبرها الدرك وجاؤوا يفتشون الدار ، استطاعت في الوقت المناسب ان تتنكر في زي خادمة وتولي الادبار ، ملتقية بزوارها عند بوابة المنزل . كان ذلك في الشتاء ، والطقس شديد البرد لاذع الصقيع ، ومع ذلك فقد عبرت المدينة بأسرها في ثوب رقيق ، لا يسترها إلا وشاح من القطن ألقت به على رأسها وكتفيها ، وفي يدها إناء البترول فكأنها تريد ان تبتاع شيئاً منه .

وفي مرة اخرى قدمت الى مدينة غريبة تزور بعض الاصدقاء ، وبينا هي ترتقي السلم ، اكتشفت ان رجال الدرك يفتشون الجناح الذي تقصد . وكانت فرصة النكوص على أعقابها قد فاتت ، فلم تتوانَ عن قرع جرس الطابق السفلي في جرأة وزرع نفسها هناك ، بما لها وما عليها ، عند أولئك القوم المجهولين . ولقد قالت لهم ، بعد ان أوضحت حالتها بكل صراحة :

– انكم تستطيعون تسليمي الى الشرطة ان شئتم ، ولكني لا استطيع ابداً ان افكر انكم فاعلون ذلك .

ولقد ذُعروا كثيراً حتى لم يغمض لهم جفن طوال الليل ، وهم ينتظرون بين لحظة واخرى ان يقرع بابهم . ولكنهم لم يسلموها ، وفي صباح الغداة ضحكوا للمغامرة من كل قلوبهم .

وفي مرة ثالثة أيضاً ، تنكـّرت في زي راهبة، وسافرت في ذات العربة وفي المقعد المجاور لمقعد الجاسوس الموكـَل اليه مراقبتها . لا بل انه راح يروي لها متباهياً مزهواً كيف يتتبع آثار تلك المرأة بكل مهارة وحنكة وكيف انه

واثق من ركوبها في قاطرة من الدرجة الثانية في القطار ذاته . وكان يغادر مقعده في كل محطة ليبحث عنها ، ثم يقول للراهبة عندما يعود :

– إني لا أراها . فلا ريب أنها استسلمت للنوم. انهم يتعبون كثيراً هم ايضاً، فحياتهم ليست أسهل من حياتنا على الاطلاق .

وضحكت الام ، وهي تختلس النظر بحنانٍ الى صوفيا التي تروي هـذه الاقاصيص ، كانت الفتاة تنتقل ، ممشوقة القد نحيلة القوام ، بخفة وثبات على رجليها الرشيقتين ، وفي خطبها وأسلوبها في الحديث ، وفي رنين صوتها المرح الأجش قليلاً ، وفي كل هيكلها المنتصب ، شيء جريء مقدام يطفح صحة وقوة . كانت تقترب من كل الاشياء في فتوة ، وتجدُ ما يحمل لها السرور في كل ما تقع عليه عيناها . هتفت مرة ، وهي تشير الى احدى الاشجار :

– يا لها صنوبرة رائعة !

فتوقفت الام ونظرت الى حيث تشير ، لم يكن من الصنوبرة شيء ، يميزها على مثيلاتها مطلقاً .

ضحكت ، وهي ترى الريح تداعب خصلاً من الشعر الشائب فوق اذن المرأة المرافقة لها . وقالت :

– نعم انها لشجرة رائعة حقاً .

– قـُبَّرة !

والتمعت عينا صوفيا الرماديتان حناناً ، ومال جسدها نحو موسيقى القـبّرة غير المنظورة ، المترددة في السماء الصافية . ومن حين لآخر ، كانت تنحني برشاقة لتلتقط زهرة برية تمسح أوراقها المرتعشة بأصابعها الرقيقة ، السريعة الحركة ، وهي تدندن لحناً فائق العذوبة .

كان هذا يجتذب الام الى الفتاة ذات العينين الرماديتين ، وهي تسير الى

جانبها ، ساعية ألا تتأخر عنها . ولكن صوفيا كانت تتحدث في قسوة وحدة في بعض الاحيان ، فتأسف الام لذلك ، وتفكر في قلق :

– ان ميخائيلو لن يحبها .

ولكن صوفيا لا تلبث ، في اللحظة التالية ، ان تعود الى الحديث في بساطة وحرارة ، فتنحو الام بصرها إليها وتبتسم .

تنهدت :

– يا لك فتاة في ريعان الصبا !

فهتفت صوفيا :

– اني قد بلغت الثانية والثلاثين .

فابتسمت بيلاجيا ، وقالت :

– ليس هذا ما أعني ! ان مظهرك يوحي بأنك اكبر سناً ايضاً . ولكني عندما أصغي إليك ، وأنظر في عينيك ، تأخذني الدهشة دائماً ... لتشبهين كل الشبه صبية صغيرة . لقد كانت حياتك صعبة قاسية مضطربة ، وخطرة ايضاً ومع ذلك فان قلبك يبتسم أبداً .

– إني لا أعير صعوبة الحياة أدنى انتباه ، لكنه يخيل إليّ أحياناً أنه ليس إنسان حياته أفضل وأكثر مثاراً للاهتمام من حياتي . لسوف أناديك باسم أبيك ... نيلوفنا . ان اسم بيلاجيا لا يروقني كثيراً .

فقالت الام مفكرة :

– ناديني كما تشائين ، كما تشائين ما دام ذلك يروقك . اني لا أفتأ انظر إليك وأصغي بسمعي وأفكر . وانه ليسعدني انك وجدت السبيل الذي يقود الى القلب البشري ، فليس من يمتنع عن الاعتراف لك بكل ما يجري في باطنه دون

خلجة خوف مطلقاً . إنه يفتح لك قلبه من تلقاء نفسه . واني أتأمل فيكم جميعاً، فلا تفارقني هذه الفكرة لحظة : إنهم سينتصرون أخيراً على الشر في الحياة ، لا بدّ أنهم منتصرون .

فقالت صوفيا بصوت مرتفع ، وبلهجة من يأتمن الآخر سراً :

– إننا واثقون من الفوز لاننا متحدون مع العمال . ان قوة كبرى تكمن فيهم ، وكل شيء يمكن تحقيقه معهم . ينبغي فقط ان نجعلهم يدركون قيمتهم الخاصة ، حتى يكونوا أحراراً في تنمية ...

وأثارت كلماتها إحساسات مختلفة في قلب الام ، ولسبب ما لم تدرِ له كنهاً أشفقت على صوفيا ، وكان إشفاقها ودياً عطوفاً ، لا أثر للاساءة فيه . وودّت ان تسمعها تقول كلمات أخرى ، كلمات تكون أبسط مما قالته .

سألت في هدوء وكآبة :

– ومن سيكافئكم على جهودكم ؟

فأجابت صوفيا :

– لقد نلنا مكافأتنا .

وبدا للأم ان الكلمات ترنّ في اعتزاز وفخر .

– لقد وجدنا طريقة في الحياة ترضينا . اننا نعيش بكل القوى الروحية التي فينا ... ما عسانا نسأل الحياة غير هذا ؟

نظرت الام إليها ثم أطرقت بناظريها . وفكرت مرة أخرى :

– ان ميخائيلو لن يحبها .

كانتا تسيران بخفة ، ولكن دون عجلة ، تعبّان الهواء الرقيق ، فيؤتى للأم أنها تذهب في حج الى بعض الامكنة المقدسة . وتذكرت الفرح الذي كان يملأ

قلبها في طفولتها ، عندما كانت تغادر قريتها لتحضر بعض الخدمات الكنسية في بعض الاعياد في دير بعيد فيه أيقونة عجائبية .

وكانت صوفيا تُنشد في بعض الاحيان مقطوعات من الاغاني عن السماء او عن الحب بصوت ناعم حنون ، او تلقي بعض القصائد عن الحقـــول والغابات والفولجا ، فتستمع الام إليها وتبتسم ، وهي تهزّ رأسها ، دون إرادة منها ، بصورة موزونة مع الشعر الذي تغمرها موسيقاه وتسحرها .

كان كل شيء في داخلها دافئاً ، هـــادئاً ، مستغرقاً في التفكير ، فكأنها تجلس في زاوية هادئة في إحدى الحدائق ، ذات أمسية من الصيف الجميل .

٥

بلغتا غايتهما في اليوم الثالث ، فتوجهت الام بالسؤال الى موجيك كان يعمل في الحقول تستفهم منه عن موقع معمل القطران ، وسرعان ما كانتا تنحدران على طول ممرٍّ مائل وعر أرومات الاشجار فيه أشبه بدرجات سلم حقيقي ، أفضى بهما الى ساحة مستديرة تغصُّ بالفحم والحطب ، وقد تلطخت في كل أرجائها بالقطران الكثيف .

قالت الام ، وهي ترشق النظر فيما حولها بقلق وخشية :

ـ ها نحن أخيراً هنا ...

وتبيَّنتا ، تجاه كوخ مبني من الخشب وأغصان الاشجار ، منضدة مصنوعة من ثلاثة ألواح من الخشب سُمِّرت الى أوتاد طويلة غُرست عميقاً في الارض ، وقد جلس إليها ريبين ، ملطخاً بالقطران من رأسه حتى قدميه ، محلول أزرار القميص ، بادي الصدر العاري ، برفقته ييفيم وشخصان آخران يتناولون طعام الغداء . كان ريبين اول من لاحظ المرأتين ، فاستكفَّ بيده وقبع ينتظر في سكون .

صاحت الام به عن بعد :

ـ أسعدت نهاراً ، ايها الاخ ميخائيلو .

فنهض ، وقـتحَم إليهما على مهلـته ... وعندما عرف الام توقف مبتسماً ، وهو يمشّط لحيته بيده السوداء . قالت الام مقتربة منه :

– كنا في طريقنا الى الحج ، فقلت في نفسي : فلنمرَّ من هنا كي ألقي السلام على أخي . هذه صديقتي واسمها أنـَّا .

وحشـّفـَتْ عينيها ، فخوراً ببراعتها ، ترنو الى وجه صوفيا الرزين الوقور .

قال ريبين وهو يصافحها وينحني لصوفيا ، مفترُّ الثغر عن ابتسامة ملتوية :

– نـَعِمتِ نهاراً . لا تكذبي ، فلسنا في المدينة الآن ، وليس من حاجة الى اختلاق الاكاذيب ههنا . الجميع منا وفينا .

وتفحـّص ييفيم الزائرتين ملياً من حيث يجلس الى الطاولة ، ثم همس شيئاً ما في أذن صاحبيه . وعندما أطفـّت المرأتان منه نهض وانحنى لها في صمت ، أما رفيقاه فظلا دون حراك ، وكأنهما لم يلحظا الضيفتين .

أعلن ريبين ، وهو يربت على كتف الام في لطف :

– إننا نعيش ههنا كالرهبان ، وليس من يأتي لرؤيتنا ابداً . لقد ذهب المدير في سفر ، ودخلت زوجته الى المستشفى ، وأنا وحدي اتحمل اكثر او أقـــل مسؤولية العمل . اجلسا . لا ريب انكما بحاجة الى الطعام . هلا ادركتهما بشيءٍ من الحليب ، يا ييفيم ؟

فولج ييفيم الكوخ متمهلاً ، بينا تخلصت المسافرتان من حملهما . ونهض احد الشابين ليساعدهما ، وهو فتى نحيل العود طويل القامة ، في حين ظل رفيقه الضخم ، الممزق الثياب ، مستنداً الى المنضدة بمرفقيه ، يراقبهما متأملاً ، وهو يحكّ رأسه ويصفـّر لحناً في الوقت ذاته .

كانت رائحة القطران الخانقة ، الممتزجة برائحة أوراق الشجر المحترقة ، تحاصر المرأتين وتكاد تفقدهما الوعي ...

قال ريبين ، مشيراً الى الفتى الطويل :

– انه يدعى ياكوف . اما الآخر فأغناطيوس . حسناً ، كيف حال ابنك ؟

فأجابت الام ، وهي تتنهد :

- انه في السجن .

فهتف ريبين :

- مرة اخرى ؟ لا ريب ان السجن قد راقه !

كفَّ اغناطيوس عن الغناء ، أما ياكوف فتناول الخرج من يد الام قائلاً :

أجلسي .

وجمجم ريبين ، موجهاً الكلام الى صوفيا :

- ما بالك واقفة هكذا ؟ اجلسي .

فجلست صوفيا على جزع شجرة تتفحص ريبين بامعان .

واتخذ ريبين مجلسة قبالة الام ، وهزَّ رأسه وقال :

- متى أوقفوه ؟ انك معدومة الحظ ، يا نيلوفنا .

فردَّت :

- لا بأس في ذلك !

- لقد اعتدته ؟

- كلا ، لم أعتده ... بل أرى جيداً انه لا حيلة لي فيه .

- وَيْ ! حسناً ، هاتي حدثينا عن ذلك .

جاء يفيم بإبريق من الحليب ، وتناول قدحاً عن المائدة ، وغسله ، وملأه بالحليب ثم قدمه الى صوفيا ، مرهفاً السمع اثناء ذلك الى رواية الام . كان حريصاً على ألا يثير ضوضاء ، فيتحرك في هدوء وحذر فائقين . وعندما انتهت الام من روايتها المقتضبة ، ساد الجميع صمت عميق لم يتبادلوا النظر أثناءه ابداً .

وكان اغناطيوس جالساً الى المنضدة يحكّ ألواحها الخشبية بأظافره ، أما ييفيم فقد وقف خلف ريبين مرتفقاً كتفه ، بينا استند ياكوف بظهره الى جذع احدى الاشجار متصلب الذراعين ، مطأطأ الرأس . وجثمت صوفيا في صمت تسترق النظر الى وجوه الفلاحين ...

همهم ريبين بصوت متثاقل شرس :

– ﻫِمْ – مْ – مْ ... هكذا اذن – على المكشوف .

وجمجم ييفيم ، وعلى شفتيه ابتسامة مرّة :

– لو اننا نظّمنا يوماً مظاهرة كهذه هنا ، لضَربَنا الفلاحون حتى الموت .

فوافق أغناطيوس بحركة من رأسه :

– بكل تأكيد سوف يقتلوننا . كلا ، سأذهب وألتحق بأحد المصانع . فالأمور هناك افضل بكثير .

وسأل ريبين :

– تقولين إنهم سيقدّمون بافل الى المحكمة ؟ ما نوع الحكم الذي سيصدرونه عليه ؟ هل بلغك شيء عن هذا ؟

فأجابت في هدوء :

– الاشغال الشاقة ، او النفي المؤبد في سيبيريا .

فاستدار إليها الفتيان الثلاثة في وقت واحد في حين خفّض ريبين رأسه واستوضح :

– أكان يعرف ما ينتظره عندما ارتكب فعلته ؟

ذردت صوفيا بصوت مرتفع :

– أجل ، كان يعرف .

فسكن الجميع حتى لا حراك بهم ، وكأن فكرة واحدة جمّدتهم .

وتابع ريبين في قسوة وخطورة :

– هِمْ مْ ... وانا اعتقد ايضاً انه كان يعرف ذلك . فهو لن يقفز في الظلمة ابداً، لأنه اكثر رزانة وجداً من ان يفعل . هل سمعتم هذا ، ايها الفتيان ؟ لقد كان يعلم انهم سيغمدون حرابهم في جسده ، او يرسلون به الى سيبيريا ، ولكن هذا لم يوقفه ... ولو ان امه نفسها اعترضت سبيله ، لخطا من فوقها دون تردد . اما كان يفعل ذلك ، يا نيلوفنا ؟

فقالت الام ، وهي ترتعش :

– بلى ، كان يفعل .

وتنهدت ، وتطلعت حولها ، فربتت صوفيا بلطف على يدها ، بينما راحت تحدج ريبين بقسوة والعبوس قد علا وجهها .

قال ريبين في هدوء ، وهو ينظر إليهما بعينيه السوداوين :

– انه لباسل مقدام حقاً !

ومرة أخرى لاذ الاشخاص الستة بالصمت. كانت شعاعات رائعة من الشمس تتعلق في الفضاء مثل أشرطة زاهية مذهبة ، وفي مكان ما ينعق غراب بشع الصوت . وراحت الام تحمّج عينيها في الاشياء المحتفّة بها ، وقد أزعجتها ذكريات اول أيار ، واشتياقها الى بافل وأندريه معاً . وكانت براميل فارغة من القطران مبعثرة في الساحة الصغيرة ، مختلطة هنا وهناك بجذوع أشجار مشذبة مقطوعة عن أرومتها . وعلى حافة الساحة تقف اشجار السندان والأبنوس دون حراك يوحّد الصمت بينها ، وهي تلقي على الارض بظلال دافئة سود .

وعلى حين بغتة ، صدَر ياكوف عن الشجرة ، وخطا جانباً واستفسر بصوت مرتفع ، وهو يرمي رأسه الى الخلف :

– أضدّ فتيان مثله سيرسلون بنا ، أنا وييفيم ؟

فأجاب ريبين :

– وضدّ من تظنهـــم سيرسلون بكما اذن ؟ انهم يستعملون ذات ايدينا ليخنقونا بها . ذلك هو سر اللعبة كلها .

فزفر ييفيم في جفاء :

– ولكنني سألتحق بالجيش على أية حال .

وصاح اغناطيوس :

– ومن يمنعك عن ذلك ؟ هيا اذهب .

ثم اضاف ، باعثاً ضحكة قصيرة :

– لكن اعمل على تسديد المرمى الى رأسي تماماً عندما تطلق النار عليّ . . . لا تجعل مني مُقعداً ، بل اقتلني رأساً ، بطلقة واحدة .

فردّ عليه ييفيم في حدة وجفوة :

– سمعت منك هذا قبلاً .

وقال ريبين ، وهو يرفع يده :

– انظروا لحظة ، ايها الفتيان . هذه امرأة (وأشار الى الام) ، لا ريب ان الأمر قد انتهى بالنسبة الى ابنها . . .

فسألته الام في ألم :

– فيمَ تقول هذا ؟

فأجاب في وقار :

– لا مناصَ من ذلك . وهكذا فان شعرك لن يشيب عبثاً . هل تعتقدون أنهم قتلوها بما فعلوا بابنها ؟ نيلوفنا ، هل جئت بالمناشير ؟

فحدجته الام بنظرها ، ثم وافقت بعد صمت قصير :

– نعم ...

فزمجر ريبين ، وهو يضرب المائدة بقبضة يده :

– هل رأيتم ؟ لقد عرفت ذلك منذ اللحظة التي رأيتها فيها . وإلا فما الذي جاء بكِ حتى هذا المكان ؟ هل أدركتم هذا ؟ لقد انتزعوا ابنها من بين الصفوف ... فأخذت أمه مكانه .

وأرسل يميناً مغلظة ، وهو يهز قبضته في الفضاء .

نظرت الام في وجهه ، وقد ذعرت لصياحه هذا، فألفته قد تبدل كثيراً : أصبح اكثر نحولاً ، وأضحت لحيته شعثاء ، تبدو من تحتها عظام وجنتيه البارزة ، وقد ظهرت في بياض عينيه المزرق أوردة حمر دقيقة ، فكأن لم ينمْ منذ زمن طويل ، وانقرس أنفه وتقوس فأضحى كمنقار عصفور مفترس . وكان قميصه المفتوح ، الاحمر اللون فيما سبق من الزمان والمشرَّب الآن بالقطران الفاحم ، يكشف عن عظام ترقوتيه الناتئتين ، وشعر صدره الكثيف الاسود . وكان مظهره العام أكثر عبوساً واكتئاباً منه في اي وقت مضى ، وفي عينيه الملتهبتين تتأجج نار غضبى ، وجهه القاتم وتغمره بالنور .

كانت صوفيا تجلس في صمت ، يفوق اصفرارها شحوبة ، معلقة انظارها أبداً بهؤلاء الفلاحين . اما اغناطيوس فيهزُّ رأسه وقد زوَّى ما بين عينيه ؛ بينا راح ياكوف ، وقد اتخذ مكانه من جديد بجانب الكوخ ، ينزع بمرحٍ بعض قشور الشجرة القريبة منه ، ويفيم يتمشى جيئة وغدوة على طوال المنضدة ، خلف ظهر الام ... واسترسل ريبين يقول :

– قبل فترة قصيرة دعاني مدير ناحيتنا اليه ، وقال لي : « ما هذا الذي ترويه

للكاهن ، يا ايها الوغد ؟ » . فقلت له : « إني اكسب خبزي بعرق جبيني ، ولا أنال أحداً من الناس بأذى » . فأخذ يزعق في وجهي ، ولطمني على أسناني ، ثم ألقى بي في السجن طوال ثلاثة أيام . ولقد فكرت : « اذن فهكذا أنتم تخاطبون عامة الناس ، أليس كذلك ؟ إذن فلا تنتظر منا ان ننسى ذلك ، يا أيها الشيطان العجوز ؟ فإذا لم أثأر منك أنا ، فان سواي سيفعل ، ويثأر لاهانتي منك او من اولادك ـ لا تنسَ هذا ! لقد حرثتم صدور الناس بمخالبكم الفولاذية هنا ، وزرعتم الحقد هناك ، فلا تنتظروا اذن أية رحمة ، يا ايها الابالسة » ! تلك هي القضية !

كان وجهه محتقناً بما يفور في صدره من غيظ عنيف ، وفي صوته نبرات أثارت الذعر في قلب الام .

وتابع في هدوء اعظم من ذي قبل :

– وما الذي قلته للكاهن ؟ كان يجلس الى بعض الفلاحين يتحدث اليهم بعد ان قام بجولته المعتادة في القرية ، يتحدث اليهم قائلاً ما معناه ان عامة الناس قطيع من الغنم يحتاج ابداً الى من يرعاه . حسناً ، لقد قلت له في شبه مزاح : « اذا ما أقاموا الثعلب مرة رئيساً على الحيوانات ، فان الأرياش هي التي ستطير بدل العصافير » . فهزّ رأسه يتوعدني ، وراح يعظ كيف ينبغي للناس ان يتعذبوا طويلاً ، وان يصلوا الى الله كي يهبهم القوة لتحمل تجاربهم ومصائبهم . فقلت له عندئذ : « ان الناس لا ينقطعون عن الصلاة في حالهم الحاضرة ، ولكن الله فيما يبدو مشغول جداً عن الاصغاء اليهم ما دام لا يستجيب لاية صلاة من صلواتهم » . حسناً ، لقد سألني عندئذ عن الصلوات التي أتلوها ، فأجبته : « صلاة واحدة لم تتبدل طوال حياتي ، مثلي في ذلك مثل عامة الناس. ايها الرب العزيز ، أرجو ان تعلمني كيف آكل الحجارة ، وكيف أبصق ألواح الخشب ، وكيف أجر قطع القرميد الى قصور الاسياد » . ولكنه لم يعطني الفرصة كي أنهي كلامي .

واستدار ريبين بغتة الى صوفيا ، وسأل :

– أأنت سيدة من طبقة النبلاء ؟

فسألت صوفيا بسرعة ، وهي تنتفض دهشة :

– لِمَ من طبقة النبلاء ؟

فقال ريبين ضاحكاً :

– لِمَ ؟ لانك ولدت هكذا فيا أعتقد . انه نصيب كل انسان ان يكون ما وُلِدَ . حسناً ، أتظنين انه في استطاعتك إخفاء خطايا الاسياد تحت هذا الوشاح القطني الذي تغطين رأسك به ؟ اننا نعرف الكاهن ولو رأيناه محزوماً في كيس من الخيش . انك ترتعشين وتكشرين اذا ما وقع مرفقك على سائل أهرق على المائدة . وان ظهرك لكثير الاستقامة بالنسبة لامرأة عاملة ...

فتدخَّلت الام في الموضوع ، وهي تخاف ان تؤذي كلماته الساخرة القاسية شعور صوفيا . قالت :

– انها صديقتي ، يا ميخائيلو إيفانوفيتش ، وامرأة طيبة رائعة . لقد شاب شعرها وهي تعمل في سبيل قضيتنا . انك تذهب الى ابعد مما ينبغي ...

فأطلق ريبين زفرة عميقة ، وقال :

– ولكنني لم أقل شيئاً يسيء الى اي انسان كان !

فعقّبت صوفيا في جفاء :

– أظنك كنت تريد ان تقول لي شيئاً ؟

– أنا ؟ آه ، نعم ! لقد جاء الى هنا ، قبل زمن غير بعيد ، فتىً في ريعان الصبا هو ابن عم ياكوف . انه مريض بالسل . هل أرسل في طلبه ؟

فجزمت صوفيا :

– بكل تأكيد .

فحدجها ريبين من خلال عينيه المتضيقتين ، ثم التفت الى ييفيم قائلاً بصوت خافت :

– إذهب واطلب اليه ان يأتينا هذا المساء .

فتناول ييفيم قبعته ، ثم اختفى في الغابة دون ان يقول شيئاً او ينظر الى أحدٍ من الحاضرين . وأشار ريبين نحوه برأسه ، ثم أعلن :

– انه يتألم كثيراً هذه الايام . وسيُطلب قريباً مع ياكوف الى خدمة العلم . وياكوف لا يهـتم بذلك ، بل يقول : « لست استطيع الذهاب » . وذلك لا يستطيع الذهاب ايضاً ، ولكنه سيذهب مع ذلك . وهو يعتقد ان في مكنته تحريض الجنود . أما انا فأراهن انه يشبه الوعل الذي ينطح الصخرة ليوهنها . يكفي ان ينظر المرء اليهم ... اذا ما وُضعت حربة في ايديهم مرة انطلقوا لا يلوون على أي شيء آخر . وقد تألم كثيراً بسبب ذلك حتى الآن ، واغناطيوس هذا يضرب دائماً على ذات الوتر . هذا عبث كله !

فقال اغناطيوس مكتئباً ، من غير ان يتطلع الى ريبين :

– بل على العكس فيه المعنى كله . انهم سيطبخونه هناك ، ولسوف يطلق الناس من أجلهم مثل الآخرين تماماً .

فأجاب ريبين متألماً :

– لا أصدّق هذا وإن كان يَفْضُل ألا يذهب مطلقاً . ان روسيا بلد واسع – فأين يمكنهم العثور عليه ؟ عليه ان يحصِّل جوازاً مزيفاً ثم يتنقل من قرية الى اخرى .

فأفاض اغناطيوس ، وهو يلطم قدمه بقضيب رفيع :

– هذا ما سأفعل أنا . فاذا أنت قررت ان تكافحهم مرة فلا بدَّ لك من الذهاب قُدُماً باستمرار .

وانقطع الحديث ... كانت جموع النحل والزنابير تحوم في الفضاء في انهماك واضطراب ، مالئة الهواء بدويّها المزعج . وكانت العصافير تزقزق ، وأغنية بعيدة تتيه عبر الحقول على غير هدى ...

قال ريبين بعد صمت قصير :

– حسناً ، حان حين العودة الى العمل . لعلكما تودّان ان تنالا بعض الراحة ، ثمة ُفرش في الكوخ . إذهب واجمع بعض الاوراق الجافة ، يا ياكوف . أما أنت ، يا أماه ، فأعطيني المناشير .

فشرعت الام وصوفيا تحلّان خرجيهما ...

صاح ريبين سعيداً مبتهجاً ، وهو ينحني فوق الكتب :

– ما اكثر ما جلبتما ! أأنت تشتركين في هذا العمل منذ زمن طويل، يا... ما اسمك ؟

فأجابت صوفيا التي وجّه اليها السؤال الاخير :

– أنـّا إيفانوفا . اثنتا عشرة سنة . لِمَ السؤال ؟

– لا شيء على التعيين . لا ريب انك دخلت السجن ؟

– نعم !

فقالت الام بلهجة عتاب :

– هل ترى ؟ ولقد كنتَ قاسياً تجاهها ...

فغمغم بعد فترة صمت تناول خلالها رزمة من الكتب :

– لا تغضبي . ان السادة والفلاحين يشبهون القطران والماء ، لا يتمازجون .

فاعترضت صوفيا ، وهي ترسل ضحكة قصيرة :

– ولكنني لست من الاسياد . إنما أنا كائن بشري .

فجمجم ريبين :

– ربما ! يقال ان الكلاب كانت ذئاباً فيما غبر من الزمن . أنا ذاهب اخبىء هذه البضاعة .

فاقترب منه اغناطيوس وياكوف وقد مدّا أيديهما . قال ياكوف :

– دعنا نطلع عليها .

فسأل ريبين صوفيا :

– أمحتوياتها واحدة ؟

– كلا ، بينها بعض المناشير ، وكذلك بعض الصحف .

– حقاً ؟

وأسرع ثلاثتهم يـــدلفون الى الكوخ ... بينما راحت الام تشيّع ريبين بنظرها ، وهي تقول مفكرة متأملة :

– ان الموجيك يلتهب .

فردّت صوفيا :

– أجل ، اني لم أرَ مثل وجهه من قبل – وجه شهيد . فلندخل نحن ايضاً. لفي نيّتي مراقبته !

فقالت الام في وداعة ولطف :

– لا تغضبك قسوته .

فضحكت صوفيا ، وقالت :

– ما أطيبك ، يا نيلوفنا !

ولما بلغتا العتبة رفع اغناطيوس رأسه ، وجسهما بنظرة سريعة ، ثم أرسل

أصابعه في شعره المجعد ، وانحنى فوق الصحيفة المنشورة على ركبتيه . كان ريبين يقف تحت شعاع من الشمس يتسلل من فرجـــة في السقف ، وهو يقرأ صحيفته على نوره ، ويحرك شفتيه أثناء ذلك . اما ياكوف فقد جثا أمام كومة من المناشير المنشورة على الدكة .

عبرت الام الكوخ الى احدى زواياه وجلست ، بينما وقفت صوفيا خلفها وقد وضعت إحدى يديها على كتفها تراقب الرجال في سكون .

قال ياكوف في هدوء ، دون ان يرفع رأسه عن صحيفته :

– إنهم يشبعوننا شتماً ، نحن الفلاحين ، ايها العم ميخائيلو .

فأرْغَـفَ إليه ريبين ، وضحك قائلاً :

– ذلك لانهم يحبوننا .

فأرسل اغناطيوس نَـفَـساً عميقاً ، ورفع رأسه :

– ان الصحيفة تقول هنا : « قد ضيّع الفلاح كل صـلة بالكائن الانساني » . بالطبع ضيّع ذلك .

ومرّ على وجهه البسيط الصريح السيماء ظلّ إهانة وإذلال .

– تعال وتسلق مكاني نفسه ، ايها العالم العظيم ، وابقَ ههنا مدة ، ولسوف نرى ماذا تشبه عندئذ .

وقالت الام لصوفيا :

– سأضطجع قليلاً . اني متعبة نوعاً ما ، وهذه الرائحة تكاد تفقدني الوعي . وأنتِ ؟

– لست أريد شيئاً .

تمدّدت الام على دكة في الزاوية وشرعت ثقـــلة الكرة تدبّ في أجفانها .

وجلست صوفيا الى جانبها تراقب القرّاء ، وهي تطرد في رفق وحنان كل نحلة او زنبور يقترب من المرأة العجوز فيعكّر صفوَ راحتها . ولاحظت الام ، من خلال أهدابها المسبلة ، هذا الحنان وذلك الرفق ، وكانت بها سعيدة .

زرفَ ريبين إليهما ، وقال في همس أجش :

– نائمة ؟

– نعم .

فوقف فترة يتطلع في وجه الام في سكون ، ثم تنهد وقال بصوت خفيض:

– إنها الاولى ، من دون أدنى ريب ، التي تبعت ابنها في هذه الطريق .

– يجب ألا نزعجها ، هيا بنا ...

– نعم يجب ان نعود الى العمل . وبودّي ان أحادثك قليلاً ، ولكن لا بدّ من تأجيل ذلك حتى المساء . هيا بنا ، أيها الفتيان .

وخرج ثلاثة مخلفين صوفيا وراءهم في الكوخ ...

وجعلت الام تفكر :

– شكراً لله على انهم تصادقوا .

واستغرقت في النوم ، ورائحة الغابات والقطران تملأ خيشوميها ...

٦

رجع الفحامون الاربعـــة والشمس تكاد تكون دنـَفاً ، مبتهجين بانصرام يوم العمـــل ، فأيقظت ضوضاء أصواتهم الام التي خرجت من الكوخ تتثاءب وتبتسم ، وتلقي عليهم نظرة حنوناً وهي تقول :

– أنتم هناك تعملون وتتعبون ، وانا أنام ههنا مثل سيدة عظيمة .

فأجاب ريبين :

– انت معذورة في هذا .

كانوا اكثر هدوءاً بعد ان بعثر الاجهاد انفعالهم وطاقتهم الفائضة ...

وعاد ريبين يقول :

– اغناطيوس ، ما رأيك في قليل من الشاي ؟ نحن نتناوب الدور هنـا ، واليوم دور اغناطيوس في الاشراف على الطعام والشراب .

وقال اغناطيوس ، وقد شرع يجمع العيدان وبعض الاغصان اليابسة ليُجمر بها ناراً :

– أكون سعيداً ان وجدت من يبادلني نوبتي هذا اليوم .

فأجاب ييفيم ، وهو يجلس الى جانب صوفيا :

– لست الوحيد الذي يودُّ البقاء الى جانب الضيفتين .

وقال ياكوف :

– سأمدُّ لك يد المعونة ، يا اغناطيوس .

وهدَف الى الكوخ ثم رجع برغيف من الخبز قطـّعه أقساماً صغيرة وضعها على الطاولة .

قال ييفيم :

– أصغوا ! اسمع صوت سعال ...

فأصاخ ريبين بسمعه ، وهزّ رأسه ، ثم التفت الى صوفيا موضحاً :

– انه هو دون ريب . هذا شاهد حي قادم . لو كنت أملك حرية التصرف لذهبت به من مدينة لأخرى أعرضه في الساحات العامة حتى يتمكن الناس من سماعه ! انه ابداً يعزف على الوتر نفسه ، ولكن واجب كل إنسان ان يأذن له أحسن الاذ َن .

وازداد كلا الظلام والسكون عميقاً ، ورقـّت أصوات الرجـــال الاربعة ورقت عذوبة ، وراحت صوفيا والام تراقبان هؤلاء الفلاحين : انهم يتحركون في بطء وتثاقل بفعل التعب والاجهاد ، وفي شيء من الحذر ايضاً . ويراقبونهما بدورهم ايضاً في أناة وانتباه .

وبرز من الغابة شخص طويل القامة ، محدوب الظهر ، يعتمد في مسيره على عصاً غليظة ، ويتنفس بصعوبة جمة لم تخفَ على احد من الحاضرين .

قال :

– ها أنذا .

ثم راح في نوبة عنيفة من السعال ...

كان يرتدي معطفاً مهترئاً يبلغ عقبيه ، ومن تحت قبعته المستديرة الممزقة

تبدو خصل ناحلة من شعر أصفر مسبل تتدلى على صدغيه في إهمال وضعف . وكانت لحية شقراء تسبغ على وجهه الشاحب بعض الرونق ، فيما لا تبرح شفتاه منفرجتين ابداً ، وعيناه تبرقان في حمى شديدة وهما تغوصان في محجريهما الغائرين اللذين أشبها كهفين قاتمين مغرقين في الظلمة . توجه الى صوفيا قائلاً ، بعد ان قدمها ريبين إليه :

– بلغني انك جلبتِ كتباً معك ؟

فأبانت :

– أجل .

– شكراً لك ، بالنيابة عن الشعب بأسره ... إنه لا يستطيع إدراك الحقيقة بعد . اما انا الذي أعرفها فأشكرك ... بالنيابة عنه .

وتسارع تنفسه ، وهو يختطف الهواء بجرعات صغيرة نهمة . كان صوته متكسراً متقطعاً ، وأصابعه الرقيقة تنزلق باستمرار على صدره بعصبية ظاهرة وهو يحاول ان يُبكل أزرار معطفه .

قالت صوفيا :

– ان قدومك عبر الغاب في مثل هذه الساعة المتأخرة من المساء أمر لا يصلح لك ، فالاشجار تجعل الهواء رطباً ثقيلاً كما تعلم .

فأجاب لاهثاً منقطع الانفاس :

– لم يعد شيء يصلح لي بعد اليوم . الموت وحده يصلح لي الآن .

كان الانصات الى صوته يؤلم كثيراً ، ومجمل شخصه يثير في النفس تلك الشفقة الفائضة العديمة النفع ، المدركة عجزها بحيث تبعث في الانسان مزيجاً من الأسف والمرارة الشديدين . واقتعد القادم الجديد احد البراميل ، وهو يطوي ركبتيه في حذر وحيطة كثيرين ، فكأنه يخاف ان تنكسرا ؛ ثم شرع يمسح

العرق عن جبهته حيث يرتمي شعره جافاً عديم الحياة. وحبحبت النار والتظت، فاضطرب كل ما يحيط بها وترنح، واندفعت الظلال التي لحسها اللهيب نحو الغابة في ذعر، بينما لاح وجه اغناطيوس المستدير بوجنتيه الملتهبتين فوق النار برهة من الزمن. ثم خبا اللهب فانتشرت في الفضاء رائحة دخان حادة، ومن جديد ساد الظلام والسكون الساحة، فكأنهما يتربصان لسماع كلمات الرجل المريض المبحوحة.

– أستطيع بعد ان اكون ذا نفع لعامة الناس ... كشاهد حي على جريمة عظمى – أنظروا إليَّ ههنا ... أموت في سن الثامنة والعشرين ... قبل عشر سنوات كنت أرفع على كتفي دون أدنى عناء ما ينيف عن المائتين من الكيلوغرامات. وكنت أفكر أني أستطيع بكل سهولة، بتلك البنية المتينة التي أتمتع بها، ان أعيش حتى السبعين ... ولكني لم أعشْ اكثر من عشر سنوات ... والآن ... إنها النهاية. لقد سرقني رؤسائي ... سرقوا مني اربعين سنة من حياتي ... أربعين سنة.

وقال ريبين بصوت أجش:

– تلك هي الأغنية التي يغنيها ابداً.

وتأججت النار مرة أخرى، اكثر لمعاناً وقوة؛ ومرة أخرى هربت الظلال الى الغابة، ثم اندفعت راجعة حتى اللهيب وشرعت ترتجف حوله في رقص عدائي أخرس. وراحت العيدان الرطبة تئن وتصرصر، وأوراق الاشجار تخشخش ثائرة في تيار الهواء الدافىء. وتعانقت ألسنة مرحة من لهب أحمر وأصفر وهي تلعب في نشاط وحيوية، وتبعثر باقات من الشرر إذ تندلع متطاولة في الفضاء الواسع. وحلقت ورقة متفحمة في الهواء، وفي سماء الليل ابتسمت النجوم باشة للأرض، هاشة للشرر تناديه في إغراء ان يأتي إليها.

– ليست هي أغنيتي، بل النشيد الذي يغنيه ألوف البشر من غير أن

يحول في إدراكهم أية أمثولة عظيمة للشعب هي حيواتهم البائسة الشقية ... كم من الناس الذين أقعدهم العمل وشوّههم يقضون جوعاً ... دون من يدري بموتهم ...

وانطوى على نفسه ، مرتجفاً ، وقد انتابته نوبة عنيفة من السعال .

وضع ييفيم جردلاً من الكفاس وجرزة من البصل الاخضر على المائدة ، وقال :

– تعال ههنا ، يا سافيلي ، لقد جئتك بقليل من الحليب .



صوفيا

فهزّ سافيلي رأسه نفياً ، ولكن ياكوف أخذه من ذراعه ، وقاده حتى الطاولة .

قالت صوفيا لريبين بصوت خافت ولهجة عتاب :

– لماذا تأتون به إلي ؟ قد يموت بين لحظة وأخرى .

فأجاب ريبين موافقاً :

– أعلم هذا ، لكن فليتكلم في انتظار ذلك ما استطاع الى الكلام سبيلاً . لقد ذهبت حياته دون جدوى ، فليتحمّل بعض العذاب ايضاً من أجل غاية نبيلة . وليس هذا بالشيء الكثير عليه ، فلا تقلقي ...

فهتفت صوفيا :

– لكأنك تتلذذ بذلك ؟

فحدجها ريبين بنظرة ، ثم قال في اكتئاب :

– انهم سادتكم الذين يتلذذون بالاعجاب بيسوع المسيح عندما ينظرون اليه يتأوه على الصليب ويتعذّب . لكننا نريد ان نتلقى درساً من هذا الرجل ، ونريدكم على ان تأخذوا درساً أنتم ايضاً ...

فرفعت الام احد حاجبيها ، في قلق وقالت :

– يكفي هذا الآن .

ومرة أخرى ، عاد الرجل المريض يقول من حيث جلس الى المائدة :

– لماذا يقتلون الناس بالعمل ؟ لماذا يسرقون الانسان حياته ؟ ان مديرنا – لقد ضيعت حياتي في مصنع نيفدوف – ان مديرنا قد أهدى لاحدى المغنيات طستاً وابريقاً من الذهب كي تغتسل بهما . لا بل اهدى لها أصيصاً من الذهب لتضعه تحت سريرها . ان قواي وحياتي ذهبت جميعاً في هذا الأصيص ! ذلك

ما وهبت حياتي من أجله اذن ! ان رجلاً قد أفناني في العمل حتى يستطيع تسلية عشيقته بدم حياتي ! ابتاع لها أصيصاً من الذهب بدم حياتي .

وقال ييفيم في احتقار :

– لقد خُلق الانسان على صورة الله ومثاله ، واليكم ما يفعلون به .

فزعق ريبين ، وهو يضرب المائدة براحة يده :

– ولكن يجب ان تعلن ذلك على رؤوس الاشهاد !

وأضاف ياكوف بصوت خافت :

– يجب ألا تتحمله خاضعاً !

وأرسل اغناطيوس ضحكة قصيرة . ولاحظت الام ان هؤلاء الفتيان الثلاثة يصيخون السمع الى ريبين بانتباه عظيم كلما فتح فاه بالحديث ، يتلقفون الكلام منه في فضول النفوس الجائعة ولهفتها غير المرتوية . ولكن كلمات سافيلي حملت الى وجوههم ابتسامة غريبة تحـــوي معاني كثيرة واضحة من السخرية والتهكم ، خالية من أية ذرة من الاشفاق والرثاء للرجل المريض .

همست الام بصوت خافت ، وهي تنحني نحو صوفيا :

– أهي الحقيقة ما يقول ؟

فأجابت صوفيا بصوت مرتفع :

– ذلك صحيح طبعاً . لا بل إنهم كتبوا شيئاً عن هذه الهدايا في صحف موسكو .

وقال ريبين بصوت أجش :

– ولكن المجرم لم يُعاقَب أبداً . وكان يجب ان يُعاقَب ، كان يجب ان يُقاد الى الساحات العامة ، أمام سائر الناس ، وان يُقطع إرباً إرباً ثم يُطرح

لحمه المتفسخ الى الكلاب . أواه ! انه لقصاص عظيم ذلك الذي سينزله الشعب بهم عندما ينهض . سوف يُهرق الكثير من الدماء حتى يغسل الآلام التي عاناها . وتلك الدماء هي دماؤه نفسها ، قد امتصّت من أوردته عينها ، فله الحق إذن ان يفعل بها ما يحلو له .

وقال الرجل المريض :

– الطقس بارد .

فساعده ياكوف على النهوض والدنو من النار ...

كانت النار تتأجج في تألق عظيم ، وظلال عديمة الهيئة ترتجف حولها ، تراقب في دهشة وذهول ألاعيب اللهيب المرح . واقتعد سافيلي أرومة قرب النار ، ومدّ يديه الجافتين الشفافتين نحو مصدر الحرارة . أشار ريبين اليه بحركة من رأسه ، وتوجه الى صوفيا قائلاً :

– إنه يجعل الامور أوضح منها في الكتب !... عندما تقتل الآلة عاملاً او تنتزع احدى ذراعيه يقولون انها خطيئته هو . أما عندما يمتصون كل الدم من فتى في مقتبل العمر ، ثم يلقون به كالجيفة النتنة ، فذلك أمر لا تفسير له . أستطيع أن أفهم القتل المباشر ، ولكن تعذيب امرىء حتى الموت لمجرد ما في ذلك من تسلية ليس غير ، هذا ما لا أستطيع له فهماً . لماذا هم يعذبون الشعب ؟ لماذا هم يعذبوننا جميعاً ؟ لمجرد ما في ذلك من تسلية لهم ، من اجل لذتهم الخاصة ، بحيث يمتعون أنفسهم على هذه الارض ، وبحيث يستطيعون شراء ما يشاؤون بالدم البشري ثمناً له ... يشترون مغنيات الاوبرا ، وجياد السباق ، وسكاكين الفضة ، وصحون الذهب ، ودمى ثمينة من اجل أولادهم : «اذهب انت واشتغل، اشتغل اكثر حتى اجمع مالاً من عنائك ابتاع به لعشيقتي إناء من الذهب » .

كانت الام تستمع اليه بأذنيها وتراقب بعينيها ، وتلك الطريق اللامعة التي اختارها بافل ورفاقه تمتدّ من جديد أمام عينيها في ظلمة الليل الأدجن .

وعندما انتهى العشاء اقتربوا جميعاً من النار يحتفون بها ... كانت ألسنة اللهيب تلعق الخشب في شرهٍ عظيم ، والى الخلف منهم يرتفع ستار من الظلمة يكتنف الغابة والسماء معاً ... وقعد الرجل المريض يشخص الى النار بعينين واسعتين ... وهو يسعل دون انقطاع ، ويرتجف فكأن بقية الحياة فيه تناضل بفارغ الصبر كي تحرر نفسها من هذا الجسد الذي أرهقه المرض فناءً به. وكانت انعكاسات النار تتراقص على وجهه عاجزة عن إحياء جلده الميت ... عيناه وحدهما كانتا تلتمعان بنار تخبو وتموت .

وانحنى ياكوف عليه ، وقال :

– ربما من الافضل ان تدخل الكوخ ، يا سافيلي .

فاستفهم الرجل المريض ، وهو يبذل جهداً كبيراً :

– لمَ ؟ لمْ يبقَ لي وقت طويل أتمتع فيه بصحبة الناس .

ونظر حواليه ، ثم قال بعد صمت قصير :

– ما أحسن ان اكون معكم . عندما أنظر إليكم أفكر : لربما ستنتقمون لأولئك الذين سُرقوا ، أولئك الذين قتلوا في سبيل الجشع .

لم يجبه أحد ، وسرعان ما استغرق في النوم ، وقد مال رأسه في ضعف على صدره ، فنظر ريبين إليه طويلاً ثم قال في هدوء :

– يأتي ، ويجلس هنـــا ويتكلم دائماً عن الشيء نفسه : الكائن البشري المخدوع . ان نفسه بأسرها طافحة بهذه القصة ، فكأنها ملصقة على عينيه فهو لا شيئاً سواها على الاطلاق .

فقالت الام متأملة :

– وما عساه يرى سوى ذلك ؟ اذا كان آلاف الناس يقتلهم العمل يوماً بعد

يوم حتى يستطيع مدراؤهم ان يبعثروا المال ذات اليمين وذات اليسار على سائر أنواع السخافات والهراء ، فما عساه يرى سوى ذلك ؟

وقال اغناطيوس :

– ان الاستماع اليه مضجر ، فأنت اذا وعيت قصته مرة استحال عليك نسيانها بعد ذلك ، وهو لا ينفكُّ يعزف اللحن نفسه دون انقطاع .

فأجاب ريبين في اكتئاب :

– وفي هذا اللحن حُشر كل شيء بالنسبة اليه ، الحياة بأسرها ...

يجب ان نفهم ان ذلك ، لقد سمعت قصته عشرات المرات ، ومع ذلك ما برحت أرعى بعض الشكوك . ثمة لحظات في الحياة يرفض المرء فيها ان يصدق ان الانسان خسيس أبله هكذا ، بل يُحبُّ سائر الناس ويشفق عليه ، الاغنياء والفقراء على حد سواء ... فالغني ايضاً قد ضلّ الدرب القويمة . تعمى عيون البعض من البرد والجوع ، وعيـــون بعض الآخر تعمى من الذهب . تلك هي القضية ! وعندئذ يفكر : « أواه ! أيها القوم الطيبون ، إخوتي ، هلا تتحركون وتفكرون باخلاص ! تفكرون دون خوف ودون ان توفروا أنفسكم ! »

وعرت الرجـــل المريض انتفاضة ، ففتح عينيه ، ثم استلقى على الارض ، فنهض ياكوف دون ضوضاء ، ودلف الى الكوخ ، ثم رجع بغطاء من جلد الغنم ألقى به فوق ابن عمه ، ثم جلس من جديد الى جانب صوفيا .

كان اللهيب ذو الوجه القرمزي والابتسامة المتحدية ينير الاجساد السود التي تحيط به ، وأصوات الاصدقاء تمتزج بلطف بطقطقة الاخشاب العذبة وهمس النيران الرقيق .

وشرعت صوفيا تتحدث عن نضال شعوب العالم في سبيل حقهم في الحياة ، وثورات فلاحي ألمانيا القديمة ، وكوارث الارلنديين ومصائبهم ، وبطولات العمال الفرنسيين العظيمة وانتصاراتهم في معاركهم العديدة من أجل الحرية ...

وراحت تلك الحوادث التي زعزعت عالم المتخمين والجشعين تُبعث الى الحياة في الغابة المكسوة برداء من المخمل الاسود يلقيه الليل على اكتافها ، وفي الساحة الصغيرة المحـــدودة بالأشجار ، المسقوفة بالليل القاتم ، المضاءة بلهب النار الضاحكة ، المحاطة بالظلال المدهوشة المعادية . وفي الوقت ذاته راحت شعوب العالم تمرُّ مترادفة ، دامية انهكتها المعارك ، وأسماء المناضلين من أجل الحرية والحقيقة تتردد ، الواحدة تلو الآخر ، في تألق رائع جميل .

كان صوت صوفيا الأجش قليلاً يرنُّ في رقة ، مثل صوت يأتي من الماضي السحيق ، يوقظ الآمال ويوحي بالثقة . وكان الرجال يصغون في سكون الى قصة إخوانهم في الروح في البلدان الاخرى ؛ وبينما هم ينظرون في وجه المرأة النحيل الشاحب ، راحت القضية المقدسة لسائر شعوب الارض ، قضية النضال الذي لا ينتهي من أجل الحرية ، تزداد أمام أعينهم وضوحاً ، وتصبح أقرب منالاً من مداركهم وافهامهم . وكان كل من الموجودين يلقي مطامحه وأفكاره في ماض بعيد يغطيه ستار مظلم دامٍ ، او يلقاها عنـــد شعوب بعيدة أخرى مجهولة لديه لم يسمع عنها شيئاً حتى ذلك الحين ، فيروح يسهم ، قلباً وفكراً ، في حياة العالم حيث يجد أصدقاء وحّدهم منذ زمن طويل العزم على تحقيـــق العدالة على الارض ، موطدين ذلك العزم بما عانوا من آلام لا تقاس ولا تحصى ، وبما هدروا من دمائهم أنهاراً في سبيل تفتح حياة جديدة ، نـيِّرة ، سعيدة . وكان الشعور بالقرابة الروحية مع سائر الناس يفيض وينمو ، وقلب جديـد يولد على الارض ، قلب يخفق بطموح ملتهب الى معرفة كل شيء ، والاطاحـــة بكل شيء .

كانت صوفيا تقول بصوت مفعم بالثقة والايمان :

— سوف يأتي ذلك اليوم الذي يرفع سائر شغـيِّلة العالم فيه رأسهم بشموخ ويقولون في عزم وتصميم : لقد اكتفينا ! وإننا لنأبى المزيد من هـــذه الحياة الشائنة . وعندئذ تنهار تلك السلطة الوهمية التي يتمتع بها أولئك الذين ليسوا

إلا بنهمهم وجشعهم . وتهرب الارض من تحت أقدامهم فلا يجدون بعد ذلك ما يتشبثون به ...

وقال ريبين ، وهو يطرق برأسه :

– تلك هي القضية ! ليس هناك ما لا نستطيع له تحقيقاً إذا نذرنا أنفسنا له وبذلنا جهدنا في سبيله .

كانت الام تنصت وقد ارتفع حاجبها الواحد عالياً وجمدت على شفتيها ابتسامة ذهول فرحة ... كانت ترى ان كل ما بدا لها في صوفيا من حدة ونزق – كل ما فيها من مغايرٍ لطبيعتها غير ملائم لها – قد تلاشى الآن وذاب في سيل حديثها الملتهب السوي . وأبهجها سكون الليل ، وتلاعب النار ، ومحيا صوفيا، وأكثر من كل شيء آخر ذلك الانتباه الفائق الذي يعيرها إياه الفلاحون . كانوا جموداً يبذلون قصارى جهدهم كيلا يعكروا مجرى روايتها الهادىء ، خائفين ان يقطعوا ذلك الخيط النير الذي يربطهم بالعالم كله ويوحدهم معه . وبين الحين والحين ، كان أحدهم يضع في حذر شديد حطبة في النار حتى اذا ارتفعت باقات الشرر والدخان أبعدها عن المرأتين بحركاتٍ سريعة من يده .

ومرة نهض ياكوف على قدميه ، ونبر بصوت خفيض :

– انتظروا لحظة ...

وهرول الى الكوخ وعاد منه ببعض الثياب لفَّ بها ، هو وأغناطيوس ، أكتاف المرأتين وأقدامهما في سكون . وعادت صوفيا تتحدث من جديد فترسم لوحة عن يوم النصر ، وتفج في الحضور قوتها الخاصة ، وتوقظ فيهم شعوراً بوحدتهم مع سائر أولئك الذين يضحون بحياتهم في جهد ضائع يبذلونه في سبيل تسلية المتخمين الحمقى . ولم يضطرب قلب الام لكلام صوفيا ، ولكن ذلك الشعور العميق الذي أثارته روايتها في نفوس الجميع ملأ قلبها في الوقت ذاته رضى وإخلاصاً لسائر أولئك الذين يخوضون غمار الاخطار ، واقفين حياتهم على

ايصال منح المحبة والحقيقة والتفكير الشريف الى الذين غلّلتهم أصفاد العمل الثقيلة وأرهقتهم قيوده .

كانت تفكر ، وهي تسبل جفنيها على عينيها :

— كن لهم عوناً ، يا ربّ .

وعنـــد الفجر ، لجأت صوفيا ، متعبة ، الى الصمت وهي ترمق بابتسامة لطيفة ما يحيط بها من وجوه عابسة ، غارقة في التفكير .

قالت الام :

— قد آن لنا ان نرحل .

فرددت صوفيا في إعياء :

— نعم ، لقد آن لنا .

وصعّد واحد من الفتيان زفرة عالية ، بينما طفق ريبين يقول في عذوبة غير مألوفة عنده :

— من سوء الحظ أنكما ذاهبتان . انت تتكلمين بصورة رائعة . وانه لأمر عظيم حقاً ان تجعل الناس يعون وحدتهم وقرابتهم . وعندما يعرف المرء أن ملايين الكائنات تريد نفس الشيء الذي يسعى من أجله ، فان قلبه يزداد لطفاً ، وطيبة القلب قوة عظيمة .

فغمغم يفيم بصوت مخفوض ، وقد نهض في عجلة وخفة :

— لو عاملتَ الناس في طيبة لانهالوا عليك بالجرفة من وراء ظهرك . ينبغي عليك الرحيل ايها العم ميخائيلو ، قبل ان تقع عين احد عليهما . اذ لن نوزع الكراسات حتى تقوم السلطات بالتحقيق : من اين جاء هذا ؟ ولسوف يوجد شخص ما يتذكر : شه ؛ ان امرأتين قد مرّتا من هنا ...

فقاطعه ريبين :

– حسناً ! شكراً أيتها الام لهذا العناء . اني افكر طوال الوقت في بافل عندما أراك ، فلقد قطعت شوطاً بعيداً .

لقد لانت طباعه الآن ورقـّت ، فهو يبتسم ابتسامة عريضة دافئة . وكان الطقس أرزاً ، ومع ذلك فهو يقف هناك في قميصه . مفتوح الياقة مكشوف الصدر . ورمقت الأم بيته الضخمة طويلاً ، ثم أسدت إليـــه النصح في ودٍّ وصداقة :

– يفضل أن ترتدي شيئاً ، فالطقس بارد .

فأجاب :

– الحرارة شديدة في داخلي .

وكان الفتيان الثلاثة يتهامسون وهم وقوف قرب النار ، بينما المريض عنـــد أقدامهم يرقد مغموراً بجلد الخاروف . وكانت السماء تشحب ، والظلال تذوب . وأوراق الشجر ترتجف في انتظار الشمس .

قال ريبين ، وهو يشدُّ على يد صوفيا :

– حسناً ! وداعاً إذن ! كيف يمكن أن نلقاك في المدينة ؟

فأجابت الأم :

– ليس لك إلا البحث عني .

ودنا الفتيان الثلاثة في تماهل من صوفيا يصافحونها ، الواحد تلو الآخر ، في لطف أخرق وسكون مُطبق . كان من الواضح أن كلا منهم مفعم ، سراً ، بالامتنان والصداقة نحوها ، وأن ذلك الشعور يضايقهم بجدّته دون أدنى ارتياب . كانوا ينظرون إليها صامتين ، بأعين اتعبها الأرق ، وهم يتأرجحون يمنة ويسرة ، يستندون إلى هذا القدم تارة ، وإلى القدم الثانية تارة أخرى .

سأل ياكوف :

– ألا تشربان قليلاً من الحليب قبل أن ترحلا ؟

فقال ييفيم :

– ولكن ، هل يوجد شيء منه ؟

فأعلن اغناطيوس في اضطراب ، وهو يمسح بيده على شعره :

– كلا ... لقد قلبت الوعاء فاندلق ...

وانفجر ثلاثتهم ضاحكين ...

كانوا يتكلمون عن الحليب ، ولكن الام تشعر انهم يفكرون في شيء آخر ، يتمنون لصوفيا ولها الخير العميم والحظ السعيد دون ان يعرفوا كيف يضعون أمانيهم في كلمات . ولقد أثـّر هذا في صوفيا بشكل جلي ، فأثار فيها شيئاً من الضيق ، وتواضعاً حبياً لم يسمح لها ان تقول شيئاً ، اللهم إلا هـــذه الكلمات الثلاث التي ندّت عنها بصوت ضعيف :

– شكراً ، ايها الرفاق .

وتراشق الفتيان النظر ، فكأن هذه الكلمة التي خاطبتهم بها قد رفعتهم وراحت تسبح بهم في عذوبة وهدوء .

وتردد سعال المريض الأجش ، في حين خبا ضياء الوقود في المصطلى حتى تلاشى .

قال الفلاحون بصوت خافت :

– وداعاً !

وظلت هذه الكلمة الحزينة تتردد بعد ذلك في آذان المرأتين زمناً طويلاً .

سلكتا ، في قيلولة الصباح ، دون تسرُّع ، الطريق التي قدِمتا منها تحفُّ الاشجار بها ، والام تقول وهي تسير في أعقاب صوفيا :

– لشدَّ ما كان ذلك رائعاً ممتعاً ، وكأنه في حلم جميل ! ان الناس يريدون معرفة الحقيقة ، يريدون ذلك يا عزيزتي ... وكل شيء يجري أشبه بما في الكنيسة .

قبل خدمة الصباح ، في يوم عيد عظيم ... ان الكاهن لم يأتِ بعد والجوّ لما يزل مظلماً ، يخيم على كل شيء حتى ليلقي الذعر في قلب الانسان ، وهؤلاء الناس قد بدأوا يتوافدون ... ههنا امرؤ يشعل شمعة أمام الايقونة ، وهناك شمعة أخرى تضاء و ... يطردون الظلمة شيئاً فشيئاً فتفسح المجال للنور في بيت الله .

فأجابت صوفيا في مرح :

– أصدق هذا ! أللهم إلا أنت بيت الله ، ههنا ، هو الارض بأسرها .

فرددت الام ، وهي تهزّ رأسها متألمة :

– الارض بأسرها ، ذلك رائع جداً حتى ليصعب تصديقه ... ولقد تكلمتِ جيداً يا صوفياي الطيبة ، جيداً جداً ؛ وأنا التي ظننت انك لا تقعين منهم موقعاً مقبولاً .

ولم تجب صوفيا إلا بعد فترة ، وبصوتٍ خافتٍ لا أثر للمرح فيه :

– ليصبح المرء ، معهم ، اكثر بساطة ...

راحتا تتحدثان ، وهما تسيران ، عن ريبين ، والرجل المريض ، والفتيان الثلاثة الذين كانوا يُصغون بكل ذلك الانتباه ، والذين عبروا عن صداقتهم وامتنانهم في ضيق ، ولكن في طلاقة عظيمة ايضاً ، بكل تلك العناية الحريصة التي بذلوها نحو المرأتين .

وبلغتا اخيراً الحقول العارية ... والشمس تشرق لملاقاتها ، ناشرة في السماء ، وهي لما تزل غير مرئية ، مروحة شافة من الأشعة الزهرية ، وقطرات الندى تشع في العشب بآلاف الشرر العديد الالوان في فرحة ربيعية فتية .

واستيقظت العصافير تحيي الصباح بزقزقتها المرحة ، وحلـّقت غربان ضخمة في الفضاء باعثة نعيقاً مذعوراً ، خافقة بأجنحتها في ثقل ، وفي مكان ما كناريّ يصفـّر في قلق . وراح المدى يتكشف شيئاً فشيئاً يستقبل الشمس بالتخلص من ظلال الليل .

قالت الام حالمة :

– في بعض الاحيان يحدّثك إنسان ويحدّثك ، ولكنك لا تفقهين لكلامه معنى حتى يقول لك أخيراً كلمة بسيطة ، كلمة بسيطة واحدة ، فاذا كل شيء يتضح على حين غرة ... ذلك مثل هذا الرجل المريض . لقد سمعتِ كثيراً ، وعرفت شخصياً كيف يرهقون العمال في المصانع وفي كل مكان، ولكنكِ اعتدتِ هذا منذ كنتِ صغيرة فلم يعد يؤثر فيك كثيراً . ولكنه قال ، بغتة ، أشياء كثيرة الاذلال ، مثيرة للدرجة القصوى ... يا يسوع الحبيب ! أيمكن ان يقضي الناس جلّ عمرهم في الشغل كي يستطيع أصحاب العمل ان يتمتعوا بمثل تلك المهازل ؟ هو أمر لن يجد له تبريراً أبداً .

واستقرت افكار الام عند القصة التي رواها سافيلي ، والتي ألقت لمعان بلاهتها ووقاحتها الكئيب على العديد من القصص التي عرفتها فيما خلا من الايام ونسيتها ...

– ليخال المرء أنهم أتخموا الى درجة أمسوا بعدها مرضى . لقد كان هناك مدير ناحية يجبر الفلاحون على تحية جواده حينما يخرج الى النزهة في القرية ، ومن لا يفعل ذلك ألقى به في السجن . بربك ما حاجته الى ذلك ؟ انا لا أفهم هذا ، كلا لا أستطيع فهمه !

وراحت صوفيا تدندن أغنية خفيفة، مرحة في مثل مرح الصباح المشرق...

٧

كانت حياة الام تنساب في هدوء غريب حتى ليدهشها هذا الهدوء في بعض الاحيان. ان فتـــاها في السجن ، وهي تعرف ان عقاباً صارماً ينتظره ... ولكنّ ذهنها يمتلىء ، كلما فكـّرت فيه ، بصور أندريه ، وفيدور ، والعديد من الوجوه الاخرى . وكانت صور بافل تنمو امام عينيها حتى تضمّ سائر أولئك الذين يقاسمونه مصيره ، وتـُثير فيها حالة من التأمل تمنعها ، دون شعور منها ، عن تركيز افكارها حول ابنها ، بل تروح تبعثرها في كل الاتجاهات على غير هدى . كانت هذه الافكار تتباعد في شعاعات رقيقة غير متساوية تمسّ كل الاشياء ، ساعية لانارة سائر الحوادث وجمعها كلـّها في لوحة وحيدة . وكان هذا يمنعها عن تركيز ذهنها على بعض التفاصيل المعينة ، ويلهيها عن شوقها الى فتاها ومخاوفها من أجله .

وما أسرع ان رحلت صوفيا ثم ظهرت بعـــد خمسة ايام ، مرحة طروبة كعادتها أبداً ، لتختفي مجدداً بعد ساعات قليلة ، فلا تعود إلا بعد أسبوعين ونيف . كان يمكن القول انها تذهب في الحياة بدوائر كبيرة كي تعبر في طريقها بيت أخيها فتملؤه حياة وموسيقى .

وأصبحت هذه الموسيقى محببة لدى الام ، فيؤتي لها عند سماعها أن موجات حارة تتدفق في صدرها ، بلهَ قلبها ، فيروح هذا القلب يخفق في نظم اكثر اتساقاً . وكانت أفكار حية مقدامة تولد فيها ، توقظها قوة الاصوات

فكأنها بذور تتفتح في أرض جيدة الحراثة سخية المـــاء ، وتزدهر في كلمات خفيفة الظل ، جميلة الوقع .

وكان يصعب على الام كثيراً اعتياد فوضي صوفيا التي ترمي حوائجها في كل الزوايا ، وتُلقى بأعقاب السجائر ورمادها في كل مكان . ولم تعتدْ إلا بصعوبة أعظم ايضاً طريقتها الفائقة الجرأة في الحديث ، المتناقضة على طول الخط مع رزانة نيقولاي وما في أحاديثه العذبة من وقار لا يتبدل . كانت صوفيا تبدو لها مراهقة تتلهف الى الصيرورة سريعاً امرأة بالغة ، فهي لا ترى الناس إلا كدُمىً تثير الفضول . وكانت تتحدث كثيراً عن قداسة العمل ، فتزيد باهمالها مشاغل الأم في حماقة كثيرة . وكانت تتكلم بطلاقة عن الحرية، فترى الام أنها ، في واقع الامر ، تُزعج كل من يحيط بها بتزمُّتها وحدتها ونزقها ومناقشاتها التي لا تنتهي ... كانت طافحة بالمتناقضات ، فتضطر الام الى معاملتها في حذر حنون ممزوج بانتباه يقظ، ولكنه مجرّد عن تلك الحرارة في القلب التي يستدعيها نيقولاي على الدوام .

كان هذا الاخير دائب العناية بالآخرين ، يعيش يوماً بعـــد يوم نفس العيش الرتيب المنتظم ، فيتناول أفطاره في الساعة الثامنة ، ويقرأ الصحف التي ينقل أخبارها الى الأم . وكانت الأم تدرك بكل وضوح ، لدى سماعها تلك الأخبار، كيف تسحق آلة الحياة الثقيلة البشر دون رحمة أو شفقة لتجعل منهم فضة ومالاً . وكانت تحسُّ أن بين نيقولاي وأندريه مزايا مشتركة ، فهو كالأوكراني يتحدث عن الناس دون حقد ويعتبرهم جميعاً مسؤولين عن سوء تنظيم المجتمع، ولكن إيمانه بحياة جديدة مقبلة لم يكن ملتهباً نيراً كايمان الأوكراني . وكان يتكلم في هدوء، بصوت قاضٍ مستقيم شريف صارم ، وابتسامة رثاء تعلو شفتيه أبداً ، حتى عندما يتحدث عن أمور عظيمة الرهبة ، ولكن عينيه سرعان ما تلتمعان ببريقٍ بارد قاسي اللمعان ، فتدرك الأم حين تراه أن هذا الرجـل لن يصفح عن أي إنسان ، وأنه لا يقوى على الصفح ، وتحسُّ أن تلك القسوة تصعب عليه فترثي له ، وهو الذي يزداد الى قلبها قرباً يوماً بعد يوم .

وفي التاسعة يمضي الى مكتبه ، فتُعنى الام بترتيب الشقة ، وتهيىء الغداء ، وتغتسل وترتدي ثياباً نظيفة، ثم تجلس في غرفتها تتفرج على الرسوم المنشورة في الكتب المختلفة. كانت قد تعلمت القراءة أثناء ذلك، ولكن هذه القراءة تتطلب منها كثيراً من الانتباه ، فما أسرع أن تتعب وتصير الى عجز عن إدراك الصلة التي تربط بين الكلمات المتباينة . أما الرسوم فكانت تبهجها بالمقابل ، فكأنها طفـــلة صغيرة ليس غير ، وتكشف لها عن عالم جديد رائع تستطيع فهمه واستيعابه، لا بل تكاد تحسّه ايضاً، فتنهض أمام ناظريها مدن عظيمة، وبنايات فائقة الجمال ، وآلات ، ومراكب ، وآثار ، وكل تلك الثروة العظيمة التي خلقتها أيدي البشر ، ثم سائر منتجات الطبيعة التي يذهل فكرها ويحتار تجاه تباينها واختلافها . ان الحياة تتسع أبداً أمام عينيها وتفتّحهما على اشياء عظيمة رائعة كانت مجهولة منها حتى ذلك الحين ، وهي دائماً تثير بكنوزها الغزيرة وجمالها اللامتناهي روح هذه المرأة المستيقظة العطشى ... كانت تحبُّ ، بصورة خاصة، النظرَ في أطلس علم الحيوان الذي يوحي اليها ، بالرغم من كونه مطبوعاً بلغة أجنبية ، بمفهومٍ حيٍّ عن ثراء الارض وجمالها واتساعها اللامتناهي .

قالت لنيقولاي ذات يوم :

– ما أوسع هذا العالم !

كانت تبتهج اكثر ما تبتهج بالحشرات ، والفراشات منها بصورة خاصة ، فتنظر مدهوشة في الرسوم التي تمثلها ، وتقول :

– أفليست جميلة ، يا نيقولاي إيفانوفيتش ؟ كم يوجد من هذا الجمال الغالي في كل مكان خافياً عن عيوننا ، ماراً بنا دون ان نراه ! ان الناس يضطربون أبداً دون ان يعرفوا شيئاً على الاطلاق، عُماة عن رؤية الاشياء التي تستحق اعجابهم، يُعوزهم لذلك الزمن والرغبة ايضاً . كم نستطيع ان نحصّل من الفرح لو عرفنا غنى الارض ، وكم من الاشياء الرائعة تعيش على سطحها ، وهذه الاشياء جميعاً هي لسائر الناس ، وكلٌّ هو للجميع على حد سواء ... أليس كذلك ؟

فابتسم نيقولاي ، وهو يحمل اليها كتاباً آخر مصوّراً :

– بالطبع هو كذلك .

كان يستقبل كثيراً من الضيوف في المساء ، ومن بينهم ألكسي فاسيليفيتش ، وهو رجل جميل الطلعة ، شاحب الوجه ، أسود اللحية ، وقور ، كثير الانطواء على النفس ؛ وورومان بتروفيتش ، وهو شخص منقـّط الوجه ، مستدير الرأس ، يصفـّق بلسانه أبداً أسفاً على هذا الشيء او ذاك ؛ وإيفان دانيلوفيتش ، وهو رجـــل قصير القامة ، ضامر القدّ ، مدبب اللحية ، ذو صوت مرتفع سريع النبرات كثير الضوضاء ، حادّ مثل المخرز ؛ وييجور الذي لا ينقطع عن السخرية من نفسه ومن رفاقه ومن تلك العلة التي تتفاقم في صدره أبداً . وكان ثمة قـــوم آخرون أيضاً ، يأتون من مدن بعيدة ويتبادلون مع نيقولاي أحاديث طويلة هادئة موضوعها لا يتبدل قط : الطبقة العاملة في العالم اجمع . وكانوا يتناقشون ، وينفعلون ، ويلوّحون بأيديهم ، ويشربون كميات كبيرة من الشاي . وفي بعض الاحايين ، بينما هم يتجادلون ، كان نيقولاي يكتب نداءات يقرؤها بعد ذلك لرفاقه ، فينسخونها مباشرة ، بينما تجمع الام – في غبطة عظيمة – بقايا المسوّدات الممزقة وتحرقها .

كانت تتعجب دائماً ، وهي تصبُّ لهم الشاي ، من تلك الحماسة المسيطرة على احاديثهم عن الطبقة العاملة وعن افضل السبل وأسرعها في زرع الحقيقة بين الشغـّيلة ورفع معنوياتهم . وكثيراً ما كانوا يغضبون ويروحون يدافعون عن آراء مختلفة ، وهم يتبادلون تهماً حادة قاسية ، فيجرحون شعور بعضهم البعض كي يعودوا بعد قليل الى نقاشهم الحادّ يبدأونه من جديد .

وكانت الام تشعر بأنها تعرف حياة العمال أفضل من معرفتهم لها ، فيخيل اليها أنها ترى بوضوح اكبر فداحة الواجب الذي أخذوه على عاتقهم ، فتروح تشخص اليهم في شيء من الاشفاق وغير قليل من الاسف اللذين ينظر بهما امرؤ بالغ الى اطفال يلعبون لعبة الزوج والزوجة دون ان يفهموا ما في تلك العلاقة

من مأساة خفية . وكانت تقارن ، بالرغم منها ، بين أحاديثهم وأحاديث ابنها وأندريه فتدرك فارقاً لم تفهمه بادىء الامر ... كان يخيل اليها أحياناً أنهم يصيحون ههنا بصوت أشد ارتفاعاً منه في الضاحية العمالية ، فتفسّر ذلك على النحو التالي :

– إنهم يعرفون اكثر ، ولذلك يتكلمون بصوت أعلى ...

وكثيراً ما كانت تخال أن هؤلاء الناس يستفزون بعضهم بعضاً عن قصد ، متعمدين ان يظهروا حماستهم . فكأن كلاً منهم يريد ان يبرهن لرفاقه كون الحقيقة أقرب اليه وأعزّ على قلبه منها على قلوبهم ، بينما يغضب الآخرون ويسعون بدورهم كي يثبتوا أنهم اكثر قرباً من الحقيقة ، فيبدأون النقاش الحاد القاسي من جديد ... كانت تخال أن كلاً منهم يتلهف الى القفز مسافة أعلى من الباقين ، فيوقظ ذلك فيها كآبة قلقة تبلبل فكرها وتشغل بالها ، فتروح تنظر اليهم بجفنين مرتعشين وعينين متوسلتين ، وهي تفكر في وليجة نفسها :

– لقد نسوا كل شيء عن باشا ورفاقه .

كانت تستمع الى سائر حججهم بانتباه عظيم ، وان كانت طبعاً لا تفهم منها شيئاً . ولكنها كانت تسعى لادراك المشاعر خلف الكلمات فتجد ان مفهوم الخير ، عندما يدور النقاش حوله في الضاحية العمالية ، كانَ يُقبل في مجموعه على اعتباره كُلاً واحداً لا يتجزأ ، بينما هو ههنا يقسم الى اجزاء صغيرة فيعود عديم النفع والقيمة . ان المشاعر هناك لأعمق وأقوى ، أما هنا فان أفكاراً ملتوية تسيطر عليها وتبدّد كل شيء هباءً منثوراً ... ههنا يُكثرون من الحديث عن تهديم العالم القديم ، أما هنا فيُكثرون من الاحلام عن العالم الجديد ، ولذلك كانت كلمات فتاها وأندريه أعزّ عليها وأدنى من فهمها وإدراكها ...

ولاحظت ان نيقولاي ، كلما جاء احد العمال لمقابلته ، يصبح اكثر حرية وانطلاقاً معه . فيبدو على وجهه تعبير رقيق حلو ، ويروح يتحدث في لهجة غير

مألوفة ، ان لم تكن اكثر فظاظة فان فيها من الاهمال شيئاً كثيراً . وعندئذ تفكر الام :

– انه يجرب التحدُّث بصورة يفهمونه معها .

ولكن ذلك لم يرقها ، فقد رأت ان العامل كان بدوره ضيّق الصدر فكأن شيئاً في داخله يحزُّ فيه ، فيعجز عن مخاطبة نيقولاي بتبينك الحرية والطلاق اللتين يتوجه بها اليها ، هي المرأة العاملة . وذات مرة ، قالت لشابٍ جاء لمواجهة نيقولاي ، بعد ان خرج هذا من الغرفة :

– ممَّ تخاف ؟ أنت لست طفلاً صغيراً يتلو دروسه أمام استاذه .

فافترّت شفتا الشاب عن ابتسامة عريضة ، وقال :

– ان السرطان يحمرُّ عندما يخرج من عنصره ... ليس هو على غرارنا في أية حال .

وكانت ساشا تأتي في بعض الاحيان ، فلا تلبث طويلاً أبداً ، بل تتحدث على الدوام بلهجة قلقة دون ان تضحك قط . وعندما تذهب تطرح على الام ذات السؤال الذي لا يتبدل :

– كيف حال بافل ميخائيلوفيتش ؟

– انه على احسن حال ، ومرح أبداً . شكراً لله .

فتقول الفتاة قبل ان تختفي :

– بلّغيه تحياتي .

وذات مرة ، شكت لها الام ذلك التأخير في محاكمة بافل ، فعبست ساشا ولم تقل شيئاً وإن راحت أصابعها ترتعش في عصبية ... وارادت الام ان تقول لها :

– أعلم انك تحبينه ، يا عزيزتي ...

لكن الشجاعة خانتها ... كان وجه الفتاة القاسي ، وشفتاها المنضمتان أبداً ، ولهجتها القلقة الجافة ، تردُّ كل انطلاق نحو العاطفة والحنان . وشدّت الام ، في سكون ، على اليد الممدودة اليها وفكرت :

– ايتها الفتاة المسكينة ، ما أشقاك !

وجاءت ناتاشا في ذات يوم ، فابتهجت كثيراً برؤية الام هناك وقبّلتها ، ثم قالت بصوت هادىء وبصورة غير منتظرة :

– لقد ماتت أمي . ماتت تلك الحبيبة المسكينة ...

وألقت برأسها الى الخلف ، وفركت عينيها بحركة سريعة ثم تابعت :

– ما آلم ذلك ! إنها لما تبلغ الخمسين . وكان يمكن ان تعيش زمناً أطول ، ولكني بالمقابل لا أستطيع الامتناع عن التفكير بأن الموت أفضل من الحياة التي تعيشها من دون ريب . لقد كانت وحيدة على الدوام ، وليس من إنسان الى جانبها ، او امرىء يحتاج إليها ، مذعورة دائماً من صياح والدي . أتسمين هذا حياة ؟ ان الناس الآخرين يعيشون في رجاء شيء أفضل ، ولكن أمي لم يكن أمامها ما تأمل فيه الا المزيد من الاهانات .

وقالت الام مفكرة :

– حق ما تقولين ، يا ناتاشا . الناس يعيشون في رجاء شيء أفضل . فان لم يكن ثمة ما يأملون به فأية حياة تلك التي يعيشون إذن ؟

وربتت بلطف على يد الفتاة ، وأضافت :

– وهكذا فقد أصبحت الآن وحيدة ؟

فأجابت ناتاشا في رقة :

– هو ما تقولين .

فابتسمت الام ، وقالت بعد صمت قصير :

– لا بأس في ذلك . ان الناس الطيبين لا يعيشون وحدهم طويلاً ، بل هناك دائماً من يتعقبهم ويتعلق بأذيالهم ...

٨

حصلت ناتاشا على وظيفة مدرّسة في قرية قريبة من مصنع للنسيج ، وبدأت الأم تزوّدها بكراسات غير مشروعة ونداءات وصحف .

أصبح ذلك عملها ، فهي تتنكر كل شهر عدة مرات في ثياب راهبة ، أو بائعة خردوات ، أو بورجوازية ميسورة الحال ، او حاجّة تقية ... ثم تضرب على وجهها عبر المقاطعة ، وعلى ظهرها كيس او في يدها صندوق . وكانت دائماً ، في القطر او في المراكب ، في الفنادق او الحانات ، هي هي تلك المرأة الهادئة البسيطة التي تتوجه بالكلمة الاولى الى الغرباء تجلب الانتباه اليها ، غير هيّابة ، بلطفها واجتماعيتها وتلك الثقة بالنفس التي يتحلى بها من خبر الحياة جيداً وعرك تجاربها .

وكانت تحب التحدث الى الناس ، والسماع الى أقاصيصهم وشكاواهم ومــا يزعجهم من أمور . وكانت تسعد أبداً كلما التقت بشخص ناقم جداً ، بتلك النقمة التي تفتش في عناد ، وهي تحتج على صفعات القدر ، عن الاجوبة لأسئلة واضحة جلية . وكانت لوحة الحياة البشرية ، باضطرابها الدائب ونضالها العديم الجدوى في سبيل الشبع ، تنبسط أمام عينيها وتمتد . وفي كل مكان ، كانت ترى بكل وضوح تلك المحاولات الوقحة المبذولة في سبيل خداع الناس وسرقتهم وجرع دمائهم وامتصاص آخر قطرة منهم في سبيل المصلحة الشخصية . ولقد رأت ايضاً ان ثمة خيراً عميماً من كل الاشياء على سطح الارض ، بينما جماهــير

الناس في الوقت ذاته في حاجة ، يعيشون نصف جياع في ملء الغزارة الفائقة . ان كنائس المدن مليئة بالفضة والذهب اللذين لا حاجة لله بهما ، في حين يرتجف على أبواب الهياكل عدد لا يحصى من المتسولين ينتظرون ، بفارغ صبر ، هبات نحيلة تلقى في أيديهم المفتوحة . ولقـــد شاهدت فيما سبق هذا كله : الكنائس الغنية وثياب الكهنة المطرزة بالذهب ، المتناقضة بصورة هائلة مع مزراب المتسولين وأسمالهم المخجلة ! ولكنها قبلت به حينذاك على اعتباره أمراً طبيعياً، بينما هي تجده الآن لا يُعقل ولا يُطاق ، بل هو بالأحرى إهانة موجهة الى الفقير الذي يُعتبر ، فيما تعلم ، أقرب الى الكنيسة وأحوج إليها من الرجال الأثرياء .

ولقد عرفت من الصور التي رأتها عن المسيح ، والقصص التي سمعتها عنه ، أنه كان يرتدي ثياباً بسيطة ، وأنه كان للفقـــير صديقاً قريباً . ولكنها رأت صورته في الكنيسة مصفَّدة في ذهب وقح وحرير يخشخش في ازدراء لدى رؤية الفقراء الذين يأتونه ، هو المسيح ، يطلبون العزاء لديه . وتذكرت بالرغم منها كلمات ريبين :

– لقد خدعونا حتى في ما يتعلق بالله ايضاً .

وشرعت ، دون ان ترتاب في ذلك ، تقلّل من صلواتها وإن راحت تفكر أكثر من ذي قبل في المسيح وفي أولئك الناس الذين ، دون ان يذكروا اسمه أبداً ، وحتى دون ان يعرفوا شيئاً عنه ، يعيشون في ما يخيَّل إليها حسب مشيئته وعلى غراره ، معتبرين الارض مملكة الفقير ، راغبين في تقسيم كل ثرواتها بين الناس بالعدل والقسطاط . كانت تعمل فكرها في ذلك ، فتنمو أفكارها في داخلها وتزداد عمقاً وهي تشمل كل ما تراه او تسمعه . لقد ازدهرت تلك الأفكار واتخذت بريق صلاة تُضيء كلّ هذا العالم المظلم باشعاعاتها ، كلّ الحياة وكل الناس . وبدا لها ان المسيح نفسه ، هذا الذي أحبته دائماً بحنانٍ غامض – بعاطفة معقدة كان الخوف فيها يسير مع الرجاء جنباً الى جنب ، وكذلك

الفرح مع الترح — قد أضحى عزيزاً على قلبها اكثر منه قبلاً . ولقد تبدل ايضاً فغدا اكثر ارتفاعاً وإدراكاً وأعظم بريقاً وبهجة فكأنه في واقع الامر بُعِثَ الى الحياة ، وقد اغتسل وانتعش بتلك الدماء التي أهدرها باسمه ، في سخاء ، قومٌ يمتنعون بكل تواضع عن لفظ اسم صديق الانسان هذا . وبعد كل سفرة من سفراتها كانت تعود الى نيقولاي سعيدة متأثرة بكل ما شاهدت وسمعت في الطريق ، راضية لانها حقـّقت واجبها على الوجه الأكمل .

أوضحت له ذات مساء :

— ما أروع ان يضرب الانسان في آفاق الارض هكذا ، يُطمح بصره الى الكثير من الامور ! ليجعلك ذلك تتفهـّم معنى الحياة . لقد ألقي الشعب على هامش الحياة حيث يدبُّ متذللاً في مكانه دون وعيٍ منه لما حدث ، وان كان لا يجسر على الامتناع عن التساؤل في مَ سبب هذه المعاملة التي يعاملونه بها . لِمَ يجب ان يُطرد الناس بعيداً ؟ لِمَ يجب ان يجوعوا عندما يكون ثمة فيض من كل شيء ؟ لِمَ يجب ان يكونوا أغبياء جاهلين عندما يكون هنالك ينبوع فيّاض من الثقافة في كل مكان ؟ وأين هو الله الكلي الرحمة الذي ليس في نظره غني او فقير بل الكل أولاده المحبوبون ؟ ان الناس يثورون شيئاً فشيئاً حينما يفكرون بحيواتهم ، وهم يحسون ان الظلم سيكنسهم عن وجه الارض ان لم يفعلوا بالظلم شيئاً .

وأصبحت تحسُّ ، أكثر فأكثر ، ان من واجبها مخاطبة الناس عن حياتهم المضطهدة حتى ليصعب عليها كثيراً ، في بعض الاحيان ، مقاومة هذا الدافع الطموح وصدّه .

وعندما كان نيقولاي يجدها منحنية فوق صدرها ، فهو يبتسم ويميل يحدثها عن بعض غرائب هذا العالم . فتستطلعه في شغف ، مذهولة لجرأة القضايا التي يأخذها الانسان على عاتقه :

— أمثل هذا الشيء ممكن ؟

فينبري يصوّر لها المستقبل في صبر وإيمان لا يتزعزع بحقيقة نبوءاته ، شاخصاً اليها بعينيه اللطيفتين من خلف نظارتيه :

– إن رغبات الانسان لا حدود لها ، وقوته لا ينضب لها معين . ومع ذلك فالعالم لا يغتني فكرياً بعْدُ إلا ببطء شديد ، لان كل من يريد الآن ان يُمسي مستقلاً لا بدّ له من تجميع المال بدلاً من المعرفة . وعندما يتحرّر الناس من الجشع ، ويحرّرون انفسهم من عبودية العمل الاجباري ...

لم تكن تفقه معنى كلماته إلا في الندَرى ، لكن الايمان الهادىء الذي يوحي به ويحييه في نفسها كان يصبح شيئاً فشيئاً أقرب منالاً منها . قال :

– ثمة عدد قليلٌ من الناس الاحرار على هذه الارض ، تلك هي القضية !

وكانت تفهم هذا ، فهي تعرف قوماً تحرروا من الجشع والخبث ، وتعلم انه لو وُجد عدد اكبر من مثل هؤلاء الناس لكفّت الحياة عن ان تكون مظلمة مخوفاً لتغدو أبسط وأشرف وأنبل ...

وكان نيقولاي يهتف بكآبة :

– ان الناس مجبورون على ان يكونوا قساة ...

فتهزُّ رأسها إشارة الموافقة ، وهي تستعيد ذكر كلمات الاوكراني ...

٩

في ذات يوم آب نيقولاي ، وهو الدقيق أبداً في مواعيده حتى الدرجة القصوى ، من عمله متأخراً اكثر من المعتاد، وأذاع دون ان يخلع معطفه ، وهو يفرك يديه بعصبية ظاهرة :

– لقد فرَّ أحد رفاقنا من السجن هذا النهار، يا نيلوفنا. من عساه يكون ؟ هذا ما لم أستطع معرفته ...

ترنحت الام ، وقد طغى الاضطراب عليها ، فاقتعدت كرسياً وهي تهمس :

– أيمكن ان يكون بافل ؟

فهز نيقولاي كتفيه ، مجيباً :

– يمكن . ولكن كيف نساعده على الاختفاء ؟ وأين تـُرانا نعثر عليه ؟ لقد رحت الآن أتجول في الشوارع ذهاباً وإياباً أملاً في لقياه . تلك بلاهة بالطبع ، ولكن ينبغي ان نفعل شيئاً . وإني لذاهب من جديد ...

فصاحت الام :

– وأنا أيضاً .

فاقترح نيقولاي ، وهو ينطلق مسرعاً :

– الأحرى بك ان تذهبي الى ييجور وتري ان كان يعرف شيئاً .

فألقت وشاحاً على رأسها ، واندفعت خلفه في الشارع والأمل يملأ الصدر منها . وراحت لطخٌ حمرٌ تتراقص امام عينيها وتترجّح ، وقلبها يخفق بسرعة وعنف فيدفعها الى العَدْوِ تقريباً . كانت تسير نحو لقاء هذا الاحتمال ، مطأطأة الرأس ، ذاهلة عن كل ما يُحدق بها .

– ماذا لو وصلتُ ورأيته هناك ! ...

وتنخسها بارقة الرجاء هذه ، فتروح تحثُّ الخطو دون شعور منها .

كان الحر شديداً ، وهي تلهث من الاجهاد ، حتى إذا بلغت السلم الموصِل الى الشقة التي يقطنها ييجور توقفت عاجزة عن الذهاب قُدماً ، والتفتت تتطلع حواليها ، واذا هي ترسل فجأة صيحة قصيرة وتغمض عينيها بشدة . هُدْهِدَ لها انها بصرت بنيقولاي فيزوفشيكوف واقفاً قرب بوابة المنزل ، ويداه في جيبه . ولكنها ما ان نظرت من جديد حتى لم يقع بصرها على اي شخص كان .

روّأت تفكر ، وهي تتسلق درجات السلم وتصيخ بسمعها جيداً :

– لقد تخيّلت ذلك ليس غير .

وبلغ سمعها من الفناء صدى خطوات بطيئة ، فتوقفت برهة ونظرت الى الأسفل ، فشاهدت مرة أخرى الوجه المجدور ، وهو يبتسم لها هذه المرة .

صاحت ، وهي تعدو لملاقاته ، وقلبها منقبض من خيبة الامل :

– نيقولاي ! نيقولاي !

فهمس بصوت هادىء ، وهو يلوّح بيده :

– إرجعي ! ...

فارتقت الدرج بسرعة ، ودخلت غرفة ييجور ، فألفتـــه مضطجعاً على الأريكة .

غمغمت لاهثة :

– نيقولاي ... لقد هرب ... من السجن .

فسأل ييجور بصوته الأجش ، وهو يرفع رأسه عن الوسادة :

– أي نيقولاي ؟ ثمة اثنان يحملان هذا الاسم .

– فيزوفشيكوف ... وهو آت الى هنا .

– عظيم !

وفي هذه اللحظة زَهَفَ نيقولاي نفسه الى الغرفة ، وأوصد الباب خلفه بالمزلاج ، وخلع قبعته ، ووقف هناك يضحك في رقة وخفوت وهو يسرح شعره بيده . وتحامل ييجور على مرفقه ، وهزّ رأسه قائلاً :

– أهلاً بك ...

فاقترب نيقولاي من الام ، تداعب شفتيه ابتسامة عريضة ، وتناول يدها كاشفاً :

– لو لم ألقك ، لما بقي أمامي سوى العودة الى السجن . فلست أعرف أحداً في المدينة ، ولو عدت الى الضاحية لما تأخروا في العثور عليّ . وهكذا رحت أدور وأدور وأنا أفكر طوال الوقت في مدى جنوني وحماقتي عندما أقدمت على الفرار . وفجأة ، رأيت نيلوفنا تركض في الشارع ، فانطلقت أعدو وراءها .

فاستقصت الام :

– وكيف استطعت الفرار ؟

فجلس متململاً على حافة الأريكة ، وهزّ كتفيه قائلاً :

– انه الحظ وحده . كنت في الفناء أتمتع بفرصة التهوية ، فاذا المجرمون العاديون ينهالون على أحد المراقبين ضرباً . وكان هذا المراقب دركياً سابقاً

طرد من الخدمة لأنه أقدم مرة على السرقة ، ثم أصبح يتجسس على الجميع ، ويشي بهم ، وينغّص عليهم الحياة بمضايقاته المستمرة . وهكذا انثالوا يكيلون له اللكمات دون حساب ، فعمّت الفوضى كل شيء ، وراح المراقبون يتراكضون وهم ينفخون في صفاراتهم . نظرت فرأيت البوابات مفتوحة ، والى الوراء منها الساحة الكبرى والمدينة ، فسرت نحوها متباطئاً ، وكأنني في حلم ، حتى اذا مَثَلْتُ في الشارع وقطعت فيه مسافة كبيرة ، ثبْتُ الى رشدي وفكرت : الى أين أذهب الآن ؟ تطلعت الى الخلف ، فرأيت البوابات قد أغلقت ...

وقال ييجور :

– هِمْ ! ولِمَ لم ترجع ، أيها السيد العظيم ، وتقرع الباب في أدب ، وتسألهم السماح لك بالدخول ؟ إني أسألكم العفو ايها السادة ، ولكني ارتكبت خطأ صغيراً ، وسهوت قليلاً ...

فضحك نيقولاي :

– تلك بلاهة بكل تأكيد . غير اني أسأتُ التصرف ، مع ذلك ، تجاه رفاقي اذ خرجتُ هكذا دون ان أقول شيئاً لأيٍّ منهم . وهكذا مشيت اذن ، فرأيت جنازة – كانوا يدفنون طفلاً – فانضممت اليها وسرت خلف النعش مطرق الرأس لا اتطلع في وجه احد على الاطلاق . ثم جلست فترة هناك في المقبرة أعبُّ شيئاً من الهواء ، واذا بفكرة تلمع في خاطري على غير انتظار ...

فاستطلع ييجور :

– فكرة واحدة فقط ؟

ثم أضاف ، وهو يتنهد :

– لست أعتقد انها أحسَّت الضيق في رأسك هذا ...

فضحك فيزوفشيكوف منشرح الصدر ، ثم هزَّ رأسه قائلاً :

– أوه ! ان رأسي لم يعد اليوم فارغاً كما كان في سالف الأيام . أما زلت عليلاً ، يا ييجور إيفانوفيتش ؟

فأجاب ييجور ، وهو يسعل سعالاً جافاً :

– ان كلا يعمل ما في وسعه . هيّا ، تابع قصتك .

– ثم ذهبت الى المتحف المحلي، ورحت أدور فيه وأتفرج وأنا لا افتأ افكر: الى أين اذهب الآن ؟ لا بل اني نقمت على نفسي ايضاً ، وكنت جائعاً بالاضافة الى ذلك . خرجت الى الشارع من جديد وتركت قدميّ تتدافعان الخطو فيه مضطرب البال مبلبل الفكر . وكان رجال الشرطة يراقبون سائر الناس عن كثب . هجست في نفسي : حسناً ، لن تتأخر سحنتي هذه عن إلقائي بين قوائم القاضي . ثم على حين فجأة ، جاءت بيلاجيا نيلوفنا تركض نحوي ، فابتعدت جانباً ورحت أتبعها ، هذا كل شيء .

فقالت الام في نغمة مذنبة :

– إني لم ألحظك .

وتفحصت فيزوفشيكوف بعناية ودقة ... فبدا لها أنحل منه فيما غبر من لزمن .

وقال فيزوفشيكوف ، وهو يحكّ رأسه :

– ان الرفاق سيقلقون .

فلاحظ ييجور :

– وماذا عن السلطات ؟ يبدو أنك لا تشفق عليهم، فلا ريب أنهم سيقلقون بدورهم ايضاً .

وفتح فمه ، وشرع يحرك شفتيه وكأنه يمضغ الهواء، وأضاف :

– فلندع الهزل جانباً . ينبغي علينا ان نخفيك في مكان ما ، وهذا ليس بالأمر اليسير وان مبهجاً . لو استطيع النهوض فقط !

وتنهد ، ورفع يده الى صدره يفركه في ضعف وتكاسل .

جهر نيقولاي ، وهو يطرق برأسه :

– يبدو ان مرضك شديد الوطأة ، يا ييجور إيفانوفيتش .

وتنهدت الام ، واختلست النظر في قلق الى الغرفة الصغيرة المزدحمة .

وأجاب ييجور :

– ذلك من شأني أنا . هيا اسأليه عن بافل ، يا أم . ودعي الحماقة جانباً .

فارتسمت على شفتي فيزوفشيكوف ابتسامة عريضة ، وأعلن :

– بافل على احسن حال، وصحته جيدة للغاية ، وهو هناك رئيسنا نوعاً ما . فهو الذي يتكلم مع الرؤساء ، ويصدر الاوامر بصورة عامة . ان الجميع يحترمونه .

كانت نيلوفنا تهزّ رأسها وهي تنصت الى فيزوفشيكوف ، وتختلس النظر من زاوية عينيها الى وجه ييجور المنتفخ والمزرقّ في الوقت ذاته . كان هذا الوجه يبدو مسترخياً بشكل غريب ، جامداً مجرداً عن تعبير ، أللهم إلا عيناه اللتان تبرقان وحدهما في مرح وحيوية .

وهتف نيقولاي بغتة :

– لو أعطيتماني شيئاً أسد به رمقي ! لستما تستطيعان ان تتصورا مبلغ سغبي !

فقال ييجور :

– ثمة فتات من الخبز على الرف ، يا أم . ثم اخرجي الى الرواق واقرعي

الباب الثاني على اليسار ، فتفتح لـــك امرأة ، فاطلبي منها القدوم الى هنا ، وستجلب معها كل ما تجده ملائماً للأكل .

فقال نيقولاي معترضاً :

– ما حاجتي الى كل شيء !

– لا تقلق ، فلن يكون هناك كثير منه .

خرجت الام وقرعت الباب الذي عيّنته لها . وبينما هي تصغي الى السكون فكرت في ييجور :

– انه يموت ...

واستوضح صوت من داخل الغرفة :

– من هناك ؟

فردّت الام بصوت خافت :

– لقد جئت من لدن ييجور إيفانوفيتش ... انه يرجوك ان تأتي الى غرفته.

فأجابت المرأة دون ان تفتح الباب :

– اني قادمة في الحال .

وانتظرت الام لحظة ثم طرقت الباب من جديد ، ففتح سريعاً وبدت على عتبته امرأة مديدة القامة ذات نظارتين ، دلفت الى الرواق ، وسألت الام في برود ، وهي تسوي ما تغضّن من كم قميصها :

– ماذا تريدين ؟

– لقد ارسلني ييجور إيفانوفيتش .

– هيا بنا .

ثم هتف بصوت خافت :

– لكن يتراءى لي أني اعرفك ... كيف حالك ؟ هذه العتمة ...

تطلعت الام اليها ، فتذكرت انها شاهدتها عدة مرات عند نيقولاي ... وخطر في بالها .

– انهم جميعاً من جماعتنا .

وأفسحت المرأة الطريق لبيلاجيا كي تسير امامها ، واستفهمت :

– أساءت حالته ؟

– نعم . انه راقد في فراشه . وهو يرجوك ان تحملي بعض الطعام .

– هذا ليس ضرورياً .

وبينما هما تدخلان غرفة ييجور ، قال هذا بصوته الأجش :

– إني ذاهب للقاء اجدادي ، يا صديقتي . لودميلا فاسيليفينا ، ان هذا الفتى قد تجرأ على الخروج من السجن دون إذن من السلطات . أعطيه قبل كل شيء ما يأكله – ومن ثم أدركيه بمكان يختبىء فيه .

فأشارت المرأة برأسها إيجاباً . وألقت الرجل المريض نظرة متفحصة ، ثم قالت بلهجة قاسية :

– كان يجب ان ترسل في طلبي منذ اللحظة التي قدم فيها ، يا ييجور . واني لأرى انك تتناول دواءك مرتين متواليتين . يا للعار ! تعال الى غرفتي ايها الرفيق ، فسوف يأتون بعد قليل ليأخذوا ييجور الى المستشفى !

– وهكذا أنت عازمة حقاً على إدخالي المستشفى ؟

– نعم ، ولسوف أبقى هناك بجانبك .

– وهناك ايضاً ؟ يا لله !

– كفاك هذراً !

وبينا هي منهمرة في الحديث ، أصلحت من وضع الغطاء فـــوق ييجور ، وتفحصت نيقولاي بامعان ، ورفعت الزجاجات كي تقدّر مبلغ ما بقي فيها من الادوية . كانت تتكلم بصوت خفيض ، متساوي النبرات ، وتتنقل في أرجاء الغرفة برشاقة ولطف عظيمين . وكانت شاحبة الوجه ، وحاجباها السوداوان يلتقيان تقريباً فوق جذر أنفها . ولمَ يرُقْ وجهها للأم ، بل وجدت فيه كثيراً من تكبُّر وعجرفة ، اما عيناها فلم تعرفا ابداً معنى الابتسامة او البريق . وكانت تخاطب الناس دائماً بلهجة الآمر المعتاد ان يطاع . تابعت تقول :

– سوف نترككما الآن ، ولكن سأعود سريعاً . أعطي ييجور ملعقة من هذا الدواء ، ولا تسمحي له بالحديث ابداً .

وخرجت مصطحبة نيقولاي ، فقال ييجور متنهداً :

– امرأة رائعة ، مدهشة بكل بساطة . بودّي ان تقيمي معها يا ام ، فهي تجهد نفسها كثيراً ...

فردّت الام بلطف :

– كفاك كلاماً ، خذ هذا الدواء .

فجرع الدواء وأغمض إحدى عينيه ، واستأنف :

– سوف أموت على أية حال ، وان احتفظت بفمي مغلقاً .

وراح يراقب الام بعينه الثانية ، في حـــين ، انفرجت شفتاه عن ابتسامة صغيرة . اما الام فأطرقت برأسها، وتملّكتها موجة من الرثاء رجرجت الدموع في عينيها . قال :

– لا بأس في ذلك ، انه في حكم الطبيعة ... فلذّة الحياة تستدعي ضرورة الموت .

فوضعت الام يدها على جبينه ، وقالت مرة أخرى في لطف عظيم :

– أفلا تستطيع حقاً ان تكفّ عن الكلام ؟

فأغلق عينيه وكأنه يصيخ السمع الى خرخرة صدره ، ثم عاود في عناد :

– ليس في الصمت اي معنى ، يا أم . ماذا عساني أربح به ؟ بضع ثوان أخرى من عذاب النزع الاخير ، وانا أضيّع لذة تبادل بعض الكلمات مع امرأة رائعة مثلك . إني لعلى يقين ان البشر في العالم الآخر ليسوا على طيب هؤلاء الناس .

فقاطعته الام في قلق :

– ستعود الآن هذه السيدة العظيمة وتعنفني لأني تركتك تتكلم .

– ليست سيدة عظيمة ، بل هي ثوروية رفيقة ، امرأة مدهشة حقاً . ولا ريب انها ستعنّفك ، فهي تعنّف الجميع على حد سواء .

وشرع ييجور ، وهو يبذل جهداً واضحاً كي يحرك شفتيه ، يروي لها قصة حياة جارته . كانت عيناه تبتسمان ، فتدرك الام تعمُّده مضايقتها ، فتنظر في وجهه النديّ المزرق وتفكر مذعورة :

– انه يموت ...

ورجعت لودميلا ، ولم تكد تغلق الباب في عناية وحذر حتى استدارت الى الام :

– ينبغي لصديقك ان يبدل ثيابه ويغادر غرفتي في أسرع وقت ممكن ، وهكذا عليك ان تذهبي حالاً وتأتيه بما يرتديه . إحملي الثياب الى هنا . من

سوء الحظ ان صوفيا ليست موجودة ... فذلك من شأنها وحدها – إخفاء الناس !

فقالت الام ، وهي تلقي بوشاحها على كتفيها :

– إنها عائدة غداً .

كانت كلما أعطيت مهمة ما ، تمتلىء رغبة في تنفيذها سريعاً على أكمل وجه حتى لتعجز عن التفكير في شيء آخر ... سألت في صوت جدي ، وهي ترفع حاجبيها في اهتمام :

– أي زي تفضلين له ؟

– لا فارق ، إذ سيترك المدينة ليلاً .

– ذلك أسوأ منه في النهار ، اذ لا يكون في الشوارع غير قليل من الناس ، ويكون رجال الشرطة أشد حذراً واكثر عناية وتزمتاً في المراقبة . وهو ليس على كثير من المهارة ، كما تعلمين .

وأطلق ييجور ضحكة مبحوحة .

سألته الام :

– هل استطيع زيارتك في المستشفى ؟

فأشار برأسه ، وهو يسعل ...

واستفهمت لودميلا ، وهي ترمق الام بعينيها السوداوين :

– هل تحبين ان نتبادل العناية به ؟ أنتِ تريدين ؟ عظيم . أما الآن فاذهبي بأقصى سرعة ممكنة .

وأمسكت الام في حنان، ولكن في حزم، من ذراعها ، وقادتها نحو الباب، حتى اذا خرجتا منه توقفت لتقول بصوت خافت :

– لا تغضبي من طردي إياك هكذا ، فالكلام يؤذيه كثيراً ، وانا ما زلت أرعى آمالاً ...

وشدّت على يديها حتى فرقعت عظامها، ثم اسبلت جفنيها المتعبين في إعياء.

واضطربت الام لذلك الاعتراف ، فغمغمت :

– يا إلهي ! ما هذه الاقوال ...

فقالت المرأة بصوت خفيض :

– إنتبهي من الجواسيس حولك .

ورفعت يدها الى وجهها تفرك صدغيها ، وارتعشت شفتاها ، في حين رقت سيماؤها كثيراً .

قالت الام بخيلاء :

-- اني أعلم !

وبينا هي تعبر البوابة وقفت برهة ، وراحت تصلح وضع وشاحها وهي تختلس النظر فيما حولها بعينين حادتين يقظتين . لقد اصبحت تعرف كيف تميز الجاسوس من بين حشد كبير من الناس دون خطأ تقريباً . انها تعلم جيداً تلك اللامبالاة المبالغ بها في خطوهم ، وتلك الطلاقة غير الطبيعية في إشاراتهم، وتلك السيماء من الملل والضجر التي لا تفلح في إخفاء البريق الملتاع الآلم الذي يطلُّ من عيونهم الحادة البغيضة .

ولكنها لم تستطع هذه المرة ان تميز مثل هذه الوجوه . فأسرعت الخطوَ على طول الشارع ، ونادت عربة وأمرت سائقها ان يقلّها الى السوق ، حيث راحت تشتري ثياباً لنيقولاي وهي تساوم في عناد ، وتكيل الشتائم دون حساب لذلك الزوج السكير الذي تجبرها عربدته الدائمة على ان تشتري له طقماً كاملاً من الملابس كل شهر تقريباً . ولم تؤثر خرافتها هذه في البائعين كثيراً ، ولكن نفسها

ارتاحت لها كل الارتياح ، على أية حال ، وابتهجت بها، لانها تصورت في الطريق ان رجال الشرطة سيدركون ضرورة شراء ثياب جديدة لنيقولاي ، فيرسلون بالتالي جواسيسهم الى السوق ... وقفلت الى مسكن بيجور وهي تتخذ نفس الحيطة الساذجة ، ومن ثم رافقت نيقولاي حتى حدود المدينة ، وهما يسيران كلٌ على جانب من الطريق ، والام تضحك طوال الوقت ، مسرورة برؤية نيقولاي يخب معها في تثاقل، مطرق الرأس، وهو يتعثر بأذيال معطفه الرمادي الطويل ، ويدفع الى الخلف بقبعته التي لا تنفك تنزلق فوق جبينه حتى تبلغ أنفه . والتقيا بساشا في زقاق جانبي مقفر ، فأشارت الام الى فيزوفشيكوف برأسها ، ثم هرولت راجعة الى الدار . وفكرت في كآبة :

– ولكن بافل ما برح في السجن ... وكذلك أندريه ...

١٠

استقبلها نيقولاي إيفانوفيتش في بلبلةٍ صاخبةٍ من الاضطراب والقلق . هتف بها لما رآها :

– إن ييجور في حالة سيئة ، سيئة للغاية ! لقد نقلوه إلى المستشفى ، ومرت لودميلا بنا ، وهي تريدك على الذهاب ...

– الى المستشفى ؟

وأصلح نيقولاي من وضع نظارتيه بحركة عصبية ، ثم ساعد الأم على ارتداء سترتها . قال بصوت مرتعش . وهو يضغط أصابعها في يده الجافة الدافئة :

– أنظري ، خذي هذه الرزمة معك . هل دبرت أمر فيزوفشيكوف ؟

– نعم .

– سأذهب ، انا ايضاً ، لرؤية ييجور .

كانت الام متعبة جداً حتى تكاد ان تفقد الوعي ، فراح اضطراب نيقولاي يثير فيها توقعاً أليماً لكارثة قريبة . وكانت هذه الفكرة القاتلة « انه يموت » ... لا تفتأ تنهال على رأسها ضرباً مثل مطرقة ثقيلة .

ولكنها ما ان دخلت الغرفة النظيفة المشرقة ، حيث كان ييجور يضحك بصوت مبحوح وقد اضطجع غارقاً في أكمة من الوسائد البيض ، هدأ روعها

وأحست ببعض الارتياح ، فوقفت برهة على عتبة الباب تنصت الى ما يحدّث الطبيب به :

– ان مداواة المريض مثل الاصلاحات ...

فهتف الطبيب بصوت قلق :

– كفاك هذراً ، يا ييجور .

– ولكني ثوروي ، وأمقت الاصلاحات ...

فوضع الطبيب ، في لطف ، يد ييجور على ركبته ونهض وهو يعبث بلحيته مفكراً ، ويجسُّ في وجه المريض من انتباج . وكانت الام تعرف هذا الطبيب ، فهو من أعز أصدقاء ييجور ، واسمه ايفان دانيلوفيتش . اقتربت متمهلة من ييجور الذي حياها بمدّ لسانه ، فاستدار الطبيب إليها وقال :

– آه ، هذا أنت ، يا نيلوفنا ! مرحباً بك ! ما هذا الذي تحملين في يدك ؟

فاستنبأ ييجور :

– كتب ، فيما أعتقد !

فأمر الطبيب قصير القامة :

– القراءة ممنوعة عليه .

فقال المريض شاكياً :

– في نيّته ان يجعلني أبله غبياً .

وندّت عن صدره زفرة قصيرة مؤلمة ، مصحوبة بخرخرة رطبة ، واكتسى وجهه بقطرات دقيقة من العرق ، ولم يستطع رفع يده حتى جبينه إلا في جهد عظيم للغاية . وكان ذلك الجمود الغريب في خديه المنتفخين يشوّه وجهه العريض الدمث ، اذ يشلُّ سيماءه في قناع ميت لا حياة فيه . عيناه وحدهما ، الغارقتان

عميقاً في الانتفاخ الذي يعمّ وجهه بأسره ، كانتا تشعان في بريق ، وتبتسمان في حنان .

– هِيْ !... يا أبا الطب اسكولاب، اني متعب . أفلا أستطيع الاستلقاء ؟

فأجاب الطبيب في اقتضاب :

– كلا ، لا تستطيع .

– حسناً ، سوف استلقي من اللحظة التي تغادر الغرفة فيها .

– لا تسمحي له بذلك، يا نيلوفنا . رتبي وسائده ، وإياك ان يتكلم – ذلك يقتله .

فأشارت الام برأسها ، أما الطبيب فخرج وهو يكردح بخطوات سريعة قصيرة . وألقى ييجور برأسه الى الخلف وأغمض عينيه، وجمد دون حراك أللهم إلا أصابعه التي ما فتئت تضطرب في لطف . وكانت جدران الغرفة الصغيرة البيضاء ترشح برداً جافاً ، وضيقاً ضابياً ثقيل الوطأة . وكانت قمم أشجار الزيزفون المتشابكة ترى من خلال النافذة الواسعة ، ولطخ صفر تلمع من خلال اوراقها المغبرة ، فتنذر بالخريف الوليد وبرده القارس .

قال ييجور ، دون ان يتحرك او يفتح عينيه :

– الموت يقترب مني في بطء ، وبالرغم منه ! انه يشق عليّ نوعاً ما على ما أظن ... فلقد كنت دائماً على استعداد لمرافقته ، والتآلف معه .

فرجته الام ، وهي تربت على يده في لطف :

– هلا كففت عن الكلام ، يا ييجور إيفانوفيتش ؟

– انتظري لحظة ... سوف أكفّ ...

وتابع ، وهو يلهث ويبذل صعوبة كبرى كي يلفظ الكلمات ، ويستريح من عناء الحديث كلما أعوزته القوة للاستمرار فيه :

– ما أروع ان تكوني بيننا ، وما أبهج رؤية وجهك ! لأسأل نفسي احياناً كيف ستكون نهايتها ؟ ومما يرثى له حقاً ان يدرك المرء انك – مثل الباقين جميعاً – ستحطين الترحال في السجن اخيراً . . الى آخر ما ينتظرك من التعاسات. أخائفة أنت من المضيّ الى السجن ؟

فأجابت بكل بساطة :

– كلا .

– بالطبع لا ، ومع ذلك فلا مهرب منه . . . فالسجن أمر فظيع ! والسجن مَن صنع بي هذا ! واذا اردت الحقيقة ، فأنا لا أريد ان أموت . . .

وكادت الام تقول : « ربما لن تموت بعد » ، ولكن نظرة وحيدة الى وجهه ردَّت الكلمات عن شفتيها .

كنت أستطيع اذن متابعة النشاط . . . ولكن اذا كنت عاجزاً عن العمل . . . فلا معنى لحياتي اذن . . . فهي تكون سخيفة عندئذ . . .

وتنهدت الام وهي تتذكر التعبير المحبب الى أندريه : « ذلك عدل . . . ولكنه لا يعزي » . لقد قضت يوماً متعباً ، وهي الى ذلك جائعة . . . وكان تنفس الرجل المريض المبحوح ، المتردّد على وتيرة واحدة ، يملأ الغرفة وينزلق على الجدران الملساء عاجزاً مقهوراً . وكانت قمم أشجار الزيزفون خارج النافذة أشبه بسحب واطئة قائمة متوعدة حتى لتثير الذهول والعجب في نفس الناظر اليها . لقد اضحى كل شيء هادئاً بشكل غريب ، غارقاً في جمود القيلولة المظلمة ، ينتظر معذباً قدوم الليل .

قال ييجور ، وهو يغمض عينيه ويلوذ بالصمت :

– أشعر بكثير من الضعف والانحطاط !

فنصحته الام :

– هلا رقدت ! لعلك اذن تتحسن حالاً .

وأنصتت فترة الى تنفسه ، ثم صعّدت النظر في ما حولها ، وعادت الى الجلوس دون حراك بعض الوقت ، ونير حزن بارد يجثم عليها بوطأته وأخيراً هَجَدَ النعاس في عينيها ...

أيقظتها حركة حريصة عند الباب. فانتفضت ورأت عيني ييجور مفتوحتين.

قالت بصوت خافت :

– لا ريب اني غفوت ، فاصفح عني .

فأعلن في مثل خفوت صوتها :

– أنت بالأحرى من يجب ان يصفح عني .

وأطلت دجنَّة الليل الاغبش من خلال النافذة ، وانسل برد عجيب يملأ الغرفة ، والظل يغمر كل شيء بصورة غريبة . وكان وجه الرجل المريض مظلماً فاحم اللون .

وسُمع حفيف ، ثم صوت لودميلا يقول :

– ما بالكما تجلسان هكذا في العتمة البهماء تتهامسان ؟... أين مفتاح النور؟

وعلى حين فجأة ، غمر نور أبيض قلب الغرفة التي وقفت لودميلا في وسطها بقامتها المديدة وظهرها المستقيم .

مرت رعشة في جسد ييجور برمّته ، فمطا يده الى صدره .

صاحت لودميلا ، وهي تركض اليه :

– ماذا دهاك ؟

فرمق الام بعينين جامدتين بدتا الآن متسعتين كثيراً ، براقتين بشدة ، وفغر فاه ، ورفع رأسه ومدّ يده الى الامام ، فتناولتها الام وأدفأت النظر في وجهه

وهي لا تجرؤ على التنفس . الى انه ألقى برأسه الى الخلف وقد أطبق على عنقه اختلاج شديد ، وقال بصوت مرتفع النبرة جهوري الجرْس :

- لا أستطيع ... انها النهاية ! ...

وملكت جسده رعشة سريعة وسقط رأسه خائراً على كتفه ، وانعكس نور المصباح المعلـّق فوق سريره ، ميتاً ، في عينيه البجّاوين .

غمغمت الأم :

ـ أواه ، يا عزيزي !

وابتعدت لودميلا في بطء عن السرير حتى صاقبت النافذة، ووقفت تشخص الى الخارج . وصاحت على غير انتظار بصوت أجشّ غير مألوف :

ـ لقد مات !

وانحنت فوق النافذة ، وقد اعتمدت حفافها بمرفقيها ، ثم سقطت فجأة خائرة القوى على ركبتها ، وكأنها تلقت ضربة شديدة على أمّ رأسها ، وغطت وجهها بيديها وانثالت تزمجر بصوت مخنوق .

صلـّبت الام يدي ييجور فوق صدره ، وأحسنت من وضع رأسه عـــلى الوسادة ، ومن ثم مسحت دموعها وخطت مقتربة من لودميلا ، ومالت عليها تمسح على شعرها الكثيف . فحوّلت المرأة الثانية إليها عينين باهتتين متوسعتين، وناضلت كي تنهض على قدميها ، وهي تهمس بصوت راعش النبرات :

ـ لقد عشنا معاً في المنفى . ذهبنا الى هناك معاً ، وقضينا مدة إدانتنا ... ذلك لا يطاق في الأحايين . ذلك يبعث على النفور ، وكثيرون هم الذين تخونهم الشجاعة ...

اعتصرتها نوبة من بكاء مرتفع جاف تغلـّبت عليها في جهد عظيم، ثم أطفـّت من الام بوجهها الذي رقـّت سيماؤه بما انطبع عليه من حنان وكآبة حتى بدت

صاحبته أصغر سناً مما هي عليه ، وتابعت في همس سريع وهي تبكي دون عبرات :

– اما هو ، فلم يكن ينضب لمرحه معـــين . يضحك ابداً ويمزح ، مخفياً آلامه الخاصة ليسكب الشجاعة في قلوب الضعفاء منا . لقد كان ابداً طيّب القلب ، لطيفاً ، رقيق الشعور . وهناك ... في سيبيريا ... كثيراً ما تفسد البطالة الناس وتقودهم الى إطلاق العنان لغرائزهم الدنيئة ... لكم كان يعرف كيف يحارب هذا كله ! ... آه لو تعلمين أس رفيق مدهش رائع كان ... لقد كانت حياته الخاصة تعسة كل التعاسة ، لكن أحداً لم يسمع قط كلمة شكوى او تبرُّم من شفتيه ... ابداً ! ولقد كنت صديقة عزيزة عليه ، وأدين للطفه بالشيء الكثير ، ولقد أعطاني كل ما في مقدوره من ثراء فكره ... ومع ذلك فانه لم يسأل أبداً ثواباً ، بالرغم من أعيائه ووحدته ، ولم يطلب أدنى عطف او أية عناية شخصية ...

واقتربت من ييجور ، وانحنت عليه تقبّل يده . ثم قالت بصوت خافت :

– أيها الرفيق ، يا رفيقي العزيز الطيب ، شكراً لك ... شكراً لك من صميم قلبي . وداعاً ! لسوف أتابع العمل كما فعلتَ أنت دائماً ... دون كلل ، وبايمان لا يتزعزع ، طوال حياتي . وداعاً !

راح جسدها ينتفض وهي تجهش بالبكاء ، ثم ارتمت عند قدميّ ييجور ، وكانت الام تبكي في سكون وغزارة وهي تحاول ، لسبب مـــا ، ان تحبس عبراتها انها تريد ان تعزي لودميلا بحنان عميق وعطف عظيم ، تريد تقول كلمات رائعـــة عن ييجور تطفح حباً وحزناً . ومن خلال دموعها نظرت الى وجهه المنتفخ وعينيه نصف المغمضتين بجفنيه المسبلين فكأنه يغفو او يحـــلم وشفتيه القاتمتين الطافرة عليهما ابتسامة خفيفة ... لقد كانت جميع الاشياء ساكنة برّاً حتى درجة الايلام ...

ودخل إيفان دانيلوفيتش بخطواته السريعة المعهودة ، وتوقف بغتة في وسط الغرفة ، ثم دفع يديه في جيبيه بقسوة ، واستقصى بصوت مرتفع عصبي :

– متى حدث ذلك ؟

فلم يتلقَّ جواباً . مسح جبينه واتجه صوب ييجور وهو يترنح قليلاً ، وبعد ان ضغط على يده ابتعد جانباً . . .

– لم يكن ذلك مفاجأة . كان يجب ان يحدث ، بمثل قلبه ، قبل ستة أشهر . . . على الاقل . . .

وفجأة انكسر صوته الحاد ، المرتفع كثيراً ، والهادىء في الوقت ذاته ، فاستند الى الحائط وراح يعبث بلحيته في عصبية ، وهو يراقب المرأتين قرب السرير . قال بصوت خافت :

– واحد آخر يتلاشى !

نهضت لودميلا وذهبت تفتح النافذة ، وبعد لحظة كانوا يقفون جميعاً بالقرب منها يشخصون في وجه ليل الخريف الادعج . وكانت مصابيح الدجى تتلألأ ، فوق قمم الاشجار القاتمة ، فتزيد فراغ السماء اللامتناهي عمقاً وبعداً . . .

وأخذت لودميلا ذراع الام ، واعتمدت على كتفها في سكون ؛ ووقف الطبيب مطرق الرأس ، يمسح نظارتيه ؛ ومن خلال النافذة أتت أصداء ليل المدينة المتعبة . وداعب البرد وجوههم وحرّك شعورهم في لطف ، فارتجفت لودميلا ، في حين راحت دمعة ملتهبة تترقرق على خدها . وفي الرواق كانت أصداء متكسرة مذعورة ، ووقع أقدام سريعة مضطربة ، غير ان الثلاثة ظلوا ساكنين لا حراك بهم عند النافذة يشخصون في الليل البهيم .

وأحست الام ان وجودها لم يعد مستحباً في الغرفة ، فتخلصت من لودميلا في أناة واتخذت طريقها الى الباب . وعند العتبة انحنت لييجور .

استجلى الطبيب بصوت خفيض ، ودون ان يلتفت اليها :

– أتذهبين ؟

– نعم ...

ولما بلغت الشارع روّأت تفكر بلودميلا وعبراتها المكتومة :

– انها لا تعرف كيف تبكي ...

وتنهدت اذ تذكرت آخر ما تفوه به ييجور من كلمات قبـــل وفاته . وراحت تتذكر طوال الطريق عينيه الحبيبتين ، ومرحه الدائب ، والقصص التي رواها عن الحياة . هجست في نفسها :

– ان الحياة عسيرة على الانسان الطيب ، اما الموت فسهل للغاية . كيف سأموت انا ، يا تُرى ؟

ورأت بعيني فكرها لودميلا والطبيب واقفين الى نافذة تلك الغرفة البيضاء المشعشعة بالضياء ، وعيني ييجور الى الخلف منهما . وعلى حين فجأة غمرها رثاء عظيم للجنس البشري ، فأنشأت خطاها تتدافـــع وهي تصعّد زفرة كالنار ، يحرّضها شعور غامض غير محدود . وفكرت ، وهي تخضع لقوة داخلية تمتزج بكثير من الكآبة والاقدام :

– يجب ان أسرع !

١١

قضت الام اليوم التالي برمته منهمكة في تدبير أمور المأتم . وفي المساء ، بينما هي وصوفيا ونيقولاي يترشّفون الشاي ، هبطت ساشا عليهم كثيرة المرح والحيوية حتى درجة غريبة . كانت وجنتاها متوقدتين ، وعيناها تلمعان فرحاً ، حتى بدا للأم ان صدرها يطفح برجاء بهيج للغاية ؛ كان مزاجها على طرفي نقيض مع جو الكآبة الذي راحوا يستعيدون فيه الذكريات عن حياة ييجور . ولم تتكيّف ساشا مع ذلك الجو ، بل عكرت صفوه ، وأعمت عيون الغارقين فيه مثل نار تتأجج ، دون انتظار ، في الظلمة العابسة .

وقال نيقولاي ، وهو يضرب على الطاولة بأصابعه :

– ما دهاك اليوم ، يا ساشا ؟ لستِ على طبيعتك ومزاجك ؟

فأجابت ساشا ، مرسلة ضحكة سعيدة :

– حقاً ؟ ربما !

تطلعت الام اليها في عتاب أخرس ، بينما همهمت صوفيا تذكرها :

– لقد كنا نتكلم عن ييجور إيفانوفيتش بالضبط .

فهتفت ساشا :

– أي انسان رائع كان ! اني لم ألقه ابداً إلا والابتسام يموج على شفتيه ،

والمزاح يتراقص في فمه . وكيف كان يعمل ! لقد كان فناناً في الثورة ، استاذاً في التفكير الثوروي . بأية قـــوة وبساطة كان يرسم لوحاته عن الضعف ، والكذب ، والخداع ، والظلم !

كانت تتكلم بصوت خافت ، وفي عينيها ابتسامة مفكرة ، لكنها أعجز إطفاء نار الغبطة التي استطاع ثلاثتهم تمييزها ، وان لم يستطع أحد منهم فهمها .

وأبوا ان يستبدلوا ذلك المرح الذي تحمله ساشا بالكآبة الناشئة عن موت رفيقهم فطفقوا يدافعون ، دون وعي منهم ، عن حقهم في الانغماس في الحزن ساعين ان يردوا الفتاة الى مشاركتهم اتراحهم .

قالت صوفيا في إصرار ، وهي ترمق ساشا بنظرة مدققة :

– وها هو الآن قد مات !

شملتهم ساشا بنظرة سريعة مستفهمة وعبست ، ثم أطرقت برأسها وهي تصفّف شعرها . وأخيراً رفعت رأسها بغتة ، وجمجمت بصوت يرنُّ بالتحدي ، بعد فترة من الصمت المتوتر :

– لقد مات ! ماذا يعني هذا... مات ؟ ما الذي مات ؟ هل مات احترامي ليجور ، او حبي له كرفيق ، او ذكرياتي عن آرائه واعماله ؟ هل اختفى ذلك الشعور الذي يثيره في قلبي ، او معرفتي به كانسان شريف مقدام ؟ هل مات كلُّ هذا ؟ أعلم ان ذلك لا يمكن ان يموت ابداً بالنسبة إليَّ . يؤتى لي اننا نتسرّع كثيراً حينما نقول عن شخص ما ... انه مات . لقد ماتت شفتاه ، واما كلماته فستظلُّ حية في قلوب الاحياء !

وفي انفعالها جلست على المائدة ، واعتمدت عليها بمرفقيها ، وتابعت وهي اكثر هدوءاً وتأملاً مبتسمة لرفاقها بعينين مكفهرتين :

– لعل ما أقول يبدو لكم حماقة ايها الرفاق . ولكني أؤمن بخلود الناس

الشرفاء ، خلود أولئك الذين منحوني الامكانيات حتى اعيش هذه الحياة الرائعة التي احياها ، هذه الحياة التي تسكرني بتعقدها المدهش ، وغناها بالحوادث ، ونموّ الافكار العزيزة عليّ معزّة قلبي نفسه . لعلنا نبخل كثيراً بعواطفنا ، فنحن نعيش كثيراً مع افكارنا ، وهذا يشوهنا نوعاً ما . نحن نقدّر جميع الاشياء دون عاطفة ...

فاستفهمت صوفيا ، وشفتاها تفترّان عن ابتسامة صغيرة :

– هل وقع لك حادث سعيد ؟

– نعم ، حادث جميل جداً على ما يخيّل إليّ . لقد قضيت الليل بطوله أحادث فيزوفشيكوف . اني لم أحبه من قبل ابداً . كنت أخاله فظاً جاهلاً ، ومما لا ريب فيه انه كان فظاً جاهلاً ... كان أبداً مفعماً بنقمة سوداء مريضة ضد سائر الناس ، وهو يضع نفسه نوعاً ما في قلب جميع الاشياء فكأنه مركز الثقل ، ويروح يقول في جفوة وخبث دون انقطاع : أنا ، أنا ، أنا . لقد كان ضيّق التفكير بشكل هائل ، يعيش بعواطف البورجوازي الصغير ...

وابتسمت ، ثم راحت تحدجهم من جديد بعينين لامعتين :

– اما الآن فهو يقول : ايها الرفاق . ويجب ان تسمعوه كيف يقول هذه الكلمة ... انه يلفظها بنوع من المحبة اللطيفة الخجول التي لا يمكن التعبير عنها بالكلمات . لقد أضحى بسيطاً مخلصاً ، مليئاً بالرغبة في العمل بصورة تبعث على الذهول . لقد وجد نفسه . انه واعٍ تماماً لقواه ولمساوئه على حدٍّ سواء . الأمر الرئيسي هو ذلك الشعور الحقيقي بالرفقة الذي ولد فيه ...

وكانت الأم سعيدة وهي تنصت الى ساشا ، اذ تكتشف ان مثل هذه الانسانة الصارمة النفس يمكن ان تصبح لطيفة فرحة . ولكنها في الوقت ذاته كانت تفكر ، في مكان ما من أعماق قلبها ، في غيرة :

وماذا عن بافل ؟



ناتاشا

وتابعت ساشا تقول :

ــ انه يفكر في رفاقه فحسب، وهل تعلمون بماذا حاول إقناعي ؟ بضرورة تدبير أمر فرارهم انه يدّعي ان ذلك بسيط سهل للغاية .

فرفعت صوفيا رأسها ، وقالت في لهفة :

ــ تلك فكرة رائعة ، يا ساشا ! ما رأيك ؟

ارتجف قدح الشاي في يد الام ، اما ساشا فعقـــدت حاجبيها وهي تحاول كبت عواطفها وانفعالاتها . وبعد فترة من الصمت قالت بصوت رزين ، ولكن بابتسـامة سعيدة :

— ان كان ما يقوله حقاً ، فعلينا إذن ان نحاول ... واجبنا ان نحاول .

واحمرّ وجهها بغتة ، وسقطت في مقعد دون ان تقول شيئاً .

وفكرت الام ، وهي تبتسم :

— يا حبيبتي !

وكذلك ابتسمت صوفيا ، بينما اختلس نيقولاي النظر الى ساشا وضحك في رقة ، فرفعت الفتاة رأسها اليهم ، كانت شاحبة الوجه ، وعيناها تبرقان ، وصوتها جافاً جريحاً . قالت :

— اني أفهم سبب ضحككم . أنتم تظنون ان لديّ دافعاً شخصياً الى تحقيق ذلك .

فقالت صوفيا في خبث ، وهي تنهض وتقترب منها :

— لماذا ، يا ساشا ؟

وشخص للأم ان ذلك قد آلم ساشا ، وان صوفيا محقـــة في ذلك القول ، فتنهدت ونظرت اليها في عتاب . هتفت ساشا :

— إذن فأنا أرفض التدخّل في هذه القضية ، لست أقوى على المساهمة في تقرير ذلك ما دمتم تعتقدون أنه ...

فقال نيقولاي في هدوء :

— كفى ، يا ساشا .

ذهبت الام اليها ايضاً وراحت تمسح على شعرها ، فأمسكت الفتاة بيدها

ورفعت محياها المورّد نحو وجه الام ، فابتسمت هذه وتنهدت وقد أعوزتها الكلمات ، بينا جلست صوفيا على المقعد بجانب ساشا وأحاطت كتفها بذراعها، وقالت وهي تتطلع في عينيها بابتسامة مستفهمة :

– لأنت حبيبة رائعة !

– ربما كان من البلاهة ان ...

فتابعت صوفيا :

– كيف يمكن ان تراودك مثل هذه الافكار ؟

ولكن نيقولاي قاطعها بلهجة رزينة :

– يجب تدبير هربهم من دون أدنى ارتياب ، ان كان هذا الهرب ممكناً . ولكن يجب ان نعرف قبل كل شيء ان كان رفاقنا في السجن يريدوننا ان نفعل هـــذا .

فأطرقت ساشا برأسها ...

أشعلت صوفيا لفافة ، وألقت بعود الثقاب في إحدى الزوايا وهي ترنو الى أخيها . اما الام فتنهدت ، وقالت :

– كيف يمكن ألا يريدوا ذلك ؟ ولكني لا أعتقد بامكانه ...

كانت تتلهف ان تسمعهم يؤكدون احتمال الفرار ، بيد أنهم ظلوا سكوتاً . قالت صوفيا :

– يجب ان أرى فيزوفشيكوف .

فأجابت ساشا :

– سأقول لك غداً متى يمكن ذلك ، وفي اي مكان .

واستوضحت صوفيا ، وهي تذرع ارض الغرفة في ذهاب وأوْبة :

– وما هي مشاريعه ؟

– ينوون ان يسندوا اليه عملاً في المطبعة الجديدة، وفي انتظار ذلك سيعيش مع أحد حراس الغابات .

كانت ساشا عابسة ، وقد أستردّ وجهها تعبيره الكالح المألوف . وكانت تتكلم بجفاء واقتضاب .

قال نيقولاي ، وهو يتجه الى حيث الام تغسل بعض الاواني الزجاجية :

– يجب ان تسلمي بافل رسالة صغيرة حين تنطلقين لزيارته بعد غد . أنت تفهمين ... يجب ان نعرف ...

فأسرعت الام تؤكّد له :

– اني أفهم . سأتدبر الامر كي أسلمه إياه .

– اني ذاهبة الآن .

أعلنت ساشا ذلك ، وبعد ان صافحت كلاً منهم اختفت منتصبة القامة بشدة ، وبخطوات ثابتة حازمة اكثر من المعتاد .

وبعد ان ذهبت ، وضعت صوفيا يديها على كتفي الام وطفقت تهزّها الى الامام والخلف . سألت :

– أفي استطاعتك ان تحبي مثل هذه الابنة ، يا نيلوفنا ؟

فصاحت الام ، وهي على شفا البكاء :

– آه ، يا الهي ! لو استطيع رؤيتهما معاً ليوم واحد فقط !

فغمغم نيقولاي بصوت رقيق :

– نعم ، ان قليلاً من السعادة لا يؤذي احداً . ولكن احداً لا يقنع بالقليل من السعادة ، فاذا كثرتْ جداً ... أصبحت رخيصة .

واتجهت صوفيا الى البيان ، وأنشأت تعزف لحناً حزيناً .

١٢

وفي صباح اليوم التالي كان ثلاثون او اربعون شخصاً يقفون عند بوابة المستشفى ينتظرون خروج نعش رفيقهم المتوفي في العشية ، وقد تغلغل بينهم بعض الجواسيس يصغون الى هتافاتهم ، ويسجلون في أذهانهم الوجوه والحركات والكلمات ، بينما اصطف عبر الشارع فريق من رجال الشرطة ، والمسدسات في احزمتهم . وثارت ثائرة الحشد من وقاحة الجواسيس ، والابتسامات الساخرة التي تعلو شفاه رجال الشرطة المستعدين في كل لحظة للبرهنة على قوتهم . وراح بعضهم يُخفون ضجرهم وراء الهزل والمزاح ، في حين استمر البعض الآخر يشخصون في عناد الى الارض حتى يتجنبوا الاهانات الموجهة اليهم ، وفريق ثالث ، وقد عجزوا عن اخفاء مشاعرهم ، يلقون بملاحظات جارحة عن السلطات المذعورة من قوم لم يتسلحوا إلا بالكلمات. وكانت سماء الخريف الزرقاء الشاحبة تلتمع ببريق فوق حجارة الطريق الرمادية المزروعة بأوراق صفر تساقطت عن الاشجار ، فراح الهواء يعصف بها عند اقدام القوم المحتشدين ويذروها .

ووقفت الام بين الحشد تفكر في كآبة ، وهي تحدج الوجوه المألوفة المحيطة بها :

– ليس عددكم كبيراً ... ليس كبيراً ... وليس بينكم عمال تقريباً ...

وفُتحت البوابة ، وخرج منها بعض الرجال يحملون النعش الذي تُوّج غطاؤه ببعض اكاليل من الازهار احاطت بها اشرطة حمر ، فأسرع المتجمهرون يرفعون

قبعاتهم ، فكأن سرباً من العصافير السود قد خفق باجنحته على حين فجأة . واندفع في الحشد ضابط شرطة طويل القامة ، احمر الوجه ، كث الشارب الاسود ، يتبعه الجنود وهم يدفعون الوقوف في فظاظة ، ويضربون الارض بأحذيتهم الثقيلة في شدة وعنف .

صاح الضابط بصوت أجش :

- ارفعوا هذه الاشرطة .

فاستكفّ الرجال والنساء حوله يتكلمون بانفعال وهياج شديدين يلوّحون بأذرعتهم ويتدافعون بالأكتاف . وتراقصت امام عيني الام وجوه شاحبة ، منفعلة ، ترتجف شفاهها في عصبية ، وانحدرت دموع الهوان واليأس على وجنتي احدى النساء غزيرة مدرارة .

وعلا صوت فتى يقول :

- فليسقط العنف .

غير ان هتافه ضاع فوراً في حمأة الجدال وضجيجه .

كانت المرارة تملأ قلب الام ايضاً ، فالتفتت الى فتى رث الثياب يقف الى جانبها وقالت ساخطة مغيظة :

- انهم لا يسمحون لكم حتى بالاحتفال بمأتم ميت كما يحلو لكم ... ذلك مخزٍ حقاً .

ونما شعور العداء بين المجتمعين ، بينما راح غطاء النعش يترنح فوق رؤوس القوم ، وأشرطته الحمر تخفق في الفضاء فتنال الرؤوس والوجوه تحتها بحفيف ثائر من الحرير الناعم .

اجتاح الام الخوف من حدوث اصطدام بين الفريقين ، فراحت تهمس بسرعة ذات اليمين وذات اليسار :

– فليأخذهم الشيطان ان كان ذلك رأيهم في الموضوع... فليأخذوا الاشرطة اذن ، فنحن نستطيع الاستمرار من دونها .

وتردد صوت مرتفع حاد النبرات طاغياً على الضوضاء :

– اننا نطلب الحق بتشييع رفيقنا الى مثواه الاخير ، هذا الرفيق الذي عذبتموه حتى الموت ...

وبدأ صوت عال يُنشد :

« لقد سقطتم ضحايا نبيلة ... »

– انزعوا الاشرطة . اقطعها ، يا ياكوفليف !

وعلا صليل سيف يُستل من غمده ، فأغلقت الام عينيها تتوقع صراخاً وانفجاراً ، لكن القوم لم يزيدوا عن الغمغمة والتكشير عن الانياب مثل ذئاب جائعة ، ومن ثم ساروا في سكون ، مطرقي الرأس ، يملؤون الشارع بوقع خطاهم.

كان غطاء النعش الذي دُنس واعتُدي عليه يسبح فوق رؤوس الناس بأكاليله المهشمة ، والى جانبه يترنح فرسان الشرطة على متون جيادهم . وكانت الام تمشي على الرصيف فلا تستطيع سبيلاً الى رؤوس النعش الذي تكلّله الناس من كل حدب وصوب ، وهم يتكاثرون باستمرار بصورة غير محسوسة ، حتى أصبحوا حشداً كبيراً يغمر الشارع برمته . والى الخلف من الحشد كانت اشباح فرسان الشرطة الرمادية تنتصب ايضاً ، وثمة آخرون يسيرون راجلين على جانبي الموكب وأيديهم على مقابض سيوفهم . وفي كل مكان كانت الام تستطيع تمييز أعين الجواسيس الحادة تتفحص بامعان وجوه الناس .

وأنشد صوتان كئيبان :

« وداعاً ، ايها الرفيق ، وداعاً ... »

فصاح صوت ثالث :

– اننا نستطيع الاستغناء عن ! ... ينبغي ان نسير في صمت وخشوع ، ايها السادة .

كان في هذه الصيحة شيء صارم كثير الجد حتى ان النشيد انقطع للحال ، وسكن لغـط الحديث بين المشيعين فلم يعد يُسمع سوى وقع الاقدام الحزين المتسق . كانت هذه الاصداء ترتفع فوق رؤوس الناس وتحلق عالياً فوق السماء الشافة ، وهي تهزُّ الفضاء مثل هزيم الرعد الاول المبشِّر بعاصفة لما تزل بعيدة. وكانت ريح قارسة تشتد شيئاً فشيئاً تلفح بعداءٍ وجوه القوم بغبار شوارع المدينة وأوساخها ، وتتشبث بقبعاتهم وثيابهم ، وتعمي أعينهم ، وتضربهم في صدورهم ، ثم تدور حول أقدامهم في حمية وجنون ...

كان ذلك المأتم الصامت ، الغني عن الكهنة والترتيل المؤثر ، وهذه الوجوه المغرقة في التفكير ، والحواجب العابسة المقطبة ، تمـلأ الام باحساس من غم وهلع ... فتروح أفكار متماهلة تدوّم في ذهنها ... فتكسوها في كلمات كئيبة قليلة :

– لستم كثراً ، أنتم الذين تقفون للدفاع عن الحقيقة ...

ومشت مطأطأة الرأس ، يبدو لها انهم لا يدفنون ييجور . فكرت :

– بالطبع ، ان ييجور لا يؤمن بالله ، وليس أحـد بين هؤلاء الناس يؤمن به ...

ولم تشأ ان تسترسل في الفكرة ، فتنهدت وهي تجرب تحرير نفسها من عبء حمل ثقيل :

– أواه ، يا إلهي . أواه ، يا يسوع الحبيب ! أيمكن أني انا ايضاً – مثل هؤلاء ...

وبلغوا المقبرة ، وظلوا طويلاً يدورون حول القبور خلال دروب ضيقة

حتى أهدفوا اخيراً من فسحة طليقة من ارض مزروعة بصلبان صغيرة بيض كثيرة العدد ، فتحلقوا في صمت حول القبر المفتوح . كان سكون الأحياء هذا بين القبور يحمل في طياته شيئاً مخوفاً كثير الرهبة حمل قلب الام على الارتعاش في توقيع أليم . وعوت الريح وصفرت بين الصلبان ، وهي تخفق بين الازهار المهشمة فوق غطاء النعش .

ووقف رجال الشرطة على أهبة العمل، وعيونهم مثبتة في رئيسهم. وانتصب بجانب اللحد شاب طويل القامة شاحب الوجه ... ذو حاجبين سوداوين وشعر باسق الطول مسترسل ... وفي ذات اللحظة صـــاح ضابط الشرطة بصوته الأجش :

— ايها السادة ...

وبدأ الشاب ذو الحاجبين السوداوين يقول بصوت مرتفع واضح النبرات :

— ايها الرفاق !

فزعق الضابط :

— لحظة واحدة ! ينبغي ان أحذّركم بأني لا استطيع السماح بأية خطبة على الاطلاق .

فأجاب الفتى في هدوء :

— اريد ان اقول كلمات قليلة ليس غير ، أيها الرفاق ! فلنقسم على قـــبر صديقنا ومعلمنا اننا لن ننسى قط مبادئه ، وان كلاً منا سيحفر دون كلل ، طوال حياته ، قبر تلك السلطة التي هي مصدر سائر آلام وطننا الام ، تلك السلطة الشريرة المجرمة التي تضطهده : الملكية .

فصاح الضابط :

— اعتقلوه !

ولكن صوته ضاع في عاصفة من الهتافات :

– فلتسقط الملكية !

وشقّ رجال الشرطة طريقهم ، بين المحتشدين ، نحو الخطيب ، ولكنه لوّح بذراعيه من حيث ازدحم أصدقاؤه لحمايته ، وصاح :

– عاشت الحرية !

ودُفعت الام جانباً فاعتمدت ، مذعورة ، أحد الصلبان وأغمضت عينيها تنتظر ان تُصفع وتلطم . وأصمّت أذنيها زمجرة أصداء متنافرة ، ومادت الارض تحت قدميها وغدا التقاط أنفاسها عسيراً عليها، بسبب من الريح والذعر جميعاً . وراحت صفارات الشرطة تمزّق الفضاء في لوعة ، وترددت أصوات قاسية تصدر الأوامر بعنف ، وطفقت النساء يصحن مضطربات ، وعيدان السور تتكسر ، وأحذية ثقيلة تضرب الارض الجافة بثقل وقوة . استمرّ ذلك زمناً طويلاً ، حتى لم تعد تستطع احتمال الوقوف هناك مغلقة العينين اكثر مما فعلت .

فتحت عينيها ، فأطلقت صيحة ثم وثبت الى الامام ممدودة الذراعين . كان رجال الشرطة ، غير بعيد عنها ، في الدرب الضيقة بين القبور ، قد احاطوا بالشاب المسترسل الشعر ، وهم يبعدون الجماهير المندفعة من كل صوب ومنحنىً لحمايته . ولمعت السيوف العارية بيضاً باردة في الفضاء ، تسطع تارة فوق رؤوس الناس وتهوي بينهم تارة اخرى . وارتفعت العصي وقضبان الحواجز المهشمة أسلحة للدفاع ، وقد اختلط الحشد الثائر في رقص مجنون يُشرف عليه وجه الفتى الطويل من علٍ . وجاء صوته خلال هذه العاصفة من العواصف المجنونة الصاخبة :

– أيها الرفاق ، لِمَ تبددون قواكم ؟

وكان في كلماته الاقناع كله ، فألقى القوم عصيهم ، وولوا الادبار الواحد

تلو الآخر . ولكن الام ظلت تتابع الطريق قدماً تدفعها قوة لا تقاوم ، فرأت نيقولاي وقبعته فوق مؤخر رأسه وهو يدفع الناس بعيداً . كان يصيح معاتباً :

– هل جننتم ؟ ثوبوا الى رشدكم .

وشخص لها أن احدى يديه حمراء . صاحت ، وهي تندفع نحوه :

– نيقولاي إيفانوفيتش ! اذهب من هنا !

– الى اين تذهبين ؟ سوف يضربونك !

وأحست يداً على كتفها، ورأت صوفيا تقف الى جانبها عارية الرأس، شعثاء الشعر ، ممسكة بصبي من يده . وكان الصبي ، وهو يكاد ان يكون ولداً صغيراً، يمسح الدم عن وجهه ويغمغم بشفتين مرتعشتين :

– اتركيني ... ليس هذا بذي بال ...

قالت صوفيا في عجلة :

– اعتني به ... خذيه الى بيتنا . اليك هذا المنديل كي تضمدي وجهه .

وحين وضعت يد الصبي في يد الام ، ذهبت عَدْواً وهي تقول :

– اذهبي سريعاً وإلا اعتقلوك .

كان القوم يتشتتون في المقبرة في سائر الاتجاهات، ورجال الشرطة يستعجلون الخطا بين القبور وهم يتعثرون في معاطفهم الفضفاضة، ويقسمون الايمان المغلّظة، ويلوّحون بسيوفهم ، بينما راح الصبي يراقبهم بعيني ذئب جريح .

صاحت الام به ، وهي تمسح وجهه بالمنديل :

– أسرع بنا !

فتمتم ، وهو يبصق من فمه دماً :

– لا تقلقي من اجلي ... ذلك لا يؤذي ... لقد ضربني بقبضة سيفه ، إلا أني ناولته بالمقابل ما يستحق ... لقد ناولته ضربة من عصاي ارسلته يعوي... ولكن انتظري ...

وصاح ، وهو يهزُّ قبضته الدامية في الهواء :

– هذا ليس شيئاً بالنسبة لما سيكون ... لسوف نسحقهم دون قتال اذ ما نهضنا يوماً – جميعنا العمال .

فحثّته الام ، وهي تتخذ طريقها نحو بوابة المقبرة :

– اسرع .

كانت تخـــال ان افراد الشرطة ينتظرونهما في الحقل العاري ما وراء سور المقبرة ، ولن يكادا يطلان على الخارج حتى يهاجموهما ويشبعوهما ضرباً . ولما بلغت البوابة اخيراً ، واختلست النظر في عناية الى الحقل المكسو بنسيج رمادي من قيلولة الخريف ، طمأنها السكون والخلاء وهدّأ من روعها . قالت :

– تعال ههنا ، دعني أضمد وجهك .

– لا تزعجي نفسك ، فلست خجلاً منه . لقد كان ذلك قتالاً شريفاً ، أعطاني نصيبي واعطيته نصيبه .

ضمدت الام الجرح بسرعة . كانت رؤية ذلك الدم تملؤها شفقة ، فيزحف على طول ظهرها قشعريرة باردة عندما تحتك أصابعها بلزوجته الدافئة . وجرت مع الصبي سريعاً ، دون ان تتفوه ببنت شفة ، عبر الحقـــل ، وهي تمسك من ذراعه . ولكنه حرّر فمه من الضماد ، وقال لها ساخراً :

– الى اين تذهبين بي ، ايتها الرفيقة ؟ استطيع الذهاب دون معونتك .

وأحست ان يده ترتعش ، وأنه يترنح على قدميه . واستمر يتكلم ويطرح

الاسئلة بصوت ضعيف ، منطلقاً عجلان الخطو دون ان ينتظر من رفيقته جواباً .

– من أنت ؟ انا سنكري واسمي إيفان . ولقد كنا ثلاثة في حلقة ييجور إيفانوفيتش الدراسية . ثلاثة من السنكريين ، وكان المجموع أحد عشر . لقد كنا مغرمين به بصورة فظيعة ... اسكن الله نفسه جنان فردوسه . وبالرغم من اني لا أؤمن بالله فاني ...

وفي احد الازقة ، نادت الام عربة . وبعد ان أجلست إيفان فيها ، همست :

– والآن ، اطبق شفتيك .

ضمدت فمه بالمنديل في عناية فرفع يده الى وجهه ، ثم تركها تسقط في حجرة عاجزاً ، أضعف من ان يناضل ضد الضماد . غير انه استمرَّ مع ذلك يغمغم من خلال المنديل :

– لا تظنونني أنسَ هذا ابداً ، ايها الشجعان ... قبل ان يأتي كان ثمة طالب يدعى تيتوفيتش يدرسنا ... الاقتصاد السياسي ... ثم اعتقلوه ...

فأحاطت الام إيفان بذراعها ، وألقت برأسه على صدرها . وفجأة ثقل رأسه وأخلد الى السكون ، اما هي فراحت ، مشلولة رعباً ، تتطلع في جميع الاتجاهات ، يخال ان الشرطة ستأتي لملاقاتها ركضاً من وراء زاوية ما ، فاذا ما رأت ضماد إيفان أمسكت به وقتلته .

سأل السائق ، وهو يتململ في مقعده ، ويبتسم منشرح الصدر :

– أهو سكران ؟

فقالت ، وهي تتنهد :

– لقد شرب كثيراً ... حتى فقد الوعي ...

– أهو ابنك ؟

– نعم . وهو إسكافي ، اما انا فطاهية .

– ما أصعب حياتك !

وهزّ السوط فوق ظهر جواده ثم استدار اليها من جديد، وتابع في هدوء :

– هل بلغك خبر القتال الذي جرى قبل لحظات في المقبرة ؟ يبدو أنهم كانوا يدفنون واحداً من أولئك السياسيين ... واحداً من أولئك الذين يعملون ضد السلطات ... والذين أخذوا على عاتقهم منازعتهم أبداً ... ويبدو ان المشيعين كانوا جميعاً من مثل طينته ، أريد ان اقول انهم اصدقاء له ... وقد راحوا يصيحون : فلتسقط السلطات لانها تجعل الشعب فقيراً ! ... وهجمت الشرطة عليهم تكيل لهم الضربات ... ويقال ان بعضهم قد جرحوا حتى الموت . ولقد تلقّت الشرطة نصيبها ايضاً .

صمت لحظة ، ثم أضاف بصوت غريب ، وهو يهزُّ رأسه ارتيابا وإنكاراً :

– يوقظون الاموات هكذا ، ولا يعطونهم فرصه للراحة ...

وراح رأس إيفان يتدحرج في هـــدوء فوق صدر الام والعربة تقفز فوق حجارة الشارع ، وقد استمر الحوذي يتمتم متأملا ، وهو ما برح مستديراً نصف استدارة نحو الام :

– ان الاضطراب قد دخل الشعب ... والفوضى تنبثق من الارض انبثاقاً: في الليلة الفائتة جاء الدرك الى بيت احد جيراننا ، وظلوا ينبشون وينبشون حتى الصباح ، ثم اقتادوا معهم واحداً من الحدادين عندما ذهبوا . والناس يقولون انهم سيأخذونه في احدى تلك الليالي الى ضفة النهر ويغرقونه هناك في سكون . لقد كان الحداد رجلا طيباً للغاية ...

فسألت الام :

– وما هو اسمه ؟

– الحداد ؟ سافل ، سافل يفشنكو . وهو ما برح صغير السن ، ولكنه يعرف اشياء كثيرة . يبدو كأن المعرفة ممنوعة . كان يأتي الينا عادة ويقول لنا : ما هـــذه الحياة التي تعيشون ، ايها الحوذيون ؟ فكنا نقول : أسوأ من حياة الكلاب ، اذ أردت الحقيقة ...

قالت الام :

– قف !

أيقظ وقوف العربة إيفان ، فأرسل أنيناً خافتاً .

قال الحوذي :

– ان الفتى فاقد الوعي تماماً ! تلك هي نتيجة الفودكا ...

عبر ايفان الساحة مترنحاً في صعوبة جمة ، وهو يحتجّ طوال الوقت :

– إني على احسن حال ... اني استطيع السير ...

١٣

كانت صوفيا قد سبقتهما الى الدار ، فاستقبلتهما في قلق وانفعال وبين اسنانها لفافـــة مشتعلة . وبعد ان مددا الصبي على الأريكة ، حلت ضماده في حذق ومهارة ، وبدأت تلقي الاوامر ، وهي ترف بعينيها تفادياً من دخان لفافتها ومنعاً له من الدخول اليهما :

— لقد أتيا ، يا ايفان دانيلوفيتش ! متعبة ، يا نيلوفنا ؟ ولقد ذعرتِ ايضاً، أليس كذلك ؟ حسناً ، استريحي الآن ... اعطِ نيلوفنا كأساً من النبيذ يا نيقولاي .

كانت الام تشكو الصدمة التي تلقتها قبل قليل ، وهي تجد صعوبة في التنفس وتحس في الصدر ألماً حاداً جارحاً . غمغمت :

— لا تقلقوا من اجلي .

ولكن كائنها بمجموعه كان يستدعي الانتباه ... ويسأل عطفاً حنوناً ... ورعاية مواسية .

وجاء نيقولاي من الغرفة المجاورة مضمد اليد ، وبصحبته الطبيب ايفان دانيلوفيتش ، مشعث الهندام منتصب الشعر كالقنفذ . وأسرع هذا الاخير يعبر الغرفة حتى الاريكة التي اضطلع ايفان عليها ، ومال عليه قائلاً :

— ماءً ، كثيراً من الماء . وقطناً وقطعة قماش نظيفة .

فاتجهت الام نحو المطهى. لكن نيقولاي اخذها من ذراعها وقادها الى غرفة الطعام ، قائلاً في لطف :

– طلب من صوفيا ، وليس منـــك . أخاف ان تكوني لقيت كثيراً من الازعاج ، أليس كذلك يا عزيزتي ؟

وعندما لاقت الام عينيه القلقتين الرقيقتين ، لم تستطع ان تضبط عبراتها . صاحت :

– أوّاه ! ما أفظع ما حدث ! لقد ذبحوا الناس ، وقطعوهم بأسيافهم ...

فقال نيقولاي وهو يهزُّ رأسه ، ويناولها كأساً من النبيذ :

– لقد رأيت ذلك . ان كِلا الجانبين قـــد أضاع رشده قليلاً ، ولكن لا تقلقي من أجل ذلك. لقد ضربوا بجوانب السيوف، ويبدو ان ثمة شخصاً واحداً جراحه خطيرة . لقد فعلوا ذلك به امام ذات عينيّ ، ولقد تدبرت الامر كي أجره بعيداً عن الحشد .

هدأ صوت نيقولاي ونور الغرفة وحرارتها من روع الام ، فنظرت اليه في امتنان قائلة :

– هل ضربوك ايضاً ؟

– الظاهر اني فعلت ذلك بنفسي ... اذ اصطدَمتْ يدي على غير انتباه مني بشيء فسحجت البشرة عنها . اليك قليلاً من الشاي ، ان البرد شديد في الخارج وأنت لا ترتدين إلا ثياباً خفيفة .

وأرادت ان تتناول الكأس ، فاذا هي تلاحـــظ دماً جافاً يغطي يدها الممدودة ، فألقت بها من دون وعي في حجرها ... كان ثوبها رطباً ايضاً ... رفعت حاجبها ، وفتحت عينيها واسعتين وهي ترمق أناملها ملياً ... وخفق قلبها ، وأحست دواراً في رأسها :

– بافل ايضاً ... لعلهم يفعلون به الشيء نفسه !

دخل إيفان دانيلوفيتش الغرفة وقد شمّر أكمام سترته. وأجاب على استفهام نيقولاي الأخرس بصوته المرتفع :

– الجرح في وجهه ليس بذي بال ، ولكن في جمجمته كسراً ليس خطراً ايضاً، فالفتى ذو بنية متينة. سوى انه أضاع كمية كبيرة من الدم على اية حال. هل نرسله الى المستشفى ؟

فقال نيقولاي :

– لِمَ ؟ فليبق ههنا .

– هذا اليوم ، ولربما الغد ايضاً . اما فيما بعد ، فمن الافضل بالنسبة إليّ ان يكون في المستشفى ، اذ ليس لديّ الوقت الكافي لزيارة المرضى في منازلهم. هل ستكتبون منشوراً عن هذا الحادث في المقبرة ؟

فجزم نيقولاي :

– بكل تأكيد .

ونهضت الام في هدوء ، وأخذت سمتها صوب المطهى ، فاستجلى نيقولاي معترضاً والقلق مرتسم على محياه :

– أين تذهبين ، يا نيلوفنا ؟ ستدبّر صوفيا كل شيء وحدها .

فحدجته بناظريها ، وهزّت كتفيها . قالت ، وهي ترسل ضحكة غريبة :

– انا غارقة في الدم من رأسي حتى قدميّ .

وبينما هي تبدّل ثيابها في غرفتها الخاصة راحت تفكر ، متعجبة ، في هدوء هؤلاء الناس ومهارتهم في التغلّب على مثل تلك الاشياء الراعبة بكل هذه السهولة الفائقة ، فأسبغت هذه الافكار على روعها شيئاً من طمأنينة ، وطردت

المخاوف من قلبها . ولما دلفت اخيراً الى الغرفة حيث ينام الصبي المريض ، وجدت صوفيا منحنية عليه وهي تقول :

– هراء ، ايها الرفيق !

فاعترض في ضعف :

– سوف أزعجكم .

– كفَّ عن الكلام ... ذلك خير لك ...

وقفت الام خلف صوفيا ويدها على كتفها ، وراحت تبتسم في وجه الصبي الشاحب وهي تقصُّ عليه كيف أرعبها في العربة بما تمّ من أمور غريبة ، فاذا عينا إيفان تلتهبان في حمية ، ثم صفّق بلسانه وقال في حياء وخفَر :

– يا لي من أحمق !

فقالت صوفيا ، وهي تصلح من وضع غطائه :

– سوف نتركك الآن . هلا رقدت ؟

ودخلتا غرفة المائدة حيث جلسوا طويلاً يناقشون حوادث النهار ؛ وراحوا ، وهم ينظرون الى تلك المأساة وكأنها شيء قد أمسى من الماضي البعيد ، يتطلعون في ثقة نحو المستقبل ويضعون الخطط لتنظيم اعمال الغد . كانت وجوههم متعبة ، ولكن افكارهم جريئة مقدامة . وبينا كلٌّ يتحدث عن العمل الذي انجز ، لم يكن يُخفي عدم رضاه عن نفسه . وكان الطبيب يتململ في عصبية بمقعده وهو يقول ، مجرّباً ان يخفف من حدة صوته وارتفاعه :

– الدعاية ليست كافية في هـــذه الايام . والعمال الشباب على حق ، فعلينا توسيع نطاق فعّالياتنا . اقول لكم ان العمال على حق .

فقطّب نيقولاي حاجبيه ، وقال بذات النغمة التي تحدث بها الطبيب :

– اننا نسمع شكاوى من كل جانب عن عدم كفاية المطبوعات ، ومع ذلك لم نتمكن حتى الآن من تأمين مطبعة حسنة . ولودميلا تنهك نفسها للغاية ، ولسوف تذوب وتنهار ان لم نقدم لها بعض المعونة .

فسألت صوفيا :

– وماذا عن فيزوفشيكوف ؟

– انـــه لا يستطيع العيش في المدينة ، ولن يبدأ العمل قبل الحصول على المطبعة الجديدة ، ولكننا ما زلنا نحتاج الى شخص آخر قبل ان نفعل ذلك .

فاستوضحت الام بصوت خفيض :

– أفلا أصلح انا لذلك ؟

فاشرأبت أنظار الثلاثة اليها في صمت عدة ثوانٍ ، ثم هتفت صوفيا :

– تلك فكرة رائعة وربي !

فقال نيقولاي بجفاء :

– ذلك شاقٌ عليك جداً، يا نيلوفنا اذ ستضطرين الى العيش خارج المدينة ، وهذا يعني انك لن تستطيعي رؤية بافل بعد ذلك . وعلى العموم ...

فردّت وهي تتنهد :

– ذلك لن يعني الشيء الكثير بالنسبة الى بافل ، وكذلك الامر بالنسبة اليَّ في الحقيقة ، فتلك الزيارات تقطع نياط القلب في الواقع . لا يحقُّ لنا ان نقول شيئاً ، بل أقف هناك أواجه ولدي مثل الحمقاء ، بينا هم يشخصون الى فمي ليبصروا ان كنت لن اجمجم شيئاً لا يجوز لي فتح فمي به .

كانت متعبة من حوادث الايام القليلة الاخيرة ، حتى اذا سنحت لها الآن فرصة العيش بعيداً عن مأساة المدينة ، تشبّثت بها في لهفة وجشع .

لكن نيقولاي بدّل موضوع الحديث ، فقال وهو يلتفت الى الطبيب :

– ماذا يشغل بالك ، يا إيفان ؟

فرفع الطبيب رأسه المطرق ، وأجاب بكآبة :

– أفكـّر في قلـّتنا ! علينا ان نعمل بعزم اكثر من ذي قبل ، وان نقنع بافل وأندريه بضرورة هربهما ... فهما اثمن من ان يجلسا هناك دون ان يأتيا عملاً .

فتجهم وجه نيقولاي ، وهزّ رأسه ، وتطلع جهة الام ، فأدركت انهم يجدون الحديث عن ابنها في حضورها من الصعوبة بمكان، فنهضت وبرحت الغرفة جريحة الكبرياء لان هؤلاء القوم قد تجاوزوا رغبتها ولم يعيروها التفاتاً . وبينما هي تستلقي في سريرها متسعة العينين تنصتُ الى همس الاصوات الرقيق، شرع إحساس بالجزع والقلق يطغي عليها شيئاً فشيئاً، وهي تستسلم اليه دون مقاومة.

لقد انقضى النهار مظلماً ممتنعاً عن الادراك، مليئة بالاحساسات المنذرة بالويل والثبور ، ولكنها تأبى التفكير في ذلك فتروح ، وهي تطرد تلك الانطباعات المقلقة من ذهنها ، تركز كل انتباهها حول بافل . كانت تتلهف الى رؤيته حراً طليقاً . وفي الوقت نفسه تستشعر الخوف من حريته ، فهي تحس ان الحوادث التي تجري حـــولها ستقود حتماً الى جو شديد التوتر يُنذر بصدام قاسي وخيم العاقبة . ان تحمل الناس الساكن الأخرس ليفسح المجال الآن لتوقـّع كثير القلق ، وسخطهم يزداد بصورة محسوسة يوماً بعد يوم ، وهي تسمع من كل لفتة وصوب كلمات حادة ناقمة ، وتجد كل ما يحيط بها بتنفس القلق والاضطراب . كان كل بيان يثير مناقشات حادة في الاسواق والحوانيت ، وبين الخدم وأرباب المهن ؛ وكانت تعليقات مذعورة متبلبلة ، بلـْه ساخطة في الاحايين ، تنبع كل اعتقال مهما كان سببه . وانها لتسمع اكثر فأكثر أناساً بسطاء يتفوّهوا بتلك الكلمات التي طالما أهرقت الذعر في قلبها والثورة في أفكارها : الاشتراكيون

الثائرون، السياسة... واذا كانوا يرددونها في سخرية فقد كان يمكن تمييز الفضول وراء السخرية؛ واذ كانوا يقولونها في خبث فقد كان يمكن اكتشاف الخوف وراء الخبث ؛ واذا كانوا يتلفظون بها في تفكـُّر فقد كان الرجاء والوعيد يجثمان وراء التفكر ... كانت أمواج الاضطرابات تنتشر في طباطؤ فوق المياه الآسنة لهذه الحياة الراكدة ، وقد أخذت الافكار الناعسة تستيقظ ، والخضوع المألوف الهادىء للحوادث اليومية يفقد ثباته ويترنح . كانت تستطيع رؤية كل هذا بوضوح اكثر من الناس الآخرين لانها أعرف منهم بسيماء الحياة العابثة . وهي اذ ترى الآن غضون التفكير والسخط تتلامح على وجوه البشر ، لا تستطيع لقاء ذلك إلا ان تفرح وتقلق في وقت واحد ... تفرح لانها ترى في كل ذلك عمل فتاها ، وتقلق لانها تعلم حق العلم انه اذا هرب من السجن فسيأخذ مكانه في الطليعة وفي المركز الآخر ، وسيفنى من جراء ذلك .

وفي بعض الاحيان ، كانت صورة ابنها تتخذ في عينيها ابعاد أحد ابطال الأساطير، فتوحـّد فيها سائر الكلمات الباسلة الشريفة التي رنـّت في سمعها أبداً، وجميع أولئك الناس الذين أعجبت بهم يومــاً ، ومختلف تلك الاشياء البراقة البطولية التي عرفتها فيما سبق من الازمان . وفي مثل هذه الحالات يملؤها الخيلاء والحنان ، فتروح تتأمــل فيه في إشراق حنون ، وهي تفكر طافحة رجاءً وأملاً ...

— كل شيء سينتهي على خير ما يرام ... كل شيء !

وكان حبها ، حبها الأموي ، يلتهب عندئذ ويجعل قلبها ينقبض بصورة مؤلمة. وبعدئذ كان الأمومي فيها يعوق نموّ ما هو انساني خالص ويحرقه في لهيب عظيم ، فيحلّ مكان ذلك الشعور العظيم رماد خوف وقلق تضرب فيه فكرة واحدة فقط ، ألا وهي :

— لسوف يموت ... لسوف يُقضى عليه ...

١٤

كانت تجلس ، ظهراً ، مقابل بافل في مكتب السجن تراقب وجهه الملتحي بعينين مظلمتين، وهي تفتش عن فرصة مؤاتية كي تدسّ في يده الرسالة المسحقة بين أصابعها .

قال بصوت خافت :

-- اني لعلى أحسن حال ، وكذلك سائر الباقين . كيف حالك انت ؟

فأجابت بصورة آلية :

- على أحسن حال . لقد مات ييجور ايفانوفيتش .

فهتف بافل :

- حقاً ؟

وأطرق رأسه ببطء ...

وتابعت الام في بساطة ودون حذق :

-- ولقد اصطنع رجال الشرطة معركة أثناء المأتم واعتقلوا احد الفتيان .

فصفق معاون مدير السجن بلسانه سخطاً وقفز ناهضاً على قدميه ، وهو يغمغم :

– أفلست تعلمين ان الحديث عن هذه الامور ممنوع ؟ الحديث عن السياسة غير مسموح به .

ونهضت الام بدورها وقالت في سذاجة، وفي رنين صوتها ظل من الاعتراف لجرم :

– لم أكن اتكلم عن السياسة ، بل عن معركة . والحقيقة أنهم تقاتلوا ، لا بل حطموا رأس احد الفتيان ايضاً ...

– لا فرق بين هذا وذاك . ينبغي لي ان اسألك الصمت ، يعني ان تسكتي عن كل شيء ليس له بك علاقة شخصية ... يعني عائلتك وبيتك بصورة عامة .

واذ ادرك انه يتلعثم ، جلس الى مكتبه من جديد ، وشرع ينبش في بعض الاوراق ، وهو يضيف في إعياء :

– اني مسؤول عن مثل هذه الامور .

وأسرعت الام تلقي الورقة الصغيرة في يدي بافل دون ان تحيد بناظريها عن معاون المدير ، ثم تنهدت وقد رفعت عن قلبها عبئاً ثقيلاً . قال الضابط :

– انت لا تفهمين ما هو مسموح لك بالحديث عنه ...

فضحك بافل ، وهمهم :

– ولا أنا ايضاً .

فنبر معاون المدير مغتاظاً :

– اذن فلا فائدة من المجيء الى هنا . ما معنى عدم ادراك ما يمكن الحديث عنه ، والاستمرار في القدوم الى هنا ... وازعاج الناس .

وسألت الام :

– هل ستجري المحاكمة سريعاً ؟ ...

– لقد كان النائب العام هنا قبل عدة ايام مضت ، وقال ان ذلك سيتم عما قريب ...

وتبادلا بعض الملاحظات التافهة الاخرى . لاحظت الام ان بافل ينظر اليها بعينين رقيقتين طافحتين بالمحبة . كان هادئاً صارماً مثله ابداً، لم يتبدل فيه شيء، أللهم إلا بياض يديه ولحيته التي جعلته يبدو اكبر سناً منه في واقـــع الامر . وارادت ان تقول له شيئاً جميلاً ... ان تـُعلمه شيئاً عن نيقولاي ، فاسترسلت دون ان تغير اللهجة التي بادلته بها الملاحظات السابقة :

– لقد رأيت فليونك بالامس ...

فبحث بافل عن عينيها في استفهام صامت ، فشعرت تضرب على خدهـــا باصبعها كي تذكره بعلامات الجدري على وجه فيزوفشيكوف ، وهي تقول :

– ان الصبي على أحسن حال ... ولسوف يُعطى عملاً في وقت قريب ..

وفهم فتاها ما تريد ، فأشار لها برأسه بعينين ضاحكتين . قال :

– هذا رائع !

فاختتمت حديثها ، راضية عن نفسها ، متأثرة بسعادته :

– حسناً ، أظن هذا كل شيء .

وضغط على يدها بشدة مودّعاً :

– شكراً ، يا أمّ !

اجتاحها شعور بهيج بتقارب قلبيهما ، وصعد الى رأسها مثل خمرة قوية ، فضغطت على يده في سكون ، وقد أعوزتها الكلمات كي تردّ عليه .

وجدت ساشا تنتظرها في الدار لدن عودتها . كانت الفتاة تزورها عادة في الايام التي ترى بافل فيها ، ولكنها لا تسأل عنه قط ، فاذا لم تذكره الام من

تلقاء ذاتها ، كانت ترضي فضولها بالتطلّع طويلاً في عينيها . أما هذه المرة فقد لاقتها في استفهام قلق :

– حسناً ، كيف حاله ؟

– جيدة .

– هل أعطيته الرسالة ؟

– بالطبع ، وبصورة رائعة جداً . . .

– هل قرأها ؟

– وكيف يستطيع ذلك ؟

فقالت الفتاة في تماهل :

– طبعاً . لقد نسيت . علينا ان ننتظر أسبوعاً آخر . . . أسبوعاً كاملاً . أتعتقدين أنه سيقبل ؟

وعبست ساشا ، ونظرت الى الام ملياً . كانت هذه تفكر :

– لا أدري ! ولِمَ لا يقبل ، ان لم تكن ثمة خطورة في الامر ؟

وهزت ساشا رأسها ، وسألت :

– أتعلمين ماذا يستطيع المريض ان يأكل ؟ انه جائع .

– يستطيع ان يأكل اي شيء كان ، لحظة واحدة وسوف . . .

وزحفت الى المطهى حيث لحقت بها ساشا في بطء .

– هل أستطيع مساعدتك ؟

– شكراً لك ، ليس من حاجة .

انحنت الام فوق الموقد وتناولت منه قِدراً . قالت الفتاة بصوت خافت :

– انتظري . . .

وشحب وجهها ، واتسعت عيناها في ألم ... في حـــين راحت شفتاها المرتعشتان تهمسان بسرعة :

– كنت أريد ان أسألك . اني على يقين من انه سيرفض ... ولذلك أرجو ان تقنعيه بذلك . نحن في أشد الحاجة اليه هنا . قولي له ان ذلك ضروري في سبيل القضية . قولي له اني خائفة من أجل صحته . وأنت ترين بنفسك ان يوم المحاكمة لم يعـيّن بعد ...

كانت تتكـــلم بصعوبة ، وهي تنظر في ثبات الى احدى الزوايا ، وقد انتصبت قامتها كل الانتصاب، وراح صوتها يتموج ويضطرب . ثم أسبلت جفنها في إعياء ، وعضت شفتيها في عذاب وقهر ، واستطاعت الام ان تسمع طقطقة قبضتيها المنضمتين .

أقلق هذا الانطلاق العاطفي نفس الأم ، غـــير انها فهمت ساشا تماماً ، فضمتها اليها في حزن ، وأجابت بكآبة :

– آه ، يا عزيزتي ! انه لن يعير احداً آذاناً صاغية، سوى نفسه وحدها... لن يصغي إليّ أحد على الاطلاق .

وبقيتا صامتتين فترة ، وقد التصقت كلتاهما بالاخرى ، ثم تحررت ساشا بلطف من ذراعي الام المحيطتين بكتفيها وقالت مرتعشة :

– أجل ، انت على حق ... كل هذا هراء ... ان اعصابي ...

وفجأة ، قالت في هدوء وبساطة :

– حسناً ، هلا أطعمنا مريضنا ؟

واذ جلست الى جانب سرير ايفان سألته في حنان هل يؤلمه رأسه ، فأجاب وهو يجرُّ الغطاء حتى ذقنه مرتبكاً ، ويرفُّ بعينيه فكأن النور اشد من ان يُحتمل :

– ليس كثيراً ، فكل شيء ما ينفكُّ عكراً نوعاً ما ، وإني لأحسُّ ضعفاً .

وأدركت ساشا انه يخجل من تناول الطعام في حضورها ، فنهضت وغادرت الغرفة ، فجلس ايفان في فراشه يتبعها بعينيه ، وغمغم :

– ما اجملها !

كانت عيناه الزرقاوان مرحتين ، وأسنانه بيضاً منتظمة ، وصوته متبدل الجرْس .

استعلمت الام مفكرة :

– كم عمرك ؟

– سبعة عشر عاماً .

– وأين والدك ؟

– في القرية . اما انا فهنا منذ كنت في العاشرة من سني ، إذ لم أكد انهي دراستي حتى هربت الى المدينة . ما اسمك ، ايتها الرفيقة ؟

كانت الام تبتهج كلما توجه الناس اليها بهذه الكلمة . سألت ، وهي تبتسم :

– ولِمَ تريد ان تعرف ذلك ؟

فصمت الصبي فترة ، ثم اوضح في ارتباك :

– ذلك ان واحداً من الطلاب في حلقتنا الدراسية ... يعني واحداً من الذين يدرّسوننا ، قد حدثنا عن والدة فلاسوف العامل . هل تذكرين مظاهرة أول ايار ؟

فأشارت الام برأسها ، وأصاخت بسمعها .

وأعلن الفتى في خيلاء وجد صداها في قلب الام :

– لقد كان اول من رفع راية حزبنا على رؤوس الاشهاد . ولم أكن ، أنا ، هناك يوم ذاك . لقد كنا نريد تنظيم مظاهرتنا الخاصة ، ولكننا لم ننجح لان عددنا قليل جداً . ولكننا سننظمها في العام المقبل ... لسوف ترين ذلك !

كان يتنفس بصعوبة لشدة ما يثير فيه تصور حوادث المستقبل من انفعال . ثم تابع ، وهو يلوّح بملعقته :

– اذن فقـــد كنت اتكلم عن أم فلاسوف هذا . لقد انضمت الى الحزب بدورها بعد ذلك . يقال انها ، بكل بساطة ، أعجوبة مدهشة .

فافترّت شفتا الام عن ابتسامة عريضة ، وقد ابهجها الاصغاء الى مديح الصبي ، ابهجها وأربكها في الوقت نفسه . وأرادت ان تقول : « اني ام فلاسوف ذاك ! ... » ولكنها ردَّت الكلمات عن شفتيها ، وقالت تحدث نفسها في قليل من السخرية اللطيفة :

– يا لك من حمقاء عجوز !

وانحنت عليه بغتة ، وراحت تقول في انفعال :

– كُلْ شيئاً آخر ، ينبغي ان تتحسن حالك سريعاً في سبيل القضية ...

وفـُتح باب الشارع مفسحاً السبيل لأنفاس الخريف الباردة الرطبة . وإذ رفعت الام عينيها رأت صوفيا واقفة هناك مشرقة الوجه ابتساماً ، مضرجة الخدين فرحاً .

– قسماً بشرفي ان الجواسيس يتعقبونني مثلما يلاحق الخطـّاب وريثة كثيرة الثراء ! لقد آن لي ان ارحل من هنا ... حسناً ، كيف حالك ، يا إيفان ؟ أتشعر بتحسن ما ؟ ما هي الاخبار عن بافل ، يا نيلوفنا ؟ هل ساشا هنا ؟

وداعبت صوفيا الصبي بعينيها الرماديتين وهي تشعل لفافة ولا تنقطع عن طرح أسئلة دون ان تتوقع أجوبة لها ، فيما ابتسمت الأم بينها وبين نفسها وهي تراقبها ، وفكرت :

– ها اني انا ايضاً اعتبر واحدة من هؤلاء القوم .

ومالت على ايفان مرة اخرى ، وقالت :

– هيا عجل بالشفاء يا بنيّ !

ومن ثم دلفت الى غرفة الطعام حيث وجدت صوفيا تتحدث الى ساشا :

– لقد جهّزت حتى الآن ثلاثمائة نسخة ، ولسوف تقتل نفسها بهذه السرعة التي تسير بها . تلك بطولة ، وربي ! انها لسعادة أن يعيش المرء بين هؤلاء القوم، ياساشا ، وأن يكون لهم رفيقاً ويشاركهم العمل .

فأجابت الفتاة بصوت رقيق :

– بلى .

وبينما هم يتناولون الشاي ذلك المساء ، قالت صوفيا للأم :

– يجب أن تقومي بزيارة أخرى الى الريف ، يانيلوفنا !

– حسناً ، متى ؟

– أتظنين أنك تستطيعين في ثلاثة أيام ؟

بالطبع .

فقال نيقولاي ناصحاً :

– يفضل هذه المرة أن تستأجري أحصنة البريد وتسلكي طريقاً أخرى ، عبر مقاطعة نيقولسكويه مثلاً .

كان عابساً مكتئباً ، الأمر الذي لا يلائمه إذ يفسد سكينته الهادئة المعتادة .

لاحظت الأم :

– إن الطريق ستطول جداً عبر نيقولسكويه ، أما استئجار الأحصنة طوال الطريق ...

فقال نيقولاي :

– الحقيقة أني ضد مثل هذه الطريق ، فالأمور ليست هادئة هناك – بل جرت بعض الاعتقالات – ويبدو أنهم ألقوا القبض على أحد المدرّسين . يتوجب علينا أن نكون أكثر حذراً ، وأن ننتظر قليلاً أيضاً ... ذلك أفضل إذن .

فلاحظت صوفيا ، وهي تنقر على المنضدة بأصابعها :

– ينبغي لنا أن نزوّدهم بالمطبوعات دون انقطاع.

ثم سألت الأم على حين غرة :

– هل أنت خائفة من الذهاب ، يا نيلوفنا ؟

فتأذت الأم من ذلك . قالت :

– وهل كنت خائفة في أي وقت كان ؟ عندما ذهبت للمرة الأولى لم أستشعر خوفاً ... والآن ... على حين فجأة ...

وأطرقت برأسها دون أن تنهي حديثها . كانت تحسّ ، كلما سألوها إن كانت خائفة ، أو إن كانت تجد هذا الشيء أو ذاك ملائماً ، أو إذا كانت تستطيع أن تفعل هذا الأمر أو ذاك ، أنهم يتوجهون إليها برجاء خاص ، فتخال أنهم يضعونها جانباً ويعاملونها على خلاف ما يعاملون بعضهم بعضاً .

قالت في صوت مرتجف :

لِمَ تسألونني ان كنت خائفة ام لا ؟ انكم لا تطرحون على بعضكم البعض مثل هذه الاسئلة ؟

فرفع نيقولاي نظارتيه عن عينيه ثم اعادهما من جديد في عصبية وهو ينظر ملياً الى اخته . وأحست الام انزعاجاً من السكون المتوتر ، فنهضت عن المائدة في ارتباك ، وارادت ان تقول شيئاً ، لكن صوفيا تناولت يدها في لطف وقالت بصوت رقيق :

- إصفحي عني ، اني لن افعل ذلك بعد الآن أبداً .

وحمل هذا ابتسامة الى وجه الام ، وبعد عدة دقائق كان الثلاثة يناقشون ، في حمية ونشاط ، الرحلة المطروحة على بساط البحث .

١٥

عند الفجر كانت الام تتلكأ في احدى عربات البريد على طول درب غسلته أمطار الربيع . وكانت ريح رطبة تعصف في الفضاء ، ورذاذ الوحل يتطاير في كل حدب وصوب . استدار الحوذي نحوها في مقعده كي يشتكي اليها بصوت ينبعث من فمه وأنفه معاً :

-- وهكذا قلت له ، اعني لاخي ، فلنتقاسم ذلك ... هذا ما قلته وعندئذ ابتدأنا نتقاسم ...

وبغتة انهال بسوطه على الحصان الأيسر ، وصاح غاضباً :

-- هيا ! إمش يا ابن الساحرة !

كانت غربان الخريف السمينة تنتقل في قلق فوق اخاديد الارض العارية ، وريح باردة تصفر في كل الارجاء ، فتشد الغربان اعطافها كي تلاقي هجمات الريح التي تنفش ارياشها وترفعها عن اقدامها ، وتضطرها الى الانتقال في تكاسل الى بقعة اخرى من الحقل الشاسع الابعاد .

وتابع الحوذي حديثه قائلاً :

-- وهكذا راح يجردني من حصتي ، فاذا بي اجد نفسي خاوي الوفاض ...

وأصغت الام اليه وكأنها في حلم ، وحوادث السنين القليلة الاخيرة تتدفق في ذاكرتها . فتجد نفسها تساهم فيها جميعاً بفعالية ونشاط . فيما سبق كانت

الحياة تُخلق في مكان ما بعيداً جداً ، دون أن يعرف أي انسان من خلقها والغاية الحقيقية من وراء ذلك. أما الآن قسماً كبيراً منها يُخلق امام ذات عينيها وبمساهمتها الشخصية . وأيقظ ذلك فيها مشاعر مختلفة من الرضى ، والارتياب في ذاتها ، والبلبلة ، وشيئاً من الغم الهادىء ...

كان كل ما حولها يترنح في حركة بطيئة ، وغيوم رمادية كثيفة تسبح في السماء متثاقلة يلاحق بعضها بعضاً ، وعلى قارعتي الطريق تلوح الاشجار الرطبة بأغصانها العارية وهي تفر الى الوراء ، والحقول تفسح مكانها لهضبات واطئة تتلاشى بدورها ايضاً .

واختلط صوت الحوذي الأخن وقرع الاجراس ، وصفير الريح الرطبة وحفيفها، وامتزجت جميعاً في تيار رنان واحد يتدفق دون انقطاع فوق الحقوق.

تابع الحوذي ، وهو يتأرجح فوق مقعده :

ــ ان الفردوس نفسه يضيق عن الانسان الثري . وهكذا فقد شرع يضايقني ... وكانت السلطات كلها تقف بجانبه ، فهم اصدقاء له ...

وعندما بلغ المحطة ، حلّ أعنة الحصانين وقال للأم بنغمة شاكية :

ــ هلا أعطيتني خمسة كوبيكات لأشرب كأساً بها ...

وعندما أعطته قطعة النقود ، قلبها في راحته وتابع بالنغمة ذاتها :

ــ سأشرب الفودكا بثلاثة منها ، أما الاثنان الباقيان فمن اجل الطعام .

وبعد الظهيرة بلغت الام، منهوكة القوى باردة الاطراف، مدينة نيقولسكويه الصغيرة ، واتجهت الى بناء المحطة كي تتناول قدحاً من الشاي ، وجلست الى احدى النوافذ، وقد وضعت حقيبتها الثقيلة تحت دكة جانبية. وكانت تستطيع ان ترى من النافذة ساحة صغيرة مكسوة بعشب أصفر معفر ، وبناء رمادياً أسود هو مقرّ محافظة المقاطعة . وكان موجيك أصلع ذو لحية طويلة يجلس على العتبة يدخن الغليون وهو لا يرتدي من الثياب شيئاً فوق قميصه . وكان خنزير

يرعى العشب في الساحة ، وهـــو يهزّ ذنبه في استياء ويدسّ أنفه في الارض ، ويلوّح برأسه يمنة ويسرة دون انقطاع .

وتسلقت السحب بعضها فوق بعض في كتل كثيفة مظلمة ، وكان كل شيء هادئاً ، قاتماً ، كئيباً ، فكأن الحياة نفسها تنام ، منقطعة الانفاس ، في انتظار شيء ما ...

وبغتة بدأ احد رقباء الشرطة يعدو بجواده عبر الساحة حتى بلغ عتبة بناء المحافظة حيث لوح بسوطه في الهواء وصاح بالفلاح الأصلع ، فقرعت صيحاته زجاج النوافذ قرعاً شديداً . لكن الام لم تستطع تمييز الكلمات فيها . ونهض الموجيك على قدميه ، وأشار بيده الى المدى البعيد ، فقفز الفارس عن صـــهوة جواده ، وترنح قليلاً على قدميه ، وألقى عنان الحصان الى الموجيك ، واتجه نحو درجات البناء يتسلقها في تثاقل معتمداً الدرابزون ، ثم اختفى وراء باب البناية.

وخيم السكون على كل شيء آخر ، اللهم إلا الحصان الذي ضرب الارض بحافره مرتين . ودخلت الغرفة بنية صغيرة تتدلى جديلة من الشعر صفراء اللون على نقرتها ، وتشع عينان لطيفتان في وجهها المستدير ، وهي تحمل بين ذراعيها الممدودتين صفيحة مهترئة الحفافي ، مثقلة بالآنية ، ولا تفتأ تعض شفتيها، وتلقي السلام باشارات متتابعة من رأسها .

قالت الأم :

– نهارك سعيد ، يا عزيزتي .

– نهارك سعيد .

وعندما وضعت الفتاة الصحون وأدوات الشاي على المائدة أعلنت بغتة في انفعال شديد :

– لقد اعتقلوا لصاً قبل قليل ... ولسوف يأتون به الى هنا .

— من هو هذا اللص ؟

— لا أدري . . .

— ومتى سرق ؟

فردت البنية :

— لا أدري . لقد سمعت انهم أمسكوا به . وقد ذهب حارس المحافظة يدعو رئيس الشرطة .

وتطلعت الام من خلال النافذة، فرأت الساحة تغص شيئاً فشيئاً بالفلاحين . وكان بعضهم يأتون في وقار وتماهل ، والآخرون يندفعون الى الساحة في عنف وهم يبكلون أثناء ذلك أزرار معاطفهم الجلدية . واحتشدوا عند عتبة البناء ، وهم ينظرون الى مكان ما ناحية اليسار .

ونظرت البنية من النافذة ، ثم أسرعت تعدو الى الخارج وصفقت الباب خلفها ، فانتفضت الام ودفعت بحقيبتها تحت الدكة الى أبعد من ذي قبل ، ومن ثم ألقت بوشاح على رأسها ، وأسرعت نحو الباب وهي تكبت في الفرار غير مفهوم السبب .

وعندما بلغت عتبة بناء المحطة عضّ البرد عينيها وصدرها جميعاً ، فوجدت صعوبة جمة في تدارك أنفاسها ، وتحجرت رجلاها : كان ريبين آتياً عبر الساحة مقيد اليدين خلف ظهره ، يسير شرطيان الى جانبيه وهمـــا يضربان الارض بعصاهما دون انقطاع ، فيما الحشد يقف ساكناً عند عتبة بناية المحافظة ينتظر .

وانتصبت الأم ، مصعوقةً ، لا تستطيع ان تحيد بعينيها عن هذا المشهد . وكان ريبين يدمدم شيئاً لم تستطع ان تتبينه ، ولكن كلماته تركت ، على أية حال ، رجعاً مؤلماً في فراغ قلبها القاتم .

وأرسلت نفساً عميقاً ، واستردت زمام نفسها من جديد . كان يقف قرب

الرصيف موجيك أزرق العينين ، أشقر اللحية عريضها ، يشخص اليها ملياً في اهتمام . سعلت ، وفركت حلقها بيدين ترتعشان فرَقاً ، ثم سألته وهي تبذل جهداً كبيراً :

– ما الذي حدث ؟

فأجاب ، وهو يستدير عنها :

– تحققي من ذلك بنفسك .

ودنا موجيك آخر ، ووقف بالقرب منها ...

توقف الشرطيان اللذان يقودان ريبين أمام الحشد المتوافر دون انقطاع ، وان ظل ساكناً لا تصدر عنه أية ضوضاء . وارتفع صوت ريبين بغتة فـــوق رؤوسهم يقول :

– ايهـــا المؤمنون الحقيقيون ، هل سمعتم شيئاً عن الكتابات التي تشرح بوضوح الحقيقة السافرة عن حياتنا نحن الفلاحين ؟ حسناً ، أنا أضطهد الآن من اجل هذه الكتابات ، فأنا الذي وزعتها على الناس .

فأهدف الحشد من ريبين اكثر فأكثر ... كان صوته هادئاً غير متسرع ، الأمر الذي بعث القوة والنشاط في قلب الام .

قال الموجيك الثاني بصوت خافت ، متوجهاً بالخطاب الى ذي العينين الزرقاوين :

– أسمعت هذا ؟

فرفع الاخير رأسه ، وحدج الام بناظريه مرة اخرى دون ان يحري جواباً. وتطلع الآخر اليها ايضاً ، وكان اصغر سناً من رفيقه ، ذا لحية سوداء قليلة الشعر ، ووجهه ناحل تغطيه بقع من النمش ، ثم ابتعد كلاهما عن العتبة .

وفكرت الام :

– انهما خائفان !

وأضحت أشد انتباهاً . كانت تستطيع ان تبصر بكل وضوح ، من العتبة حيث تقف ، وجه ميخائيلو إيفانوفيتش القاتم الملفوف بأشعة الشمس ، بريق عينيه الملتهب . وأرادت ان يراها هو الآخر ، فتطاولت على رؤوس اصابعها ومدت عنقها في اتجاهه .

نظر القوم اليه في ارتياب كئيب وظلوا بالصمت معتصمين ، أللهم إلا في الصفوف الاخـــيرة من الحشد حيث كانت بعض اصوات مكتومة تتلاحق في خفوت ...

نبر ريبين بصوت مرتفع ثابت النبرات :

– ايها الفلاحون ! ألا صدقوا ما كـُتِبَ في تلك الاوراق . قد ينبغي لي التفكير عنها بذات حياتي ... فقد ضربوني وعذبوني ، يريدونني بالجُهر بالمكان الذي حصلت عليه منه ، ولسوف يضربونني من جديد ايضاً . ولكني على استعداد لتحمُّل كل شيء ، لان ما ترويه تلك المناشير هو بعينها ، والحقيقة يجب ان تكون أعزّ علينا من خبزنا اليومي نفسه ... تلك هي القضية !

وهتف احد الفلاحين الواقفين قرب العتبة :

– لمَ يقول هذا ؟

فقال ذو العينين الزرقاوين :

– سواء بالنسبة اليه الآن ، فالمرء لا يموت إلا مرة واحدة .

واستمر الناس وقوفاً هناك مصغين لا ينبسون بحرف ، شاخصين في اكتئاب من تحت حواجبهم ، يلوح ان عبئاً غير منظور يثقل عليهم ويضنيهم .

وخرج الرقيب مترنحاً من بوابة بناية المحافظة ، وصاح بصوت ثمل :

– من ذا الذي يتكلم هنا ؟

وتدحرج بغتة على درجات السلم وأطبق على ريبين من شعره ، وراح يهزُّ رأسه الى الامام والخلف صائحاً :

– أأنت من كنت تتكلم ، يا ابن الكلبة ؟

ترنح الحشد وانتشرت فيه موجة من الغمغمة ، بينا أطرقت الام برأسها في عذاب يائس ، ولكن صوت ريبين تردد مرة اخرى في رنين مرتفع :

– أنظروا ، ايها القوم الطيبون ...



« كفاكم تعذيباً للشعب ، ايها المتوحشون »

فصاح الرقيب ، وهو يلطمه على أذنه :

ــ صمتاً !

فترنح ريبين ورفع كتفيه :

ــ انهم يوثقون يديّ الانسان ، ثم يفعلون به ما يحلو لهم ...

ــ قوداه ، ايها الشرطيان . أما انتم ايها الناس ، فتفرّقوا جميعاً !

وجعل الرقيب يقفز أمام ريبين مثل كلب ممسك بقطعة من اللحم ، وهو يضرب وجهه وصدره بقبضته .

وصاح بعضهم من وسط الحشد :

ــ كفاك تضربه !

وجاء صوت آخر يدعمه :

ــ لماذا تضربه ؟

وقال الفلاح الأزرق العينين ، وهو يشير الى رفيقه :

ــ فلنذهب !

واقتربا من بناء المحافظة في تماهل بينا الام تشيعهم بنظرة عطوف. وصعّدت زفرة ارتياح حينما رأت رقيب الشرطة يركض نحو بوابة البناية من جديد ، حيث صرخ من هناك بصوتٍ مجنون :

ــ اجلباه هنا ، قلت لكما .

وعلا صوت قوي بين المحتشدين أدركت الام تواً انه صوت الفتى ذو العينين الزرقاوين :

ــ لا تفعلوا ذلك ! لا تتركوهم ، أيها الشباب ! ان أخذوه هناك فسوف

يضربونه حتى الموت ، ثم يقولون اننا نحن الذين فعلنا ذلـــك . لا تتركوهم يأخذوه ...

وصاح ميخائيلو :

– ايها الفلاحون ! أفلا تستطيعون ان تروا ما أشبهت حياتكم ؟ أفـــلا تستطيعون ان تدركوا كيف يسرقونكم ويخدعونكم ويمتصون دماءكم ؟ كلُّ شيء يأتي منكم... انتم اعظم قوةٍ على وجه الارض ... وأية حقوق تملكون ؟ حق الموت جوعاً ليس غير !

وفجأة راح الفلاحون يصيحون ، وهم يقاطعون بعضهم بعضاً :

– انه يقول الحقيقة !

– ادعوا رئيس الشرطة . أين هو رئيس الشرطة ؟

– لقد ذهب رقيب الشرطة يدعوه !

– مَنْ ؟ ذلك العربيد ؟

– ليس من شأننا ان ندعو السلطات .

وانهمرت الاصوات تتزايد وتعلو :

– هيا تكلم ، فلن ندعوهم يضربونك .

– حلوا وثاق يديه !

– حذارِ لئلا يقبضوا عليك انت ايضاً .

وقال ريبين في هدوء ، بصوت رنان علا فوق سائر الاصوات :

– الحبال تؤذي يديَّ ، وأنا لن اهرب ، أيها الفلاحون ! لست أقوى على الاختفاء من الحقيقة ... انها تعيش في داخلي ، تلك هي القضية !

وانفصل بعض الرجال عن الحشد ووقفوا جانباً وهم يتبادلون الملاحظات ويهزّون رؤوسهم ، ولكن أناساً مهتاجين ، يرتدون الاسمال البالية ، كانوا يأتون باستمرار في حالة شديدة من الانفعال ، وينضمون الى المتجمهرين، تغلي مراجلهم حول ريبين الذي ينتصب بينهم مثل حرم في الغابة ، يلوّح بذراعيه فوق رأسه ويصيح :

– شكراً لكم ، ايها القوم الطيبون ، شكراً لكم . ان لم نحل ايدي بعضنا البعض ، فمن يفعل ذلك لنا اذن ؟

ومسح لحيته ، ورفع مرة اخرى يداً ملطخة بالدم :

– هذا هو دمي ، أهرق في سبيل الحقيقة .

هبطت الام من العتبة ، ولكنها اذ لم تستطع رؤية ميخائيلو بين الحشد ، تسلـّقت الدرجات مرة اخرى ، وفي صدرها بعض سعادة غامضة تخفق .

– أيها الفلاحون ! افتحوا أعينكم جيداً من اجل تلك الاوراق، واقرأوها في أناة ! لا تصدقوا الكهنة والسلطات عندما يعالنوكم ان المبشرين بالحقيقة كفرة متمردون . الحقيقة تضرب في أرجاء الارض خفية تفتش لها عن اعشاش بين الشعب ، هي مثل النار والسيف بالنسبة الى السلطات . انهم لا يستطيعون الامساك بها وسجنها فهي تذبحهم اذن وتحرقهم . الحقيقة صديق طيب عندكم ، أما عندهم فعدوّ لدود ! هذا هو السبب في انها تضرب خفية في ارجاء الارض !

وارتفعت الهتافات مرة اخرى بين المحتشدين :

– اصغوا ، ايها المؤمنون الحقيقيون !

– آه ايها الأخ ، لسوف ينالونك من اجل هذا .

– من الذي خانك ؟

فأجاب احد الشرطيين :

– الكاهن !

فأرسل اثنان من الفلاحين ايماناً مغلـّظة .

وارتفع صوت محذر :

– انتبهوا ، ايها الشجعان !

١٦

كان رئيس الشرطة يقترب متمهلاً ، وهو رجل طويل القامة متين البنيان مدور الوجه ، انعطفت قبعته كثيراً فوق أذنه الواحدة وانحرف احد شاربيه الى العالي ، اما الآخر فمال نحو الارض حتى بدا وجهه وكأنه التوى وتشوّه بابتسامة بلهاء ميتة . كان يحمل سيفاً بيده اليسرى ، ويؤرجح اليد اليمنى في عنف وقوة ، ويتقدم بخطأ ثقيلة ثابتة استطاع سائر الحضور سماع وقعها الأصم على الارض . وتباعد المحتشدون يُفسحون له الطريق ، وقد اعتلى وجوههم الاعياء والكآبة ، وذابت ضوضاؤهم فكأن الارض قد امتصتها . وأحست الأم عينيها تلهبان ، وعضلات جبهتها ترتجف ، وقد انتابتها الرغبة في الانضمام الى الحشد من جديد ، فانحنت الى الامام وجمدت متوترة الاعضاء متيبسة الاطراف دون حراك .

سأل رئيس الشرطة ، وهو يقف أمام ريبين ويقيسه بعينيه :

— ماذا ؟ لمَ يداه غير مربوطتين ؟ أيها الشرطيان ، قيّداه !

كان صوته مرتفعاً رناناً ، لكنه لا حياة فيه .

وأجاب احد الشرطيين :

— لقد كانتا مقيدتين فحلّ الشعب وثاقه .

— ما هذا ؟ الشعب اي شعب هذا !

ورمق رئيس الشرطة الحشد الملتفّ حوله في نصف دائرة ، واستفسر دون ان يرفع او يخفض صوته الابيض الرتيب :

– مَنْ هو الشعب ؟

ولمس الفلاح ذا العينين الزرقاوين بصفحة قبضة سيفه ، وقال :

ـ أعتقد انك انت هو الشعب ، يا شاماكوف ؟ حسناً ، ومن ايضاً ؟ أنت يا ميشين ؟

وأطبق على أحدهما من لحيته بيده اليمنى .

يفضل ان تتفرقوا من هنا ، ايهـــا الاوغاد ، وإلا ... وإلا أريتكم من أكون .

لم يكن في وجهه أثر للغضب او الوعيد ، فهو يتكلم في هدوء ، ويضرب الناس بحركة مألوفة من ذراعيه الطويلتين . وتراجع القوم أمامه يطرقون برؤوسهم ويشيحون بوجوههم .

توجه الى الشرطيين قائلاً :

– حسناً ، لِمَ أنتما هنا ؟ اربطاه ، قلت لكم ...

وأطلق سيلاً من الشتائم ، ثم حملق في ريبـــين مرة أخرى وأمره بصوت مرتفع :

– ضع يديك وراء ظهرك ، أنت ...

فقال ريبين :

ـ لا أريدهما على ربط يديّ ، فلست أفكر في الفرار كما اني لن أقاوم ، فما معنى تقييدهما اذن ؟

فسأل رئيس الشرطة ، وهو يخطو في اتجاهه :

ـ ما هذا ؟

فتابـع ريبين ، وهو يرفع صوته :

ـ كفاكم تعذيباً للشعب، ايها المتوحشون؟ لسوف تدق ساعتكم عن قريب!

ووقف رئيس الشرطة ينظر في وجه مرتعش الشارب، ثم تراجع الى الخلف خطوة ، وصاح بصوت مجنون :

ـ انت يا ابن الكلبة ! ما هذا الذي تقول ؟

ووجّه الى ريبين ، بغتة ، صفعة رنانة على وجهه، فصاح هذا متقدماً نحوه :

ـ لن تستطيعوا قتل الحقيقة بقبضاتكم ، وليس لك الحق في ضربي ، ايها الكلب القذر !

فعوى رئيس الشرطة ، وهو ينبر الكلمات بقوة :

ـ أنا ، ليس لي الحق ؟ أنا ؟

ورفع يده مرة اخرى يهدف ريبين ، ولكن هذا انحنى فأخطأته اللكمة ، وكادت ان ترمي رئيس الشرطة ارضاً . قهقه أحد الواقفين وهو ينفخ من منخريه بضوضاء ، في حين ارتفع صوت ريبين ، الغاضب مرة اخرى :

ـ اني أمنعك من ضربي ، يا ايها الشيطان القذر !

وأسفّ رئيس الشرطة النظر حوله، فوجد الناس قد تألـّفوا في حلقة كثيفة قاتمة . صاح :

ـ نيكيتا ! هِيْ نيكيتا !

فبرز من قلب الحشد فلاح قصير القامة ، متين البنية ، مفتول العضلات ، يرتدي معطفاً من جلد الخراف . كان رأسه العريض الشاعث مطرقاً الى الارض.

قال رئيس الشرطة ، وهو يفتل شاربيه في هدوء :

– نيكيتا ! أعطه لكمة على أذنه ... لكمة قوية !

فتقدم الفلاح ، ووقف امام ريبين ، ورفع رأسه نحوه ، فأطلق عليه ريبين سيلاً من الكلمات العنيفة المثقلة بالحقيقة :

– أنظروا فقط ، ايها الشعب ، كيف يخنقكم هؤلاء الوحوش بذات ايديكم ! انظروا ، وفكروا في ذلك جيداً !

ورفع الفلاح ذراعه في بطء ، ثم وجّه الى ريبين لطمة شديدة على رأسه .

فصاح رئيس الشرطة في شبه عواء :

– أهكذا قلت لك ، يا ابن الكلبة ؟

وارتفع صوت من الحشد يقول :

– هِيْ نيكيتا ! لا تنسى الله !

فصاح رئيس الشرطة ، وهو يمسك به من رقبته :

– إضرب ، قلتُ لك ...

فطأطأ الفلاح رأسه ، ثم ابتعد جانباً ، وهو يغمغم :

– لن أفعل ذلك .

– ماذا ؟

ومرّت رعشة على وجه رئيس الشرطة ، فضرب الارض بقدمه ، ثم انطلق نحو ريبين وهو لا يني عن شتمه . وتردد صدى صفعة ترنح ريبين لها ، فرفع ذراعه ، ولكن صفعة ثانية عاجلته ورمته أرضاً ، واذا رئيس الشرطة يهجم عليه ويروح يرفسه في صدره وعِطفه ورأسه .

وارتفعت غمغمة غامضة من المحتشدين ، وبدأوا يتحركون صوب رئيس الشرطة . ولكنه لاحظ ذلك منهم فتراجع الى الوراء ، وهو يستلّ سيفه من غمده .

– ما هذا ؟ عصيان ؟ بخٍ بخٍ ... هكذا اذن !

ارتجف صوته ، ثم انقطع وهو يرسل هديراً حاداً عديم الجدوى . وخارت قواه بغتة مع صوته ، فانحنى وأدخل رأسه بين كتفيه ، وراح يتطلع حوله بعينين فارغتين وهـــو يتقهقر متحسساً الارض الى الوراء منه بقدميه . صاح بصوت أجش :

– حسناً جداً . خذاه من هنا ، أنا ذاهب . والآن ؟ أفلستم تعرفون ، ايها الأوغاد ، انه مجرم سياسي ؟ أفلا تعلمون انه يحرّض الشعب ضد القيصر ؟ ثم انتم تدافعون عنه ؟ اذن فأنتم ثائرون ايضاً ، أليس كذلك ؟ هكذا إذن !

كانت الام تقف دون حراك ، دون ان يرفّ لها جفن واحد ، مجردة عن القوة ، خالية من القدرة على التفكير ، يعتلج فيها الرعب والرثاء فكأنها ترزح تحت نير كابوس ثقيل . وكان صراخ الناس المكتئب ، الغاضب ، الثأر ، يختلط في ذهنها بصوت رئيس الشرطة المرتجف وبعض همس مكبوت ينطلق من هنا وهناك ، ويتحوّل الى دويّ اشبه بطنين سرب مغيظ من الزنابير .

– ان كان مذنباً ، فقدموه الى المحكمة ...

– إرفق به ، يا صاحب السعادة ...

– الحقيقة انه لا يوجد قانون يسمح بهذه المعاملة ...

– بالطبع ، فلو كان مثل هذا الشيء، ممكناً ، اذن كان سائر الناس يلجأون الى الضرب ... وذلك يكون شيئاً رائعاً في الحقيقة ! ...

انفصل الحشد الى فريقين أحاط أحدهما برئيس الشرطة يصيح معه ويدافع عنه ، بينما التف الفريق الآخر ، الاقل عدداً ، حول الرجل المطروح وأفراده يغمغمون مهددين متوعدين . وأنهض عدد من هؤلاء ريبين عن الارض ، وعندما حاول الشرطيان تقييد يديه من جديد صاحوا بهما :

– لِمَ كل هذه العجلة ، أيها الشيطانان ؟

مسح ميخائيلو الطين والدم عن وجهه ولحيته ، ثم تطلع حوله في سكون فوقعت نظرته على الام التي انتفضت وانحنت في اتجاهه وهي تلوّح بذراعيها بالرغم منها . لكنه استدار عنها ، راحت عيناه بعد عدة دقائق تفتشان عن وجهها من جديد . وخيل اليها انه انتصب ورفع رأسه ، وأن وجنتيه الملطختين بالدماء ترتعشان .

– لقد عرفني ... أيمكن حقاً ان يكون قد عرفني ؟

وأشارت اليه برأسها ، وهي ترتعش بلهفة مؤلمة مخيفة . وفي اللحظة التالية لاحظت ان الفلاح الازرق العينين يقف الى جواره ويرنو اليها بدوره . وأثارت نظرته في الام إحساساً بالخطر لم يدم اكثر من لحظة قصيرة .

– ماذا أفعل ؟ لسوف يأخذونني انا ايضاً !

وقال الفلاح لريبين شيئاً ، فأجاب عليه هـــذا باشارة من رأسه ، ثم قال بصوت واضح النبرات جريء بالرغم من ارتعاشه :

– حسناً ! لستُ الوحيد على وجه الارض ! ولن يستطيعوا قط ان يسجنوا الحقيقة بأسرها . ان ذكراي ستبقى في كل مكان مررت به ، وان أتلفوا العشّ وساقوا سائر الرفاق ...

وخمّنت الام :

– انه يتوجه بهذا إليّ .

ولكنّ يوماً سيأتي تحلق النسور فيه حرة ، ويحطم الشعب فيه أصفاده .

وأتت امرأة بسطل من الماء وراحت تغسل وجه ريبين وهي تئن وتتأوه طوال الوقت ، فيختلط صوتها المرتفع الشاكي بكلمات ريبين حتى تعجز الأم عن تمييزها . وقحَمَ فريـــق الفلاحين الثاني يتقدمهم رئيس الشرطة ، وصاح البعض من بينهم :

– هاتوا عربة تأخذ السجين من هنا ! نوْبَةَ مَنْ هذه المرة ؟

وارتفع صوت رئيس الشرطة متبدلاً ، أقرب الى الشكوى :

– أستطيع ان أضربك ، اما انت فلا تستطيع ان تضربني . لست تجرؤ على ذلك ، ايها الخبيث !

فصاح ريبين :

– حقاً ؟ ومن تحسب نفسك ... الله ؟

وغطى انفجار من الهتافات المكتومة صوته وطغى عليه :

– لا تناقشه ، أيها الاخ ... انها السلطة !

لا تنقم عليه ، يا صاحب السعادة ، فهو لا يملك زمام نفسه .

– هدىء روعك ، ايها الشجاع .

– سيأخذونك الى المدينة الآن .

– في المدينة عدالة اكثر .

كانت صيحات القوم مترجية مصالحة ، تختلط في دويّ غامض يعبر عن نضاضة من الأمل . وأمسك الشرطيان بريبين من ذراعيه وقاداه الى بوابة بناء المحافظة حيث اختفيا به . وأخذ الفلاحون يتفرقون في تماهل ، ولكن الام شاهدت ذا العينين الزرقاوين يأتي صوبها ، وهو يحدجها من تحت حاجبه ، فتخاذلت خوفاً وانثال اليأس يمسك قلبها بقبضة حديدية ، ويثير فيها احساساً شديداً بالغثيان . فكرت :

– يجب ألا أذهب ، كلا !

وأمسكت الدرابزون بقوة ، وانتظرت .

كان رئيس الشرطة يقف على وصيد بناء المحافظة ، يحرك ذراعيه ويتحدث الى الفلاحين معاتباً بصوت عاد من جديد أبيض لا روح فيه :

– مجانين أنتم ، يا أبناء الكلبة ، إذ تدسون أنوفكم في أمور لا تفهمون منها شيئاً . هذه قضية تتعلق بالدولة ، أيها الدواب . واجبكم ان تشكروني ، واجبكم ان تجثوا على ركبكم امتناناً لي لطيبة قلبي تجاهكم . لو أردت لأرسلت بكم جميعاً الى الاشغال الشاقة ...

كان عشرون فلاحاً تقريباً يقفون عراة الرؤوس ينصتون اليه . وتكاثف الظلام ، بينما السحب تنخفض نحو الارض اكثر فأكثر . واقترب ذو العينين الزرقاوين من العتبة حيث تقف الام :

– هل رأيتِ ما جرى ؟

فأجابت الام في صوت خافت :

– نعم .

فسأل ، وهو ينظر في عينيها باستقامة وجرأة :

– ما هي أشغالك هنا ؟

– إني أشتري مطرزات من الفلاحات ، وبعض الاصواف ايضاً .

فمشط الفلاح لحيته في تباطؤ ، ثم قال في ضجر وهو ينظر الى بناء المحافظة :

– ان نساءنا لا يصنعن هذه الاشياء .

فحدجته الام بناظريها فترة من الوقت ، وهي تنتظر الفرصة الملائمة للرجوع الى داخل الغرفة . كان وجه الفلاح جميلاً متأملاً ، وعيناه حزينتين . وكان طويل القامة عريض المنكبين ، يرتدي قفطاناً مرقعاً ، وقميصاً قطنياً نظيفاً ، وسراويل سمراء اللون ، وحذائين مهترئين في قدميه العاريتين .

وأرسلت الام ، لسببٍ ما ، زفرة ارتياح ، ثم قالت بغتة وهي تستسلم لحدس كان أسبق من أفكارها المضطربة :

– أيمكن ان أقضي الليل عندك ؟

كان السؤال مفاجئاً بالنسبة اليها ، ولم تكد تطرحه حتى أصبح كل شيء في داخلها شديد التوتر ، فانتصبت ونظرت الى الرجل في ثبات ، وأفكار حادة تتراقص في ذهنها :

– لسوف أدمر نيقولاي إيفانوفيتش ، ولن أرى بافل زمناً طويلاً ، طويلاً جداً ، ولسوف يضربوني !

أجاب الموجيك دون تسرّع ، وعيناه مثبتتان في الارض ، بينما هو يبكل أزرار قفطانه :

– تبيتين الليل عندي ؟ لمَ لا ، إلا ان كوخي حقير جداً .

فقالت الام :

– اني لم أعتد ما هو افضل .

فوافق الموجيك ، وهو يرفع عينيه ويقيسها بناظريه مرة اخرى :

– حسناً ، اذن .

كان الظلام قد اشتد ، فراحت عيناه تلمعان باردتين ، وقد بدا وجهه شاحباً في ضوء القيلولة .

قالت الام بصوت خفيض ، وهي تشعر كأنها تتدحرج في هاوية :

– اذن فسوف أذهب وإياك مباشرة ، ولعلك تحمل الحقيبة عني ؟

– حسناً جداً .

رفع كتفيه ، وهو يصلح من قفطانه مرة أخرى . قال :

– هذه العربة جاءت .

وظهر ريبين على عتبة بناء المحافظة ، مقيّد اليدين من جديد ، مغمور الرأس والوجه في قماش أسمر ، وارتفع صوته في ضوء القيلولة البارد :

ـ وداعاً ، ايها القـــوم الطيبون ! فتشوا عن الحقيقة ، واكنزوها ! ثقوا بالانسان الذي يحمل اليكم الكلمة الحقة ، ولا توفروا أنفسكم في الدفاع عن الحقيقة.

فصاح رئيس الشرطة :

ـ سدّ حلقك ! حثّ الجياد ، أنت أيها الشرطي الأبله ...

ـ ما الذي تخافون من خسرانه ، أنظروا الى حيواتكم فقط !

وانطلقت العربة ، فصاح ريبين من حيث كان جالساً بين اثنين من رجال الشرطة :

ـ ما الذي يدفعكم الى الاستمرار في الجوع حتى الموت ؟ اذا ما نلتم حريتكم مرة ، فسوف تحصلون على الخبز والعدالة . تلك هي القضية ! الوداع ، أيهـــا القوم الطيبون !

وطغت زمجرة العجلات على صوته ، وابتلعه عدو الجياد وصياح رئيس الشرطة .

قال الموجيك ، وهو يهزّ رأسه :

ـ لقد انتهى كل شيء .

ثم استدار نحو الام ، وتابع بصوت مخفوض :

ـ انتظريني ههنا في المحطة ، فسوف أعود بعد هنيهة .

دلفت الام الى الغرفة ، وجلست الى المائدة تجاه السماور ، وتناولت كسرة من الخبز نظرت اليها لحظة ، ثم ردتها متثاقلة الى مكانها من الصحن : ان موجة الغثيان تجتاحها مرة اخرى ، فلا تستطيع الى الطعام سبيلا . وأحست حرارة مزعجة تنهكها ، تمتص كل الدم من قلبها وترميها بدوار شديد لا تقدر له على مقاومة وكانت ترى الى الامام منها وجه الفلاح الأزرق العينين ، منقوصاً بصورة غريبة ، موحياً بالارتياب والتشكك . ولسببٍ ما لم تشأ ان تفكر في إمكان

وشايته بها ، ولكن هذه الفكرة كانت قد سبقت واخترقت ذهنها واستقرت ثقيلة لا حراك بها فوق قلبها . هجست في ضعف وإعياء :

ـ لقد لاحظني ، لقد لاحظني ... وخمّن كل شيء !

ولم تتطور تلك الفكرة او تنمو على الاطلاق ، لشدة ما كانت غارقة فيه من يأس يرافقه إحساس لزج بالغثيان المرهق .

وكان صمت مطبق حلّ محل الضوضاء ما وراء النافذة يكشف عن إحساس الخـــوف والاضطهاد المسيطر على القرية . واحتدّ الشعور بالوحدة يملأ النفس بظلمات قاتمة ناعمة مثل الرماد .

وظهرت البنية مرة اخرى على عتبة الباب . قالت :

ـ أأجيئك ببعض البيض المسلوق ؟

ـ لا تزعجي نفسك ، فلست أرغب في الطعام . لقد أخافوني بصياحهم وصراخهم .

فاقتربت الصغيرة من المائدة ، وهي تقول بصوت منفعل مكتوم :

ـ كان يجب ان تري كيف ضربه رئيس الشرطة . لقد كنت أقف بالقرب منه ... لقد اقتلع اسنانه ، وأنا رأيته يبصقها بأمّ عينيّ ـ وكان الدم ثخيناً ، أسود وأحمر معاً ... اما عيناه فقد انتفختا كثيراً جداً . انه فحام ، ورقيب الشرطة يرقد فوق ـ ثملاً للغاية ، ومع ذلك يطلب الخمر باستمرار. وهو يقول ان ثمة عصابة كاملة منهم ، وان ذلك الملتحي هو رئيسهم . لقد اعتقلوا ثلاثة منهم، ولكن واحـــداً استطاع الفرار ، وكذلك اعتقلوا معلم مدرسة ينتمي الى عصابتهم ... انهم لا يؤمنون بالله، ويحاولون باستمرار ان يقنعوا الناس الآخرين بالكفر به حتى يسرقوا الكنائس ... ذلك هو جوهرهم ! ان بعض فلاحينا يأسفون من اجله ، ولكن الآخرين يقولون إنه من الضروري وضع حد له ... ثمة كثير من الفلاحين الاشرار عندنا ... يا لطيف !

وأنصتت الام بانتباه الى رواية البنية المتقطعة السريعة ، جاهدة ان تتغلب على مخاوفها ... وكانت الصغيرة سعيدة فيما يبدو بأن تجد من يصغي اليهـــا فاستمرت تتحدث في هياج وانفعال ، ولكن في صوت خفيض دائماً :

ـ أبي يقول ان سبب كل ذلك الموسم السيىء ، فالارض تكاد لم تنتج شيئاً طوال سنتين ... لقد جفت وانكمشت ... ولذلك اصبح فلاحونا أشرار حتى هذه الدرجة . انهم يتصايحون ويتقاتلون في اجتماعات القرية . وفي ذات يوم ، بينا كانوا يبيعون ممتلكات فاسكوف كي يفوا ديونه بها ، ضرب المختار على وجهه بعنف وهو يقول : « إليك ديونك مني فخذها » .

وُسمع وقع أقدام ثقيلة عند الباب ، فأمسكت الام بالمائدة وتحاملت على نفسها ناهضة .

رَعَفَ الباب بالفلاح الأزرق العينين الذي قال دون ان يخلع قبعته :

ـ اين حقيبتك ؟

ورفع الحقيبة بكل يسر وهزها ...

ـ فارغة . دلي هذه المرأة على الطريق الى كوخي ، يا ماركا .

وخرج دون ان ينظر الى الخلف ابداً .

سألت البنية :

ـ أتقضين الليل هنا ؟

ـ نعم . لقد جئت طلباً المطرزات ... اني اشتري المطرزات ...

ـ إنهم لا يشتغلون بها ههنا ، يشتغلون بها في تنكوفاودارينا ، اما هنا فلا.

ـ سأذهب الى هناك في الغداة ...

وعندما دفعت الام ثمن الشاي ، منحت الصغيرة ثلاثة كوبيكات كان لها في نفسها وقع بهيج للغاية . ثم غادرتا المحطة ، والفتاة تسير بخطاً سريعة فوق الارض الندية بقدميها الحافيتين . قالت :

– ان شئت ذهبت الى دارينا وقلت للنساء ان يحملن مطرزاتهن الى هنا .

ولسوف يأتين ههنا فلا تحتاجين الى ركوبٍ حتى هناك . ان المسافة تبلغ الاثني عشرة فرسخاً على أية حال ...

فقالت الام ، وهي تلاحق خطاها كي تلحق بها :

– لا تزعجي نفسك ، يا عزيزتي .

أنعشها الهواء البارد ، وراح عزم غامض ينمو فيها شيئاً فشيئاً . كان ينمو في بطء واضطراب ، فشرعت تسأل نفسها ، راغبة في ان تعجل ذلك النمو :

– ماذا ينبغي ان أفعل ?

كان الطقس بارداً ، مظلماً ، رطباً . وبدت نوافذ الكوخ اخيراً تلمع بنور أحمر ، وفي ذلك السكون تتردد صيحات خافتة ويرفع خوار الابقار الناعس في مزاربها . والتفـّت القرية بالعتمة ، وبكآبة ثقيلة العبء ايضاً .

قالت الصغيرة :

– هنا ، لقد وقعتِ على مكان حقير تقضين الليل فيه . انه فلاح فقير للغاية !

وتحسست الباب . وعندما فتحته مدت رأسها من خلاله ، وصاحت :

– ايتها العمة تاتيانا !

ثم ولت الادبار ...

وجاء صوتها عبر الظلمة :

– الى اللقاء !

١٧

وقفت الام على العتبة ، ورفعت يـــدها الى عينيها حتى يحسن استطلاعها للكوخ . كان الكوخ ضيقاً ، ولكنه سرعان ما لفت أنظار الام بنظافته . ورنت اليها امرأة شابة بعينيها من وراء احدى الموقد ، وأشارت برأسها مسلّمة دون كلام ، ثم انسحبت ... وكان مصباح يلتهب على مائدة جلس اليها صاحب الكوخ ينقر عوارضها بأصابعه في عصبية ، باحثاً بناظريه عن عيني الام . قال بعد برهة من الصمت :

– تفضلي . تاتيانا ، هلا ناديت بيوتر ، وأسرعتِ في ذلك ؟

فلفظ البابُ المرأة، دون ان تنظر الى الام التي قبعت على دكة مقابل الرجل وراحت تصرو حواليها ، فلا تقع أنظارها على حقيبتها في أي مكان . كان الكوخ يعجّ بسكون ثقيل ، لا يعكر صفوه إلا طقطقة المصباح من وقت لآخر . وراح وجه الموجيك الأنيس القلق يتموّج أمام عيني موقظاً في فؤادها اضطراباً كئيباً .

استوضحت ، فجأة ، في صوت دُهشت هي نفسها لارتفاعه :

– أين حقيبتي ؟

فأجاب الموجيك ، وهو يهزّ كتفيه :

– انها لن تضيع .

ثم أضاف :

– اقد قلت عمـــداً في المحطة انها فارغة حتى تسمع البنية ذلك . ولكنها ليست فارغة ، بل على العكس ثقيلة جداً .

فسألت الام :

– حسناً ، وما في ذلك ؟

فنهض ورسم نحوها ، ثم انحنى عليها كثيراً ، وهو يهمس في صوت خافت :

– أنت تعرفين ذلك الرجل ؟

فردّت الام بصوت ثابت ، رغم ان السؤال دهمها على غير انتظار :

– نعم .

وبدا ان الكلمة قد اضاءت ، بغتة ، كل شيء من الداخل، فأوضحت الامور وأجلتها . فتنهدت الام بارتياح ، واستقرت على الدكة في ثبات اكثر .

واستطالت في شفتي الموجيك ابتسامة عريضة شبعى ، وقال :

– حزرت ذلك وقتما أشرت اليه هناك فردّ على إشارتك . ولقد همستُ في اذنه ان كان يعرف المرأة الواقفة على العتبة هناك .

فاستجلت الام في اندفاع :

– وبمَ أجاب ؟

– هو ؟ لقد أجاب : ثمة كثيرون منا . ثمة الكثيرون . هذا ما قال .

ونظر الفلاح مستفهماً الى عينيّ ضيفته ، وتخايلت على شفتيه ابتسامة اخرى وهو يتابع حديثه قائلاً :

– إنه لرجل قوي حقاً ! وشجاع ايضاً . لقد قال دون لفّ او دوران : « أنا من فعل ذلك » . واستمرّ يقول ما يريد ان يقول غير آبه لما ينزلون به من تنكيل .

ارتاحت الام اكثر فأكثر الى صوته الضعيف المتردد وهدّأت من روعها رؤية عينيه الصريحتين في وجه يبدو كأنما يعوزه شيء ما . وراح القلق والاعياء يفسحان المجال شيئاً فشيئاً لرثاء حاد عنيف من اجل ريبين . صاحت فجأة في غيظ مرير :

– يا للأوغاد ! يا للوحوش !

وانخرطت تبكي ... فصدَّرَ الموجيك عنها ، وهو يهزُّ رأسه ساخطاً . قال:

– السلطات تجعل الناس يحبونها من دون ريب .

واستدار الى الام مرة أخرى ، وقال في هدوء :

– يخيل اليّ ... أعتقد أن في الحقيبة صحفاً . ألست على حق ؟

فأجابت الأم ببساطة ، وهي تمسح عبراتها :

– بلى . كنت أحملها اليه .

فقطب الفلاح حاجبيه . وأخذ لحيته في قبضته ، وراح يشخص الى احدى الزوايا في ثبات . خنخن أخيراً :

– لقد جاؤونا بتلك الصحف إلى هنا ، وببعض الكتب أيضاً . ونحن نعرف هذا الرجل ... لقد كنا نراه في بعض الأحايين .

وسكت مستغرقاً في التفكير ثانية قصيرة ، ثم سأل :

– ماذا تنوين الآن أن تفعلي بها ؟ ... الحقيبة .

فقالت الأم ، وهي ترمقه في تحدٍّ :

– سأتركها معكم .

فلم يرفض ولم يبدُ عليه أي أثر للدهشة ... ردد :

– معنا ؟

وجلس الى المائدة ، وهو يشير برأسه موافقاً ، ويمشّط لحيته بأصابعه .

كان مشهد المعاملة الوحشية التي لاقاها ريبين يثقل على الأم ويقتحم مخيلتها في عناد لا يعرف الرحمة . وطردت صورته كل الأفكار من ذهنها ، كما أن ما أحست به من ألم ومذلة تجاه الجنس البشري طرد سائر العواطف الأخرى حتى أمست عاجزة عن التفكير في الحقيبة أو في أي شيء آخر . وتحسست عبراتها متدفقة ، وان ظلت سيماؤها قاسية ، وصوتها ثابتاً غير مرتعش ، وهي تقول :

ــ ألا فلتحلّ اللعنة عليهم الى الابد لطريقتهم في سرقة الكائنات البشرية ، والتنكيل بهم ، وتعفيرهم في الوحل هكذا .

فهمهم الموجيك بصوت رقيق :

ــ إنهم أقوياء ، أقوياء جداً .

فهتفت الأم في يأس :

ــ ومن أين يجيئون بقوتهم ؟ انهم يأتون بها منـّا ، نحن عامة الشعب ... ان سائر الاشياء تؤخذ منا .

كان وجه الفلاح النير ، الغامض التعبير في الوقت ذاته ، يثيرها ...

قال في تثاقل :

ــ أجل ، ان العجلة ...

وانتفض فجأة ، وأصاخ بأذنيه في تجاه الباب ، وقال :

ــ انهم آتون .

من ؟ ...

ــ اصدقاء ، فيما يبدو ...

دخلت زوجته يصحبها فلاح آخر ألقى بقبعته في إحدى الزوايا ، واقترب سريعاً من صاحب الكوخ . سأل :

ـ حسناً ؟

فأشار الآخر برأسه ... وقالت زوجته من حيث وقفت أمام الموقد :

ـ استيفان ، لعلّ الضيفة تريد أن تأكل شيئاً .

فقالت الام :

ـ كلا ، شكراً لك ، يا عزيزتي .

ودنا الفلاح الآخر من الأم ، وقال بصوت سريع متكسر :

ـ اسمحي لي أن أقدّم نفسي ، إن إسمي بيوتر ييجوروف ريابنين وألقّب بالمخرز؛ وإني أفهم شيئاً أو شيئين عن عملك، وأعرف القراءه والكتابة، ولست أبله ، إن صح التعبير ...

وأخذ اليد التي مدتها الام له واستدار نحو المضيف ، وقال :

ـ تحقق من ذلك بنفسك ، يا استيفان . إن بربارا نيقولاي يفنا سيدة كثيرة اللطف ، فيما أعتقد . ولكنها تدّعي أن العمل يدل على الجنون ولا يجلب إلا الضرر ، فكأنه من صنع أولاد وطلاب يملؤون عقول الناس هراءً وهذراً . ولكن انت وانا قد رأينا أنهم قد اعتقلوا اليوم رجلاً طيباً ، فلاحاً مائة في المائة . والآن ، أنظر ، ههنا امرأة نَصَف لا تمتُّ الى الاسياد بصلة كما تدلّ كل المظاهر . ما هو أصلك ، اذا غفرت السؤال ؟

كان يتكلم في تسرع ووضوح دون ان يستريح لتدارك أنفاسه ، ولحيته ترتجف بعصبية ، وعيناه لا تفتآن تتمعنان في وجه الام وجسدها . وكانت ثيابه ممزقة مهترئة ، وشعره مشعثاً فكأنه خارج تواً من قتال يملؤه الفرح اذ انتصر فيه على خصمه . وأحبته الام مباشرة لاندفاعه وحديثه البسيط الصريح ، المجرد من اللف والدوران . وتطلعت مبتسمة في وجهه وهي تردُّ على سؤاله ، حتى اذا انتهت منه صافحها من جديد وأطلق ضحكة جافة قصيرة ، قائلاً :

– وانه عمل رائع ، ألم أقل لك إنه يصـــدر عن الشعب نفسه ؟ اما تلك السيدة العظيمـــة فهي لا تقول لك الحقيقة . فهي تؤذي نفسها ان روت لك الحقيقة بعينها . أواهٍ ، أنا أحترمها – هذا أمر ليس فيه خلجة من شك . فهي طيبة كثيراً وتريد ان تمدّ لنا يد المساعدة – قليلاً جداً – دون ان يسبب ذلك لها اي أذى على الاطلاق . اما عامة الناس فانهم يريدون الخير دون لف او دوران ، وهم لا يخافون من الأذى والمضرة . هل فهمت الفارق ؟ انهم يتأذون طوال حياتهم يصيبهم الأذى مهما فعلوا ، ولا مكان لهم يلجأون اليه ، والكلمة الوحيدة التي يسمعونها هي « قف » مهما تكن الطريق التي يسلكون .

وقال ستيفان وهو يشير برأسه :

– اني أرى ...

ثم أضاف مباشرة :

– إنها قلقة من أجل حقيبتها .

فغمز بيوتر الام في خبث وقال وهو يلوّح بيده مطـَمْئِناً :

– لا تقلقي . فكل شيء سيجري على ما يرام ، يا أم . حقيبتك في منزلي . عندما حدثني اليوم عنك فكأنك انت ايضاً تشتركين في هـــذا العمل وتعرفين ذلك الشخص قلت له : راقبها جيداً لان القضية كثيرة الخطورة . ويبدو انك اشتممت شيئاً بدورك عندما كنا واقفين الى جانبك . فالمرء لا يخطىء وجه الشريف اذا رآه ، ما دام ليس في العالم كثرة من أمثاله ، وتلك حقيقة لا مراء فيها . وتقلقي من أجل حقيبتك ...

وجلس بجانبها ، وتطلع اليها مستفهماً :

– ان كنت تحبين التخلـُّص ممـــا فيها كلنا سعيدين بمساعدتك ... نحن نستطيع الاستفادة من تلك الكتب والصحف .

فقال ستيفان :

ـ هي تريد ان تتركها كلها معنا .

ـ هذا رائع ، يا أم ! ولسوف نجد مكاناً من اجل كل شيء .

قفز ناهضاً على قدميه وهو يضحك ، وشرع يجوس أرض الغرفة روحة وغدوة في عجلة واندفاع :

ـ هذا حظ نادر ، وان لم يكن غريباً جداً . الحبل ينقطع في هذا الموضع فيعاد ربطه في موضع آخر ، وهذا حسن جداً . ان الصحيفة عظيمة ، يا أم ، وهي كثيرة الفائدة ترفع العصائب عن العيون ، والأسياد لا يأبهون كثيراً لها . أنا أشتغل عند سيدة تبعد سبعة فراسخ من هنا أنجّر لها ... وهي امرأة شهمة تعيرنا كتباً من كل الانواع ، نقرؤها أحياناً فتفتح عيوننا على أشياء كثيرة . ونحن ممتنُّون لها بصورة عامة . ولكني أريتها مرة هذه الجريدة ، فاغتاظت قليلاً بسببها وقالت : لا تقرأ هذه البضاعة ، يا بيوتر . انهم جماعة من التلاميذ الخبثاء الذين يكتبون مثل هذه الاشياء ، ولن تستفيد من قراءتها سوى الوقوع في المشاكل ـ السجن ـ وسيبيريا ـ هذا ما قالت ...

ولجأ الى الصمت من جديد ، ثم سأل :

ـ هذا الرجل ، يا أم ... أهو قريب لك ؟

فأجابت الام :

ـ كلا !

فضحك بيوتر دون ضوضاء ، وهزّ رأسه فكأنه مسرور جداً من شيء ما . وشخص للأم ، بعد فترة قصيرة انها قد نالت من كرامة ريبين بانكارها كل صلة لها به ، فأضافت :

ـ ليس هو بقربي، ولكني أعرفه منذ زمن طويل، وأحترمه مثل أخ لي... أخ يكبرني سناً ...

لم تكن تستطيع إيجاد الكلمات الملائمة للتعبير عن شعورها ، وكان ذلك كثير الايلام حتى قد انخرطت تبكي في هدوء مرة أخرى. وساد الكوخ سكون متحفز ثقيل الوطأة ، وقد انتصب بيوتر مطرق الرأس كمن يصيخ السمع الى شيء ما بينا جلس ستيفان مرتفقاً المائدة وهو لا يبرح ينقر عليها بعصبية وقلق وزوجته تستند الى الموقد ، والام تدرك ان نظرتها مثبتة في وجهها . وكانت الام تختلس النظر بين الآونة والآونة الى المرأة الشابة التي كان وجهها المسمر البيضوي الشكل ذا أنف مستقيم ، وذقن مدببة حادة ، وعينين لطيفتين يقظتين .

قال بيوتر بصوت خافت :

– لقد كان إذن صديقاً لك . انه لذو شخصية فذّة في الحقيقة ، يعتدُّ بنفسه كثيراً . انه لفتى رائع حقاً . ما رأيك ، يا تاتيانا ؟ ...

فقاطعته تاتيانا ، وهي تضمُّ شفتي فمها الصغير :

– أمتزوج هو ؟

فردّت الام في كآبة :

– بل أرمل .

فقالت تاتيانا بصوت عميق غني النبرات :

– هذا هو السبب في شجاعته . ان رجلاً متزوجاً لا يختار هذا الدرب ، بل سيخاف ...

فصاح بيوتر :

– وأنا ؟ ألست متزوجاً ؟

فخنخنت المرأة ، وهي تبتسم ابتسامة ملتوية وتتجنب عينيه :

ـ بخٍ بخٍ ، أيها الجار ! وماذا تفعل أنت ! لا تفعل سوى الكلام ! ومن وقت لآخر تقرأ كتاباً او ما شابه . ان قعودك وستيفان تتهامسان في إحدى الزوايا المظلمة على طريقتكما هذه لا يفيد الشعب كثيراً .

فاحتجَّ الموجيك بصوت مخفوض ، وقد آذاه ازدراؤها فيَّ :

ـ كثيرون يصغون الى كلماتي . وأنا ، ان صح التعبـــير ، أشبه الخميرة في عملي هنا . لا يحقُّ لك ان تقولي ان ...

فسما استيفان ببصره الى امرأته في سكون ، وأطرق برأسه من جديد ...

وسألت تاتيانا :

ـ لِمَ يتزوج الفلاح ؟ يدَّعي أنه في حاجة الى امرأة تعمل من أجله . عمل عظيم ، وربي !

فاستفسر ستيفان بصوت أجشّ :

ـ أهو لا يكفيك ؟

ـ أي معنى في هذا العمل ؟ ان تعيش نصف جائع يوماً بعد يوم . وان كان لديك اولاد فليس لديك الوقت للعناية بهم بسببٍ من العمل الذي لا يؤمن لك حتى خبزك اليومي .

وذهبت الى الام وجلست قربها ، وهي تتكلم في عناد ، لكن دون شكاية او كآبة :

ـ رزقت طفلين أهرق أحدهما ماء مغلياً على نفسه وهو في الثانية من عمره. اما الآخر فوُلد ميتاً ـ قبل ان يحين موعد ولادته ـ وكل ذلك بسبب ذلك العمل اللعين . هل حمل إليَّ شيئاً من السعادة ؟ أقول لكم ان زواج الفلاحين عبث ، فهم لا يفعلون إلا ربط أيديهم ، في حين ينبغي لهم ان يعيشوا دون من يعترض

سبيلهم ، يناضلون من أجـــل حياة أفضل . عندئذ يستطيعون الذهاب وراء الحقيقة باستقامة مثل ذلك الرجل . ألست على حق ، يا أماه ؟

فقالت الام :

ـ انت على حق ، انت على حق يا عزيزتي ... وإلا فلا سبيل الى تبديـــل هذه الحياة ...

ـ ألم يكن لك رجل ؟

ـ لقد مات . ان لي ابناً ...

ـ وهو يعيش معك ؟

ـ انه في السجن .

وإذ قالت الام هذه الكلمات أحست الخيلاء ترافق الألم المألوف الذي تثيره في صدرها .

ـ هذه في المرة الثانية التي يطرحون به هناك ـ ومردُّ ذلك انه يزرع حقيقة الله بين الشعب . انه في ريعان الصبا ، جميل وذكي . وهو الذي اقترح إصدار صحيفتكم ، وهو الذي دلَّ ميخائيلو إيفانوفيتش على الصراط المستقيم مع ان ميخائيلو يكبره سناً بمرتين . وعما قريب سوف يدينون ابني ، ويرسلون بـــه الى سيبيريا . ولكنه سيهرب ، ويعود الى هنا ليتابع العمل .

وبينما هي تتكلم ، كان إحساس الخلاء ينمو باستمرار في صدرها ، خالقاً صور بطل تتطلب التعبير عنها في عزم وعناد . كان من الضروري بالنسبة اليها ان ترسم لوحة من النور والعقل تعيض عن ظلمة ذلك النهار الذي كان شاهده عليه ، تلك الظلمة التي ما برحت فظاعتها السخيفة ووحشيتها الوقحة تسحقانها تحت نيرهما الثقيل . ولذلك راحت ، وهي تخضع دون وعي منها الى حاجة طبيعتها السليمة ، تكتتّل كل ما رأت من نيّر وطاهر في لهب واحد يعميها بريقه الخلاب .

– ثمة كثيرٌ من الناس الآن على شاكلته ... وكل يوم يولد منهم عدد جديد . ولسوف ينافحون حتى نهاية حياتهم في سبيل الحرية والحقيقة ...

وراحت ، وقد نسيت كل حيطة وحذر ، وان لم تذكر مع ذلك أية أسماء على الاطلاق، تروي كل ما تعرف عن ذلك العمل السري الجاري في سبيل تحرير الجماهير من أصفاد الشجع . وبينا هي تصف أناساً أعزاء على قلبها ، طفقت تسكب في كلماتها تلك القوة العظيمة ، وذلك الفيض من المحبة التي أيقظتها فيها آلام الحياة ومصائبها . وكانت ، هي نفسها ، تنظر في بهجة الى أولئك القوم الذين يهبّون أمام عيني مخيلتها يضيئهم نور عاطفتها ويجددهم .

– وهذا العمل يجري في سائر أنحاء الارض ، في سائر المدن يقوم به أناس طيبون في كل مكان ... لا حدود له ، ولا مقاييس ، وهو ينمو أبداً ، ولن يبرح ينمو حتى تحلّ ساعة انتصارنا ...

كان صوتها يسبح بثبات ، وهي لا تجد صعوبة في العثور على الكلمات ، فتجمعها مثل حبات من اللؤلو المتعدد الألوان في خيط متين من الرغبة اللاهبة في تطهير قلبها من دم ذلك النهار وطينه . كانت ترى ان هؤلاء الفلاحين يبدون وكأنهم قد رسوا في أماكنهم بفعل ما ترويه لهم ، فهم يشخصون اليها بثبات حتى لا حراك بهم . وكانت تسمع تنفس المرأة المتلاحق الى جانبها فيقوي ذلك كله إيمانها بما تقول وبما تـَعِدُ به هؤلاء الناس .

– جميع أولئك الذين يحيون حياة شاقة ، جميع أولئك الذين أتلفهم العنف والحاجة، جميع أولئك الذين حُرموا من حقوقهم من قبل الأغنياء، جميع أولئك سيذهبون قدُماً وينضمون الى الذين يفنون في السجن من أجلهم ويواجهون العذاب والموت في سبيل الشعب ... انهم يدلون ، دون ان يفكروا بأنفسهم مطلقاً ، على طريق السعادة للشعب بأسره . ودون أية محاولة للخداع والكذب يقولون : صعبة وشاقة هي الطريق . وليسوا يجبرون أحداً على سلوكها ...

ولكن المرء حينما يأخذ مكانه مرة الى جانبهم ، فلن يتركهم بعد ذلك قط ، إذ يدرك أو ذلك هو الحق ، وتلك هي الطريق ، وليس من سبيل آخر .

كانت سعيدة بأن تصنع أخيراً ما تمنّت دائماً صنعه : إنها هي نفسها تروي الحقيقة للشعب ...

– إن بسطاء الناس ليسوا في حاجة للقلق والتردد أن يرافقوا هؤلاء القوم . هؤلاء لن يرضوا بالشيء اليسير ، ولن يقفوا قبل القضاء على كل خداع ، وكل جشع، وكل شر ... ولن يكتفوا أيديهم حتى ينضم اليهم الشعب بأسره ، ويصيح بصوت واحد : أنا هو السيد ، ولسوف أصنع أنا قوانين تكون سواء بالنسبة الى الجميع .

إذا أحست التعب ، توقفت عن الكلام ، وتطلعت فيما حولها ، وثقتها ثابتة في أن كلماتها لن تذهب عبثاً . وظل الفلاحون يرمقونها بأنظارهم ، منتظرين شيئاً آخر . وصلّب بيوتر ذراعيه فوق صدره ، وضيّق فرجـــة عينيه ، بينما تطاولت ابتسامة ضالة تتيه على شفتيه . أما ستيفان فكان يستند الى المائدة بأحد مرفقيه وإن كان جسده بأسره منعطفاً الى الأمام فكأنه لما يزل منصتاً . وكان وجهه يختبىء في الظل فيبدو لذلك وقد اكتمل نوعاً ما . أما زوجته الجالسة الى جانب الأم ، فكانت تعتمد ركبتها بالمرفقين ، وهي تمعن النظر الى أرض الكوخ. وتمتم بيوتر ، وهو يجلس متماهلاً على الدكة :

– كذلك هي المشكلة !

وانتصب ستيفان ، وأقنع بصره نحو زوجته ، فتح ذراعيه فكأنه يريد ضمّ الحاضرين جميعاً .

قال متفكراً :

– إذ بدأ المرء مرة هذا النوع من العمل، فلا ريب أنه سيهب له نفسه كلها...

فقال بيوتر في حناء :

– نعم ، الحقيقة ! فليس من مجال ليتطلّع الى الخلف .

وتابع ستيفان :

– يبدو أن العمل يسير على نطاق واسع .

فأضاف بيوتر :

– على نطاق عالمي .

١٨

استندت الام الى الجدار ، وألقت برأسها خلفاً ، مصغية الى كلماتهم الهادئة الثقيلة . ونهضت تاتيانا واقفة ، وأشخصت البصر فيما حولها ، ثم عاودت الجلوس ، وفي عينيها الخضراوين بريق بارد ترمق به الفلاحين في ازدراء واستياء .

التفتت صوب الأم بغتة ، وقالت :

– يخال لي أنك عرفتِ آلاماً كثيرة في حياتك ؟

فأجابت الأم :

– صدقت .

– أحبُّ أن أسمع إليك تتحدثين ، فكلماتك تضرب على أوتار القلب مباشرة . عندما أصغي إليك أفكر : أواه ، يا إلهي ، اي شيء لا أعطي كي ألقي ولو نظرة خاطفة على مثل هؤلاء الناس الذين عنهم تتحدثين ! وعلى مثل تلك الحياة ايضاً ! كيف نعيش ههنا ؟ مثل قطيع من الغنم ، تلك هي حقيقتنا ! انا مثلاً ، انا اعرف كيف أقرأ وأكتب ، وكثيراً ما أطالع وأفكر ايضاً ... وإني لا أنام الليالي في بعض الاحيان لكثرة التفكير . لكن ما جدوى ذلك ؟ إذا توقفتُ عن التفكير ، ذبلتُ وفنيتُ في سبيل لا شيء على الاطلاق . واذا تابعت التفكير ، فمن أجل لا شيء ايضاً .

كانت تتكلم وفي عينيها هزء وسخرية يبدو أحياناً انها تعضُّ الكلمات عضاً



« ولن يقفوا على كل خداع وكل جشع وكل شر »

كما تفعل بسلك من المعدن بين أسنانها . ولم ينبس الفلاحان ببنت شفة . وكانت الريح تداعب زجاج النوافذ ، وتهمس بعذوبة في المدخنة ، وتنفخ القش الملقي على السطح وتخشخش فيه . وكان كلب يعوي في مكان ما ، ومن حين لآخر تقع قطرة من المطر ، مرغمة ، على النافذة فتقرع زجاجها قرعاً لطيفاً . وارتعش نور المصباح ، وقد خبا حتى كاد ينطفىء ، كي يعود فيستعيد الحياة منتعشاً ، ويستمر في اللهيب متألقاً ثابت الشعلة .

— وقتما سمعتك تتكلمين أخذت أفكر وأفكر : هذا شيء جدير الحياة

في سبيله ! وانه لغريب حقاً ... اني أدرك ، وأنا أصغي ، اني أعرف كل هذا. ولكني لم أسمع شيئاً مثلا له من قبل قط ... كما ان مثل تلك الأفكار لم تراودني ابداً ...

فقال ستيفان متثاقلا ، وهو يعقد ما بين حاجبيه :

– الأفضل أن نتناول شيئاً نمسك به رمقنا . وينبغي أن نطفىء المصباح ، يا تاتيانا ... فقد يلاحظ الناس أن النور في بيت آل شوماكوف يضيء أكثر من المعتاد هذه الليلة ، وذلك سواء بالنسبة إلينا ، ولكنه قد يؤذي ضيفتنا ...

فنهضت تاتيانا وسعت إلى الموقد . وابتسم بيوتر ، وقال :

– أجل ، فلا بدّ لنا من مراقبة خطواتنا هذه الايام ، ايها الجار ! وعندما تظهر الصحيفة بين الناس ، فسرعان ...

– لست أفكر في نفسي . فاذا اعتقلوني ، فلن تكون الخسارة كبيرة .

فاقتربت زوجته من المائدة ، وقالت :

– ابتعد !

فنهض، وفصَل جانباً، وراح يراقبها تهيىء المائدة . قال، وابتسامة ساخرة تتحايل على مرشفيه :

– أنتم وأنا، يا اخوتي، لا تساوي الباقة منا اكثر من خمسة كوبيكات وذلك عندما يكون مائة عنا في كل باقة ايضاً .

رثت الام له ... كانت محبتها له تزداد بمقدار ازدياد معرفتها به . وأحسّت الارتياح من عبء ذلك النهار القذر بعد حديثها ، وكانت راضية عن نفسها ، تريد الخير العميم لسائر الناس على الاطلاق . قالت :

– انك لعلى ضلال ، يا صاحبي . ينبغي ألا تقبل الثمن الذي يسعّرك به

أولئك الذين لا يفعلون سوى امتصاص دمائك . يجب ان تدرك قيمتك جيداً ، وان تضع بنفسك ثمن ما في باطنك ، ثمن أصدقائك لا ثمن أعدائك .

فهتف الموجيك بصوت خافت :

– أي أصدقاء لنا ؟ انهم أصدقاء – حتى نبدأ القتال من أجل اول كسرة خبز حقيرة .

– أؤكد لك ان لعامة الناس أصدقاءهم .

– ربما ، ولكن ليس هنا . وتلك هي المشكلة !

– ولِمَ لا تفتشون عن أصدقاء هنا ؟

فروّأ ستيفان لحظة قبل ان يجيب :

– بلى ، ذلك ما يجب ان نفعل .

وقالت تاتيانا تدعوه :

– اجلس ، فالعشاء جاهز .

واستعاد بيوتر مرحه ، أثناء العشاء ، بعد ان اضطرب ، على مـــا يظهر ، بفعل ما روت الام له . قال :

– عليك الانطلاق باكراً في الصباح ، يا أماه ، حتى لا تلفتي انتباه احد . فتركبين مباشرة حتى المحطة الثانية دون ان تمري بالمدينة . خذي عربة البريد .

فقال ستيفان :

– ولِمَ ذلك ؟ سأقودها بنفسي .

– كلا ! ينبغي ألا تفعل . ماذا لو سألوك : « هل قضيت الليل عندك؟»... « نعم ، لقد فعلت » ... « وأين هي الآن ؟ » ... « لقد قدتها الى المحطة »... « ها ها ! اذن فأنت من ساعدَها على الفرار ؟ » ... وهكذا يجرونـــك الى

السجن . ولكن لا حاجة تدعو الى الاسراع في الذهاب اليه ، بل كل شيء يأتي في موعده المحدد ، وحتى القيصر نفسه يموت آونة تدقُّ ساعته ، كما يقول المثل. أما الآن ، فهي قد قضت الليل هنا بكل بساطة ، ثم استأجرت بعض الجياد ورحلت . كثيرون هم الذين يقضون الليل هنا باعتبار ان قريتنا تقع على الطريق الرئيسية .

فاستقصت تاتيانا في سخرية :

– ومن اين تعلمت ان تخاف هكذا ، يا بيوتر ؟

فهتف بيوتر ، وهو يلطم ركبته :

– علينا إتقان الامور ، ايتها الجارة؛ علينا معرفة متى نخاف ومتى نشجع . تذكر كيف أساءوا معاملة فاجانوف بسبب تلـــك الصحيفة . أنت لن تقنعيه بتناول كتاب بين يديه مرة أخرى ، لا محبة ولا إغراء بالمال . ولكنك تستطيعين الثقـــة بي ، يا أماه ، فأنا محتال ماكر كما يعترف الجميع بذلك ، وسأوزّع تلك الصحف والمناشير التي حملتِ ، مهماتك كثيرة ، في الأماكن التي يجب أن توزّع فيها . صحيح أن قومنا أمّيون في الغالب وجبناء ، ولكن هذه الأيام تجبر المرء على أن يفتح عينيه واسعتين ، ويتساءل عن الأسباب والنتائج . وهذه المناشير تقول الجواب ببساطة عظيمة ، والمشكلة كلها تتطلب قليلاً من التفكير فان اثنان زائد اثنان تساوي اربعة . ويحدث أحياناً أن الأميين يفهمون أكثر من المتعلمين ، وخاصة إذ كان المتعلمون غير جائعين . لقد سافرت كثيراً حول هذه الأماكن ورأيت أموراً عديدة . ونحن نستطيع أن نتدبر الأمور على أفضل وجه ، ولكن ينبغي لنا من أجـــل ذلك أن نُعمل فكرنا ، وأن نكون يقظين حتى لا نتعثر منذ البداية . والسلطات ، فيما يبدو ، تشتم أن الفلاح قد تبدل ، ولم يعد كما يجب أن يكون . لقد كفَّ عن الابتسامة ، ولم يعد لطيفاً تجاههم ، فكأنه بصورة عامة يريـــد التخلص من السلطات . وبالأمس جاؤوا يجمعون الضرائب في سموليا كوفو – وهي قرية قريبة من هنا – ولكن الفلاحين هبوا على قوائمهم

الخلفية ومجارفهم في أيديهم ، فقال لهم رئيس الشرطة دون لفّ أو دوران . « وهكذا فانكم تثورون ضد القيصر ، يا أبناء الكلاب ! » . فقام واحد من الفلاحين واسمه سبيفاكين، وقال رداً عليه : « فلتذهب الى الجحيم أنت وقيصرك جميعاً . ما هذا القيصر الذي يختطف منا آخر قميص نكسو به أجسادنا ؟ » . أترين الى أي حد وصلت الامور ، يا أماه ؟ ولقد قبضوا بالطبع على سبيفاكين ورموا به في السجن ، ولكن كلماته بقيت ، بل الاولاد أنفسهم يتذكرن ما قال ويرددونه . إن كلماته تعيش وتصرخ ...

ولم يأكل شيئاً ، بـــل تابع يتكلم في همس سريع ، محملقاً بجرأة فيما حوله بعينيه السوداوين الخبيثتين ، ناشراً امام الام بسخاء كثير ملاحظاته عن حياة الفلاحين ، فكأنه يفرغ كيساً فيه قطع النقود النحاسية الصغيرة .

وقاطعه ستيفان مرتين ليقول :

– هلا طعمت شيئاً ؟

وفي كلتا المرتين تناول بيوتر كسرة من الخبز وملعقته ، ثم استمر يروي قصصه بطلاقة بلبل ينشد إحدى الاغنيات وعندما انتهى العشاء قفز على قدميه فجأة ، ونبر :

– حسناً ، لقد آن لي ان أعود الى البيت ! الى اللقاء ، يا أماه !

وأضاف ، وهو يصافحها :

– ربما لن نلتقي مرة أخرى ، ولكني أريدك ان تعلمي اني أعتبر كل هذا رائعاً للغاية ... رائعاً ان ألقاك وأستمع إليك ! أثمة شيء آخر في حقيبتك تلك الى جانب الصحيفة ؟ وشاح من الصوف ؟ حسناً ، وشاح من الصوف ، تذكر ذلك ، يا ستيفان . لسوف يعود إليك بحقيبتك في لحظة واحدة فقط . هيا بنا، يا ستيفان الى اللقاء ، وحظاً سعيداً !

أصبح ضجيج الصراصير مسموعاً بوضوح بعد رحيلها ... وكذلك عصف الريح فوق السطح... وزمجرتها في المدخنة ... وقرع المطر الرتيب على زجاج النافذة ... وهيأت تاتيانا سريراً للأم من أغطية تناولتها من خزانة صغيرة في السقيفة ، ونشرتها على الدكة .

قالت الام :

– انه فتى مدهش .

– انه يثير كثيراً من الضوضاء ، ولكنه لا يذهب أبعد من ذلك !

– وماذا عن زوجك ؟

– انه رجل طيب . لا يشرب الخمر أبداً . ونحن سعيدان معاً . ولكنه ضعيف الشخصية ...

وانتصبت ، ثم قالت بعد صمت قصير :

– ماذا ينبغي ان نفعل الآن ؟ أفلن يثور الشعب ؟ بالطبع سيثور . هذا ما يفكر فيه كل انسان ، ولكن كل انسان يفكر فيه بينه وبين نفسه ، في حين يجب ان يفكر فيه على رؤوس الاشهاد... بيد انه لا بدّ من شخص يخطو الخطوة الاولى .

وجلست على الدكة ، وسألت فجأة :

– لقد قلت ان طبقة من النبلاء يشتركن في هذا العمل . يختلطن بالعمال ويقرأن لهم ... أفلا يضقن بذلك ذرعاً ؟ أفلا يخفن ؟

وأرسلت زفرة عميقة بعدما أصغت بانتباه الى جواب الام ، ثم أطرقت بعينيها وطأطأت رأسها ، وهي تتابع :

– لقد وقعت في بعض الكتب على هذا التعبير : «حياة عديمة المعنى» !

أوه ، لقد فهمت ما يعني ذلك تماماً ، منذ الوهلة الاولى ، اذ اني اعرف تلك الحياة حق المعرفة . ان المعاني موجودة هناك ، لكنها غير مترابطة ... مثل الخراف دون راع ، ودون من يجمعها الى بعضها البعض . تلك هي الحياة العديمة المعنى . بودي ان اهرب منها دون ان التفت الى الوراء ولا مرة واحـــدة لو أستطيع ... كل شيء مؤلم لا يطاق وقتما تدركين الحقيقة .

واستطاعت الام رؤية ذلك الالم في البريق الجاف الذي تشع به عينا المرأة الخضراوان ، وفي وجهها الناحل ، وفي جرْس صوتها . وأرادت ان تلاطفها وتعزيها :

– إنك تفهمين ، أنت ، ما يجب عمله ، يا عزيزتي ...

فقاطعتها تاتيانا بصوت رقيق :

– ولكن ينبغي لك ان تعرفي كيف تعلمينه . سريرك جاهز الآن .

وذهبت حتى الموقد حيث وقعت منتصبة القامة ، ساكنة الحركات ، غارقة في لجة من التفكير . واستلقت الام في فراشها دون ان تخلع ثيابها ، وعظامها تشكو الاعياء فتئن بصوت خافت . وأطفأت تاتيانا المصباح ، حتى اذا غمرت الظلمة الكوخ راحت تتحدث بنغمة خفيضة ثابتة ، فيتردد صوتها كأنه يمحو شيئاً ثقيلاً عن وجه العتمة العريض .

– أرى انك لم تصلي ، وانا ايضاً لا أؤمن بالله ، ولا بالعجائب .

وتقبلت الام في الاضطراب على الدكة . كانت هاوية الليـــل العديمة القرار تشخص اليها من خلال النافذة ، بينا تزحف في الديجور أصداء خافتة ضئيلة حتى أذنيها . وتكلمت دون خوف ، في شبه همس تقريباً :

– أما فيما يتعلق بالله ... فلا أعلم . ولكني أؤمن بالمسيح ، وإني أؤمن بكلماته : أحبب قريبك كنفسك . وإني أؤمن بهذا .

ولم تحر تاتيانا جواباً. كانت الام تميز حدود جسدها الغامضة المرتسمة رمادية

اللون على جدار الموقد الاسود وراءها ، وهي جامدة لا تأتي نأمة على الاطلاق . وأغلقت الام عينيها في أسف . ولكنها سمعت المرأة تقول بغتة بصوت بارد :

– لن أستطيع ابداً الصفح عن الله او الانسان من اجل موت ولديّ ... ابداً .

فأنهضت بيلاجيا نفسها بقلق ، وروحها مدركة ذلك الأذى الفائق الذي يرنّ بمثل هذه الكلمات . قالت في لطف :

– أنت ما برحت صبية ، ولسوف ترزقين أولاداً آخرين .

ولم تردّ المرأة مباشرة ، وعندما أجابت كان حديثها همساً :

– أبداً . لم اعد انفع لذلك ، والطبيب يقول اني لن استطيع بعد الآن ان أحمل .

عدت فأرة عبر الغرفة ... ورنّ صوت مرتفع حطم السكون مثل برق خاطف ... وعلا مرة اخرى صدى سقوط المطر على السطح ... وهي تعبث بالقش كما تفعل أصابع نحيلة رهيبة . وكانت قطرات الماء تسّاقط على الارض في وجوم ، تحصي دقائق تلك الليلة الخريفية .

وسمعت الام ، وهي تغفو ، صدى وقع اقدام ثقيلة في الطريق ، اقتربت حتى بلغت عتبة الباب ، ثم فُتح هذا بحذر وتردد صوت من خلاله :

– أنت نائمة ، يا تاتيانا ؟

– كلا .

– أهي نائمة ؟

– فيما يبدو .

وانبثق نور تأرجح لحظة ثم اختنق في الظلمة . وأطفّ الفـــلاح من فراش الام وأصلح من وضع الغطاء الملقى على قدميها . فتأثرت الام من بساطة عنايته

وأغلقت عينيها مرة أخرى وهي تبتسم . وخلع ستيفان ثيابه دون ان يقول شيئاً ، ثم زحف الى السقيفة . وخيم الهدوء مطلقاً .

استلقت الام دون حراك ، تنصت في انتباه الى تموجـــات الظلمة الحالمة ، وأمام عينيها يتراقص وجه ريبين الدامي .

وجاءها من السقيفة صدى وشوشة خافتة :

– هل ترى أي قوم يساهمون في هذا العمل ؟ شيوخ عملوا طوال حياتهم وشربوا كأس الآلام حتى الثمالة . وقد آن لهم ان يرتاحوا أخيراً . ولكن إليك مـــا يفعلون بدلاً من ذلك . أنت فتى بعد ، وذكي الى ذلك ... أواه ، يا ستيفان ! ...

فأجاب صوت الموجيك ، عميقاً ثرياً :

– يجب ان نفكر في ذلك جيداً ...

– لقد سمعت هذا منك فيما سبق .

وانقطع الصوتان برهة ، ثم تابع ستيفان :

– إليك كيف يجب ان نبدأ ... أولاً نتحدث الى الفلاحين ، كلّ على انفراد – ألكسي ماكوف مثلاً – انه متعلم عاقل ، وناقم على السلطات . وسرجي شورين فلاح ذكي ايضاً . اما كينيازيف فشريف غير هياب . وهذا يكفي من أجـــل البداية . ولا بدّ لنا من إلقاء نظرة على القوم الذين تحدثت عنهم . سوف آخذ فأسي وأذهب المدينة ، فكأني أريد ان أربح بعض المال الاضافي بتكسير الحطب ... علينا ان نكون حذرين . لقد كانت على حق عندما قالت ان المرء يجب ان يدرك قيمته ، مثل ذلك الموجيك اليوم ، فهو لن يخضع حتى ولا للاله ذاته . ولكن ما رأيك بنيكيتا ذاك ؟ لقد خجل من نفسه ... حسناً جداً !

– لقد ضربوا رجلاً أمامكم وتحت أنوفكم ، وأنتم لم تفعلوا شيئاً سوى التطلع الى ذلك بأفمام فاغرة .

– مهلاً ، مهلاً ! يجب ان تفرحي اذ لم نقم نحن أنفسنا بالتنكيل به ، ذلك الرجل .

واستمر يهمس فترة طويلة ، وهو يخفض صوته احياناً فلا تستطيع الام التقاط كلماته ، ويتحدث في احيان اخرى بصوت عميق واضح النبرات . وعندئذ توقفه زوجته عند حده :

– صَهْ ، سوف توقظها !

واستغرقت الام في نوم ثقيل هبط عليها مثل سحابة شاسعة الابعاد غمرتها وجرفتها في تيارها .

وأيقظتها تاتيانا والفجر الرمادي يطلُّ من النوافذ وهو ما برح أعمى العينين. وكان ناقوس الكنيسة يقرع إيذاناً بانتهاء حراسة الليل .

– لقد أضرمت نار السماور ، فتناولي قبلاً قدحاً من الشاي يدفئك ، وإلا جمدت أطرافك من البرد اذا رحلت أثر نهوضك من النوم مباشرة .

وبينا كان ستيفان يمشط لحيته الشعثاء ، سأل الام عن مدينتها وعنوانها . خيل إليها ان وجه الموجيك قد نضج خلال الليل ، وأصبح أكمل نوعاً ما .

قال ضاحكاً ، وهم يحتسون الشاي :

– ما أغرب ان يتمّ ذلك على هذا الغرار !

فسألت تاتيانا :

– ماذا ؟

– تعارفُنا بمثل هذه البساطة ...

فقالت الام متفكرة :

– ثمة بساطة مدهشة في كل ما يتعلق بعملنا .

ودّعاها في هدوء ، دون إسراف في الكلام او العواطف ، وان أظهرا اهتماماً كلياً براحتها تجلى بألف عناية صغيرة ، او تحذير رقيق ، او توصية عابرة.

وعندما اقتعدت كرسي عربة البريد راحت تفكر في كيف سيبدأ ستيفان عمله بحذر وتواضع مثل خلد أرضي ، ولكن دون ان يكلّ او يتعب أبداً ، بل ستترن شكاوى زوجته في أذنيه دون انقطاع ، وستلتمع عيناها الخضراوان على الدوام بذلك اللهب الذابل ، ولن تتحرر قط من ذلك الحزن المتعطش الى الانتقام ، الذئبي الشرس ، حزن أم على أولادها الذين ماتوا .

وتذكرت ريبين ... تذكرت دماءه ، ووجهه ، وعينيه الملتهبتين ، وكلماته فانقبض قلبها باحساس مرير من العجز تجاه الوحشية الزاحفة في قسوة لا ترحم. ولم تبرح صورة ميخائيلو منتصبة أمام عينيها طوال طريق العودة الى المدينة ، مرتسمة على قرار ذلك النهار الاسود القاتم : انها ترى لحيته السوداء الشاعثة ، وقامته المتينة في قميصه الممزق، ورأسه الجريح، ويديه المعقودتين خلف ظهره... تراه رجلاً طافحاً غضباً ، مفعماً إيماناً بالحقيقة التي يذود عنها . وفكرت الام في القرى التي لا يحصى عددها ، الرابضة في تواضع جم على وجه البسيطة ، وفي الناس الذين ينتظرون سراً حصول العدالة ، وفي آلاف البشر الذين يقضون حياتهم كلها في عمل عديم الجدوى، دون ان يعترضوا عليه، او يأملوا بما هو أفضل.

وتصورت الحياة حقلاً صخرياً صلْداً غير محروث ، ينتظر في سكون ، ولكن في لهفـــة ، الحارث الذي يقلب أحشاءه ، وهو يقول فيما يبدو للناس الاحرار الشرفاء :

– ازرعوني ببذور الحقيقة والعقل ، وسأردُّ لكم أتعابكم مائة ضعفاً .

واذ تذكرت العمل الذي تُوِّجَ به عملها الخاص ، غمرها خفقان من الفرح كبلته في كثير من الحياء والخجل ...

١٩

استقبلها نيقولاي على عتبة الباب ، مشعث الشعر ، يحمل كتاباً في إحدى يديه ، وصاح مبتهجاً :

– عدتِ ؟ إنك لسريعة حقاً !

وراحت عيناه تطرفان باستمرار وراء نظارتيه ، وهو يساعدها على خلع معطفها ويحدجها بابتسامة مغرمة . قال :

– لقد فتشوا بيتنا الليلة الفائتة فخفت ان يكون اصابك مكروه . ولكنهم لم يعتقلوني . لو كنت اعتُقلتِ لأخذوني انا الآخر بكل تأكيد .

وقادها الى غرفة المائدة ، وهو يتابع حديثه باندفاع :

– مما لا ريبة فيه اني سأفقد وظيفتي ، ولكن ذلك لا يزعجني على الاطلاق. لقد املّني الجلوس الى مكتب احصي عدد الفلاحين الذين لا يملكون جواداً .

كانت الغرفة تبدو وكأنها عملاقاً جباراً ، اخذه جنون مفاجىء ، قد هزّ جدران البيت حتى انقلب عاليه سافله ، فالصور ملقاة على الارض ، واوراق الحيطان منزوعة في بعض الاماكن ومتدليــة مثل الأشرطة في الهواء ، وفي إحدى الزوايا من ارض الغرفة عارضة مقتلعة ، وإطار النافذة مخلوع من مكانه ، ورماد كثير منتثر بالقرب من الموقد . وهزّت الام رأسها لدى رؤية هذا المشهد

المألوف ، ونظرت الى نيقولاي ملياً وهي تحسّ شيئاً جديداً عليها في وجهه الهادىء .

كان السماور الفارغ يقبع على المنضدة وبجانبه صحون كثيرة وسخة وقليل من الجبن واللحم المقدّد الذي ما برح جاثماً في الاوراق التي اشتُري فيها . وكان غطاء المائدة مغطى بالكتب وفتات الخبز والرماد المتساقط من السماور . حملقت الام في كل هذه الاشياء ، وارسلت ضحكة قصيرة . وكذلك ابتسم نيقولاي مضطرباً ، وقال :

– بالطبع أضفتُ حصتي الى الفوضى الشاملة ، ولكن لا بأس في ذلك ، يا نيلوفنا . لقد فكرت انهم سيعودون من جديد ، ولذلك لم أرفع شيئاً من كل هذا . حسناً ، حدثيني عن رحلتك .

وقع السؤال ثقيل الوطأة على قلبها ، وهبّت من جديد صورة ريبين أمام عينيها ، فاستاءت من نفسها اذ لم تتحدث عنه فــوراً . انحنت نحو نيقولاي وبدأت تقدم له تقريرها ، محاولة الاحتفاظ بهدوئها ، وعدم حذف شيء من روايتها مطلقاً .

– لقد اعتقلوه ...

– حقاً ؟

قــال نيقولاي ذلك وقد اختلج وجهه ، فأوقفته الام باشارة من يدها ، وتابعت الحديث فكأنها في حضرة العدالة نفسها تحتجّ اليها على ذلك التعذيب الذي شاهدت كائناً بشرياً يُسامه واستلقى نيقولاي الى الخلف في مقعده يصغي شاحب الوجه ، وهو يعضّ شفته طوال الوقت . ورفع نظارتيه في تماهل ، ووضعها على المائدة وامرّ يده على وجهه ، فكأنه يمسح عنه شبكة عنكبوت غير منظورة . واحتدت سيماؤه بغتة وقست ، وبرز عظما وجنتيه بشكل غريب وراح خيشوماه يرتعشان دون انقطاع. ان الام لم تره قط على مثل تلك الحال... ولقد ذعرت منه .

ولما انتهت من قصتها ، نهض وراح يقطع ارض الغرفة رائحاً غادياً وقـــد دفع قبضتيه عميقاً في جيبيه . غمغم من خلال اسنانه المنطبقة :

– انه شخص عظيم وربي ، ولسوف يصعب السجن عليه ، فالناس الذين على شاكلته يجدون ذلك قاسياً .

ولم ينِ عن دفع قبضتيه اكثر فأكثر في جيبه كي يلطـّف من حدة هياجه ، ولحظت الام حالته وادركتها . وراحت عدوى انفعاله تنتقل اليها شيئاً فشيئاً . ضيق فرجة عينيه حتى اصبحتا اشبه بحد الموسى ، وقال مرة اخرى في غضب بارد ، وهو يتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً :

– تصوري فظاعة ذلك ! ثمة قبضة من الافراد الحمقى قد تملكهم الجنون في سبيل الاحتفاظ بسيطرتهم على الشعب، فأخذوا يضربون كل الناس، ويخنقونهم ويسحقونهم . ان البربرية تسيطر ، والوحشية تصبح قانون الحياة.. فكري في ذلك فقط ! بعضهم ينكـّلون بالناس ، ويتصرفون فكأنهم حيوانات مفترسة ، اذ يعرفون انهم وراء القانون يتجاوزون حدوده ، همُ مرضى بعطش دنيء الى التعذيب ... هذا الداء المنفـّر الكريه يُغني العبيد الناعمين بحرية إطلاق العنان لأهوائهم العبودية وعاداتهم الحيوانية . وآخرون قد تسمموا برغبة الانتقام ، وثمة آخرون ايضاً قد ُصمَّت آذانهم وتوحشت نفوسهم لكثرة ما نالوا من جلد وضرب . لقد فسد البشر جميعاً .

وتوقف برهة ، ومال الى الصمت وهو يحرّق الارمّ .

– المرء يصبح متوحشاً رغم انفه في هذه الحياة المتوحشة .

إلا انه انتصر على انفعاله، واستدار الى الام الباكية هادئاً كل الهدوء تقريباً، وفي عينيه بريق ثابت :

– يجب الا نضيع الوقت ، يا نيلوفنا ! هلا تمالكنا انفسنا ، ايتها الرفيقة العزيزة ...

وذهب اليها متربعة على شفتيه ابتسامة كئيبة ، واستوضح وهو يضغط على يدها :

– اين حقيبتك ؟

– في المطبخ .

– ثمة جواسيس قد اتخذوا مراكزهم عند بوابتنا ، فلا نستطيع أن نرسل من الدار شيئاً كثيراً من غير أن يلاحظوا ذلـــك ، كما ليس لدينا مكان تخفي البضاعة فيه . وأعتقد أنهم سيأتون هذه الليلة أيضاً ليتحروا البيت مرة أخرى ، ولذلك لا بدّ لنا ، مهما يكن من مدعاةٍ للأسف ، أن نحرق كل شيء .

– أي شيء ؟

– ما في الحقيبة .

فهمت الأم . فلم تقدر ، رغم كآبتها العظيمة ، منع شفتيها عن ابتسامـــة اعتزاز بما حققت ، قالت ، وهي تنتعش رويداً رويداً إذ تروي له لقاءها مع شوماكوف .

– ليس في الحقيبة شيء على الاطلاق . حتى ولا قصاصة ورق واحدة .

عبس نيقولاي في البدء وهو يصغي شيء من القلق ؛ ويا سرعان ما علت وجهه ، بدل العبوس ، سيماء الدهشة والذهول حتى قاطعها أخيراً ، وهو يصيح في انفعال :

– هذا بديع بكل بساطة ! إنك لسعيدة الحظ بصورة تفوق التصور .

وأمسك بيديها يضغط عليهما ، وهو يهتف بصوت رقيق :

– إن لك لإيماناً مؤثراً في الشعب ... وإني لأحبك مثل أمي عينها !

فابتسمت وهي تراقبه في فضول ، متعجبة من انقلابه هكذا نشيطاً منفعلاً حتى هذه الدرجة . فرك يديه ، وضحك بعذوبة ، وهمهم :

– هذا ، على العموم ، شيء ممتاز . لقد قضيت وقتاً رائعاً في هـــذه الايام القليلة الاخيرة ... بين العمال طول الوقت ... اقرأ لهم واتحدث إليهم واراقبهم. ولقد امتلأ قلبي بشيء طاهر وسليم بصورة مدهشة للغاية . إنهم لقوم رائعون جداً في الحقيقة . أنا اتحدث ، يا نيلوفنا ، عن العمال الشباب ... هم أقوياء ، مرهفو الشعور ، متعطشون الى المعرفة . وعندما تنظرين إليهم ، تشعرين أن روسيا ستصبح يوماً ما أكثر البلدان ديمقراطية في العالم اجمع .

ورفع يده تأكيداً لذلك ، فكأنه يقطع على ذلك عهداً ، ثم تابع بعد صمت قصير :

– كنت اعيش سجيناً ههنا بين هـذه الكتب والوجوه العفنة . سنة كاملة قضيتها في مثل هذه الحياة ... يا للهول ! لقد نمَـوْتُ على العيش بين العمال ، وأحسُّ اما الآن فلسوف اعيش مثل رجلٍ حرٍّ طليق مرة أخرى ، لسوف اراهم طول الوقت وسأعمل معهم دون انقطاع . هل تفهمين ؟ سوف أكون عند مهد أفكار جديدة ، في حضور طاقة فتية فائقة العنف . إن ذلك لبسيط رائـــع بصورة مدهشة ، وهو دافع عظيم للعمل في الوقت ذاته . إنه يبعث في الانسان الفتوة والقوة . إنه لأسلوب في الحياة كثير الثراء .

وضحك سعيداً ، وهو لا يخلو من بعض الاضطراب في الوقت ذاته . وفهمت الأم فرحته وشاركته فيها .

هتف :

– وبالاضافة الى ذلك – أنت نفسك امرأة رائعة ... بأية حيوية تصفين الناس ، وما اكثر ما تجدين فهمهم وإدراكهم !

جلس بقربها ، وقد ادار اول وهلة وجهه المتألق جانباً وراح يسرح شعره إلى الوراء كي يخفق ارتباكه ، وما اسرع ان استدار إليها يرمقها بأنظاره وهي تعطيه تقريراً بسيطاً حياً عن تجاربها . هتف :

– يا له من حظ سعيد ! كان ثمة إمكانية كبرى كي تنتهي الى السجن ايضاً، ولكن بدلاً من ذلك ... بلى ، ان جميع الظواهر تشير الى ان الفلاحين قد بدأوا يستيقظون ... وان ذلك لطبيعي جداً . تلك المرأة – استطيع رؤيتها بوضوح مدهش ... يجب ان نعيّن اناساً خاصين بالعمل في القرية . الناس ! ليس لدينا كثرة منهم ! فنحن نحتاج الى المئات !

قالت الام بصوت خافت :

– آه لو كان بافل طليقاً ! ... واندريه ايضاً .

فاختلس النظر اليها ، وخفض عينيه :

– قد يصعب عليك ان تسمعيني اقول ذلك ، يا نيلوفنا ، ولكني اعرف بافل جيداً ، وانا على يقين من انه لن يفرّ من السجن ابداً انه يريد ان يقدّم الى المحاكمة ، يريد فرصة كي يبلغ شأوه كاملاً ، وهو لن يأبى مثل هذه الفرصة ابداً . ولمَ يرفضها ؟ لسوف يهرب من سيبيريا .

وتنهدت الام ، واجابت بصوت خفيض :

– حسناً أعتقد انه يعرف افضل ...

وقال نيقولاي بعد لحظة ، وهو يرمقها من خلال نظارتيه :

– اجل . اود ان يأتي فلاحك هذا سريعاً ويزورنا . لمن الضروري ان نكتب منشوراً عن ريبين الى الفلاحين ، وذلك لن يؤذيه تقريباً ، ما دام هو نفسه قد أعلن عن كل شيء بمثل تلك الجرأة . سوف أكتبه اليوم ، وستطبعه لودميلا على الفور ... ولكن كيف نوصل اليهم المناشير ؟

– سأحملها اليهم .

فهتف نيقولاي سريعاً :

– شكراً لك . لأتساءل ان كان فيزوفشيكوف يستطيع ذلك .

– هل أحدّثه بالامر ؟

– يمكنك ان تجرّبي ، وان تعلّميه كيف يفعل ذلك .

– وما عساي أفعل انا ؟

– لا تقلقي ، فسوف نجد لك عملاً .

جلس ليكتب ، فاسترقَّت النظر اليه وهي تنظف المائدة ، ترى الريشة كيف ترتجف في يده وهو يملأ الورقة بصفوف من الكلمات السود . وكانت عضلات عنقه تختلج احياناً، فاذا ألقى رأسه الى الخلف وأغمض عينيه استطاعت مشاهدة ارتعاش ذقنه . ولقد أقلقها ذلك .

قال اخيراً ، وهو ينهض :

– لقد انتهيت منه . خذي هذه الورقة واخفيها في مكان ما من ثيابك ... اذا جاء الدرك فسوف يفتشونك ايضاً .

فأجابت في هدوء :

– فليأخذهم الشيطان .

وجاء الطبيب إيفان دانيلوفيتش ذلك المساء . سأل ، وهو يتنقل بخطوات سريعة على طول الغرفة :

– ما الذي يقلق السلطات حتى هذه الدرجة على حين بغتة ؟ لقد فتشوا سبعة من المنازل في الليلة الماضية . اين مريضي ؟

فأجاب نيقولاي :

– لقد غادرنا البارحة . فاليوم السبت ، وهو لا يستطيع التغيب عن حلقته الدراسية .

– ذلك جنون ... ان يجلس في حلقة دراسية بقحف مكسور ...

ـ لقد بذلت ما في وسعي لاقناعه ، فذهبت جهودي أدراج الرياح .

فقالت الام :

ـ لا ريب انه يريد التباهي على رفاقه ... أنظروا إليّ ... لقد هدرت دمي منذ الآن .

فتطلع الطبيب اليها ، وقال :

ـ بر ـ ر ـ ر ... يا لك من مخلوق قاسي القلب .

ـ حسناً يا إيفان ، ليس ما يدعوك للبقاء ههنا . نحن نتوقع ضيوفاً ، فهيا اذهب . نيلوفنا ، أعطيه الورقة .

وصاح الطبيب :

ـ ورقة اخرى ؟

ـ ُخذْ ، ُخذْ هذه الورقة وأوصلها الى المطبعة .

ـ لقد أخذتها ، وسأوصلها الى حيث يلزم . أثمة شيء آخر ؟

ـ لا شيء مطلقاً . ان جاسوساً يقف هناك عند الباب .

ـ لقد رأيته . وثمة آخر عند بابي ايضاً . الى اللقاء ، ايتها المرأة الشريرة . وثقا ، ايها الصديقان ، ان القتال في المقبرة قد احسن الاثمار رغم كل شيء . فالمدينة بأسرها تتحدث عنه ، والكرّاس الذي كتبته عنه رائع جداً ، وجاء في وقته تماماً . رأيي على الدوام ان قتالاً حسناً أفضل من سلم رديء .

ـ حسناً ، هيا اخرج من هنا .

لا أستطيع القول انك مضياف ، يا صاحبي . يَدَكِ ، يا نيلوفنا . ذلك الصبي قد ارتكب فعلاً أحمق في الحقيقة ! هل تعرفان اين يقطن ؟

فأعطاه نيقولاي عنوانه ...

– سوف أزوره غداً . فهو فتى طيب ، أليس كذلك ؟

– كثيراً .

وتابع الطبيب ، وهو في طريقه الى الباب :

– يجب العناية به ، فان له رأساً طيباً فوق كتفيه . ان شباناً مثله سوف يؤلفون الانتيليجينزيا البروليتارية الحقة التي ستأخذ مكاننا عندما نغادر نحن الى تلك الشطئان حيث لا يوجد ، فيما يخال لي ، اية تناقضات طبقية .

– لقد أمسيت كثير الثرثرة في هذه الايام الاخيرة ، يا إيفان .

– ذلك ان معنوياتي عالية . وهكذا فأنت تنتظر الذهاب الى السجن ؟ أتمنى لك راحة جيدة !

– شكراً ، اني لا اشعر بالاعياء .

أصغت الام الى حديثهما ، وكانت مبتهجة باهتمامها بذلك الصبي المنحدر من الطبقة العاملة .

وعندما غاب الطبيب ، جلست الام ونيقولاي يتناولان الشاي ويتحدثان في هدوء بانتظار زوّارهما في الليل ... حدثها نيقولاي عن رفاقه في المنفى ، وعن أولئك الذين فروا منه وهم يتابعون العمل الآن تحت اسماء مستعارة . وكانت الجدران العارية تُرجّع كلماته ، فكأن اقاصيصه عن هؤلاء الابطال المتواضعين الذين يضحّون بأنفسهم لبناء عالم جديد تتجاوز التصديق فلا يُقبل او يُعترف بحقيقتها . وعانق الام ظلٌ رقيق وشملها في عطف ، يدفىء قلبها تجاه هؤلاء الناس المجهولين ، المنصهرين في مخيلتها في فرد واحد عظيم غير هيّاب يتحرك في تمهل على الارض ، ولكنه يتحرك في ثبات ويقين ، يكنس عنها عفن الاكاذيب القديمة قِدَم التاريخ كي يبين للشعب حقيقة الحياة الواضحة البسيطة . وكانت هذه الحقيقة الكبرى المتولدة ابداً دون انقطاع تدعو الجميع دون تمييز ، وتَعِدُ كلاً منهم بالتحرر من الجشع والحقد والكذب ، هؤلاء الابالسة الثلاثة المرهوبين

الذين يستعبدون العالم اجمع بقوتهم الدنيئة ... كانت تلك الصورة تثير فيها شعوراً أشبه بذلك الشعور الذي كانت تجثو به أمام الأيقونة كي تختتم نهاراً خالته أسهل من سواه . أما الآن فقد نسيت تلك الايام ، سوى ان الاحساس الذي كانت تثيره قد اتسع وانتشر ، وأصبح اكثر لمعاناً وفرحة ، يستقر أعمق فأعمق في روحها ، ويحترق بلهب اشدّ قوة وروعة .

وهتف نيقولاي بغتة :

ـ يبدو كأن الدرك لن يأتوا .

فأجابت الام ، وهي ترشقه بنظرة سريعة :

ـ فليأخذهم الشيطان ، وربي !

ـ صدقت ولكن حقّ لك الآن نيْلُ بعض الراحة ، يا نيلوفنا . أنت متعبة فوق كل حدود ان صدق حدْسي ، وليس من ينكر ان لك بنية متينة بصورة تذهل الالباب . كل هذه الاخطار والانفعالات ، وأنت لا تأبهين لها ... ولكن شعرك يشيب بسرعة كبيرة . حسناً ، اسرعي وتمتعي بقليل من النوم !

٢٠

استيقظت الام على قرع شديد ينهال على باب المطبخ . كان شخص يقرع الباب باستمرار مَنْ نفذ صبره وعناده، وكانت الظلمة والهدوء ما برحا يسودان كل شيء ، فاذا ذلك القرع العنيد يملأ العتمة الغبشاء بقلق شديد . وطرحت الام سريعاً على كتفيها اول شيء نالته يدها ، ودلفت الى المطبخ ووقفت عند الباب . سألت :

ـ من هناك ؟

فأجاب صوت غير مألوف :

ـ انا !

ـ مَن ؟

فتوسل الطارق بصوت خفيض :

ـ افتحي الباب .

فرفعت الام المزلاج ، ودفعت الباب بقدمها ، فمرق اغناطيوس من خلاله وصاح :

ـ وهكذا فأنا لم أخطىء .

كان ملطخاً بالوحل حتى خاصرتيه ، ووجهه رمادي اللون ، وعيناه غائصتين في محجريهما ، وشعره الجعد منبوشاً ينطلق من تحت قبعته في سائر الجهات .

همس ، وهو يغلق الباب :

ـ لقد وقعنا في كارثة .

ـ أعلم هذا .

فدهش الفتى لسماعه ذلك ... سأل ، وهو يطرف بعينيه :

ـ كيف عرفته ؟

فأوضحت له كل شيء باختصار ...

ـ هل اخذوا ايضاً ذينك الاثنين الآخرين ... رفيقيك ؟

ـ لقد كانا غائبين ، فهما مدعوان للخدمة . وقد ذهبا لتسجيل اسميهما . لقد اعتُقل خمسة ، بما فيهم العم ميخائيلو .

وارسل نفساً عميقاً ، واضاف وهو يطلق ضحكة قصيرة :

ـ وبقيت انا ، ولا ريب انهم يفتشون الآن عني .

ـ وكيف تدبرت امر الهرب ؟

وفُتح باب الغرفة المجاورة قليلاً ...

هتف اغناطيوس ، وهو يجلس على دكة ويتطلع حواليه :

ـ انا ؟ دقيقة او دقيقتان قبل مجيئهم فقط ؛ فقد ركض حارس الغاب وقرع نافذتي صائحاً : « إنتبهوا ، ايها الشجعان ، فهم يلاحقونكم » .

وضحك بصوت خافت ، وهو يمسح وجهه بمعطفه :

ـ حسناً ليستحيل التغلب على العم ميخائيلو في حال من الاحوال ، قال : « يا اغناطيوس ، إنطلق الى المدينة بأقصى سرعة . اتذكر تلك المرأة العجوز؟» وتابع ، وهو يكتب ورقة صغيرة اثناء حديثه : « اليك ، خـذها اليها » .

وهكذا زحفت في الحـــوش ، وسمعتهم بكل وضوح يقتربون . كانوا كثرة ، يزحفون من كل الجهات ، أولئك الشياطين ! ويحيطون بمكان عملنا من كل حدب وصوب ، انبطحت في الحرش فمروا بجانبي دون ان ينتبهوا إليّ ، وعنـــدئذ نهضت وطفقت امشي وامشي ما في وسعي . ولقد مضى عليّ في الطريق ليلتان ويوم كامل دون ان اقف او استريح .

كان يبدو انه مسرور بنفسه ، فيضيء ابتسامة عينيه كل وجهه ، بينا ترتجف شفتاه العارمتان الحمراوان دون انقطاع .

وقالت الام، وهي تتناول السماور :

ـ سأهيىء لك بعض الشاي في لحظة واحدة .

ـ إليك ، خذي الرسالة .

رفع قدمه بصعوبة جمة ، وهو يدمدم ويكشر ، ووضعها على الدكة . وفي تلك اللحظة ظهر نيقولاي في فرجة الباب ... قال ، وهو يزوّي ما بين عينيه:

ـ عِمْ مساء ، ايها الرفيق . اسمح لي ان اساعدك .

وانحنى فوق رجل اغناطيوس ، وشرع يرفع بسرعة قماطاتها الوسخة التي تعيض عن الجوارب ... صاح الفتى ، وهو يبعد رجله ويتطلع دهشاً الى الام :

ـ لا !

فقالت دون ان تلاحظ نظرته :

ـ يجب ان نمسّد له قدميه بالفودكا .

فأجاب نيقولاي :

ـ بالطبع .

وشخر اغناطيوس مرتبكاً حائراً ...

التقط نيقولاي الرسالة ، وسوّى ما أصاب الورقة الرمادية من غضون ، ثم رفعها الى قرب عينيه وهو يقرؤها . « لا تهملوا قضيتنا ، يا أماه . قولي لتلك السيدة الطويلة ألا تنسى ان تكتب عن قضيتنا اكثر من قبل ... ارجو ذلك . الى اللقاء . ريبين » . وأسبل نيقولاي ببطء يده الممسكة بالرسالة ، وغمغم :

ـ ما اروع هذا !

قعد اغناطيوس يراقبها ، وهو يحرك في حذر وعناية اصابع رجله العارية الوسخة . وجربت الام اخفاء الدموع في عينيها ... وهي تحمل وعاء من الماء وتجثو امامـــه وتمد يدها الى قدمه ... ولكنه صاح فزعاً ، وهو يدفع بقدمه تحت الدكة :

ـ لا ، ماذا أنت فاعلة ؟

ـ اعطني قدمك ، واسرع في ذلك .

وقال نيقولاي :

ـ سأجلب بعض الفودكا .

ولكن الفتى دفع قدمه اكثر فأكثر تحت الدكة ، وتمتم :

ـ ماذا تحسبان ؟ أأنا في مستشفى ؟

طفقت الام ترفع الخروق عن قدمه الاخرى . فشخر اغناطيوس بصوت مرتفع ، وهو يلوي عنقه مضطرباً ويتطلع الى الام .

قالت هذه بصوت مرتجف :

ـ لقد ضربوا ميخائيلو إيفانوفيتش .

فهتف الفتى في هدوء :

ـ حقاً ؟

ـ أجل ! لقد كان في حالة سيئة عندما جاؤوا به الى نيقولسكويه وهناك ضربه رقيب الشرطة ورئيسها ... على وجهه ... وانهالا عليه رفساً ... حتى غمر الدم جسده كله .

فقال الفتى عابساً ، وكتفاه يرتعشان :

ـ إنهم يعرفون كيف يفعلون ذلك . يعرفون جيداً . أنا اخاف منهم كما أخاف من ألف شيطان . هل ضربه الفلاحون ايضاً ؟

ـ لطمه واحـــد منهم عندما أمره رئيس الشرطة بذلك . ولكن موقف الباقين كان رائعاً ، لا بل وقف الى جانبه ايضاً ، وصاحوا بهم ان لا حقّ لهـــم في ضربه .

ـ كذا ؟ لقد بدأ الفلاحون يدركون من هم الذين يدافعون عنهم ، ولمـاذا يدافعون .

ـ ثمة أناس عاقلون بين الفلاحون أيضاً .

ـ ثمة أناس عاقلون في كل مكان . هي الحاجة تجعلهم على ما هم عليه . ونحن في حاجة إليهم ، لكن الصعوبة هي في العثور عليهم .

وحمـل نيقولاي زجاجة من الفودكا ، ودسّ قليلاً من الفحم في السماور ، ثم خرج دون أن يقول شيئاً . وكان أغناطيوس يرقبه في سكون . سأل الأم عندما أصبح نيقولاي خارج الغرفة ...

ـ من هو السيد ؟ ... طبيب ؟

ـ ليس سادة بيننا . كلنا رفاق .

فقال أغناطيوس ، وابتسامة تشير الى الارتباك والارتيـاب تتراقص على مرشفيه :

ـ يبدوا لي ذلك مضحكاً .

ـ ما الذي يبدو مضحكاً ؟

ـ الأمور بصورة عامة . فمن جهة يُدمون لك أنفك ، من جهـــة اخرى يغسلون لك قدميك ؛ وفي الوسط ، ماذا يوجد ؟

وُفتح الباب وقال نيقولاي من خلاله :

ـ في الوسط يوجد اولئك الناس الذين يلحسون أيدي من يدمي أنوفكم ، ويمتصون دماء من تدمي أنوفهم . ذلك ما في الوسط .

أسامَ أغناطيوس نظرة إليه في احترام ، ثم قال بعد صمت قصير :

ـ ما اقرب ذلك الى الحقيقة ، فيما اعتقد !

ونهض ، وخطا بضع خطوات ثابتة ، ثم قال :

ـ لكأنهما قدمان جديدتان . شكراً .

ثم زرفوا الى غرفة الطعام كي يحتسوا الشاي ، فراح أغناطيوس يحدثهما عن حياته وهو يتكلم بصوت عميق مؤثر :

ـ لقد اعتدت أن اوزع صحيفتنا . إني مشّاءٌ عظيم .

فسأل نيقولاي :

ـ ايقرأها كثيرون في الريف ؟

ـ جميع المتعلمين، وإن كانوا اغنياء . ولا يأخذها الاغنياء، منا نحن طبعاً... إنهم يدركون تماماً ان الفلاحين سوف يغسلون الارض بدمائهم ويطهرونها من الملاكين . فاذا فعلوا ذلك مرة اقتسموها فيما بينهم ، فلا يبقى بعد ذلك ملاكون ورجال بالأجرة ... ذلك واضح جداً ، وإلا فلمَ نبدأ القتال ؟

وبدا كأنه غاضب ، وراح يرمق نيقولاي مستفهماً مرتاباً ، فابتسم هذا ولم يقل شيئاً .

ـ وإذا رحنا اليوم نقاتل العالم كله وندمّر الجميع كي يكون في الغد أغنياء وفقراء مرة أخرى ... فأي معنى في ذلك ؟ لا ، شكراً ! إنـّا لن نُخدع !

فالثراء مثل الرمال الجافة ... لا تقبع في مكانها هادئة قط ، بل تعود فتتبعثر في كل حدب وصوب . اوه ، كلا ... نحن لن نقبل بهذا ابداً .

فضحكت الام ، وقالت :

ـ حسناً ، لا حاجة لك لأن تغضب بسبب ذلك .

وقال نيقولاي متفكراً :

ـ ما يشغل بالي هو كيف يمكننا ان نسرع ونوصل ذلك المنشور عن اعتقال ريبين الى جماعتك .

فتيقظ اغناطيوس ، وأصاخ بأذنيه . سأل :

ـ أهناك مثل هذا المنشور ؟

ـ نعم .

فاقترح ، وهو يفرك يديه :

ـ أعطني إياه ، وسأحمله أنا .

ضحكت الام بصوت خافت دون ان تنظر اليه . قالت :

ـ ولكنك متعب ، وقد قلت انك خائف .

فسرّح اغناطيوس شعره الجعد الى الوراء براحته العريضة ، قائلاً بلهجة جدية :

ـ الخوف شيء والعمل شيء آخر . لمَ تضحكين ؟ لغريبة حقاً ، أنت ايضاً !

فهتفت الام بالرغم منها ، محاولة كبت السعادة التي أثارها فيها :

ـ آه ، أيها الطفل الخبيث !

فابتسم خجلاً ، وقال :

– بخٍ ، أنا طفل ؟

فقال نيقولاي ، وهو يرمقه بنظرة عطوف :

– إنك لن تعود الى هناك .

فسأل اغناطيوس قلقاً :

– ولم لا ؟ الى أين أذهب إذن ؟

– سيأخذ المنشور شخص آخر ، أما أنت فما عليك إلا أعطاءه التعليمات المفصَّلة عما يجب أن يفعل وكيف ... أتوافق ؟

فقال اغناطيوس ، أخيراً ، بلهجة من خاب أمله :

– حسناً .

– وسوف نؤمن لك أوراقاً جديدة، ونسند إليك عمل غفير في الغابات .

– وماذا أفعل إذا جاء الفلاحون يقطعون حطباً أو يأخذون أي شيء آخر ؟ ... هل أمسكهم وأقيّدهم ؟ كلا ! هذا العمل لا يلائمني .

ضحكت الأم ، وضحك نيقولاي كذلك ، الأمر الذي آلم الفتى وضايقه مرة أخرى ، فقال له نيقولاي معزياً :

– لا تقلق ، فلن تحتاج إلى تقييد أي فلاح كان . أعطيك عهداً بذلك .

فقال اغناطيوس ، وابتسامة سعيدة تشرق على شفتيه :

– حسناً ، ما دام الأمر كذلك . ولكني أفضل الحصول على عمل في مصنع. يقال إن فتيان المصانع أذكى من سواهم .

فنهضت الأم عن المائدة ، واقتربت من النافذة . فكّرت :

– يا للحياة من شيء مضحك ! يضحك المرء خمس مرات في اليوم ويبكي مثلها . حسناً ، هل انتهيت ، واغناطيوس ؟ هيا ، وارقدْ قليلاً .

ـ ليس بي حاجة الى النوم .

ـ هيا ، هيا .

ـ انت دقيقة وصارمة جداً ، ألستِ كذلك ؟ حسناً ، إني ذاهب . شكراً من اجل الشاي ... ومن اجل لطفكما ...

وبينا هو يتسلق سرير الأم ، حكّ رأسه وتمتم :

ـ كل هذه الأشياء ستتلوّث الآن بالقطران ... لا معنى في كل هذا ... فلست ناعساً ... لشدّ مـــا كان سريعاً في تعليقه على أولئك الذين في الوسط ... يا للشياطين ...

استغرق في النوم بغتة ، وراح يشخر بضوضاء . فمه نصف مفتوح ، وحاجباه مرتفعان .

٢١

كان يجلس ، في ذلك المساء عينه ، قبالة فيزوفشيكوف في غرفة صغيرة في أحد الاقبية يهمس في أذنه :

– اربع مرات على النافذة الوسطى ...

فسأل نيقولاي في قلق :

– اربع ؟

– البدء ثلاث ، هكذا ...

وقرع المرات الثلاث على المائدة ...

– واحدة ، اثنتان ، ثلاث . انتظر ثانية ، ثم مرة رابعة .

– فهمت .

– وسيفتح لك الباب الموجيك أحمر الرأس ، ويسأل : « أجئت من اجل القابلة » ؟ فتقول : « نعم ، من قِبَلِ زوج صاحب المصنع » . هذا كل شيء ، ولسوف يفهم .

جلسا متقاربي الرأس ، كلاهما فتى قوي البنية مفتول العضلات ، يتكلمان بأصوات خافتة بينما الام تراقبهما وذراعاها متصالبان في صـــدرها ، مسرورة بكل تلك الضربات وكلمات السر . هجست في خاطرها :

– لمّا يزالا ولدين .

كان مصباح معلق على الحائط ينير لطخات الرطوبة القاتمة في السقف والصور المقتطعة من المجلات المغطية الجدران ، وسطول عتيقة وقطع من القرميد مبعثرة هنا وهناك على أرض الغرفة الممتلىء جوها برائحة العفونة ودهان الزيت والصدأ .

وكان اغناطيوس يرتدي معطفاً ثقيلاً مصنوعاً من نسيج وبري يروقه كثيراً فيما يظهر . بينما الام تنظر اليه يمسح على كمه في حنان ، ويمـــد في جهد عنقه الضخمة كي يتفرج على نفسه . فكـّرت ، وحنان دافىء يغمر قلبها :

– ايها الطفلان ، ايها الطفلان المباركان ...

قال اغناطيوس ، وهو ينهض :

– حسناً ، لا تنسَ ان تذهب الى موراتوف اولاً ، وتسأل عن الجد .

فأجاب فيزوفشيكوف :

– لن أنسى .

ولكن اغناطيوس لم يقنع بذلك ، فأعاد كل الضربات والاشارات وكلمات السر قبل ان يمدّ يده اخيراً ، ويقول :

– بلـّغهم اشواقي ، ولسوف ترى انهم قوم طيبون .

ورشق نفسه بنظرة راضية ، ومسح على كـُم معطفه ، وسأل الام :

ـ هل آن لي الذهاب ؟

ـ أتستطيع ان تجد الطريق ؟

ـ سأجدها . الى اللقاء ، ايها الرفيق !

خرج منتصب القامة ، عريض المنكبين ، مرفوع الصدر ، وقبعته الجديدة مائلة فوق إحدى اذنيه ، ويداه مدفوعتان بجرأة في جيبيه ، وخصل من شعر مجعد اشقر تموج على صدغيه .

قال فيزوفشيكوف ، مقترباً من الام :

ـ وهكذا فقد ُمنِحْتُ الآن عملاً. لقد بدأت اضجر وأتساءل لمَ هربت من السجن ، فأنا لا افعل هنا شيئاً إلا الاختباء ليلاً ونهاراً ، بينما كنت أستطيع هناك ان اتعلم شيئاً . لقد كانت طريقة بافل التي تجعلنا نستفيد من عقولنا رائعة حقاً . ماذا تمّ في شأن فرارهم ، يا نيلوفنا ؟

فقالت ، وهي ترسل زفرة بالرغم منها :

ـ لا ادري .

فوضع نيقولاي يداً ثقيلة على كتفها واقترب بوجهه منها ، وقال :

ـ أقنعيهم انت ، فسوف يصغون اليك . ذلك بسيط للغاية . أنظري بنفسك ، هنا يقوم جدار السجن ، والى جانبه عامود احد مصابيح الشارع ، يقابله تماماً ميدان خال ، والى يسار المقبرة ، والى اليمين شوارع وبنايات ... ولسوف يأتي احد شعلة المصابيح لينظف ذلك الفانوس في وضح النهار ، فيلقي سلماً على الحائط ويتسلق عليه ويثبّت طرف سلم من الحبال باحدى القرميدات في قمة الجدار ، ثم يلقي به الى فناء السجن و... هذا كل شيء ! وهم يعرفون ، داخل السجن ، متى سيحدث ذلك ، ويقنعون المجرمين العاديين بأن يثيروا بعض الاضطراب ، او يثيرونه هم انفسهم حتى يعطوا الحرس شيئاً يفكرون فيه ، في حين يتسلق الفارون السلم ويولون الادبار ... واحد ، اثنان ، ثلاثة ، وينتهي كل شيء ... ما ابسط ذلك !

كان يلوّح بيديه دون انقطاع وهو يشرح خطتــه البادية كثيرة الوضوح والبساطة والفطنة . لقد عرفت نيقولاي ثقيلاً مرتبكاً دائماً ، ولقد كان فيما سبق ينظر الى سائر الاشياء في ارتياب وحقد دفين . اما الآن ، فالمرء يخاله قد ولد من جديد . فيشع منه نور دافىء ثابت اكتسب قلب الام وأثار مشاعرها .

ـ فكري انهم سوف يفعلون ذلك في وضح النهار ، وفي وضح النهار تماماً .

لن يرتاب إنسان في انّ سجيناً يجرّب الهرب في وضح النهار والسجن كله مفتوح العينين يقظٌ ، حذر !

فاستجلت الام ، ورعشة تجتاح كل جسدها :

ـ أفلا يمكن ان يطلقوا الرصاص ؟

ـ من ؟ ليس ثمة جنود ، والحرس يستعملون مسدساتهم ليدقوا المسامير بها .

ـ ذلك يلوح بسيطاً جداً .

ـ ولكنك ستتحققين من ذلك بنفسك . اقنعيهم به . ولقد اعددت انا كل شيء : السلم الحبلي ، والكلاليب . وصاحب بيتي هذا سيكون موقد المصباح .

وسعل شخص ما في الجهة الثانية من الباب ، وأثار بعض الضجيج .

ـ هذا هو .

برز في فرجة الباب مغسل من القصدير ... وغمغم صوت اجش في الوقت نفسه :

ـ اعْبُر من هنا ، ايها الشيطان العجوز ...

ووقعت ابصارهما الى الأعلى من المغسل على وجه رقيق السيماء ذي عينين جاحظتين ، وشعر وشارب أشيبين .

ساعده نيقولاي في نقل حمله ، فزرف الى الغرفة رجل طويل القامـــة ، محدودب الظهر ، سعل وهو ينفخ وجنتيه الملفوحتين ، ويبصق على الارض ، ثم حياهما بصوت أجش :

ـ السلام عليكما .

فهتف نيقولاي :

ـ اليك ، فاستوضحيه .

ـ تستوضحني ماذا ؟

ـ عن موضوع الفرار .

فقال السمكري ، وهو يمسح شاربيه بأصابع سود ملوثة :

ـ آه ! آه !

ـ انها لا تؤمن بسهولة ذلك ، يا ياكوف فاسيليفيتش .

ـ لا تؤمن بذلك ؟ اذن فأنا اعتقد انها لا تريده . اما انت وانا فنريده ، ولذلك نؤمن به .

قال السمكري ذلك في هدوء ، ثم تقوّس فجأة ، وانطوى على نفسه وهو يسعل بشدة حتى اذا انتهت نوبة السعال وقف فترة طويلة في وسط الغرفة ، يفرك صدره ويتمعن في الام بعينيه الجاحظتين . قالت الام :

ـ سيقرر بافل ورفاقه هذه المسألة .

فأطرق نيقولاي برأسه متفكراً ، فيما سأل الحداد وهو يقتعد كرسياً :

ـ من هذا ، بافل ؟

ـ ولدي .

ـ وكنيته ؟

ـ فلاسوف .

فأشار برأسه ، وتناول علبة تبغه ، وطفق يحشو غليونه . قال :

ـ سمعت عنه . وابن اخي يعرفه . ابن اخي في السجن ايضاً ـ اسمه ييفشينكو . أسمعت عنه ؟ اما اسمي فجوبون . عن قريب سيلقون بكل الفتيان وراء القضبان ، وبذلك يخلو الجو لنا ، نحن الشيوخ ! لقد قال لي احد رجال الدرك انهم سيرسلون ابن اخي الى سيبيريا ، وانهم لقادرون على ذلك ، أولئك الكلاب !

واستدار الى نيقولاي ، وشرع يدخن غليونه وهو يبصق على الارض من وقت لآخر . قال مازحاً :

ـ وهكذا ، فهي لا تريد هذا ؟ ذلك من شأنها . عندما يكون المرء طليقاً فهو حرٌّ ان يمشي ان كان متعباً من القعود ، او يقعد ان كان متعباً من المسير . ان سرقوك فاغلق عينيك ... وان ضربوك فلا تصرخ ... وان قتلوك فانك تضطجع هناك ... كل انسان يعرف هذا . ولكني سأنتزع سافكاً ابن اخي من هناك ، سأنتزعه بكل تأكيد .

ذهلت الام لجمله القصيرة المتلاحقة في شبه عواء . ولكن كلماته الاخيرة أثارت الحسد في قلبها .

كانت تفكر في نيقولاي وهي تسير على طول الشارع ، تتلقى الريح الباردة ورذاذ المطر في وجهها .

ـ لشدّ ما تبدل ! فظاعة !

وتذكرت جوبون ، فومض في خاطرها في شبه صلاة تقريباً :

ـ مما لا شك فيـــه اني لست الوحيدة التي عادت الى الحياة ، وبدأتها من جديد ...

وفي اللحظة نفسها ، طفح قلبها بالأفكار عن ولدها :

ـ لو انه يقبل .

٢٢

بينا هي تودع بافل في الأحد التالي ، احست به يدفع في راحتها كرة صغيرة من الورق ، فانتفضت كأن الكرة احرقت يدها ، ونظرت الى وجه فتاها في تساؤل صامت ، ولكنها لم تجد في محياه أي جواب على تساؤلها . كانت عيناه الزرقاوان تفتران عن ابتسامتها المألوفة ، الهادئة والحازمة في وقت واحد . قالت ، وهي تتنهد :

ـ الى اللقاء .

ومدّ فتاها يده مرة اخرى ، واكتسى وجهه، لحظة عابرة، بظل من حنان:

ـ الى اللقاء ، يا أماه .

فانتظرت دون ان تُفلت يده . قال :

ـ لا تقلقي ، ولا تغضبي ايضاً .

كانت هذه الكلمات، وذلك الخط العنيد المرتسم على جبهته ، الجواب المنتظر.

غمغمت ، وهي تطرق برأسها :

ـ يا إلهي ! ما هذا الذي تقول ؟ ...

وأسرعت في الخروج دون ان تنظر إليه مجدّداً حتى لا يرى الدموع في عينيها ، والارتعاش في شفتيها . وبدا لها طوال الطريق الى الدار أن اليد التي

تحمل الورقة تؤلمها ، وأن ذراعها برمتها تتدلى ثقيلة فكأنها قد تلقت لكمة على كتفها . ولم تكد تبلغ الدار حتى أعطت الرسالة الى نيقولاي ووقفت تنتظره وهو يسوي غضون الورقة ، وفي قلبها خفقان من رجاء . ولم يبرر نيقولاي ذلك الخفقان ، قال :

ـ بالطبع ! إليك ما يكتب : « يجب الا نحاول الفرار ، ايها الرفاق . إننا لا نستطيع ، ليس احد منا يستطيع . فنحن سنخسر احترامنا لأنفسنا ان فعلنا ذلك . ولكن جربوا ان تساعدوا ذلك الفلاح الذي اعتُقل حديثاً . انـــه في حاجة الى عنايتكم ، وهو جدير بكل ما تستطيعون من أجله . انه يتعذب كثيراً ههنا ، وفي كل يوم يتقاتل مع السلطات . وقد قضى حتى الآن أربعاً وعشرين ساعة في الزنزانة ، ولسوف يعذبونه حتى الموت . اننا جميعاً نشفع له ، عزّوا والدتي واوضحوا لها كل شيء ، وهي ستفهم » .

رفعت الأم رأسها ، وقالت بصوت خفيض يتخلله الارتعاش :

ـ ماذا هناك للايضاح ؟ اني افهم .

واستدار نيقولاي جانباً بسرعة ، وتمخط بشدة وضجيج .

غمغم :

ـ يبدو اني أصبت بزكام ...

ورفع يديه يصلح من وضع نظارتيه ، ثم قال وهو يتمشى جيئة وذهاباً في الغرفة :

ـ الحقيقة انه ليس لدينا على أية حال متسع من الوقت .

فقالت الأم عابسة ، بينا الكآبة تُثقل على قلبها وتغمره مثل ضباب كثيف:

ـ لا بأس في ذلك ، فليقدموه الى المحكمة .

ـ إليك ، لقد تلقيت قبل هنيهة رسالة من احد الرفاق في بطرسبرج ...

ـ وعلى أية حال ، فهو يستطيع الفرار من سيبيريا ، أفليس كذلك ؟

– طبعاً ! ذلك يقول ان المحاكمة ستجري عما قريب ، وإن الحكم قد اتفق عليه منذ الآن ... النفي لهم جميعاً . هؤلاء الأشقياء يجعلون من قضائهم أضحوكة دنيئة. تصور ذلك... الادانة قد ُقرِّرت في بطرسبرج حتى قبل انعقاد المحكمة.

فقالت الأم بثبات :

– لا تبالِ بهذا ، يا نيقولاي إيفانوفيتش ، فلا حاجة بك الى ايضاح الامور لي او تعزيتي . بافل لا يرتكب الخطل قط ، ولن يرضى بأن يتألم هو وجميع رفاقه من أجل لا شيء. وهو يحبني... وأنت تستطيع ان ترى من تلقاء نفسك كيف يفكر فيَّ على الدوام . انه يقول : أوضحوا لها الامور ، عزوها .

وراح قلبها يخفق بعنف ، فيدور رأسها لشدة انفعالها .

هتف نيقولاي بصوت مرتفع غير معهود منه :

– ان ابنك لشخص رائع ، وأنا أكنُّ له عظيم الاجلال .

فاقترحت الام :

– فلنبحث عن طريقة ما لمساعدة ريبين .

كانت تودُّ ان تصنع شيئاً في التوّ واللحظة ... ان تذهب الى مكان ما ... ان تمشي حتى تسقط إعياء ...

قال نيقولاي ، وهو يدبُّ على ارض الغرفة :

– حسناً ، اننا نحتاج الى ساشا ...

– لسوف تأتي ، فهي تأتي دائماً في الايام التي أزور بافل فيها .

وجلس نيقولاي على الاريكة الى جانب الام ، وأطرق برأسه مفكراً وهو يعضُّ شفته ويعبث بلحيته :

– لما يؤسف له ان اختي بعيدة ...

– ما أروع ان نحقق ذلك وبافل لما يبرح هناك ... ذلك سيسعده كثيراً .

وسكتنا فترة من الوقت قالت الام بعدها :

– لا أفهم لماذا لا يريد ذلك ...

فهبّ نيقولاي ناهضاً ، ولكن الجرس قُرع في تلك اللحظة بالذات ، فتبادلا نظرات سريعة . قال نيقولاي بصوت خافت :

– هذه ساشا دون ريب .

فسألت الأم بمثل خفوت صوته :

– كيف سنقول لها ذلك ؟

– آه ... بلى ...

– اني آسف كثيراً من أجلها ...

تردد القرع من جديد، لكن أقل حزماً هذه المرة ، فكأن الشخص الواقف الى الباب يتردد في الدخول . واندفع كلا نيقولاي والام نحو الباب معاً ، ولكن نيقولاي وقف جانباً عندما بلغ المطهى ، وقال :

– الافضل ان تذهبي وحدك ...

ولم تكد الأم تفتح الباب حتى سألتها الفتاة في شجاعة وثبات :

– هل أبى ؟

– نعم .

– كنت اعرف ذلك .

قالت ساشا هذا بكل بساطة ، ولكن وجهها شحب حتى أضحى أبيض اللون .

فكت أزرار معطفها ثم زررّت بعضاً منها ، وحاولت عبثاً ان تخلع المعطف عن كتفيها ... قالت :

– رياح ومطر ... يا للطقس الفظيع ! أهو في صحة جيدة ؟

– نعم .

فقالت بصوت خفيض ، وهي تتفحص يدها :

– مرِحٌ وفي صحة جيدة ؟

فردّت الام ، دون ان تنظر اليها :

– لقد كتب يقول : علينا ان نجرب إنقاذ ريبين .

فأجابت الفتاة في تماهل :

– نعم ، يخال لي ان علينا الاستفادة من مشروعنا .

وهتف نيقولاي ، وهو يبدو بغتة في فرجة الباب :

وهذا ما أفكر فيه انا ايضاً . مرحباً يا ساشا .

فمدت الفتاة يدها إليه . سألت :

– ولِمَ لا ؟ الجميع يعترفون بأنه مشروع حسن .

– ولكن مَنْ يطبقه ؟ الجميع مشغولون ...

فقالت ساشا بسرعة ، وهي تنهض واقفة :

– سأفعل ذلك ، فلديّ الوقت الملائم له :

– حسناً ، عليك أن تسألي الآخرين إذن .

– سوف اسألهم ، سأذهب إليهم حالاً .

وشرعت تبكّل ازرار معطفها مرة اخرى بحركات ثابتة من اصابعها النحيلة . قالت الام :

– يجب ان تنالي بعض الراحة قبلاً .

فأجابت الفتاة بابتسامة هادئة :

– لست متعبة .

صافحتها في سكون وخرجت ، صارمة الوجه باردة التقاطيع كعادتها .

وذهب نيقولاي والأم الى النافذة يراقبانها وهي تعبر الحديقة وتختفي وراء البوابة ، ثم ارسل نيقولاي من بين شفتيه صفيراً رقيقـــاً ، وجلس الى المائدة وشرع في الكتابة . قالت الام :

– لسوف يخفّف هذا العمل عنها كثيراً .

– بالطبع .

قال نيقولاي ذلك ، واستدار الى الام وعلى وجهه اللطيف ابتسامة حلوة . تابع :

– يبدو ان تلك الكأس قد وفّرت عنك، يا نيلوفنا ، واخال انك لم تعرفي قط معنى اللهفة والشوق الى رجل تحبينه .

فأجابت الام ، ملوّحة بيدها :

– إيه! ان العاطفة الوحيدة التي أحسست بها هي الخوف من ان يُزوّجوني.

ألم تغرمي بأحد قط ؟

– لست أذكر . وأعتقد اني أغرمت، لا بدّ اني أغرمت بأحدٍ ما، ولكني لا أذكر .

وحدجته بأنظارها ، ثم تابعت في لهجة حزينة :

– لقد ضربني زوجي كثيراً حتى انتزع من رأسي كل ما حدث لي قبـــل زواجي منه .

واستدار نيقولاي الى المائدة ، بينما خرجت الام من الغرفة برهة قصيرة . وعندما عادت ، نظر نيقولاي اليها في عطف ، مستغرقاً في ذكريات حبيبة الى قلبه :

– اما بالنسبة إليّ ، فقد مررت في تجربة أشبه ما تكون بتجربة ساشا . كنت أحب إحدى الفتيات . وكانت فتاة رائعة ! كنت في العشرين من عمري تقريباً عندما التقيت بها ، ولقد أحببتها منذ ذلك الحين . واني لأحبها الآن مثلما أحببتها يومذاك تماماً ... من كل قلبي ، وفي امتنان ، الى الابد .

ورأت الام ، من حيث كانت تقف الى جواره ، النور البراق الدافىء المشع من عينيه ، وقد وضع يديه على مسند احد المقاعد ، وأراح رأسه عليهما وراح ينظر الى مكان ما بعيد بعيد ، وكل جسده ، النحيل والمتين البنيان في الوقت ذاته ، ينجذب نحو رؤيا جميلة ، مثلما تنجذب الزهرة نحو الشمس النيرة .

سألت الام :

– لمَ لا تتزوجها ؟

– لقد تزوجت منذ اربعة اعوام .

– ولمَ لم تسبق وتتزوجها ؟

فاستغرق في التفكير برهة ، ثم قال :

– لم تسنح لنا الفرصة ، ان صح التعبير : عندما أكون انا حراً ، فهي في السجن والمنفى ؛ وعندما تكون هي طليقة ، فأنا سجين . وذلك يشبه وضع ساشا الى حدٍّ بعيد ، أليس كذلك ! وأخيراً أرسلوها الى سيبيريا لمدة عشرة اعوام . ارسلوها الى احدى المناطق الابعد . وأردت الذهاب معها ولكني خجلت ، وكذلك خجلت هي ايضاً . وهناك التقت برجل آخر ، فتى رائع للغاية ـ وأحد رفاقي . وقد هربا معاً ، وهما الآن يعيشان خارج الحدود ... هِمْ – م ...

رفع نيقولاي نظارتيه ومسحهما ، ثم عرضهما على النور يتحقق من نظافتهما . وعاد يمسحهما مرة أخرى .

وهتفت الام في حنان ، وهي تهز رأسها :

– أواه ، يا صديقي العزيز !

رثت له من صميم قلبها ، ولكن شيئاً فيه كان يدفعها في الوقت نفسه الى الابتسام بحرارة ، بعاطفة الام الرؤوم . وأحسن نيقولاي من جلسته وتناول الريشة من جديد ، وراح يلوح بها في تناسق مع كلماته ، وهو يقول :

– الحياة العائلية تُنقص طاقة الثوري ... انها تفعل ذلك دائماً . الاطفال ، والحرمان ، وضرورة العمل لاطعام العائلة ... ينبغي للثوري أن يضاعف طاقته باستمرار ، بحيث تستطيع فعاليته ان تتسع أكثر فأكثر . الايام تتطلب ذلك ، فمن واجبنا ان نسير في مقدمة الجميع ، لأننا نحن العمال الذين اختارهم التاريخ لتدمير العالم القديم وبناء عالم جديد ، إذا تقاعسنا في المؤخرة ، مستسلمين للإعياء أو تخدير فوز حقير ، فاننا مسؤولون إذن عن أذى يقارب خيانة القضية . ليس هناك من نستطيع السير معه جنباً الى جنب دون ان نلحق الضرر بايماننا ، ونحن يجب الّا ننسى قط ان واجبنا ليس فوزاً صغيراً عارضاً ... بل الانتصار التام الأخير ...

وأصبح صوته ثابتاً ، ووجهه شاحب اللون ، وعيناه تبرقان بتلك القوة الهادئة المتماسكة المألوفة عنده .

وقُرع الجرس مرة أخرى ، ودلفت منه لودميلا مضرجة الخدين بفعل الصقيع ، مرتجفة الاوصال في معطف أرقّ من ان يدفع عنها زمهرير الفصل البارد .

قالت في غضب ، وهي تخلع جزمتيها المهترئتين :

– ستجري المحاكمة في الاسبوع المقبل .

فصاح نيقولاي من الغرفة المجاورة :

– أمتأكدة انت هذا ؟

وانطلقت الام نحوه ، لا تدري على وجه التحقيق ان كان الخوف او الفرح هو الذي يثير كل ذلك الضجيج في صدرها . ولحقت لودميلا بها ، تقول وفي صوتها ظل من سخرية :

– اني متأكدة !... وهم لا يخفون في المحكمة حقيقة اصدار الادانة سلفاً ... كيف تستطيع ان تفسر مثل هذا الامر ؟ هل تخاف الحكومة ان يعامل موظفوها أعداءها في شيء من اللين ؟ هل تخاف الا يكون اجراؤها اوغاداً آخر الامر ، بالرغم من كل الزمن والطاقة اللذين صرفتها في تسميم أفكارهم ؟

وجلست لودميلا على الاريكة تفرك خديها الناحلين بيديها . وعيناها تعبران عن ازدراء لا حدود له ، وصوتها يلتهب غضباً أكثر فأكثر .

قال نيقولاي، ساعياً الى تهدئتها :

– لا تضيعي طاقتك ، يا لودميلا . انهم لا يسمعونك ، كما تعلمين ...

وأصغت الام في انتباه عميق الى كلماتها ، ولكنها لم تفقه منها شيئاً ، لأن فكرة واحدة فقط لم تكف عن الضجيج في ذهنها :

– المحاكمة ... في الاسبوع المقبل .

وبغتة أحست باقتراب قوة لا انسانية ، قوية لا تعرف معنى للرحمة والشفقة مطلقاً ...

٢٣

هكذا عاشت الام في سحابة من البلبلة والانتظار القلق طوال يومين آخرين، وفي اليوم الثالث جاءت ساشا وتوجهت الى نيقولاي بالخطاب قائلة :

– كل شيء جاهز ... اليوم في الساعة الواحدة ...

فسأل دهشاً :

– بكل هذه السرعة ؟

– ولمَ لا ؟ ما كان عليّ سوى تأمين الثياب لريبين ، وتدبير مكان يلجأ اليه . وقد أخذ جوبون على عاتقه القيام بكل شيء آخر ، وليس على ريبين سوى الذهاب بضع مئات من الامتار فقط ، وسيلقاه فيزوفشيكوف، متنكراً طبعاً ، ويلقي معطفاً على كتفيه وقبعة على رأسه ، ويدله على الطريق . وسأكون في انتظاره بلباس كامل له ، وأقوده بقية الطريق .

فسأل نيقولاي :

– لا غبار على ذلك ، ولكن من هو جوبون هذا ؟

– أنت تعرفه ، ففي غرفته كنت تعقد حلقتك الدراسية مع الميكانيكيين .

– آه ، تذكرت . طير غريب الاطوار .

فقالت ساشا متفكرة ، وقد أنفذت بصرها من النافذة :

– انه جندي متقاعد (سمكري) قليل الثقافة ، ولكنه يرعى حقداً هائلاً ضد العنف مهما كان ظاهره . وهو الى ذلك فيلسوف حتى درجة ما .

انصتت الام في سكون ، وفي ذهنها تنمو فكرة غامضة غير محدودة :

– ان جوبون يريد انقاذ ابن أخيه ، اتذكر ييفشنكو ذاك ؟ كنت تحبه ، اذ كان رشيقاً دائماً ، ونظيفاً الى الدرجة القصوى .

فأشار نيقولاي برأسه ...

– لقد هيأ كل شيء ، على الوجه الاكمل ، ولكني بدأت ارتاب في أن المحاولة ستكلل بالنجاح ، لانها ستجري ساعة النزهة ، وأنا اخاف أن يرغب عدد كبير من المساجين في الهرب ساعة يرون السلم من فوق الجدار .

وأغلقت عينيها وسكتت ، فذهبت الام إليها .

– ولسوف يضايق بعضهم بعضاً بالطبع ...

كان ثلاثتهم وقوفاً الى النافذة ، والام وراء نيقولاي وساشا ، يثير حديثهما السريع عواطف مختلفة في صدرها . قالت بغتة :

– سأذهب أنا ايضاً .

فسألت ساشا :

– لماذا ؟

ونصحها نيقولاي :

– لا تذهبي يا عزيزتي ، فقد يصيبك مكروه . لا تذهبي .

فرمقته الام طويلاً ، وقالت بصوت رقيق ، ولكن بثبات وعزم :

– كلا ، اني ذاهبة .

وتبادلوا نظرات سريعة ، ثم قالت ساشا وهي تهزّ كتفيها :

– لقد فهمت .

استدارت نحو الام وامسكت بها من ذراعها ، وقالت بلهجة بسيطة خفق قلب الام لها :

عليكِ ادراك انّ كل رجاءٍ عبث ...

فصاحت الام ، وهي تقرّبها منها بيد مرتعشة :

– يا حبيبتي ، خذيني معك ، ولن أضايقكم أبداً ! يجب ان أذهب ، فلست اعتقد ان ... الهرب ممكن حقاً ؟

وقالت الفتاة لنيقولاي :

– انها آتية معنا .

فأجاب ، وهو يطرق برأسه :

– ذلك من شأنك وحدك .

– ولكن يجب الا نكون معاً . انت تذهبين الى الحدائق في الحقول الخالية ، ومن هنا لا تستطيعين رؤية جـــدار السجن ... لكن ، كيف تفسرين وجودك هناك فيما إذا استجوبوك ؟

فنبرت الام بلهفة :

– سوف اجد ما اقول .

فحذّرتها ساشا بقولها :

– لا تنسي ان حراس السجن يعرفونك ، فان رأوك هناك ...

– لن يروني ...

كان الرجاء المتولد في صدرها دون وعي منها يلتهب الآن في بريق عظيم ، فتروح تفكر وهي ترتدي ثيابها : ربما هو ايضاً ...

وبعد ساعة ، كانت الام قد بلغت الحقل الممتد خلف السجن ، وريح صرصر

تهب فتتعلق بثيابها ، وتلطم الارض المتجلدة ، وتهزّ سور حديقة تمرُّ بجوارها ، ثم ترمي بنفسها بكل ما فيها من عزم على جدران السجن القليل الارتفاع ، ثم تسقط في فنائه فتلتقط من هناك صيحات بشرية، ثم ترسلها في إعصار نحو السماء حيث السحب المتلاحقة تنشق من وقت لآخر فتتشكل ثغرات صغيرة الابعاد في الجَلَد الازرق .

كانت الحدائق تستلقي وراء الام بينما المقبرة تقوم الى الامام منها ، والسجن ينتصب على بعد سبعين قدماً تقريباً الى اليمين منها . وكان جندي يتنزه بجواده بالقرب من المقبرة ، وجندي آخر يقف دانياً منه وهو يضرب الارض بحذائه صائحاً ، ضاحكاً ، ومصفّراً ... ولم يكن ثمة إنسان آخر في جوار السجن .

مرّت بالقرب من الجنديين في تمهل حتى بلغت السور المحيط بالمقبرة ... وهي تختلس النظر الى الوراء والى اليمين منها . وفجأة، أحست ركبتيها ترتخيان ، وقدميها يثقلان فكأن الجليد قد لصقها بالارض لصقاً . هذا موقد المصابيح يبرز من وراء زاوية الشارع ، وعلى كتفه سلم طويـــل ، عجلان الخطا كما ينتظر من موقدي المصابيح ان يفعلوا . وتطلعت الام الى الجنديين وعيناها تطرفان هلعاً ، فرأتهما ثابتين في مكانهما والجواد يحوم حولهما ... وشخصت الى الرجل ذي السلم، فوجدته قد أسند سلمه الى الجدار وراح يتسلقه في هـــدوء ، ثم لوّح بيده نحو فناء السجن ، وعاد يهبط بنشاط ليختفي وراء زاوية الجدار . وثقل قلب الام ، وراحت الثواني تتباطأ حتى لتثير في النفس ألماً لا يطاق . وكان السلم لا يكاد يُرى إلا بصعوبة مسنداً الى جدار السجن القاتم الملطخ بالاوحال حتى غـــاض اللون منه، المبقّع هنا وهناك بالقرميد الاحمر الظاهر من وراء الجص المتساقط . وبغتة، ظهر رأس اسود فوق الحائط، ثم جسد تدحرج فوق قمة الجدار وهرول يهبط الجهة المقابلة ، ثم ظهر رأس آخر مغطى بقبعة ممزقة ، وقفزت على الارض كرة سوداء ضخمة اختفت سريعاً وراء الحائط . وانتصب ميخائيلو بقامته ، وحملق حواليه ، وراح يهزّ رأسه ...

همست الام ، وهي تضرب الارض بقدمها :

– إهرب ، إهرب .

كان طنين يدوّي في أذنيها ، وصيحات عالية تبلغ سمعها من وراء جدار السجن وظهر فوق الجدار رأس ثالث ، فأطبقت الام بيديها منقبضتين على صدرها ، وأنشأت ترقب ما يجري منقطعة الانفاس . واندفع الرأس الاشقر الفتي ، الحليق الذقن ، في الفضاء مثل لمح البصر ، لكنه اختفى فجأة خلف الجدار من جديد . وأصبحت الصيحات اكثر ارتفاعاً وهياجاً ، فيما طفقت الريح تحمل ارتعاش الصفارات الحاد عبر الفضاء . سار ميخائيلو على طول الجدار حتى تجاوزها ، واخترق الحقل الخالي المرتمي بين السجن ودور المدينة . خيل اليها انه يسير في بطء شديد ، وانه يرفع رأسه في الهواء كثيراً ، وان كل من رأى وجهه مرة فلن ينساه . همست :

– أسرع ، أسرع !

وعلا رنين في الجهة الثانية من جدار السجن ، وبلغ سمعها صوت زجاج يتحطم . وكان احد الجنديين يقف وقدماه مغروستان في الارض ، وهو يشدّ عنان الحصان ؛ بينا رفع الآخر قبضته الى فمه ، وجعل يصيح بشيء ما في اتجاه السجن ، حتى اذا انتهى من صياحه أدار أذنه نحو الريح كي يلتقط الجواب .

وقفت الام متوترة الاعصاب ، تدور برأسها في كل الاتجاهات ، ترى عيناها كل شيء، ولكنها لا تصدقان مما تريان شيئاً . ان ما تخيلته معقّداً مثقلاً بالمخاطر قد تمّ الآن في سرعة وبساطة ، أذهلتها عن نفسها وأفقدتها الوعي . وقد اختفى ريبين الآن ، ولكن رجلاً مديد القامة ، يرتدي معطفاً طويلاً فضفاضاً ، يسير الآن على طوال الطريق، تعدو أمامه فتاة في ميعة الصبا . وانطلق من وراء زاوية السجن ثلاثة حراث يركضون متلاصقين ، وأذرعتهم اليمنى ممدودة الى الامام ، فذهب أحد الجنديين لملاقاتهم ، بينا استمر الآخر يكردح حول الحصان محاولاً امتطاء صهوته ، فيحرن الحيوان ويروح يقفز في الهواء باستمرار ، فيتراءى للأم

ان كل شيء آخر حولها يقفز معه . وجاء صدى الصفير يقتطع الفضاء في عناد مجنون فيثير صياحه اليائس في المرأة شعوراً بالخطر ، فترتجف وتسير على طول سور المقبرة ، دون أن تحيد بناظريها عن الحرس حتى اختفوا مع الجنديين وراء زاوية اخرى من زوايا السجن . وسرعان ما لحق بهم شبح يرتدي معطفاً غير مبكل الازرار ، عرفت فيه معاون المدير ... ومن مكان ما ظهر بعض رجال الشرطة المتفرجين المهتاجين .

وعصفت الريح في رقص اعصاري فكأنها تبتهج وتفرح ، وهي تحمل حتى أذني الام فتاتاً من صيحات مختلطة ، وصفير متقطـــع ... أبهجها الاضطراب فحثت خطاها ، وهي تفكر :

كان في مكنته ان يفعل ذلك بمثل هذه البساطة ...

وعلى غير انتظار ... اندفع من وراء الزاوية شرطيان، صاح أحدهما منقطع الانفاس :

ـ قفي ! هل رأيت ... رجلا ... ذا لحية ؟

فأشارت نحو الجنائن ، وقالت بهدوء :

ـ لقد انطلق في ذلك الاتجاه . لماذا ؟

ـ ييجوروف ، أنفخ في صفارتك .

رجعت الام ادراجها الى الدار وهي تحسُّ الاسف على شيء ما ، وفي قلبها شعور بالمرارة والالم . ومرت عربة من أمامها ، وهي تجتاز الشارع بعد أن قطعت الحقل ، فاختلست النظر الى داخلها لترى رجلا فتياً أشقر الشاحب ، شاحب الوجه متعبه . ولقد رآها هو أيضاً ، وكان يجلس منكمشاً على نفسه بحيث ارتفعت كتفه اليمنى على الكتف اليسرى .

استقبلها نيقولاي فرحاً :

ـ حسناً . ماذا حدث ؟

– يبدو ان كل شيء انتهى على ما يرام .

وشرعت تقدم له تقريراً عن الهرب ، محاولة ان تتذكر التفاصيل . ولكنها تحدثت كمن تروي قصة سمعتها من سواها ترتاب في صدقها وحقيقتها .

قال نيقولاي ، وهو يفرك يديه :

– ان الحظ في جانبنا . الشيطان وحده يعرف كم كنت قلقاً لئلا يصيبك أذى . اسمعي ، يا نيلوفنا ! خذي مني نصيحة صديق وكفّي عن الخوف من تلك المحاكمة فكلما اقترب موعدها اقتربت حرية بافل معه . ولعله سيهرب وهو في طريقه الى المنفى ، اما المحاكمة فستكون هكذا على وجه التقريب ...

واخذ يصف لها لوحة الجلسة . وبينما هو يتكلم أدركت ان ثمة شيئاً يخافه هو نفسه رغم جهوده لتهدئة روعها . سألت ، على حين فجأة :

– هل تخاف أن اقول شيئاً في المحكمة ينبغي الا أقوله ؟ او اني سأرجوهم شيئاً ما ؟

فهبّ ناهضاً على قدميه ، ولوّح بيديه مستغفراً ، وقال بلهجة مشبعة باللوم :

– بالطبع لا !

– اني خائفة ، وتلك هي الحقيقة . لكنني لا ادري ممَ أخاف .

وتوقفت عن الكلام ، يتيه بصرها عبر الغرفة :

– أعتقد أحياناً أنهم سيقسون بالكلام على باشا ، وسيقولون : أنت ، أيها الفلاح ، انت ، يا ابن الفلاح ، ماذا تحسب نفسك؟ وبافل رجل عزيز النفس ، ولسوف يردّ عليهم ، او سيروح أندريه يسخر منهم . وان الآخرين نزقون ايضاً ، الامر الذي يدفعك الى التفكير فيما سيحدث ان فقـــدوا صبرهم بغتة ، فأدانتهم المحكمة ... أدانتهم بحيث لا أراهم مرة اخرى ابداً .

فعبس نيقولاي دون ان يجيب ، وهو يعبث بلحيته ... وتابعت الام في هدوء :

– ليس من وسيلة لنزع هذه الافكار من رأسي . وهذا هو السبب في ان المحاكمة ... مخيفة الى هذه الدرجة . وعندما يشرعون يتفحصون كل شيء ويزنون كل شيء ، ما أرهب ذلك ! ليس الحكم هو المخوف ، بل المحاكمة . لست أدري كيف أعـبّر عن ذلك ...

وأحست ان نيقولاي لم يفهمها، فزاد ذلك في صعوبة التعبير عن مخاوفها ...

٢٤

لم تفعل هذه المخاوف ، الاشبه بعفونة تعيق رطوبتها الثقيلة تنفسها ، سوى النموّ في صدرها . وعندما حلّ يوم المحاكمة اخيراً ، ذهبت الى مكان انعقادها محنية الظهر تحت عبء نير يثقل على قلبها ويرهقها .

وحيّاها في الطريق من يعرفها من الضاحية فكانت تنحني لهم دون ان ينضّ مرشفاها شيئاً ، وهي تشق لها طريقاً بين الجماهير العابسة . والتقت في أروقة المحكمة ومقرها بأقارب المتهمين : كانوا يتبادلون الملاحظات بأصوات خفيضة ، فتخال ان الكلمات عبث ، وانها لا تستطيع لها فهماً . انهم جميعاً مشربون بالألم نفسه المنتقلة عدواه الى الام ، وهي تدرك هذا فيضاعف الثقل وطأته على قلبها .

قال سيزوف ، وهو يُفسح لها مكاناً على الدكة :

– إجلسي ههنا بالقرب مني .

فجلست صاغرة ، وأصلحت من هندامها ، ثم جحّظت النظر حواليها . كان مزيج من الشعاعات الخضر والحمر وخيوط صفر رفيعة للغاية تتراقص أمام عينيها . وتمتمت امرأة تجلس بالقرب منها :

– ابنك أوصل فتانا جريشاً الى هنا .

فقال سيزوف غاضباً :

— صه ، يا تاتيانا .

نظرت الام الى المرأة ، فعرفت فيهـــا ام صموئيلوف . كان زوجها يجلس بجانبها ، وهو رجل أصلع الرأس ، لطيف الطلعة ، ضامر الوجه ، عريض اللحية الحمراء المنتشرة كالمروحة ، يشخص الى الامام باستمرار وقد ضيّق فرجة عينيه ، فترتجف لحيته بتأثير التوتر النفساني الطاغي عليه .

كان نور قاتم ينسكب في قاعة المحكمة من خلال نوافذ عالية علق الثلج بها من الخارج . وكانت صورة كبيرة للقيصر تتدلى بين النوافذ في إطار مزين تختفي جوانبه وراء غضون الستر الثقيلة الكستنائية اللون المسترخية على جانبي النوافذ ، والى الامام من الصورة مائدة مغطاة بقماش أخضر تحتل كل عرض الصالة تقريباً ؛ والى اليمين ، وراء بعض القضبان المشبكة ، كانت دكتان من الخشب تستندان الى الجدار ، بينما يُشغل الشمال صفان من المقاعد المكسوة بجلد كستنائي اللون . وكان بعض الآذنين ، بياقاتهم الخضر وأزرارهم المذهبة المصطفة فوق صدورهم وبطونهم ، يروحون ويغدون دون ضوضاء ووشوشة من الاصوات المكتومة تسبح بحياء في الجو المضطرب حيث تفوح رائحة حادة تتصاعد من أدوية مختلفة . وكانت كل هذه الالوان والانعكاسات والاصوات والروائح تثقل على الاعين ، وتخترق الصدر مع الهواء المُستنشَق ، وتملأ القلب الفارغ بخوف راكد يمتزج به الاضطراب والهمود .

وتكلم بعضهم فجأة بصوت مرتفع ، فأجفلت الام ، واذ رأت الجميع ينهضون وقوفاً وقفت بدورها ممسكة بيد سيزوف . انفتح باب مرتفع الى اليسار دخل منه ، مترنحاً ، رجل عجوز تغطي نظارتان عينيه الصغيرتين ، ويرتجف سالفان رقيقان أشيبان فوق عظام صدغيه . وكانت شفته العليا الحليقة تهوي في الشدقين الخاليين من الاسنان ، وذقنه ووجنتاه البارزتان ترتاحان على ياقة لباسه المرتفعة ، الموحية بأن العنق معدومة تحتها . وكان يسنده من الخلف فتى طويل القامة يبدو كأن وجهه المدور الاحمر قد نُحت من الخزف ، ومن خلفهما يتقدم ثلاثة

أشخاص آخرين يرتدون ألبسة طرزت بالذهب، يتبعهم آخرون في ثياب مدنية. أنفقوا زمناً طويــــلا حتى اتخذوا أماكنهم الى المائدة الطويلة ، فاذا تمّ ذلك انحنى احدهم ، وكان محلول ازرار الثياب ، حليق الذقن ، متعب المحيا ، وانثال يهمس شيئاً في أذن الرجل العجوز ، وهو يحرك شفتيه المنتفختين في تثاقــــل وسكون . وجلس الرجل العجوز ، منتصب القامة بصورة غريبة ، عديم الحراك ، يُنصت الى ما يُهمس اليــــه ، والام تميّز من وراء زجاج نظارتيه ، ببقعتين صغيرتين عديمتي اللون .

وكان رجل طويل أصلع الرأس يقف عند طرف المنضدة ، امام مكتب صغير ، ينظف حنجرته ويقلب الاوراق الموضوعة امامه .

انحنى الرجل العجوز الى الامام ، وشرع يتكلم . وقد تفوه بكلماته الاولى في وضوح ، اما الكلمات التي تلت ذلك فبدت كأنها تتدحرج فراراً عن شفتيه الرماديتين الرقيقتين :

– اني أعلن ... ادخلوهم .

– أنظري .

وانفجى الباب القائم خلف القضبان ، ودلف منه جندي يتنكّبُ سيفاً مجرداً ، يتبعه بافل وأندريه وفيودور مازين وكلا الاخوين جوسيف وصموئيلوف وبوكين وسوموف وخمسة شبان آخرين لا تعرف الام اسماءهم . ابتسم بافل لها ، وافترّت شفتا أندريه عن ابتسامة عريضة وهــــو يحيّيها بإشارة من رأسه . وتراءى لها ان ابتسامتهما ، ووجههما الحبيب ، وحركاتهما اللطيفة قد خففت من وطأة ذلك الجو الثقيل الكئيب المخيم على القاعة ، وحملت اليه النور حتى خبا بريق الذهب فوق الالبسة الرسمية . وانتعشت الام ، واجتاحها تيار من القوة لتلك النفحة من الثقـــة الهادئة والقوة الحية اللتين حملها المساجين معهم ، فيما ارتفعت وشوشة خافتة الى الوراء منها ، حيث كان القوم حتى ذلك الحين يقبعون في هدوء وينتظرون في إعياء وكلل . همس سيزوف :

– ليسوا هم بخائفين .

وانفجرت أم صموئيلوف تبكي وتعول ... صاح صوت صارم :

– صمتاً !

وقال الرجل العجوز :

– يجب أن إحذّركم ...

كان بافل وأندريه يجلسان متجاورين على الدكة الاولى مع مازين وصموئيلوف والاخوين جوسيف . وكان أندريه قد حلق ذقنه ، وان أطلق العنان لشاربيه حتى تدليا على جانبي فمه وأشبها رأسه المدور برأس القط . وكان في محياه شيء جديد: سيماء صرامة وحدّة حول فمه ، وظلال ظلمة في عينيه ... أما مازين فقد ظهر خطان أسودان على شفته العليا ، وتدوّر وجهه وقد امتلأ بعد ان كان نحيلا .

وكان صموئيلوف مجعد الشعر مثله أبداً ، وإيفان جوسيف يبتسم ما شاء له الابتسام . همس سيزوف ، وهو يخفض رأسه :

– آه ! فيودور ، يا فيودور !

وأرهفت الام السمع الى الاسئلة غير الواضحة التي يطرحها الرجل العجوز على المساجين ، دون ان ينظر اليهم ، ورأسه يرتاح دون حراك في ياقته . وأصغت الى أجوبة فتاها الهادئة المقتضبة ، فخيل اليها ان رئيس المحكمة والقضاة المساعدين لا يمكن ان يكونوا قساة على ابنها ، وأشراراً يريدون الاذى به . وبينا هي تتفحص الوجوه الجالسة الى المنضدة الطويلة ، ساعية الى تخمين نتيجة المحاكمة ، راحت بارقة من الرجاء تنمو في قلبها وتتعاظم .

قرأ الفتى الخزفي الوجه وثيقة ما بنغمة رتيبة لا مبالية ، فرنّ صوته في القاعة يملؤها ضجراً يخدّر الحضور ، فكأن الرشد قد سُلب منهم . وكان اربعة محامين

يحادثون المتهمين بأصوات خفيضة ، ولكنها حية ... وكانت حركاتهم سريعة واسعة ، حتى ليشبهون طيوراً سوداً ضخمة ...

وطفح المقعد القائم على احد جانبي الرجل العجوز ببدانة قاضي دفنت عيناه الصغيرتان الناعستان في الشحم ، بينما جلس على الجانب الآخر من الرجل العجوز قاضٍ آخر محدودب الظهر ، أحمر الشاربين ، شاحب المحيا ، قد أراح في إعياء رأسه على مسند المقعد ، وأغمض عينيه نصف إغماضة ، وراح يسبح تائهاً في لجة من التفكير . وكذلك كان النائب العام متعباً ، ضجراً . وجلست ، الى الوراء من القضاة ، الشخصيات الهامة التالية : عمدة المدينة ، وهو رجل ضخم الجثة ، مهيب الطلعة ، قعد مستغرقاً في التفكير يداعب وجنته دون انقطاع ؛ ومارشال النبلاء ، وهو رجل أشيب الشعر ، أحمر الوجه ، طويل اللحية عريضها ، لطيف العينين ؛ ثم رئيس المحافظة ، وهو رجل عريض المعدة التي تسبب له – فيما يبدو – بعض الارتباك اذ طفق يغطيها بأذناب معطفه التي راحت تنزلق عنها باستمرار .

وارتفع صوت بافل يقول بثبات :

– ليس ثمة مجرمون وقضاة ، بل ثمة أسرى ومنتصرون ليس غير .

سيطر الهدوء على الجميع ، ولم تستطع الام – طوال بضعة ثوان – ان تسمع شيئاً خلا صرير ريشة على الورق ، وخفقان قلبها أيضاً .

وبدا رئيس المحكمة منصتاً ينتظر ما يتلو ذلك ... اما مساعدوه فقد اضطربوا وراحوا يتململون في مقاعدهم . قال أخيراً :

– همْ – مْ أندريه ناخودكا ! هل تعترف ؟ ...

فنهض أندريه متباطئاً ، ودفع بكتفيه الى الخلف ، وراح يفتل شاربيه وهو ينظر الى الرجل العجوز من تحت حاجبيه المنخفضين ، وأجاب بصوته الاغنّ المتهمل ، هازاً كتفيه :

– ولكن بأي ذنب أعترف ! اني لم اقتل احداً ، ولم أسرق اي شيء كان .

انا ، بكل بساطة ، أعارض شكلاً من الحياة يقود الناس الى ان يسرقوا ويقتلوا بعضهم بعضاً .

فقال الرجل العجوز في جهد :

– كن أكثر اقتضاباً في اجوبتك .

أحست الام هرجاً الى الوراء منها ، وعيّت الناس يتهامسون ويتحركون ، فكأنهم يتخلصون من خيوط العنكبوت التي نسجتها كلمات ذلك الفتى الخزفي الوجه . وهمس سيزوف :

– أتسمعين ما يقولون ؟

– أجب ، يا فيودور مازين ...

فقال فيودور ، وهو يهب على قدميه :

– كلا ، لن أجيب .

كان وجهه ملتهباً ، وعيناه براقتين ، قد اختفت يداه – لسبب ما – خلف ظهره . وتأوه سيزوف ، واتسعت عينا الام دهشة وذهولاً .

– لقد رفضت ان يكون لي محام للدفاع . وانا ارفض التفوّه بأي شيء كان. اني اعتبر هذه المحاكمة غير مشروعة . من أنتم ؟ هل أعطاكم الشعب الحق كي تحاكمونا ؟ كلا ، انه لم يفعل . اني ارفض الاعتراف بسلطتكم .

وجلس ، وخبأ وجهه المضرّج خلف كتف أندريه ...

أشار القاضي البدين الى رئيس المحكمة ، وهمس شيئاً ما في أذنه ... ففتح القاضي الشاحب الوجه عينيه ، ورشق المساجين بنظرة جانبية ، وكتب بالقلم شيئاً على ورقة امامه ... وهزّ رئيس المحافظة رأسه ، وحرّك قدميه حتى يريح معدته اكثر من ذي قبل ويغطيها بيديه ، كما مال الرجل العجوز ، دون ان يدير وجهه ، نحو القاضي الشاحب الوجه وهمس شيئاً في أذنه ، فأصغى اليه

هذا الاخير مطرق الرأس . اما مارشال النبلاء فأسرّ شيئاً الى النائب العام والعمدة يصغي اليهما ، وهو مـــا برح يداعب وجنته ، ثم راح رئيس المحكمة يتكلم من جديد بصوته الخفيض . همس سيزوف في أذن الام مدهوشاً :

– إسمعي كيف يقطع عليهم الدرب . ان موقفه افضل من موقف الآخرين في الحقيقة .

ابتسمت الام دون ان تفهم شيئاً . كان كل ما يجري امامها يبدو لها مقدمة مملة عديمة الضرورة لذلك الشيء المخيف الذي سيحدث بعد هنيهة ، فيسحقهم جميعاً بهوله البارد . إلا ان كلمات بافل وأندريه قد ترددت قوية غير هيابة ، فكأنهما يتكلمان في دارهما الصغيرة في الضاحية العمّالية لا امام منصة محكمة معقودة لادانتهما ، كما ان انفجار فيودور اللاهب قـــد انعشها وبعث الحياة في قلبها . ثمة جرأة تنتشر في قاعة المحكمة ... واذا أخِذَ هرج القوم الجالسين وراءها بعين الاعتبار ، فإدراك ذلك ليس وقفاً عليها وحدها . سأل الرجل العجوز :

– ما هو رأيك ؟

فنهض النائب العام الأصلع الرأس ، ووضع إحدى يديه على المكتب أمامه وهو يلقي خطاباً سريعاً ويذكر ارقاماً عديدة . ولم يكن في صوته ما يحمل على الخوف ابداً .

لكن إحساساً ناخساً راح ، في الوقت ذاته ، يثير القلق من جديد في قلب الام ، إحساساً غامضاً بوجود شيء عدائي في الجو لا يهزّ قبضته او يزعـــق بصوته ، بيد انه ينمو باستمرار بصورة خفية غير محسوسة على الاطلاق ، ويسبح حول القضاة حتى ليخال المرء انه يغمرهم في سحابة كثيفة تنصّلهم من كل ما يجري خارجاً عنها وتعزلهم عنه . نظرت الى القضاة فوجدتهم غامضين لا قبل للادراك بفهمهم . انهم لا يغضبون على بافل وفيودور كما كانت تتوقع ... ولا

يهينونها... بل ليصوّر لها انهم لا يعلـّقون اية اهمية على الاسئلة التي يطرحونها، فلهجتهم غير مبالية ، تعوزهم القوة على سماع الاجوبة عليها ، فكأنهم يعرفون سلفاً كل شيء ، وكأن كل ما يجري لا يثير فضولهم ابداً .

ووقف دركي امامهم ، وانهمر يقول خافض الصوت :

– بافل فلاسوف ، هو في رأي الجميع ، المحرّض الرئيسي ...

فسأل القاضي البدين :

– وماذا عن ناخودكا ؟

– وهو كذلك ...

فنهض احد المحامين ، وقال :

– أيمكن ان نقول كلمة ؟

فسأل الرجل العجوز :

– أثمة اعتراضات ؟

تراءى للأم ان سائر القضاة يشكون اعتلالاً في صحتهم ، وان اعياء مريضاً يتجلى في تصرفاتهم وأصواتهم ، وان وجوههم تحمل ذات الطابع من الاجهاد والضجر . وكان من الواضح انهم يجدون كلّ هذه الامور : البستهم الرسمية ، وقاعة المحكمة ، ورجال الدرك والمحامين ، وضرورة الجلوس في مقاعـــدهم ، يطرحون الاسئلة ويسمعون الاجوبة ، ثقيلة متعبة ، لا تطاق .

وتقدم ذلك الضابط الاصفر الوجه الذي تعرفه الى أمامهم ، وهو الآن يروي ما يعلم عن بافل واندريه بصوت مرتفع شديد النبرات .

همهمت الام في حنايا نفسها ، وقد أعارته أذنيها :

– لست تعرف الشي الكثير !

ونظرت الى الاشخاص الواقفين خلف القضبان، دون خوف من أجلهم ودون شفقة عليهم . انها لا تستطيع الرثاء لهم ؛ فهم لا يثيرون فيها الا الدهشة ، ولا يبعثون في صدرها الا تلك الموجة الدافئة من المحبة التي تفيض في قلبها الآن . وكانت الدهشة هادئة ، والمحبة حية فرحة . كانوا يجلسون هناك شباناً اقوياء مستندين الى الجدار ، لا يعيرون الا القليل من الانتباه حديثَ القضاة والشهود الرتيب ، وحجج المحامين مع النائب العام . يضحك أحدهم في سخرية من وقت لآخر ، ويلقي بملاحظة الى رفاقه فتمرُّ على وجوههم الابتسامة الساخرة نفسها . وكان بافل وأندريه يهمسان دون انقطاع بشيء في أذن أحد المحامين الموكول اليه الدفاع عنهم ، وهو الذي رأته الام في العشية في دار نيقولاي ، ومازين ، وهو اكثر حيوية وانفعالاً من الآخرين جميعاً ، لا يفتأ ينصت الى حديثهم . وفي بعض الاحيان كان صموئيلوف يتمتم شيئاً لايفان جوسيف ، فيردُّ عليه الآخر بلكزة من مرفقه ، ويبذل جهداً عظيماً كي يمتنع عن الضحك حتى ليصبح وجهه أحمر لون الدم ، وتنتفخ وجنتاه ، ويطأطىء برأسه كي يخفي ما يبدو على محياه من تلك الامارات . ولقد انفجر ضاحكاً مرتين متواليتين ، فكان بعد كل مرة يجلس منكمشاً بضع دقائق محاولاً استعادة زمام نفسه . ولكن فتوّة طاغية كانت تفور في باطنهم تتحدى كل جهودهم لكبت غليانهم الرائع وتتغلب عليها بكل سهولة ويسر .

لمسها سيزوف في مرفقها : حتى اذا استدارت إليه وجدته مسروراً ولكنه قلق بعض الشيء . همس :

– أنظري كم أصبح هؤلاء الفتيان اقوياء واثقين في انفسهم ؟ لكأنهم اسياد حقيقيون !

وكان الشهود في قاعة المحكمة لا ينفكون يتحدثون بأصواتهم المتسرعة العديمة اللون ، بينا القضاة يتكلمون مرغمين غير مبالين . وتثاءب القاضي البدين ، وهو يغطي فمه بيده السمينة ، اما الاحمر سالفاه فأضحى اكثر شحوباً منه في

اي وقت آخر ، وهو يضغط على صدغيه بأصابعه بين الفينة والفينة ، ويشخص الى السقف متأملاً بعينين لا تريان شيئاً على الاطلاق . وكان المدعي العام يكتب شيئاً بقلم الرصاص من حين لآخر ، ثم يعود الى متابعة حديثه المكبوت مع مارشال النبلاء الذي يمشط لحيته الشائبة ، ويحملق بعينيه الكبيرتين الجميلتين ، ويبتسم وهو يلوي رقبته بصورة تدل على الخطورة . اما العمدة فجلس متصالب الرجلين يشخص الى اصابعه مراقباً حركاتها المستمرة فوق ركبتيه . وكان يلوح ان رئيس المحافظة الذي اسلتقت معدته فوق ركبتيه ، وأحاطت بها ذراعاه في حنان ، هو الوحيد الذي يعير وشوشة الاصوات الرتيبة أذنين مفتوحتين، أللهم إلا الرجل العجوز الجالس في مقعده دون حراك مثل الهوائيّ في يوم سكنت ريحه ، جديراً هو ايضاً ان يمنح شرف الاستماع الى ما يجري . ولقد طال ذلك حتى ملأ الضجر من جديد قلوب الناس وأرهقهم .

قال الرجل العجوز ، وهو ينهض :

– إني اعلن ...

وضاعت بقية كلماته وراء شفتيه الرقيقتين . وامتلأت قاعة المحكمة بالتنهدات ، والهتافات الخافتة ، والسعال ، وحفيف الاقدام، بينا قيد المساجين الى الخارج وهم يبتسمون ويهزون رؤوسهم مسلمين على أقاربهم وأصدقائهم ... بل ان إيفان جوسيف لم يتورّع عن الهتاف ، متوجهاً الى شخص ما :

– لا تفقد الشجاعة ، يا ييجور .

وخرجت الام وسيزوف الى الرواق حيث استوضح الشيخ في رفق وحنان :

– هل تذهب الى المقصف كي نتناول قدحاً من الشاي ؟ لدينا ساعة ونصف الساعة .

– أعتقد ان ذلك سواء بالنسبة إليّ .

– وأنا ايضاً . ما رأيك في هؤلاء الفتيان ؟ لقد قعدوا هناك وكأنهم البشر

الوحيدون على وجه الارض ، وكأن كل ما عداهم لا يعني شيئاً على الاطلاق . وفيودور ذلك !

واقترب والد صموئيلوف منهما ... وقبعته بين يديه ... وأعلن بابتسامة مرتبكة حائرة :

– أرأيتما فتاي جريجوري ! لقد رفض كل دفاع وأبى حتى التحدث اليهم . لقد كان اول من فكر في ذلك . أما ابنك ، يا بيلاجيا ، فقد كان يصرُّ على ضرورة المحامين . ولكن ابني قال انه لا يريد أي محامٍ مطلقاً... وعندئذ فعل اربعة مثله ...

وقفت زوجته الى جانبه ، وهي تطرف بجفنيها كثيراً كي تمنع الدموع في عينيها من الانهيار ، وتمسح أنفها بطرف منديلها في الوقت ذاته .

وتابع صموئيلوف ، عابثاً بلحيته ، شاخصاً بناظريه الى الارض :

– يا لهذة القضية ! عندما ينظر المرء إليهم ، هؤلاء الاوغاد ، لا يستطيع الا ان يفكر في حماقتهم عندما ألقوا بأنفسهم في هذه المشاكل، وضيعوا أنفسهم مقابل لا شيء . ثم هو يفكر بغتة : لعل الحقيقة هي معهـــم رغم كل شيء ، وخاصة عندما يرى كيف يزداد عددهم باستمرار في المعمل . والشرطة لا تني تعتقلهم الواحد تلوا الآخر ، ومع ذلك فهم يتضاعفون كالسمك في النهر . ومرة ثانية يفكر المرء : لعل القوة هي وراءهم رغم كل شيء .

فقال سيزوف :

– ليصعب علينا فهم هذه الامور، يا ستيفان بتروفيتش .

فوافق صموئيلوف :

– اجل ، ليصعب علينا .

وقالت زوجته وهي تشخر في ضوضاء :

– انهم ، جميعاً ، في صحة جيدة ، اولئك الاوغاد !

ثم استدارت الى الام ، وعلى محياها العريض الكثير البدانة ابتسامة باهتة . قالت :

– لا تغضبي مني ، يا نيلوفنا . لقد نقمت في الصباح الباكر على فتاك من اجل هذا . ولكن الشيطان وحده يعرف من هو الملوم اكثر من سواه في هذه القضية . اسمعت ما قال الجواسيس ورجال الدرك عن جريجوري ؟ لقد ساهم بحصته ، هذا القرد الاحمر الرأس .

كان من الواضح أنها فخورة بابنها دون أن تقدّر ، فيما يبدو ، مشاعرها وعواطفها . ولكن الام أدركت ذلك، وأجابت بابتسامة لطيفة وكلمات منبعثة من صميم القلب :

– القلوب الفتية أسرع إمساكاً بالحقيقة على الدوام ...

تاه الناس في الرواق على غير هدى يشكلون جماعات تتحدث بأصوات منفعلة مكتومة . ولم يكن أحد يقف وحيداً تقريباً ، بل ان سائر الوجوه تعبر عن الرغبة في الكلام وطرح الاسئلة والاصغاء الى الاجوبة . وراحوا يتمشون غدوة وروحة في الممر الضيق الابيض المحصور بين جدارين قاتمين ، وكأن ريحاً صرصراً تعصف بهم فيفتشون عن شيء متين ثابت يمكن ان يلقوا عنده مراسيهم ويطووا أشرعتهم .

وكان شقيق بوكين البكر ، وهو فتى طويل القامة ، رقيق المحيا مثل أخيه، يلوّح بذراعيه ويستدير في كل الاتجاهات ساعياً الى ان يبرهن شيئاً ما :

– كليبانوف هذا ، رئيس المحافظة ، لا شأن له ههنا البتة ...

فقال عجوز قصير ، هو أبوه دون ريب ، رانياً حواليه في حذر :

– أغلق فمك ، يا قسطنطين .

– كلا ، لا أريد ! ثمة بعض الإشاعات تقول انه قتل احد موظفيه في العام الاخير من أجل زوجة الموظف . انه يعيش معها ! ماذا تسمون هذا ؟ بالاضافة الى ذلك ، فالجميع يعرفون انه لص ...

– محبة بالله ، يا قسطنطين ...

وقال صموئيلوف :

– حسناً ، حسناً . لستم تستطيعون القول ان المحاكمة هي غير قانونية ونظامية ...

وسمع بوكين صوته فاقترب منه مسرعاً ، جاراً معه سائر الباقين . وكان وجهه احمر اللون ، وهو لا يفتأ يلوح بذراعيه ويصيح :

– عندما يكون هناك قضية قتل وسرقة فان لجنة من المحلفين تحاكم الناس... يحاكمهم عامة الشعب ، الفلاحون وسكان المدينة والعمال . اما عندما يقوم الناس ضد السلطات فان السلطات نفسها هي التي تحاكمهم . مـــا تسمون هذا ؟ انت تهينني ، فألطمك على حنكك ، فتذهب انت وترفع الدعوى عليّ . ولا ريب انك تجدني مذنباً ، ولكن من هو السابق الى ارتكاب الخطأ ؟ انت !

وفرق الحشد حرس أشيب الشعر ، مقوس الانف ، مغطي الصدر بالمداليات والاوسمة ، وهزّ إصبعه في وجه بوكين متوعداً . قال :

– كف عن الصياح ، فأنت لست في حانة .

– حسناً ايها السيد ! اني أفهم ، ولكن اذا كنت انا الذي اضطر الى ضربك ، ثم كنت انا القاضي ، فمن تظن ...

فقال الحارس بصرامة :

– أظن انه من الافضل ان أرمي بك خارج هـــذا المكان ! ... تلك هي القضية !

– تلقي بي خارجاً ؟ ولماذا ؟

– لانك تثير هذا الضجيج . هيا ، واخرج الى الشارع .

فنظر بوكين الى أولئك الذين يحيطون به ، ثم قال بصوت خافت :

– كل ما يريدون هو ان يُسكتوا الناس .

فصاح الشيخ بقسوة :

– طبعاً ، ماذا تحسب إذن ؟

فهزّ بوكين كتفيه ، وبدأ يتكلم بهدوء اكثر :

– ولمَ لا يسمح للشعب بحضور المحاكمة ؟ للأقارب فقط ؟ ان كانت محاكمتك قانونية فاسمح للجميع بحضورها ، من تخاف ؟

فأجاب صموئيلوف بصوت مرتفع :

– المحاكمة ليست قانونية ، هذا الامر ليست فيه خلجة من شك .

وأرادت الام ان تروي له ما سمعت من نيقولاي عن عدم شرعية المحاكمة ، ولكنها لم تفهم وتتذكر كل ما قال ، ثم انها نسيت بعض الكلمات . وحاولت ان تتذكرها ، فتنحت جانباً ، ولاحظت ان فتى في مقتبل العمر ، رفيع الشارب ، يراقبها ويده اليمنى في جيب سرواله ، مما جعل كتفه اليسرى أوطأ من اليمنى ، الامر الذي بدا مألوفاً لدى الام نوعاً ما . ولكنه سرعان ما أدار لها ظهره فنسيته في اللحظة ذاتها ، منهمكة في أفكارها الخاصة ومحاولتها تذكّر ما فاتها . ولكن أذنها التقطت ، في اللحظة التالية ، سؤالاً خافتاً :

– هذه ؟

فجاء الجواب المتلهّف :

– نعم !

فتطلعت حواليها ... كان الرجل المرفوع الكتف الواحد يقف جانباً يقول شيئاً لجاره ، وهو فتى اسود اللحية ، يتوشّح معطفاً قصيراً ، وحذائين يبلغان منه الركبتين ...

نقّبت مرة أخرى في ذكرياتها واضطربت، ولكنها لم تجد شيئاً معيناً واضح الحدود . كانت ممتلئة رغبة في ان تحدث الناس عن مثل ابنها الأعلى ، لتسمع ماذا سيقولون ضده ، فتقدّر هكذا ما سيكون حكم المحكمة عليه . بدأت تقول في حيطة وصوت خفيض ، متوجهة الى سيزوف :

– أهكذا يسيرون بالمحاكمة ؟ يصرفون كل الوقت ساعين لان يجدوا من ارتكب هذا وذاك ، دون ان يعيروا انتباهاً للسبب الذي فعلوه من أجله . وهم جميعاً شيوخ متقدمون في السن . يجب أن يحاكمهم الشباب .

فوافق سيزوف قائلاً :

– بلى ، ليصعب علينا فهم مثل هذه الاعمال ، يصعب جداً .

وهزّ رأسه متفكراً ...

فتح الحرس باب المحكمة ، وصاح :

– الاقارب . أظهروا بطاقاتكم .

وقال شخص ما ، معلقاً على ذلك في حذر :

– البطاقات ! لكأننا في سيرك .

ان نقمة غاضبة تعصف بين الناس ، فقد أصبحوا أكثر هرجاً وأكثر حرية، وأكثر تطاولاً مع الحرس .

٢٥

دمدم سيزوف بشيء ما، دل عليه صرير أسنانه وهو يأخذ مكانه من الدكة، فسألته الام :

– ما بالك ؟

– لا شيء على التعيين . ان الناس حمقى ...

قرع الجرس ، وارتفع صوت يقول :

– المحكمة ...

وهبّ الجميع نهوضاً مرة أخرى عندما دخـــل القضاة واتخذوا أماكنهم بالترتيب السابق ، ثم جيء بالمساجين الى مقاعدهم . همس سيزوف :

– انتبهي ! المدّعي العام سيلقي مرافعته .

فمالت الام بكل جسدها الى الامام يحدوها توقّع جديد لشيء هائل .

وقف المدعي العام الى جانبي القضاة ، واستدار بوجهه نحوهم ، معتمداً بأحد مرفقيه المنصة أمامه، وأرسل زفرة عميقة، ثم بدأ يتحدث ملوّحاً بيده اليمنى . ولم تستطع الام التقاط كلماته الاولى ، فقد كان صوته ثخيناً سيّالاً ، لكنه غير ثابت ، فهو سريع تارة ، وتارة كثير التماهل . كانت الكلمات تأتي طوال فترة من الوقت بطيئة رتيبة مثل خياطة دقيقة ، ثم تصبح، على حين فجأة، متلاحقة

متسارعة فتحلـّق في جوّ القاعة مثل سرب من الذباب حول قطعة من السكر . ولم تجد الام فيها شيئاً مرعباً او متوعداً ، فهي تتبعثر في القاعة باردة كالثلج ، رمادية كالرماد، تملؤها قليلاً فقليلاً بضجرٍ مثير مثل غبار دقيق جاف . وكان يبدو ان هذا الخطاب ، الثري بكلمات ، الفقير من كل عاطفة ، لا يبلغ بافل ورفاقه مطلقاً ، ولا يؤثر فيهم ابداً بكل تأكيد ، فهـــم يجلسون هنالك وراء القضبان هادئين مثلهم أبداً ، يتحدثون بأصوات مخفوضة ، ويبتسمون أحياناً ، ومن وقت لآخر يعبسون كي يُخفون ضحكهم .

همس سيزوف :

– انه يكذب .

لم تكن هي تستطيع ان تقول هذا . كانت كلمات المدعي العـــام تصل الى مسمعيها فتدرك انه يتهم سائر المساجين دون استثناء . فبينا هو يتكلم عـــن بافل ، شرع يتحدث عن فيودور ، وعندما انتهى من فيودور انتقل الى بوكين، فكأنه يريد حزمهم جميعاً في ابـّالة واحدة . ولم ترضَ الام عن معنى كلماته الصوري التي لم تؤثر فيها ولم تُخفها ابداً . فهي ما برحت تترقب شيئاً مهولاً فتروح تبحث عنه وراء كلماته ، في وجهه ، وعينيه وصوته ، وفي يده البيضاء التي يلوّح بها برشاقة في الفضاء دون انقطاع . اجل ، لقد كان ثمة شيء مخوف ، والام تحسه ، ولكنها تعجز عن الامساك به وتعريفه في كلمات محدودة ، وان كان قلبها لا يفتأ يحذّرها منه باستمرار .

وتطلعت الى القضاة : مما لا ريب فيه ان الخطاب يبعث الضجر في قلوبهم ، فهذه الوجوه العديمة الحياة ، الرمادية الصفر ، خالية من اي تعبير على الاطلاق . وكلمات المدعي العام تبثُّ في الفضاء ضباباً غير مرئي يتكاثف حول القضاة ويغمرهم اكثر فأكثر بسحابة من اللامبالاة والانتظار التعب الملول . ولم يـــك رئيس المحكمة يأتي حركة ، بل هو يجلس جامداً ، مستقيماً كالعصا، ومن وقت لآخر تختلط البقعتان الرماديتان وراء نظارتيه بامتداد وجهه العديم اللون

وتذوبان فيه . وبينما هي تحدج هذه اللامبالاة الميتة ، هـــذا التجرّد العديم الاحساس والعاطفة ، لم تستطع الامتناع عن التساؤل « أحقاً انهم يحاكمون ؟ » .

وانقبض قلبها لهذا الارتباك طارداً شيئاً فشيئاً ذلك الترقُّب لما هو مخوف مرعب ، غير محتفظ الا باحساس حاد من الاهانة ليس غير .

انتهت مرافعة المدعي العام على غير انتظار ، فأضاف اليها بضع كلمـــات سريعة اخيرة ، وانحنى للقضاة، ثم جلس في مقعده وهو يفرك يديه . واشار مارشال النبلاء نحوه برأسه وهو يحملق بعينيه ، ومدَّ يده إليـــه ، أما رئيس المحافظة فشخص الى معدته بكل بساطة وابتسم . ولكن القضاة لم يبتهجوا بخطابه فيما يبدو ، فظلوا في مقاعدهم جامدين دون حراك ، ثم قـــال الرجل العجوز ، وهو يقرّب ورقة من وجهه حتى كادت تلتصق به :

— والآن ، فان المحكمة ستستمع الى محامي الدفـــاع عن فيدوسييف وماركوف وزاجاروف .

فنهض المحامي الذي أبصرته الام في العشية عند نيقولاي . كان وجهـــه عريضاً دمثاً ، ذا عينين صغيرتين تلتمعان مثل شفرتين حادتين من تحت حاجبيه الحمراوين ، تقطعان الهواء مثل المقص . وراح يتكلم بصوت مرتفع ، وبصورة واضحة غير متسرعة ، ولكن الام لم تستطع متابعة خطابه .

همس سيزوف في أذنها :

— أفهمت ما يقول ؟ فهمت ؟ يقول ان المساجين كانوا مختلطي العقل نصف مجانين . وكذلك هو فيودور في الحقيقة .

كانت خيبة الامل تجتاحها بصورة فظيعة حتى لم تستطع الى الجواب سبيلاً . وازداد احساسها بالاهانة حتى أصبح ثقلاً هائلاً يجثم على قلبها . ان بيلاجيـــا لتفهم الآن لمَ كانت تنتظر العدالة . لقد كانت تنتظر ان تشهد لقاء شريفاً صارماً بين حقيقة ابنها وحقيقة قضاته . كانت تنتظر ان يستجوبه القضـــاة طويلاً

وبانتباه جم ، وفي تدقيق كثير عما يعتمل في باطنه ، وانهم سينظرون بأعين لطيفة نيرة الى أفكاره وأفعاله حتى اذا رأوا الحقيقة أعلنوا بصوت مرتفع وبكل عدالة :

– ان هذا الانسان لعلى حق صراح !

ولكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث ، كان يبدو ان أولئك المتهمين المقدمين الى المحكمة بعيدون جداً عن ان تصل اليهم بصائر قضاتهم ، لا بل ان هؤلاء لا يأبهون لهم مطلقاً . وأضاعت الام ، في إعيائها ، كل اهتمام بالمحاكمة ، فراحت تفكر دون إصغاء الى ما يقال :

– أتسمون هذا محاكمة ؟

وهمس سيزوف مؤيداً :

– كذلك هم !

كان محام آخر يتكلم الآن ، وهو رجل قصير ذو وجه حاد القسمات شاحب اللون ، ساخر التقاطيع . وكان القضاة يقاطعونه باستمرار ... وقفز المدعي العام غاضباً وتفوّه بشيء عن سير المحاكمة ، حتى اذا انتهى نطق الرجل العجوز باحتجاج ضعيف ، فأصغى اليه محامي الدفاع مطرق الرأس احتراماً ، ثم تابع خطابه .

قال سيزوف :

– أنخسهم ، أنخسهم جيداً !

واجتاحت القاعة موجة من الهرج ، وبدا ان طاقة متعطشة الى القتال قد انطلقت من عقالها عندما شرع المحامي يلسع جلد القضاة السميك المتقادم العهد بكلماته اللاذعة . وبدا ان القضاة يقتربون من بعضهم البعض عابسين متجهمين حتى يردوا طعنات بلاغته الحادة .

ولقد نهض بافل الآن ، فاذا الهدوء يخيم فجأة على القاعة . ومالت الام الى الامام بكل جسدها ... كان بافل يتكلم في هدوء :

– اني لا أعترف ، باعتباري عضواً في حزب ، بأي حكم الا ذلك الذي يدينني به حزبي ، ولذلك فلن أتكلم كي أدافع عن نفسي . ولكني سأحاول ، نزولاً عند رغبة رفاقي الذين رفضوا ايضاً الدفاع عن انفسهم ، ان أوضح لكم



رئيس المحكمة

تلك الامور التي لم تفهموها ... لقد دعا المدعي العام مظاهرتنا تحت راية الديمقراطية الاشتراكية عصياناً على السلطة الحاكمة ، وراح ينظر الينا طوال الوقت على اننا قوم نحاول قلب القيصر . ولكني أحب ان أوضح هنا اننا لا

نعتبر الملكية الغلّ الوحيد الذي يقيّد بلادنا ، ولكنه الغل الاول والاقرب الى الادراك ، الغل الذي من واجبنا تحرير الشعب من ربقته .

أضحى السكون اعمق بفعل رنين صوته القوي الذي لاح كأنه يدفع جدران قاعة المحكمة بعيداً، حتى ليخال المرء ان بافل قد بعد جداً وأصبح في مستوى أعلى من السامعين له .

وتململ القضاة في ضيق وقلق في مقاعدهم . وهمس مارشال النبلاء شيئاً في أذن القاضي المترهل الوجه الذي أشار برأسه ، ثم همس شيئاً في اذن الرجل العجوز اليمنى ، بينا همس القاضي المعتلّ شيئاً آخر في اذنه اليسرى ، فاستدار الرجل الشيخ مترنحاً في مقعده ذات اليمين وذات اليسار ، وقال شيئاً لبافل ، ولكن صوته ضاع في تيار حديث فلاسوف المتدفق في ثبات :

– نحن اشتراكيون، وهذا يعني اننا ضد الملكية الخاصة ، هذا النظام الذي يفسّخ المجتمع ، ويقيم الناس ضد بعضها البعض ، ويخلق عداءً بين المصالح لا وفاق له ، ويلجأ الى الكذب والخداع في محاولات ستر هذا العداء او تبريره ، ويفسد سائر البشر بالاكاذيب ، والرياء ، والاعمال الشريرة . نحن نعتقد ان مجتمعنا ينظر الى الفرد على انه وسيلة للاثراء هو مجتمع لا إنساني معاد لمصالحنا ، فلا نستطيع قبول أخلاقه الكاذبة الثنائية ؛ نحن نفضح وقاحة موقفه من الفرد ووحشيته ؛ نحن نريد ان نناضل ، ولسوف نناضل ، ضدّ كل اشكال الاستعباد الجسدي والاخلاقي الذي يفرضه على الفرد مثل هذا المجتمع ، ضد سائر وسائل سحق الكائنات البشرية في سبيل الجشع الاناني الشخصي . نحن العمال قوم نصنع سائر الاشياء من دمى الصغار حتى الآلات الجبارة بعملنا وكدّنا ، ومع ذلك فنحن قوم محرومون من حق الدفاع عن كرامتنا الانسانية . يستطيع اي كان تسخيرنا لمآربه الشخصية ، ولكننا نريد الآن ان نحقّق درجة من الحرية تمكننا من استلام سائر السلطات بأيدينا . وان شعاراتنا بسيطة للغاية ، « فلتسقط الملكية الفردية ! » ، « سائر وسائل الانتاج ملك للشعب » ، « العمل واجب

الجميع على حد سواء » . ومن هنا تستطيعون ان تجدوا اننا لسنا مجرّد متمردين عصاة .

وأطلق بافل ضحكة قصيرة ، وارسل اصابعه في شعره ببطء ، والتمع النور في عينيه اكثر تألقاً منه في اي وقت آخر .

قال الرجل العجوز بصوت مرتفع واضح النبرات :

— أرجوك ان تتكلم ضمن الموضوع .

واستدار كي ينظر الى بافل ، فشخص للام ان نوراً جشعاً ، خبيثاً ، قد التمع في عينه اليسرى الخابية . وأثار سائر القضاة النظر الى ابنها ، وقد التصقت أعينهم بوجهه يريدون امتصاص قوته ، متعطشين الى دمائه حتى يبقوا الحياة في أجسادهم المنهوكة المضعضعة . ولكنه وقف هناك ، طويل القامة ، منتصب الظهر ، قوياً باسلاً ، يقول وقد رفع رأسه عالياً :

— نحن ثوريون ، وسنبقى ثوريين ما دام البعض لا يفعلون الا إصدار الاوامر ، والبعض لا يفعلون الا العمل والتنفيذ . نحن ضد ذلك المجتمع الذي أمِرتم بالدفاع عن مصالحه : نحن أعداؤه اللدُّد ، كما اننا اعداؤكم ايضاً ، فليس من مصالحة ممكنة بيننا اذن ما لم ننتصر في نضالنا . واننا ، نحن العمال ، لعلى يقين تام بالنصر . ان اسيادكم ليسوا بأقوياء كما يحسبون ، فتلك الملكية الخاصة التي يضحون من اجل توسيعها وحمايتها بملايين الحيوات التي استعبدوها ، تلك القوة بالذات التي تعطيهم السلطة علينا ، تثير الشقاق فيما بينهم ، وتدمرهم جسدياً ومعنوياً . ان تكاليف الدفاع عن الملكية الخاصة لباهظة . والحقيقة الراهنة أنكم ، انتم اسيادنا جميعاً ، اكثر عبودية منا . انكم مستعبدون روحياً — اما نحن فمستعبدون جسدياً فقط . انتم عاجزون عن تحرير ذواتكم من نير العادات والتعصب ، هذا النير الذي قتلكم روحياً . ولكن شيئاً لا يمنعنا ، نحن ، عن ان نكون احراراً في الروح . فالسموم التي تغذوننا بها أضعف من

الترياق الذي تصبون ، رغم ارادتكم ، في ضمائرنا . وإن وعينا للحقيقة ينمو باطراد ، وبسرعـــة متزايدة ، وهو يجذب أفضل الناس — سائر أولئك الذين يسعون اخلاقياً حتى اذا كانوا من بيئتكم الخاصة عينها . انظروا فقط ... لقد أضحيتم الآن وانتم لا تجدون من يستطيع القيام بدفاع أخلاقي عن طبقتكم ، لقد استهلكتم حتى الآن سائر الحجج التي يمكن ان تنقذكم من الهجمات الساحقة التي تشنُّها عليكم العدالة التاريخيـــة . انكم عاجزون عن خلق اية افكار جديدة ، فلقد أجدبتم فكرياً . ولكن افكارنا تنمو ، وهي تلتهب بتألـــق متزايد الشدة والاشعاع ، تلهم الجماهير وتنظّم نضالها في الحرية . ان وعي الدور العظيم الذي ستلعبه الطبقة العاملة يوحّد سائر عمال العالم في قوة واحدة ، وليس لديكم شيء تجابهون بـــه تجدُّد الحياة الذي يحملونه الى العالم ، أللهم الا الوحشية والصفاقة . ولكن الصفاقة كثيرة الوضاح ، واما الوحشية فتثير النقمة ، وان الايدي المطبقة اليوم على أعناقنا سوف تمتد الينا غداً في مصافحة أخوية . طاقتكم مضاعفة الذهب الآلية ، وهي تقسمكم فرقاً ، مصيرها ان يلتهم بعضها بعضاً ؛ اما طاقتنا فتقوم في وعي حي متزايد الشدة باضطراد ، وعي تضامن سائر الشغيلة . كل ما تفعلون اجرام ، لانه موجه نحو استعباد الناس ؛ أكاذيبكم وجشعكم وشروركم قد خلقت عالماً من الاشباح والابالسة لاخافة البشر ، وانه لواجبنا ان نحررهم من هذه الابالسة . لقد انتزعتم الانسان من الحياة ودمرتموه ، ولكن الاشتراكية ستأخذ هذا العالم الذي هدمتموه وتعيد بناءه في كلٍّ واحد . ذلك سيحدث بكل تأكيد !

وتوقف بافل برهة عابرة ، ثم ردد في نبرات أقوى وأعذب :

— ذلك سيحدث بكل تأكيد !

تهامس القضاة وكشروا بصورة غريبة دون ان يحيدوا بأعينهم عن بافل ، فأحست الام انهم يوسخون جسده القوي بنظراتهم المليئة حسداً لصحته ، وقوته ، وحيويته . وكان المساجين يستمعون الى خطاب رفيقهم بانتباه شديد ، شاحبي

الوجوه ، براقي الاعين سعادة وهناء . وكانت الام تنهل كلاً من كلمات فتاها ، فتنطبع في ذهنها في صفوف متراصة ... ولقد قاطع الرجل العجوز بافل عدة مرات ، محاولاً ايضاح شيء مـــا ، حتى انه كشّـر مرة عن ابتسامة كئيبة . وكان بافل يتوقف في كل مرة كي يعود فيتابع الحديث في ثبات رزين يجرُّ الناس للاصغاء اليه ، مخضعاً ارادة القضاة لارادته الخاصة . ولكن الرجـــل العجوز صاح أخيراً في عنف ومدَّ يده ملوحاً ، فاتخذ صوتُ بافل ، جواباً عليه ، نغمةً من السخرية :

– اني أختم حديثي ... ليس لي رغبة في اهانتكم شخصياً . بل اني امتلأت ، على العكس ، عطفاً نحوكم وانا جالس ههنا شاهداً مرغماً على هـــذه المهزلة التي تسمونها محاكمة . انكم كائنات بشرية رغم كل شيء ، واننا لنشمئز دائماً عندما نرى الكائنات البشرية ، حتى الذين يعادون قضيتنا ، ينحطـّون هكذا ، بمثل هذا العار ، ويتدهورون في خـــدمة القوة الهمجية ؛ محرومين كل الحرمان من شعورهم بالكرامة الانسانية ...

وجلس دون ان ينظر الى القضاة ، بينما ثبتت الام انظارها فيهم منقطعة الانفاس .

كان وجه اندريه مشرقاً كل الاشراق وهو يضغط على يد بافل ، وانحنى نحوه صموئيلوف ، ومازين ، والباقون جميعاً ، فابتسم بافل مرتبكاً من حماسة رفاقه ، وتطلع نحو أمه وأشار برأسه ، فكأنه يسألها :

– هل انت راضية ؟

فأجابت بتنهدة سعيدة ، وقد أشرق وجهها بموجة دافئة من المحبة .

همس سيزوف :

– والآن ، فان المحاكمة الحقيقية تبدأ . لقد نخسهم جيداً ، أليس كذلك ؟

فهزّت رأسها ولم تفه بحرف ، سعيدة لان ولدها قد تكلم بكل تلك الجرأة – ولربما كانت اكثر سعادة لانه انتهى من خطابه . وكان سؤال لا يفتأ يهاجم ذهنها بضرباته :

– والآن ، ماذا هم فاعلون ، يا ترى ؟

٢٦

لم يقل ابنها شيئاً جديداً عليها، فقد كانت متآلفة مع سائر أفكاره. ولكنها أحست للمرة الاولى هنا، امام المحكمة، بانجـــذاب غريب الى إيمانه. كانت مذهولة لرزانة بافل، فراح خطابه يتكاثف في صدرها مثل نجمة مشعة من الايمان بقضيته، وبانتصاره الاخير. وانتظرت ان يبدأ القضاة نقاشاً حاداً معه الآن، يناقضونه في غضب، ويقدمون آراءهم الخاصة. غير ان اندريه نهض واقفاً، وتأرجح في مكانه، ورمى القضاة بنظرة صارمة من تحت حاجبيه، وقال:

– يا حضرات المحامين...

فقال القاضي المعتل بصوت مرتفع غاضب:

– انت تخاطب القضاة، ولا تخاطب المحامين...

وميَّزت الام في وجه اندريه سيماء الخبث. ارتجف شارباه، والتمعت عيناه ببريق من المكر مألوف عنده، وحكَّ رأسه بعنف بيده الطويلة النحيـــلة، وتنهد، وقال:

– حقاً؟ لقد كنت أعتقد انكم لستم قضاة، بل محامين.

فلاحظ الرجل العجوز في جفاء:

– أرجوك ان تتحدث في الموضوع.

– في الموضوع ؟ حسناً جداً . اني لاضطر نفسي اذن على القبول بكونكم قضاة حقاً ، رجالاً شرفاء مستقلين ...

– ان المحاكمة لفي غنىً عن تقريظك !

– هي في غنىً ؟ حسناً، ومع ذلك فسأتابع... فلنقل اذن انكم قوم حياديون، غير متعصبين أو متحيزين ، دون « هذا لكم »، و « هذا لنـــا » . ان امامكم فريقين ، يقول أحدهما : لقد سرقني وصفعني ، والآخر يقول : اني املك الحق في سرقة الناس وصفعهم لاني املك بندقية ...

فسأل الرجل العجوز ، وهو يرفع صوته :

– هل انت عاجز عن الحديث في الموضوع ؟

كانت يداه ترتجفان ، فابتهجت الام اذ تراه غاضباً . ولكنها استاءت من سلوك اندريه ... ان تصرفه لا يتناسق ، نوعاً ما ، مع خطاب ابنها ... انها تريد ان تكون حججهم رزينة ، وقورة .

ولَتسَحَ الاوكراني الرجلَ العجوز بنظره في سكون قبل ان يتابع في رزانة، وهو يمسح جبينه :

– في الموضوع ؟ ولمَ اتكلم في الموضوع ؟ قد قال لكم رفيقي كل ما يجب أن تعرفوه في الوقت الحاضر. وان آخرين سيقولون لكم البقية عندما يحين الوقت...

فأنهض الرجل العجوز نفسه في مقعدة ، وصاح :

– اسكت ... المتهم الثاني – جريجوري صمونيلوف !

فضم الاوكراني شفتيه ، وجلس على مقعده بتكاسل . ووقف صمونيلوف الى جانبه ، وهو يدفع بخصل شعره المجعد الى الوراء :

– المدعي العام قد دعا رفاقي برابرة ، أعداء للحضارة ...

– قيّد نفسك بما يتعلق بمحاكمتك الخاصة .

– وهذا يتعلق بها . ليس هناك شيء لا يتعلّق بالنـــاس الشرفاء . ثم اني أرجوكم الا تقاطعوني . ما هي حضارتكم ؟ هذا ما اود معرفته .

فزمزم الرجل العجوز ، وهو يعرّي اسنانه :

– لسنا هنا لنخوض نقاشاً معاً ! انتقل الى القضية !

ان تبدلاً واضحاً قد طرأ على القضاة بعد كلمات اندريه ، فكأنها قد كنّست شيئاً كان عالقاً بهم وجرفته بعيداً ، فظهرت بقع حمر على وجوههم الرمادية ، وراحت شرارات خضر باردة تلتمع في عيونهم : لقد ثارت نقمتهم لخطاب بافل ، ولكن قوة كلماته أجبرتهم على احترامه ، والامتناع عن التعبير بالكلام عن نقمتهم هذه . ولكن الاوكراني أزاح ذلك العائق ، وكشف عمـــا كان يكمن وراءه ، فراحوا يتهامسون ، مكشرين بصورة غريبة ، مهتاجين بشدة حتى أصبحت حركاتهم سريعة جداً ، غير معهودة في القضاة .

– انكم تعلمون الناس كيف يكونون جواسيس ، وتغرون النساء والفتيات وتغوونهنّ ، وتجعلون من الرجال لصوصاً وقتلة ، وتسممونهم بالفودكا ، والحروب الدولية ، والاكاذيب ، والعربدة ، والجهالة ... تلك هي حضارتكم ! واننا لأعداء مثل هذه الحضارة !

فصاح الرجل العجوز :

– أرجوك ...

لكن صموئيلوف ردّ عليه ، مضرّج الوجه ، براق العينين ، صائحاً :

– نحن نحترم ونقدّر تلك الحضارة الاخرى ، التي ينادي بها أولئك القوم الذين تُلقون بهم في السجن كي يتعفنوا ويذووا ويضيعوا عقولهم ...

– إصمت ! المتهم الثاني – فيودور مازين !

فهبّ مازين الصغير على قدميه ، منتصباً ناحلاً كالمخرز ، وغمغم :

– اني ... اني أقسم ! انا اعلم انكم قد اصدرتم سلفاً حكمكم عليّ !

وشحب وجهه كثيراً ، حتى بدا ان عينيه هما كل ما بقي منه . صاح ، وهو يهزّ قبضته :

– انا – أقسم لكم بشرفي – اينما ارسلتم بي ، فلسوف اتـــدبر امر هربي بطريقة ما ، وأتابع العمل والنشاط دائماً – طوال حياتي . اني اقسم على ذلك !

أرسل سيزوف فحيحاً عالياً وتململ في مقعده ، واجتاحت موجة من الهمس الجمهور المتفاقم الهياج ، وبكت احدى النساء ، بينما أصابت احد الحاضرين نوبة عنيفة من السعال . وتطلع رجال الدرك الى المساجين في ذهول ، والى المتفرجين في غضب . وترنح القضاة في مقاعدهم الى الامام والخلف ، في حين صاح الرجل العجوز :

– المتهم الثاني – ايفان جوسيف .

– ليس لديّ ما اقول .

– المتهم الثالث – فاسيلي جوسيف .

– وكذلك انا .

– فيودور بوكين .

فنهض الفتى المبيض ، الخرنوبي الشعر ، في تثاقل ، وقال وهو يهزّ رأسه :

– يجب ان تخجلوا من أنفسكم . اني رجل قليل الثقافة ، ولكني استطيع مع ذلك فهم ما هو عدل .

ورفع يـــده فوق رأسه ولاذ بالصمت ، وقد أغمض عينيه نصف إغماضة فكأنه يرنو الى شيء ما في المنتأى . وصاح الرجل العجوز في دهشة غاضبة ، وهو يرتمي الى الوراء في مقعده :

– ما هذا ؟

– قفوا ! ... فليأخذكم الشيطان ...

– ثم جلس مكفهر الوجـــه . كان في كلماته القاتمة شيء كثير الضخامة والاهمية، شيء من العتاب المكتئب الحزين . ولقد أحسّ ذلك سائر الحاضرين، لا بل ان القضاة ايضاً قد أصاخوا بسمعهم فكأنهم يتوقعون صدى يكون أوضح من أقوال بوكين نفسها . وخيّم سكون متجـــلد على المتفرجين لا يحطمه الا غصات من البكاء قليلة مرتعشة . وأخيراً هزّ المدعي العام كتفيه وأرسل ضحكة قصيرة ، وسعل مارشال النبلاء ، وشملت القاعة من جديد موجة من الوشوشة .

همست الام في أذن سيزوف :

– هل يتكلم القضاة ؟

– لقد انتهى كل شيء ، ولم يبقَ إلا الادانة ...

– لا شيء سواها ؟

– لا .

ولم تستطع ان تصدقه .

كانت والدة صموئيلوف تتحرك باضطراب دائب فوق دكتها ، وهي تدفع بيلاجيا بكتفها ومرفقها . سألت زوجها :

– ما هذا ؟ كيف يمكن ذلك ؟

– كما ترين ، انه ممكن تماماً .

– وماذا يفعلون بجريشا ؟

– أفٍ ، دعيني وشأني .

كان الجميع يحسون وقوع بعض اعتداء ، ويدركون حدوث بعض تمزق ،

انحطام شيء لم يكن منتظراً ، فطفقوا يطرفون بأعينهم دون فهم ، فكأنهم يراقبون كتلة غير واضحة الحدود ، غامضة المعنى ، لكن ذات قوة لا تقاوم ، تحترق بلهيب عظيم . وراح الناس ، دون ان يفهموا هذا الشيء العظيم الذي كُشف النقاب عنه بغتة أمام أعينهم ، يبعثرون هذا الشعور غير المألوف في أمور تافهة يستطيعون فهمها . سأل بوكين البكر في همس مرتفع :

– اسمعوا – لِمَ لا يتركونهم يقولون ما يريدون قوله ؟ لقد تركوا المدعي العام يقول ما يحلو له ، وما شاءت له قريحته ان يقول .

وكان احد الحجّاب يقف قرب المقاعد ، فلوّح بيده في وجه الناس وقال محذراً :

– هدوءاً ، هدوءاً .

وانحنى صموئيلوف من وراء ظهر زوجته، وراح يتمتم بكلمات متكسرة :

– حسناً ، فلنقل انهم مذنبون ، ولكن اعطوهم فرصة كي يوضحوا ما يريدون ! ضد من هم ؟ هذا ما أريد معرفته . ذلك يثير اهتمامي انا أيضاً ...

فحذّر الحاجب ، وهو يهزّ إصبعه في وجه صموئيلوف :

– صه !

فهز صموئيلوف رأسه في كآبة ...

وأجالت الام نظرها في القضاة فلاحظت ان انفعالهم يتزايد، وهم يتحادثون بصورة غير واضحة . وكان صدى اصواتهم البارد اللزج يلفح وجهها فيرتعش له خداها ، ويمتلىء فمها بطعم كريه مزعج . وخيل اليها، لسبب ما، انهم يتكلمون عن اجساد ابنها ورفاقه ، عن عضلات هؤلاء الفتيان واعضائهم الطافحة دماً حاراً وقوة حية . ان مثل هذه الاجساد لتثير فيهم حسد المتسولين الوضيع ، وذلك النهم الرديء الدبق الذي يملك عادة نفوس المرضى والعميدين المشرفين من

الموت . انهم يتلمظون بشفاههم ، ويتحسرون على خسارة مثل تلك الاجساد القمينة بالعمل وزيادة الغنى ، الضمنية بأن تكون خلّاقة ، وان تتمتع بالحياة . ولكن هذه الاجساد تُسحب من الدوران ، وتُلقى بعيداً عن ميدان الحياة ، وهذا يعني انها أصبحت ممتنعة بعد الآن على الامتلاك ، والاستثمار ، والاستهلاك . وذلك هـــو السبب في ان هؤلاء الفتيان يثيرون في القضاة الشيوخ تلك النقمة القارصة ، الساعية الى الانتقـــام ، المتعطشة الى الثأر ، التي تحسها الحيوانات المستضعفة حين ترى الطعام الطازج امام عينيها ولكنها تفتقر الى القوة اللازمة للامساك به ، هذه الحيوانات التي لم تعد بقادرة ان تنال شبعها من قوى المخلوقات الاخرى، بل كل عزمها ان تزمجر وتعوي اذ ترى وسيلة طيبة لارواء غليلها تفلت منها وتضيع عليها .

كانت هذه الافكار الغريبة الفجة تتضح في ذهنها اكثر فأكثر كلما زادت إمعاناً في دراسة القضاة . وهدهد لها أنهم لا يبذلون أدنى جهد كي يخبئوا ذلك الجشع الشديد وهذا الغيظ العاجز اللذين يميزان المخلوقات الجائعة التي عرفت يوماً معنى الشبع والتخمة . وكان يخيفها – وهي المرأة والام التي جسد ابنها أعزُّ عليها، في آخر تحليل، مما يطلقون عليه اسم النفس – ان ترى هذه الاعين الخابية تزحف على وجهه ، وتلمس صدره وكتفيه وذراعيه ، وتحتك بلحمه الحي فكأن هذا الاحتكاك سيدفىء الدم الجاري في أوردتهم الضامرة ، وعضلاتهم المنهوكة نصف الميتة . ان وخزات الجشع والحسد التي يلسعهم بها تأمل هؤلاء الفتيان الذين قدر لهم ان يدينوهم ، فيحرمون بذلك انفسهم من اجسادهم الى الابد، لتبعث الحياة فيهم نوعاً ما . وبدا لها ان بافل يعي هذا الاحتكاك الرطب الكريه، فينظر اليها مرتعشاً مرتجف الاوصال .

ترنّى بافل اليها في هدوء وحنان وفي نظرته ظل من الاعياء . ومن وقت لآخر كان يشير اليها برأسه ويبتسم . وقرأت في ابتسامته ، الاشبه ما تكون بالعناق والمداعبة ، هذه الكلمات : « الحرية – عما قريب » .

ونهض القضاة فجأة ، فنهضت الام ايضاً دون وعي منها . قال سيزوف :

– ها هم ذاهبون !

فسألت الام :

– من اجل الادانة ؟

– نعم .

وانقطع الوتر الذي كانت ترزح تحته على حين بغتة ، فاجتاحها اعياء شديد كاد يذهب بوعيها . وراح حاجباها يرتجفان ، وانبثقت قطرات من العرق فوق جبينها ، وانبجس في قلبها شعور ثقيل الوطأة من الاذى وخيبة الامل ، سرعان ما استحال الى كراهية للقضاة والمحكمة جميعاً . واحست صداعاً شديداً، فأمرّت يدها على جبينها وتطلعت حواليها. كان اقارب المساجين قد انطلقوا نحو القضبان، وقاعة المحكمة غاصة بدوي الاحاديث ، فذهبت بدورها الى بافل ، وضغطت على يده واجهشت بالبكاء وقد طفح قلبها ألماً وفرحاً في وقت واحد ، وضاعت في تيه من العواطف المتناقضة ... راح بافل يحادثهـــا في لطف، بينما الاوكراني يضحك ويهزل .

وبكت سائر النسوة ، لا غماً ، بل خضوعاً لطبيعة البكاء . لم يكن ثمة اي غم ساحق ، يسقط من العلاء غير منظور وعلى غير انتظار ، بل كان ثمة ضرورة الفراق عن أبنائهن ، وهذه الضرورة التي خففت من وطأتها أيضاً انفعالات هذا النهار . كان الآباء والامهات ينظرون الى ابنائهم بمشاعر مختلطة يمتزج فيها – بصورة غريبة – الارتياب والتشكك بالشباب ، وإحساس تفوّقهم المعتاد على فتيانهم ، بشعور اقرب ما يكون الى الاحترام . ان الإعجاب بهؤلاء الفتيان الذين تكلموا بكل تلك الجرأة غير الهيابة عن بناء حياة اخرى افضل من هذه ليكسف تلك الافكار الكئيبة التي تراودهم عن حياتهم بعد الآن دون أولادهم. وكُظمت العواطف لاستحالة التعبير عنها ، ولكن الكلمات كانت غزيرة عن

توافه الامور مما يتعلق بالثياب ، والبياض ، وضرورة العناية بالصحة هنــاك في المنفى .

وراح بوكين البكر يلوح بذراعه ، وهو يحاول اقناع اخية الاصغر :

– العدالة – تلك هي القضية ! ولا شيء آخر !

فأجاب الاخ الاصغر :

– اعتنِ جيداً بزرزورنا .

– سأفعل .

وامسك سيزوف بابن اخيه من يده ، وقال :

– حسناً ، يا فيودور ، هذا يعني أنك تغادرنا ...

فانحى فيودور وهمس شيئاً في أنه وهو يبتسم في خبث . وكذلك ابتسم الحرس القريب منهما ، ولكنه اسرع يستعيد هيئته الصارمة وهو يسعل :

حدّثت الام فتاها مثل بقية النسوة تماماً – عن الثياب وعن صحته – ولكن صدرها كان مليئاً بآلاف الاسئلة المتعلقة بساشا ، وبها هي نفسها وبه ايضاً ، ويحلق فوق كل هذا موجة هائلة من المحبة لابنها ، ورغبة عظيمة في ادخـــال السرور الى قلبه ، وفي ان تكون قريبة من فؤاده حتى الدرجة القصوى . وولى ذلك الخوف من حدوث شيء ما كثير الرهبة ، تاركاً ارتعاشاً مقيتاً لدى ذكرى القضاة ، وتلك الانطباعات القاتمة المتوارية في اعماق ذهنها . كانت تحسُّ ولادة فرح عظيم براق في جوفها لم تكن تفهمه ، وان راح يشملها في عناق عنيف . واذ رأت ان الاوكراني يتكلم مع الجميع ، وانه يحتاج الى حنانها اكثر مما يحتاج بافل إليه ، استدارت نحوه تحدثه . قالت :

– إني لم أعجب بمحاكمتكم هذه !

فاستجلى ، وعلى شفتيه ابتسامة امتنان :

– لِمَ لا ، يا أميمة ؟ ان الطاحون عتيق . ولكنه جيد كالعقيق ...

فقالت في تردد :

– ليس فيهـــا ما يخيف ، ولكنها لا توضح لك أين هو الحق ، وأين هو الباطل ...

فهتف أندريه :

– أوه ! أوه ! اذن فهذا ما تريدين ؟ أتحسبين أنهم معنيون بالبحث عن الحقيقة ؟

فقالت ، وهي تتنهد وتبتسم :

– لقد كنت أظن انها ستكون مخوفاً .

– المحكمة ! ...

فأسرع كل الى مكانه ...

اعتمد رئيس القضاة المائدة بيد واحدة ، بينما أمسك بورقة في يده الاخرى قريبة من وجهه ، وراح يقرأ بصوت ضعيف مدوٍ .

قال سيزوف :

– من انها الأدانة .

وجثم السكون على القاعة ، وقد وقف الجميع وأعينهم عالة بالرجل العجوز الذي أشبه في ضآلته وانتصابه وجفافه عصا تمسك بها يد غير منظورة . وكان بقية القضاة وقوفاً ايضاً : رئيس المحافظة ، وقـــد مال رأسه على أحد الجانبين وعلقت عيناه بالسقف ؛ والعمدة ، وقد تصالبت يداه فوق صدره ؛ ومارشال النبلاء ، وهو يمشط لحيته ؛ والقاضي المعتل وزميله البدين والمدعي العام ، وهم ينظرون في اتجاه المساجين ... ووراء القضاة كان القيصر يتطلع من صورته ،

متألقاً في بزة حمراء ، وسيماء اللامبالاة تكسو وجهه الذي تزحف فوقه الآن حشرة صغيرة .

قال سيزوف ، وهو يتنهد ارتياحاً :

– النفي ! حسناً ، شكراً لله على ان كل شيء انتهى . لقد قالوا : « الأشغال الشاقة » . لا بأس يا أماه ، لا تقلقي..

فقالت بصوت متعب :

– كنت اعلم ذلك .

– وعلى أية حال ، فنحن نعرف الآن مصيرهم ، أما قبل فمن كان يدري ؟

واستدار نحو المساجين وهم يغادرون القاعة ، وصاح :

– الى اللقاء ، يا فيودور ! وانتم جميعاً ايضاً ! كان الله معكم !

وأشارت الام برأسها في سكون الى ابنها والباقين ، وأرادت ان تبكي ، لكنها خجلت من نفسها ...

٢٧

دهشت عندما خرجت من قاعة المحكمة اذ شاهدت الليل يرين على المدينة . كانت المصابيح تلتهب في زوايا الشوارع ، والنجوم تتلألأ في السماء. وقد تجمهرت جماعات من الناس قرب باب المحكمة يتكسر الثلج المتجمد تحت اقدامهم ، وتتردد بينهم أصوات فتية تقاطع بعضها بعضاً . تطلع رجل يلبس قبعة رمادية في وجه سيزوف ، وسأل بسرعة :

– ما هو الحكم ؟

– النفي .

– للجميع ؟

– نعم .

– شكراً .

وابتعد الرجل ، فقال سيزوف :

– أترين ؟ الناس مهتمون بالقضية .

وأحاط بهما عشرة من الفتيات والفتيان ، يمطرونهما بوابـــل من الاسئلة ، فيجتذبون أناساً آخرين ينضمون الى حلقتهم النامية باضطراد . وتوقفت الام وسيزوف معاً يتلقيان الاسئلة عن الادانة وعن سلوك المساجـــين ، وعن الذين

ألقوا الخطب ومـــاذا قالوا فيها ... وكانت سائر هذه الاسئلة تطفح بفضول مشوق ملتهف تبعث حميته وصدقه في النفس رغبة جموحاً في إرضائه .

قال احد الواقفين :

– ايها السادة ! هذه والدة بافل فلاسوف .

فسيطر السكون على الجميـع ...

– إسمحي لي بمصافحتك .

وأمسكت يد قوية بأصابع الام ، وارتفع صوت منفعل يقول :

– سيكون ابنك لنا جميعاً مثالاً للشجاعة والاقدام ...

وترددت صيحة مرتفعة :

– عاش العمال الروسيون !

وازدادت الهتافات وتضاعفت . وهي تنطلق تارة من هنا وتارة من هناك . وتراكض الناس من كل حدب وصوب يتحلـّقون حول الام وسيزوف . ورنت صفارات رجال الشرطة تقطع الفضاء ، لكنها لا تستطيع خنق الاصوات او إغراقها في لعلعها . وكان سيزوف يضحك ، اما الام فيتراءى لها انّ ذلك كله ان هو إلا حلم جميل ، فتبتسم وتنحني وتروح تضغط على ايدي الناس وحلقها غاص بدموع الفرح ، ورجلاها ترتجفان إعياء ، فيما قلبها الطافح بهجة وسعادة يعكس سائر الانطباعات مثل سطح بحيرة براق لامع .

وبدأ شخص قريب منها يتكلم بصوت عصبي واضح النبرات :

– ايها الرفاق . ان الوحش الذي يلتهم الشعب الروسي قد اطبق اليوم ايضاً بأنيابه على ...

وقال سيزوف :



« نحن اشتراكيون ، وهذا يعني اننا ضد الملكية الخاصة »

– الافضل ان نذهب يا أماه .

ظهرت ساشا في هذه اللحظـــة ، وأمسكت بالام من ذراعها وقادتها الى الرصيف الآخر من الطريق . قالت :

– هيا بنا قبل ان يحدث اصطدام مع الشرطة ، او يعتقل بعض الحاضرين . النفي الى سيبيريا ؟

– نعم .

وكيف تكلم ؟ ولكني أعلم - لقد كان أقوى الجميع ، وأبسطهم ايضاً ، واكثرهم صرامة بكل تأكيد . ان طبيعته حنـــون مرهفة الشعور ، ولكنه يخاف من إظهار ذلك .

هدأت من روع الام كلمات حبها هـــذه ، المهموس بها بكل تلك الحماسة وبكل تلك الحمية ، وبعثت فيها قوة جديدة ، فسألت ساشا وهي تضغط على ذراعها بحنان :

- ومتى ستلحقين به ؟

فأجابت الفتاة ، وهى تنظر في ثقة الى الامام منها :

- حين أجد من يستلم عملي هنا . وعلى اية حال ، فاني انتظر إدانة بدوري، ومن المحتمل ان يرسلوني الى سيبيريا ايضاً ، فان فعلوا سألتهم ان يرسلوني الى حيث أرسلوا به .

فجاء صوت سيزوف يقول :

- وفي هذه الحال بلـّغيه تحياتي، قولي له فقط : «من سيزوف». انه يعرفني، فأنا عم فيودور مازين .

فاستدارت ساشا اليه ومدت له يدها :

- اني اعرف فيودور ، واسمي ساشا .

- واسم أبيك ؟

فتطلعت في وجهه ، واجابت :

- ليس لي أب .

- هل مات ؟

- كلا لم يمت .

ورنّ في صوت الفتاة شيء عنيد صارم ، وانعكس في تقاطيع وجهها ايضاً :

– انه اقطاعي ، ورئيس ناحية الآن ... يسرق الفلاحين ...

– كذا ؟

قال سيزوف ذلك وراح يسير الى جانب الفتاة في سكون ، وهو يرشقها بنظرات جانبية طوال الوقت . قال اخيراً :

– حسناً ! الى اللقاء ، يا أم . اني ذاهب من اليسار ههنا . الى اللقاء ، يا فتاتي . انت قاسية على ابيك هذا ، أليس كذلك ؟ بالطبع ، ذلك من شأنك وحدك ...

فصاحت ساشا في انفعال وحمية :

– ان كان ابنك شريراً ، ان كان يؤذي الشعب وأنت تحتقره ، أفما كنت تقول ذلك ؟

فأجاب الرجل الهرم بعد لحظة من الصمت :

– حسناً ، أعتقد ذلك .

– وهذا يعني ان العدالة أعزّ عليك من ابنك، وإنها لأعزّ عليّ من والدي...

فابتسم سيزوف ، وهزّ رأسه :

– حسناً ، يا لك فتاة عظيمة ! يحسن ألا يشتبك المرء طويلاً معك ، لانك لا بدّ ستقهرين الشيوخ مثلي وتتغلبين عليهم ... انك لقوية جداً ! حسناً ، الى اللقاء ، ولك أفضل تمنياتي . ولكن ما رأيك في ان تكوني أرحم بالناس قليلاً؟ الى اللقاء ، يا نيلوفنا . عندما ترين بافل ، قولي له اني سمعت خطابه . اني لم افهم كل ما جاء فيه ، ولقد كان بعضه مخيفاً نوعاً ما ، ولكنه كان صحيحاً وحقاً على العموم .

ورفع قبعته ، واختفى وراء الزاوية في تماهل ...

قالت ساشا ، وهي تتبعه بنظرة مبتسمة من عينيها الواسعتين :

– يبدو انه شخص رائع !

واستبان للام ان وجه الفتاة اليوم ألطف وأرق منه عادة .

عندما بلغتا الدار جلستا متجاورتين على الديوان وهما تتحدثان عن مشروع ساشا في السفر للحاق ببافل . ووجدت الام السكون مريحاً ، اما ساشا فرفعت حاجبيها وراحت تنظر في المدى امامها بعينين واسعتين حالمتين ، وعلى محياها الشاحب سيماء التأمل الرزين ...

– عندما يولد أطفالكما ، فسألحق بكما للعناية بهم ، ولن تكون حياتنا أسوأ منها هنا . ولن يصعب على بافل ان يجد عملاً ... فهو يستطيع ان يفعل بيديه اي شيء كان ...

فتطلعت ساشا الى الام متسائلة ، وقالت :

– أفلا تنوين اللحاق به منذ الآن ؟

فأجابت الام ، وهي تتنهد :

– وما حاجته إليّ ؟ لن افعل اذن الا مضايقته واعتراض سبيله فيما لو أراد الفرار . لن يقبل ابداً بذهابي معه .

فأشارت ساشا برأسها ، وقالت :

– انت على حق ، فهو لن يقبل ابداً .

وأضافت الام في شيء من الخيلاء :

– وبالاضافة ، فهناك عملي هنا .

– نعم ، وهذا حسن .

وانتفضت ساشا بغتة، فكأنها تلقي بعيداً عنها بشيء يثقل عليها، وشرعت تقول بهدوء وبساطة :

– لن يقبل بالعيش هناك . ومن المؤكد انه سيهرب ...

– وماذا عنك ؟ وعن الطفل ، ان كان ثمة طفل ؟

– سوف نرى ذلك في حينه . يجب ألا يأخذني بعين الاعتبار ، وانا لن أسمح لنفسي قط بالوقوف في طريقه . وسيصعب عليّ كثيراً الافتراق عنه ، ولكني سأتدبر امري طبعاً . لن أقف ابداً في طريقه !

وأدركت الام ان ساشا قمينة تماماً بأن تفعل ما تقول ، فرثت لها . قالت ، وهي تقبّلها :

– سيكون ذلك قاسياً عليك ، يا عزيزتي .

فابتسمت ساشا في حنان واقتربت من الام . وفي تلك اللحظة دخل نيقولاي ، متعباً مجهد القوى ، وقال بسرعة وهو يخلع معطفه :

– يفضل ان تولي الادبار ، يا ساشا ، قبل ان يفوت الاوان . ان جاسوسين لم يكفا عن ملاحقتي منذ الصباح ... بصورة مكشوفة للغاية حتى لتفوح رائحة الاعتقال منها ، وان حدسي لا يخدعني ابداً ، فلا ريب ان شيئاً قد حدث . وعلى فكرة ، اليك خطاب بافل ... لقد قررنا ان نطبعه . خذيه الى لودميلا ، واسأليها ان تعمل بأقصى ما تستطيع من سرعة . لقد ألقى بافل خطاباً رائعاً ، يا نيلوفنا ... انتبهي الى الجواسيس ، يا ساشا ...

فرك يديه المتجمدتين وهو يتكلم ، ثم ذهب الى مكتبه وبدأ يُخرج أوراقاً من الجرارات مزّق بعضها ، ووضع بعضها الآخر جانباً . كان يبدو منهوك الاعصاب ، قلقاً للغاية :

– لقد مضى زمن طويل منذ نظّفت هذه الجرارات للمرة الاخيرة ،

والشيطان وحده يعلم من اين جاءت كل هذه الاشياء اليها . وأعتقد انه يحسُن ألا تقضي الليل في الدار ، يا نيلوفنا . ما رأيك ؟ لمن المضجر ان يشاهد المرء هذه المهذلة . ثم قد يأخذونك انت الاخرى . ولكن ، ينبغي لك ان تحملي خطاب بافل هنا وهناك ...

– وماذا عساهم يريدون مني ؟

فلوّح نيقولاي بيده امام عينيه ، وهو يقول في حزم :

– ان لدي أنفاً يشمُّ مثل هذه الامور . ثم انك تستطيعين تقديم يد المعونة الى لودميلا ، فمن الخير ألا تتعرضي للخطر إذن ...

سُرّت الام بفكرة المساهمة في طبع خطاب ابنها ، فقالت :

– اذا كان الامر كذلك ، فسوف اذهب .

وأضافت مدهوشة من نفسها :

– لم أعد أخاف من شيء على الاطلاق ، فشكراً لله .

فهتف نيقولاي ، دون ان ينظر اليها :

– رائع ؟ ولكن الافضل ان تقولي لي اين هي حقيبتي وثيابي . لقد أطبقت على كل شيء بيديك هاتين ، حتى اصبح يستحيل عليّ العثور على ممتلكاتي نفسها .

كانت ساشا تحرق الاوراق في الموقد بسكون ، وهي تخلط الرماد بالفحم .

قال نيقولاي ، وهو يمدّ إليها يده :

– آن لك الذهاب ، يا ساشا . الى اللقاء . لا تنسي ان ترسلي إليّ ما يظهر من كتب هامة . الى اللقاء ، ايتها الرفيقة العزيزة كوني حذرة ...

فسألت ساشا :

– هل تتوقع حكماً مديداً ؟

– من يدري . مما لا ريب فيه انهم يملكون أدلـّة ضدي . ألا يفضل ان ترافقيها ، يا نيلوفنا ؟ ان ملاحقة شخصين معاً أصعب من ملاحقة كل بمفرده .

فأجابت الام :

– حسناً ، سأرتدي ثيابي في لحظة واحدة .

راحت تراقب نيقولاي ملياً ، ولكنها لم تستطع ان تميّز فيه شيئاً غريباً ، أللهم إلا ذلك القناع الشاف من القلق الذي يكسو تقاسيم وجهه بسيائها المألوفة من الرقة واللطف . ما كان يصدر عن هذا الرجل ، وقد أضحى أعزّ على قلبها من الآخرين جميعاً، حركة تنمّ عن عصبية او اشارة تدل على اضطراب وانفعال. لقد حدب دائماً على الجميع بالعناية عينها ، وكان في كل حين لطيفاً هادئاً، وحيداً ابداً . وهو ما برح الآن ، في نظر الجميع ، مثله قبلاً ، انساناً يعيش حياة باطنية خفيفة تتقدم سائر الحيوات وتسبقها . وكانت تدرك انه اقرب اليها من الباقين جميعاً ، وانها تحبه مع ذلك حباً حذراً غير وطيد الثقة في نفسه . اما الآن فهي ترثي له بصورة لا تطاق ولا تحتمل ، ولا تجرؤ مع ذلك على إظهار إشفاقها لان هذا سيلقي الاضطراب في نفسه ، فيبدو عندئذ مضحكاً نوعاً ما ، وهي لا تريد ان تراه على هذه الحال .

وعندما عادت الى الغرفة وجدت نيقولاي ممسكاً بيد ساشا ، وهو يقول :

– عظيم ! اني لعلى يقين من ان ذلك حسن لك وله على السواء ، فقليل من السعادة الشخصية لا يؤذي احداً . هل انت مستعدة ، يا نيلوفنا ؟

واقترب منها ، وهو يبتسم ويصلح من وضع نظارتيه :

– حسناً ، الى اللقاء ... حتى ثلاثة او اربعة شهور ... ليس اكثر من ستة شهور كما أرجو ... ستة شهور ! ... انها لقطعة كبيرة من الحياة ! اعتني بنفسك ، والآن فلنتعانق مرة اخيرة .

وأحاطها ، نحيلاً رقيقاً ، بذراعيه القويتين ، وتطلع في عينيها ، ثم ضحك قائلاً :

– يبدو اني وقعت في حبك ، حتى اعانقك هكذا ...

قبلت جبينه وخديه دون ان تقول شيئاً ، ولكن يديها كانتا ترتجفان ، فأبعدتهما حتى لا يلاحظ ما عراهما من ارتعاش .

– كوني حذرة ! واليك ما يجب ان تفعليه : ارسلي صبياً صغيراً الى هنا صباحاً – لودميلا تعرف مثل هذا الصبي – حتى يتحقق مما حدث . حسناً، الى اللقاء ، ايتها الرفيقتان . كل شيء هو كما يجب ان يكون .

وعندما وصلتا الشارع ، كل شيء هو كما يجب ان يكون .

وعندما وصلتا الشارع ، قالت ساشا :

– اذا اضطر يوماً ان يمضي الى ملاقاة الموت . مضى اليه بمثل هذه البساطة وبمثل هذه السرعة . وعندما ينظر الموت اليه متطلعاً في محياه ، فسوف يُصلح من وضع نظارتيه ويقول : « عظيم ! » ، ثم يموت .

فقالت الام همساً :

– اني أحبه !

انه يدهشني ، ولكني لا أحبه . اني احترمه كل الاحترام ، فهو لطيف ، بلهَ حنون في بعض الاحيان ، ولكن فيه شيئاً جافاً ... انه ليس إنسانياً بصورة كافية ... يبدو اننا ملاحقتان ، فالافضل ان نفترق – لا تذهبي الى لودميلا اذا وجدت انك متبوعة .

– طبعاً .

لكن ساشا استمرت تقول في إصرار :

– لا تذهبي ، بل تعالي الى بيتي . الى اللقاء الآن .

واستدارت بسرعة ، وعادت أدراجها من حيث أتت .

٢٨

كانت الام تجلس ، بعد عدة دقائق ، في غرفة لودميلا الصغيرة بجانب الموقد تتدفأ ، فيما صاحبة الدار ، المرتدية ثوباً اسود محزوماً بزنار من الجلد في وسطه ، تذرع الارض ذهاباً وإياباً في بطء ، وهي تملأ الغرفة بحفيف ثوبها ورنين صوتها الآمر . وكانت النار تطقطق في الموقد وهي تمتص الهواء ، وصوت المرأة يسبح ثابتاً متساوي النبرات :

– الناس بلهاء اكثر منهم أشراراً ، فهم لا يستطيعون رؤية سوى ما هوى تحت انوفهم ، ما يمكن فهمه سريعاً . ولكن كل ما هو في متناول اليد رخيص... والاشياء البعيدة وحدها هي الثمينة العزيزة . عندما تفكرين بالامر تجدين ان كلا من الناس سيصبح اهنأ وافضل لو ان الحياة على غير ما هي عليه ... لو أنها أيسر والبشر اعقل . ولكن لا بدّ ، كي نحقق ذلك ، من خوض غمـــار بعض المشاكل .

ووقفت بغتة تجاه الام ، وقالت معتذرة :

– اني لا ارى الناس الا قليلاً ، وعندما يأتي احد لزيارتي فاني اروح في ثرثرة لا نهاية لها . هذا مضحك أليس كذلك ؟

فقالت الام :

– لماذا ؟

حـــاولت ان تعرف اين تقوم هذه المرأة بطبع مناشيرها وكراساتها ، فلم تستطع اكتشاف شيء غير طبيعي البتة . كان يقوم في هذه الغرفة ، بنوافذها الثلاث المطلة على الشارع ، اريكة ومكتبة ومائدة وبضعة مقـــاعد وسرير . وكانت مغسلة تحتل احدى الزوايا ، والموقد يحتل زاوية اخرى ، وصور معلقة على الجدران الاربعة في كل الجهات وكان كل شيء جديداً نظيفاً متقن الترتيب ، ولكن وجه المرأة الصارم يلقي على سائر الاشياء ظلاً بارداً واحست الام ان ثمة شيئاً مخيفاً ، ولكنها لم تستطـع تخمين مكانه . تطلعت الى البابين : احدهما يطل على الرواق وقد دخلت منه ؛ امـــا الثاني ، وهو مرتفع ضيق ، فينتصب الى جانب الموقد . قالت مرتبكة ، وهي تحسُّ ان لودميلا تراقبها :

– لقد جئت في عمل !

– اعلم ذلك ، فالناس لا يأتون لزيارتي الا من اجل عمل ما .

خيل الى الام انها تميز نغمة غريبة في صوت لودميلا ، فتطلعت في محياهـــا لترى ابتسامة شاحبة مرتسمة على صواريها الرقيقتين ، فردَّت ناظريها الى احدى الزوايا ، ومدَّت يدها بخطاب بافل :

– خذي . هم يودون منك ان تطبعي هذا في اسرع وقت ممكن.

ثم حدثتها عن توقع نيقولاي لاعتقاله .

دسَّت لودميلا الورقة في حزامهـــا دون ان تنبس ببنت شفة ثم جلست ، فالتمعت انعكاسات النار ، حمراً زاهية ، على زجـــاج نظارتيها ، بينا راحت ابتسامتها الدافئة تتلاعب فوق وجهها الجامد . قالت في هدوء وحزم بعد أن أصغت الى اقوال الام :

– عندما يأتون ورائي فسوف اطلق النار عليهم . اني املك الحق في الدفاع عن نفسي ضد العنف ، ولا بدَّ لي من اشعال نار القتـــال ضده ، ما دمت ادعو الآخرين الى ذلك .

وتلاشى لمعان النار عن وجهها ، فأضحى مرة أخرى صارمـــا ، متكبراً نوعاً ما .

فكرت الام في رفق :

– ان حياتك لبائسة .

وشرعت لوميلا تقرأ خطاب بافل باحجام وتردد ، ولكنها راحت تنحني أكثر فأكثر على الورقة وهي تتابـع القراءة ، حتى انتهت الى القاء الصفحات جانباً ، الواحدة تلو الاخرى ، في لهفة ونفاذ صبر . وأخيراً نهضت ، وشدت كتفيها منتصبة القامة ، واقتربت من الام .

قالت :

– خطاب رائع جداً .

ووقفت لحظة مطرقة الرأس ...

– اريد ان أتحدث اليك عن ابنك ... فأنا لم التق به ابداً ، كما اني لا احب الاحاديث المؤلمة . اني أعرف معنى الألم الذي يعتصر القلب عندما يُرسل الى المنفى انسان عزيز على القلب جداً . ولكن – أود ان اسأل – هل من الحسن ان يكون للمرء مثل هذا الابن ؟

فقالت الام :

– كثيراً .

– وذلك ليس – مرعباً ؟

فأجابت الام بابتسامة هادئة :

– أبداً ، بعد الآن .

فمسحت لودميلا شعرها بيد سمراء ، ثم استدارت الى النافذة . ومرّ خيال عابر على وجهها : لعله كان خيال ابتسامة مكبوتة .

– سوف أبدأ العمل فيه سريعاً . ارقدي أنت ، فقد قضيتِ يوماً صعباً ولا بد انك متعبة . اضطجعي على السرير هذا ، فأنا لن أنام ، ولربما ايقظتك في الليل كي تساعديني ... أطفئي المصاح عندما تسعين الى الفراش .

وألقت حطبتين في الموقد ، ثم خرجت من الباب الضيق ، واترسته وراءها بإحكام . راقبتها الام وهي تغادر الغرفة ، ثم شرعت تخلع ثيابها وافكارها مشغولة بها !

– انها حزينة لسببٍ ما ...

كانت شديدة الاعياء ، ولكن افكارها هادئة بصورة غريبة ، وكل شيء يضيء في عينها بنور لطيف عذب يغمر روحها في هدوء عظيم . وكان هذا الهدوء مألوفاً لديها ، فهو يهبط عليها دائماً بعد كل انفعال عنيف . ولقد كان يبعث في نفسها بعض القلق في البدء ، اما الآن فلا يعمل الا على توسيع آفاق روحها وتوطيدها بعاطفة جموح عتية . أطفأت المصباح ثم تسلقت السرير البارد ، وانكمشت تحت الغطاء ، ولم تلبث ان استغرقت في نوم عميق .

عندما فتحت عينيها كانت الغرفة تعج بنور نهار الشتاء الابيض البارد . وتطلعت لودميلا اليها من الاريكة حيث كانت تضطجع ، وكتاب بين يديها ، ثم ابتسمت بطريقة غير معهودة لديها . هتفت الام مرتبكة :

– يا الهي ! يا لي مخلوقة غريبة ! هل تقدم النهار كثيراً ؟

فأجابت لودميلا :

– عمي صباحاً . ستدق الساعة العاشرة عما قريب . انهضي ، وسوف نتناول قليلاً من الشاي .

– لِمَ لم توقظيني ؟

– اوشكت ان افعل ذلك ، ولكني عندما اقتربت منك كنت تبتسمين في نومك بسلام عظيم فلم أجرؤ على إيقاظك .

نهضت من الاريكة بحركة رشيقة ، واقتربت من السرير وانحنت على الام ، فاستطاعت هذه ان تميز في عيني المرأة الشابة الخابيتين شيئاً مألوفاً لديها وعزيزاً عليها .

– بدا لي ان ايقاظك مؤلم ، فلربما كنت تحلمين حلماً سعيداً .

– اني لم أفعل .

– سواء ذلك . لقد أحببت ابتسامتك . كانت كثيرة الهدوء والطيبة و... كبيرة جداً .

وضحكت لودميلا ، وكان ضحكها رقيقاً ، مخملي الآهاب :

– لقد حملني ذلك على التفكير فيك . هل حياتك قاسية ؟

فارتجف حاجبا الام ، وشرعت تفكر في سكون . هتفت لودميلا :

– بالطبع هي قاسية .

فقالت الام في بطء :

– لست على يقين تام من ذلك . فهي تبدو قاسية أحياناً ، ولكنها كثيرة الامتلاء – وكل الاشياء فيها كثيرة الرزانة ، مدهشة ، تتلاحق عن قرب في سرعة عظيمة ...

وهبّت في صدرها تلك الموجة المألوفة من اليأس تملأ ذهنها بالافكار والصور ، فجلست في السرير وراحت تكسو أفكارها بالكلمات .

– انها تستمر وتستمر ... متجهة ابداً نحو الغاية نفسها ... ولكن ذلك يصعب جداً في بعض الاحيان . الناس يتألمون ، ويُنكّل بهم ... ينكّل بهم بصورة وحشية ، وكثيراً من الافراح ممنوعة عنهم . ذلك قاسٍ للغاية !

ألقت لودميلا برأسها الى الوراء وشملتها بناظريها ، ثم قالت :

– ولكنك لا تتحدثين عن نفسك .

فتركت الام السرير ، وشرعت ترتدي ثيابها .

– كيف تستطيعين ان تفصلي نفسك عن الآخرين عندما تحبين هذا وذاك وتخافين من أجلهم جميعاً ... وترثين لهم جميعاً ... جميعهم يحتشدون معاً هناك في قلبك ... كيف تستطيعين ان تفصلي نفسك عنهم ؟

وقفت برهة في وسط الغرفة غير مكتملة اللباس ضائعة في لجة من التفكير . وهُدهِدَ لها انها لم تعد تلك المرأة المفعمة بمخاوف وقلق من اجل ابنها ، المشغولة بالتفكير في كيف تستطيع حماية جسده من الأذى . تلك المرأة لم يعد لها بعد الآن وجود ، فلقد انسحبت من الميدان ، وذهبت الى مكان بعيد بعيد ، او لعلها احترقت بنار عواطفها فطهّر ذلك الحريق روحها وأضاءها ، نافحاً إياها بقوة جديدة . وبحثت عن قلبها ، تنصت الى خفقانه ، خائفة من إيقاظ المخاوف القديمة .

سألتها لودميلا ، وهي تقترب منها :

– فيمَ تفكرين ؟

فأجابت الام :

– لا أدري .

تبادلتا النظر في سكون وابتسمتا ، ثم غادرت لودميلا الغرفة وهي تقول :

– لأتساءل عما يجري لساموري هناك .

تطلعت الام من النافذة . كان النهار أرزاً نيّراً ، وكذلك كان الصدر منها يطفح نوراً ، سوى ان الدفء كان يرين عليه ايضاً . وأرادت ان تتحدث عن كل شيء ... وان تتحدث طويلاً بهناء وغبطة ، يغمر قلبها شعور غامض بالامتنان لشخص ما من أجل كل ما عمَّر روحها من أحاسيس . وهو الآن يلتهب هناك

بنور قرمزي ، ذلـــك النور الذي يسبق مغيب الشمس . وعاودتها الرغبة في الصلاة . هذه الرغبة التي لم تجربها منذ زمن طويل ، ولمع في خاطرها وجه فتى ، وسمعت صوتاً واضحاً ينادي : « هذه أم بافل فلاسوف » . ورأت عيني ساشا السعيدتين الحنونين ، ووجه ريبين القاتم ، ومحيا ابنها الهادىء، البرونزي اللون، ونظرة نيقولاي المضطربة المرتبكة ، ثم امتزج كل هذا ، بغتة ، زفرة عميقـــة واحدة ، واختلط في سحابة وحيدة شاقة متعددة الألوان غمرت كل أفكارها في إحساس بالسلام عظيم شاسع الابعاد .

قالت لودميلا ، وهي تدلف الى الغرفة من جديد :

– لقد كان نيقولاي على حق، فقد أوقفوه. لقد أرسلت الصبي للاستكشاف كما نصحتني ، فعاد يقول : ان ثمة شرطياً في الفناء ، كما انه رأى شرطياً يختبىء وراء البوابة ، والجواسيس منبثين حول الدار في كل مكان . الصبي يعرفهم .

فقالت الام ، وهي تهزُّ رأسها :

– آه ، يا للرجل المسكين ...

وتنهدت ، دون حزن ، مما أذهلها في سرها .

قالت لودميلا في هدوء ، والعبوس يعلو وجهها :

– لقد قام حديثاً بسلسلة من الاجتماعات مع العمال هنا في المدينة ، فآن له على العموم ان يُعتقل . ولقد نصحه رفاقه بالذهاب فأبى ان يقبل بنصائحهم ... يؤتى لي ان الناس ، في مثل هذه الحالات ، يجب ان يُرغموا على الذهاب إرغاماً ولا يقنعوا به إقناعاً .

وفي تلك اللحظة بدا في فرجة الباب صبي أسود الشعر، مضرج الخدين، جميل العينين الزرقاوين ، مقوس الأنف ، وسأل :

– هل آتي بالسماور ؟

– ان شئت .

واستدارت الى الام ، وقالت :

– هو موضوع تحت وصايتي .

وخيل الى الام ان لودميلا على غير عادتها هذا النهار ، فهي اكثر بساطة وأقل بعداً . وكان في حركات جسدها الرائع الرشيقة كثير من الجمال والقوة ، مما خفف من حدة وجهها الشاحب ، الصارم التقاطيع . وقد زاد الليل في عمق الدوائر المستقرة تحت عينيها ، وأصبح المرء يُحسُّ في حضرتها جهداً مستمراً ، ووتراً مشدوداً حتى الحد الاقصى في روحها .

وعاد الفتى بالسماور ، فقالت لودميلا :

– إسمح لي ان أقدمك ، يا سيرجي . هذه بيلاجيا نيلوفنا ، والدة العامل الذي قُدّم البارحة الى المحاكمة .

فانحنى سيرجي دون ان يقول شيئاً ، وهزّ يد الام مصافحاً ، وغادر الغرفة كي يعود اليها برغيف من الخبز ، ثم اتخذ مكانه الى المائدة . وبينما راحت لودميلا تصب الشاي ، سعت لاقناع الام بالعدول عن الذهاب الى الدار حتى تتبين غاية الشرطة من الانتظار هناك .

– لعلهم ينتظرونك انت ايضاً ! من المحتمـــل ان يرسلوا في طلبك كي يستجوبوك .

– فليفعلوا ! وليعتقلوني ان أرادوا – ليس في ذلك ضرر كبير . آهٍ لو نوزع قبلاً خطاب بافل !

– لقد صففت الاحرف حتى الآن ، وغداً سيكون لدينا نسخ كافية للمدينة والضاحية العمالية . هل تعرفين ناتاشا ؟

– طبعاً !

ـ خذي النسخ اليها .

كان الصبي يقرأ الورقة كمن لا يسمع شيئاً ، ولكنه يرشق وجه الام بنظراته بين الفينة والفينة ، فاذا ما لقيت عينيه ابتهجت وابتسمت . وشرعت لودميلا تتحدث مرة اخرى عن نيقولاي دون أسىً ، فتجد الام ذلك طبيعياً للغاية . ومرّ الوقت أسرع من المعتاد ، فما انتهوا من طعام الافطار حتى كان الوقت ظهراً . هتفت لودميلا :

ـ يا لله !

قرع الباب بسرعة في هذه اللحظة . فنهض الصبي ونظر الى لودميلا بعينين متضيقتين .

ـ إفتح الباب ، يا سيرجي ! من هذا ، يا تُرى ؟

ووضعت يدها في جيب سترتها بحركة هادئة ، وهي تقول للأم :

ـ ان كان القادمون رجال الدرك ، فقفي انت هناك في الزاوية يا بيلاجيا ، اما انت يا سيرجي ...

فأجاب الفتى ، وهو يخرج :

ـ اني أعلم .

وابتسمت الام . لم تعد هذه الاستعدادات تقلقها ـ لقد فارقها كل توقع للكارثة . ولكن الطارق لم يك سوى الطبيب الصغير . قال بسرعة :

ـ قبل كل شيء ، لقد اعتُقِل نيقولاي . أها ! هكذا فأنت هنا ، يا نيلوفنا ، ألم تكوني في الدار ساعة الاعتقال ؟

ـ لقد أرسلني الى هنا .

ـ ويْ ! كذا ؟ لا أعتقد ان ذلك سيعود عليك بأية فائدة . ثم ان بعض

الفتيان قد طبعوا ، في الليلة الفائتة ، خمسمائة نسخة من خطاب بافل علــى الجيلاتين . ولقد رأيتها – انها ليست سيئة ... بل نظيفة واضحة ... وهم يريدون توزيعها في المدينة هــذه الليلة بالذات ، ولكني أعارض في ذلك ، اذ يفضل ان توزّع المناشير المطبوعة في المدينة، والاحتفاظ بتلك لمكان آخر .

فقالت الام في لهفة :

– سآخذها الى ناتاشا ! أعطنيها .

كانت لهفتها عظيمة كي تنشر خطاب فتاها في أسرع وقت ممكن ، كي تغرق الارض بأسرها بكلماته ، فراحت تثبت عينيها متوسلة في وجه الطبيب وهي تنتظر جوابه . قال متردداً ، وهو يتطلع في ساعته :

– الشيطان وحده يعلم ان كان في مقدورك القيام بذلك الآن . الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثالثة والاربعين . وموعد اول قطار هو الثانية والدقيقة الخامسة ، وستصلين في تمام الخامسة والربع ، اي عند هبوط المساء . بيد ان الوقت لن يكون متأخراً على أية حال ، لكن ليست هذه هي المشكلة .

فردت لودميلا عابسة :

– ليست هذه هي المشكلة ؟

وسألت الام ، وهي تتجه نحوه :

– ما هي المشكلة ؟ ان ينجز العمل على خير وجه فقط .

فرشقتها لودميلا بنظرة متمعنة ، ثم قالت وهي تمسح جبينها :

– ذلك خطر عليك .

فسألت الام في إصرار حار :

– ولمَ ؟

فأجاب الطبيب بكلمات سريعة متكسرة :

– إليك السبب في ذلك : لقد غادرت الدار قبل اعتقال نيقولاي بساعة واحدة ، وذهبت الى المصنع حيث يعرفونك على انك عمة المعلمة ، وبعد فترة قصيرة ظهرت مناشير ممنوعة في المصنع ، كل هذا يشكل عقدة جميلة حـــول عنقك .

فقالت الام في عناد :

– ان احـــداً لن يلاحظني هنا ! واذا اعتقلوني بعد عودتي وسألوني أين كنت ...

وترددت لحظة قصيرة ، ثم صاحت :

– أعرف ما سأقول ! سأذهب من هناك رأساً الى الضاحية حيث أعرف صديقاً هناك – سيزوف – وسأقول اني ذهبت مباشرة من المحاكمة الى داره – كي أخفف عن قلبي ان صح التعبير . وهو يحتاج الى المؤاساة ايضاً ، فابن اخيه قد أدين بدوره . ولسوف يقف الى جانبي .

واذ أحست انهما شرعا يميلان الى تلبية رغبتها ، انطلقت تتكـــلم في عناد اكبر يحدوها الامل في الاسراع باقناعهما ، حتى استجابا اليها اخيراً ، فقال الطبيب في تردد وإحجام :

– حسناً ، تستطيعين الذهاب .

ولم تقل لودميلا شيئاً ، وهي لا تفتأ تذرع ارض الغرفة غارقة في التفكير ، وقد أصبح وجهها الآن قاتماً نحيلاً ، وعضلات عنقها المشدودة تفصح الجهد الذي تبذل كي تمنع رأسها من السقوط فوق صدرها . لاحظت الام ذلك ، فقالت مبتسمة :

– جميعكم تعنون بي كثيراً ، ولكنكم لا تعيرون أنفسكم أدنى اهتمام على الاطلاق .

فقال الطبيب :

– هـــذا ليس صحيحاً ، فنحن نعني بأنفسنا . نحن مضطرون الى ذلك . واننا لقساة كل القسوة على أولئك الذين نجدهم يضيعون قواهم دون جدوى . والآن ... لسوف تستلمين نسخ الخطاب في المحطة ...

وأوضح لها كيف سيتمّ ذلك ، ثم نظر في وجهها ، وقال :

– والآن ، حظاً سعيداً .

لكن ظـــلاً من الاستياء كان يرين على محياه لحظة غادر الغرفة . اقتربت لودميلا من الام ، وقالت وهي ترسل ضحكة قصيرة :

– لأستطيع ان أفهمك .

وأمسكت بذراعها ، وشرعت من جديد تجوس ارض الغرفة بخطاها :

– ان لي ابناً انا ايضاً ، وهو في الثالثة عشرة من عمره الآن ، ولكنه يعيش مع أبيه . ان زوجي مدّعٍ عام ، واما الولد . فهو معه . الى مَ سيصير ؟ كثيراً ما أفكر في ذلك ...

وانكسر صوتها ، ثم تابعت بعد برهة في هدوء وتفكر :

– انه يتربى على أيدي عدو واعٍ لسائر الناس الذين أحبهم والذين أعتبرهم أروع أناس على وجه البسيطة . ولربما يشب ابني عـــدواً لي . انه لا يستطيع عيشاً معي ، فأنا أحيا تحت اسم مستعار . وانا لم أرَه منذ ثماني سنوات ... ثماني سنوات ؟ يا له من زمن طويل !

ووقفت عند النافذة ، وراحت تنظر الى السماء الشاحبة المقفرة :

– لو عاش معي كنت أقوى إذن ، وما كان هذا الجرح يؤلم قلبي ابداً ... ولو مات ، فذلك يكون أسهل عليّ إذن وأيسر ...

فتمتمت الام ، وقلبها يتمزق ألماً :

– آهٍ ، يا عزيزتي !

فهمست لودميلا ، وهي تطلق ضحكة مريرة :

– انت محظوظة ! ما أروع ذلك ... الام والابن جنباً الى جنب – انه لأمر نادر للغاية !

فهتفت بيلاجيا ، مدهوشة من ذات كلماتها :

– بلى ، ذلك رائع جداً !

ثم قالت ، وهي تخفض صوتها فكأنها تتفوّه بسرٍّ خطير :

– وأنتم جميعاً – نيقولاي ايفانوفيتش وسائر الذين يتبعون الحقيقة – انتم جميعاً جنباً الى جنب ! لقد اصبح الناس ، بغتة ، أقارب أعزاء ، واني لأفهمكم جميعاً ، اني لا استطيع ان افهم الكلمات ، ولكي أستطيع ان افهم كل شيء آخر .

– نعم . كذلك هي الأمور ... كذلك هي الأمور ...

ووضعت الأم يدها على صدرها ، وتابعت في شبه همس ، وكأنها هي نفسها تتأمل في الكلمات التي تتفوه بها :

– ابناؤنا يمشون فوق الارض . ذلك ما أفهم – أبناؤنا يمشون فوق الارض – فوق الارض بأسرها – من كل حدب وصوب نحو هدف واحد . أطهر الناس قلباً ، وأروع الناس فكراً ، يسيرون قُدُماً ضد الشرّ دون ارتعاش ، يدوسون الكذب تحت أقدامهم القوية ، فتيان ، اقوياء البنية ، بريئون من كل عيب ، يوجهون قواهم كلها نحو غرض واحد – ألا وهو العدالة . إنهم يمشون نحو الانتصار على الألم الانساني ، وقد حملوا السلاح ليكنسوا كل بؤس عن وجه البسيطة ، وليقضوا على القباحة المعششة في الارض – ولسوف يقضون عليها !

ولقد قال لي احدهم انهم سيشعلون شمساً جديدة – ولسوف يشعلونها بكل تأكيد ! وانهم سوف يوحّــــدون جميع القلوب المنكسرة – ويقيناً انهم سيوحدونها !

وتذكرت كلمات صلوات منسية ، انبثقت من صدرها كالشرر تشعل فيها إيماناً جديداً :

– أبناؤنا يسلكون طريق الحقيقة والعقل ، يحملون المحبة الى قلوب البشر، يغطون الارض بسماء جديدة ، وينيرون الارض بنار جديدة – نار الفكر التي لا تنطفىء . ومن لهيبها العظيم تنبثق حياة جديدة ، تولد من محبة ابنائنا للجنس البشري بمجموعه ومن يملك القدر على إطفاء هذا اللهيب ؟ من ؟ أية قوة تستطيع ان تدمرهم ؟ اية قوة تستطيع ان تعترض سبيلهم ؟ من الارض هم انبثقوا ، والحياة بأسرها تتلهف الى انتصارهم – الحياة بأسرها !

تركت لودميلا وقد أعيتها قوة انفعالها ، وجلست وهي تتنفس بصعوبة فائقة . وكذلك ابتعدت لودميلا في سكون وحذر ، فكأنها تخاف ان تزعج شيئاً ما وتعكر صفوه ، وراحت تنتقل في خفة عبر الغرفة ، ونظرة عينيها الخابيتين العميقة مثبتة أمامها ، يخيَّل للناظر اليها انها قد ازدادت طولاً ونحولاً وانتصاباً . وكان وجهها الصارم الرقيق يعـــبر عن تفكير عميق ، وشفتاها منضمتين في عصبية . وما أسرع ان سكـّن الهدوء المخيم على الغرفة من انفعال الام ، فلاحظت حال لودميلا وسألتها بنغمة مذنبة :

– لربما قلتُ شيئاً ما كان يجدر بي قوله ؟

فاستدارت لودميلا وتطلعت إليها كالمذعورة ، ثم تكلمت بسرعة وهي تمدّ يدها الى الام ، فكأنها تريد ان توقف شيئاً ما في طريقها :

– لا ، لا ، كذلك هي الامور ، كذلك هي ! ولكن ان لا نتكلم عنها بعد الآن ابداً ، فلتبق كما عـبّرت انت عنها !

وازداد هدوء صوتها ، وهي تضيف :

– يتوجب عليك الذهاب عما قريب – فما برح أمامك طريق طويلة .

– أجل ، عما قريب . لو تدرين كم انا سعيدة ! سأحمل الى الآخرين كلمات ابني ، كلمات لحمي ودمي نفسيهما ! لكأني أعطي من نفسي ذاتها !

وابتسمت ، لكن ابتسامتها لم تنعكس على وجه لودميلا الا في غموض وإبهام . وأحست الام ان فرحتها تتضاءل بصرامة المرأة الاخرى ، فتجتاحها فجأة رغبة عنيدة في ان تصبّ نارها الملتهبة في صدرها، في تلك النفس الشموس العابسة، لتحمل تلك المرأة على التجاوب مع نداءات قلب يلتهب فرحاً وصفاء، فتناولت يدي لودميلا وضغطت عليهما بشدة وهي تقول :

– يا حبيبتي ! ما احسن ان يعلم المرء ان ثمة نوراً يضيء جميع الناس ، وان ساعة ستأتي يراه فيها الجميع فيستديرون اليه بقلوبهم !

وارتعش وجه الام اللطيف العريض ، والتهبت عيناها ، وارتجف جفناها فوقهما كجناحين يظللان بريقهما . كانت تترنح بفعل تلك الافكار العظيمة التي تضج في صدرها وتفور ، بفعل كل ما عاشت حتى ذلك الحين وجرّبت ، فراحت تعصر خلاصة تلك الافكار وتكثّفها في بلورات الكلمات البراقة النامية والمتضاعفة في هذا القلب الخريفي ، تنيرها القوة الخلاقة لشمس الربيع المحترقة هناك والمشعة ببريق متزايد اللمعان ابداً .

– ذلك أشبه بإله جديد يولد للشعب ! كل شيء للجميع – والجميع من أجل كل شيء ! هكذا أفهم انا الامور ! في الحقيقة اننا جميعاً رفاق ، أرواح متقاربة ، ابناء ام واحدة ، وهذه الام هي الحقيقه !

وجرفها من جديد موجة انفعال ، فتوقفت وشهقت نفساً عميقاً ، وقالت وهي تفتح ذراعيها في عناق عريض :

– وعندما أقول لنفسي هذه الكلمة – رفاق – أسمع في قلبي صوتاً يقول : إنهم سائرون قدُماً !

وبلغت هدفها . لقد تضرّج محيا لودميلا ، وارتجفت شفتاها ، وراحت دموع كبيرة شاقة تتدحرج على وجنتيها .

واحتوتها الام بين ذراعيها وهي تبتسم في سكون ، وتفرح فرحاً عذباً بانتصار قلبها .

وبينما هما تفترقان تطلعت لودميلا في وجه الام ، وقالت بصوت خافت :

– هل تعرفين ما أحسن ان يكون المرء معك ؟

٢٩

اذ بلغت الشارع ، أطبق الهواء المتجلِّد على جسدها في عنـــاق قاسٍ ، وامسك بخناقها وحرمها ، ثانية قصيرة ، من انفاسها . توقفت تتطلع حواليها فرأت عربة صغيرة تقف عند زاوية قريبة ممزقة الغطاء ، والى ابعد منها ، في الشارع الطويل ، يمشي رجل باسق القـــامة منحني العود ، غارق الرأس بين الكتفين ، والى الامام منه جندي يركض وهو يفرك أذنيه . فكرت :

– لا ريب انهم ارسلوا به يشتري حاجة ما .

وتابعت طريقها ، مسرورة بسماع الثـــلج يتكسر تحت اقدامها في حيوية وفتوة . وبلغت المحطة قبل موعد القطار . سوى ان غرفة الانتظار من الدرجة الثالثة ، الوسخة العاجة بالدخان ، كانت مزدحمة تغص بالناس ، بعد أن طرد البرد اليها عدداً كبيراً من عمال السكة ، والحوذيين ، وكثيراً من الناس العاطلين، المحرومين من اي مأوى آخر يلجأون اليه . وكان ثمة عدد من المسافرين ايضاً ، ومن بينهم بعض الفلاحين ، وتاجر بدين يرتدي معطفاً سميكاً ، وكاهن ترافقه ابنته المجدورة الوجه ، وخمسة او ستة جنود ، وبعض الباعة المضطربين القلقين . وكان القوم يدخنون ويتحدثون ، ويحتسون الشاي والفودكا ؛ وشخص مـــا ، عند المقصف ، يطلق اكداساً من الضحك ، وامواج من الدخـــان تتموج فوق الرؤوس دون انقطاع . وكان الباب يصرُّ كلما فُتح ، فاذا صُفق ارتجف زجاج النوافذ وإطاراتها ، وكان جوُّ الغرفة عاجّاً برائحة من التبغ والسمك المملَّح تخدش الانوف .

اتخذت الام مقعداً بيّناً للعيان عند المدخل وراحت تنتظر . كانت موجة من الهواء البارد تهب عليه كلما فتح الباب ، فتسرُّ بذلك ، وتروح تنهل من الهواء أنفاساً عميقة . وكان معظم الحاضرين مثقلين برزم كبيرة ، فاذا حاولوا عبور الباب في معاطفهم الشتائية السميكة ، علقوا في فرجته بصوره مضحكة وهبُّوا يطلقون السباب وهم يلقون برزمهم فوق الارض، او المقاعد الخشبية، يدمدمون وهم ينفضون الثلج عن أكمامهم وياقاتهم ولحاهم وشواربهم .

ودلف من الباب فتى يحمل حقيبة صغيرة في يده ، وتطلع فيما حوله بسرعة ، واتجه نحو الام رأساً . قال :

– أأنت ذاهبة الى موسكو ؟

فأجابت :

– نعم الى ثانيا .

– آه !

وضع الحقيبة على الدكة الى جانبها ، وأشعل لفافة ، ورفع قبعته عن رأسه قليلا ثم اختفى من خلال الباب الآخر دون أن يضيف شيئاً آخر . وربتت الام على جلد الحقيبة البارد ، ثم اعتمدتها بمرفقها ، وشرعت تتفحص القوم حولها وعلى محياها سيماء الرضى . وبعد برهة قصيرة نهضت تتخذ مقعداً آخـــر أقرب الى المخرج . مشت منتصبة القامة ترنو الى الوجوه المـارة من امامها غير هيَّابة ، وهي تحمل بكل يسر وسهولة الحقيبة التي لم تكن كبيرة او ثقيلة على الاطلاق .

اصطدم بها شاب قصير المعطف مرفوع الياقـــة ، ثم تنحى جانباً في صمت وسكون ، وقد رفع يده الى رأسه . وخيّل اليها ان فيه شيئاً مألوفاً لديها ، فالتفتت الى الوراء لتجد احدى عينيه الشاحبتين مثبتة فيها . اخترقتها نظرته كحدّ الموسى ، فارتجفت يدها التي تحمل الحقيبة بعصبية ، وأحست بغتة أن حملها يزداد ثقلاً . فكرت : « لقد رأيته في مكانٍ من قبل » . وحاولت كظم

هذا الاحساس المقيت وطرده من صدرها ، فرفضت تحديد ذلك الشعور الذي راح يضغط على قلبها في بطء، ولكن في عناد ايضاً بيد أنه نما وصعد حتى حلقها، وغمر فمهـــا بمرارة جافة فتملـّكتها رغبة لا تقاوم في ان تستدير وتلقي نظرة أخرى على هذا الرجل ، واذ فعلت رأته يقف في المكان ذاته ، ينقل ثقل جسده من رجل الى رجل اخرى فكأنه يريد أن يفعل شيئاً ما ، فلا يجد القــدر كي يحزم امره عليـــه . وكانت يده اليمنى مدفوعة بين ازرار معطفه ، واليسرى مدفونة في جيبه بحيث تبدو كتفه اليمنى اكثر ارتفاعاً من الكتف اليسرى .

اقتربت من دكة وجلست عليها في تماهل وحذر ، فكأنها تخاف ان تسحق شيئاً ما في باطنها . واستيقظت الذكرى في ذهنها بتأثير توقـُّع شرٍّ مستطير ، فتذكرت المناسبتين اللتين رأت فيهما هذا الرجـــل من قبل : الاولى في الحقول المجرَّدة ، غير بعيد عن السجن ، بعد فرار ريبين ؛ والثانية في المحكمة . ومـــا مضت برهة وجيزة حتى كان ضابط الشرطة الذي ارسلته في الطريق الضالة يتعقب ريبين واقفاً الى جانبه ، فأدركت مباشرة انها ملاحقة – لم يكن في ذلك مجال للارتياب . تساءلت :

– هل وقعتُ في الشبكة ؟

وارتعشت بعد هنيهة وردَّت على نفسها .

– ربما لم يحن الوقت بعد .

وما اسرع ان بذلت جهداً ارادياً عنيفاً ، وقالت في جفوة :

– لقد وقعت في الشبكة !

تطلعت حواليها دون ان ترى شيئاً ، وراحت الافكار تتلاحق في ذهنها الفكرة تلو الفكرة :

– هل أترك الحقيبة وأولي الادبار ؟

ولكن شرارة اكثر تألقاً احتلت سريعاً مكان الفكرة السابقة :

– لماذا ؟ اهجر كلمات ابني ؟ اتركها بين ايدي مثل هؤلاء الاوغاد ؟

وضمت الحقيبة على معطفها :

– هل أحملها معي ؟ هل أهرب ؟

بدت لها هذه الافكار غريبة عنها ، فكأن شخصاً غيرها قد اضطرها اليها اضطراراً ، فهي تحترق في ذهنها وتثقب قلبها مثل اسلاك لاهبة . وأخرجها الالم الذي بعثته فيها تلك الافكار عن رشدها ، وابعدها عن بافل وعن سائر الذين اصبحوا أعزاء على قلبها . وأحست قوة معادية تضغط على كتفيها وصدرها وتذلها ، وتغرقها في هلع هـائل مميت . وراحت اوردة صدغيها تنبض بعنف ، وهبت في جسدها حرارة شديدة بلغت جذور الشعر من رأسها .

وبذلت فجأة جهداً هائلاً ، والقت بأفكارها بعيداً ، وداست تلك الشرارات الصغيرة ، الوضيعة المستضعفة ، وهي تقول لنفسها في حزم وقوة :

– يا للعار !

ارتاحت في اللحظة نفسها ، وامتلأت شجاعة وبأساً ، وأضافت :

– لا تشيني ابنك ، فهم لا يخافون قط !

ولاقت عيناها نظرة كئيبة حية ، والتمع في خاطرها وجه ريبين ، وشخص لها أن تلك الثواني القليلة من التردد قد جعلتها اكثر ثباتاً ، فاذا خفقان قلبها يهدأ ويتلاشى . فكرت ، وهي تختلس النظر فيما حولها :

– ماذا سيحدث الآن ، يا ترى ؟

نادى الجاسوس احد حرس المحطة ، وهمس شيئاً ما في أذنه وهو يدل عليها بعينيه ، فحملق الحارس فيه طويلاً ثم تراجع ، بينا اقترب حارس آخر – وكان رجلاً هرماً ، ضخم الجثة ، أشيب الشعر ، مرسل اللحية – وانصت الى ما يقال

له ، ثم عقد ما بين حاجبيه ، وأشار برأسه الى الجاسوس وبدأ يشقُّ طريقه نحو الدكة حيث تجلس الام . واختفى الجاسوس ...

اقترب الحـــارس متباطئاً ، يتمعن في وجه الام باستياء ، فتراجعت حتى حافة الدكة . فكرت :

– لو أنهم لا يضربونني !

توقف قبالتها ، واعتصم هنيهة بالصمت ، ثم قال بصوت مخفوض :

– ماذا تنتظرين ؟

– لا شيء .

– هكذا ؟ ايتها اللصة ! اتمتهنين السرقة وانت في مثل هذه السن ؟

صفعتها كلماته – مرة ، مرتين ! كان الخبث القاسي الكامن فيها مؤلمـــاً للغاية فكأنه يجرح الوجنتين منها ، ويقتلع العينين من محجريها . صاحت بأعلى صوتها ، وقد راح كل ما يحيط بها يدوّم في اعصار غضبها وثورتها ، اعصار مرارة الاهانة التي تلقتها :

– أنا ؟ أنا لصة ؟

شدّت على الحقيبة في عنف ، ففتح غطاؤها . صاحت ، وهي تهبُّ واقفة على قدميها وترفع قبضة من المناشير فوق رأسها :

– انظروا ! انظروا جميعاً !

واستطاعت أن تسمع ، من خلال الطنين في أذنيها ، هتافات القوم الذين جاؤوا يتراكضون من كل حدب وصوب .

– ماذا حدث ؟

– هناك – جاسوس ...

ـ ما هذا ؟

ـ يقولون انها لصة ...

مثل هذه المرأة المحترمة ؟ بخٍ ، بخٍ ...

صاحت الام بصوت مرتفع ، وقد هدأ من روعها قليلاً رؤية الناس المتجمهرين حولها :

انا لست لصة ! لقد جرت البارحة محاكمة بعض المتهمين السياسيين . وكان بينهم ابني فلاسوف . ولقد ألقى في المحكمة خطاباً ـ وهذا هو ! اني احمله الى الشعب حتى يقرأوه ويعرفوا الحقيقة ...

تناول احد الوقوف من يدها منشوراً في حيطة وحذر ، فلوّحت هي بالمناشير في الفضاء ورمتها فوق رؤوس الحشد حولهـــا . وصاح بعض الواقفين بصوت مذعور :

ـ لسوف ينتقمون منك من أجل هذا .

رأتهم الام يختطفون المناشير ويدسونها في معاطفهم وفي جيوبهم فثبت ذلك من عزيمتها مجدّداً . وشرعت تتكلم وهي أهدأ واثبت من ذي قبل ، تحسُّ فخراً وفرحاً ينموان بازدياد في صدرها . وبينا هي تتكلم ، كانت تتناول المناشير من الحقيبة وتلقي بها ذات اليمين وذات الشمال في الايدي الممتدة بلهفة لتلتقفها :

ـ هل تعلمون لماذا قدّموا ابني والذين كانوا معه جميعاً الى المحكمة ؟ لسوف اقول لكم لماذا ، وانتم ستصدقون قلب ام وشعرها الشائب . لقد قدموهم الى المحاكمة لانهم ، بكل بساطة ، يقولون الحقيقة لسائر الناس ! ولقد اكتشف البارحة ان انساناً لا يستطيع نكران تلك الحقيقة ـ ابداً ليس من ينكرها !

ونما الحشد يشكّل ، في سكون وهدوء ، حلقة من الاجساد الحية تحيط بالمرأة في احكام .

– الفقر، والجوع، والمرض – هذا ما يكسب الناس من عملهم ! كل الاشياء ضدنا – نحن نعطي، طوال حياتنا، يوماً بعد يوم، آخرَ رمقٍ من أنفاسنا لعملنا، ونحن أبداً معفــّرون في الوحل، مخدوعون دائماً، بينا يمصُّ الآخرون كل الفرح والفوائد، ويقيدوننا في الجهل الى الابد، مثلما يقيدون الكلب الى سلسلته، حتى لا نعرف شيئاً على الاطلاق ؛ وفي الخوف، حتى نخاف من كل شيء دون تفريق. حياتنا أشبه بليلٍ واحد طويل مظلم !

وارتفع جواب مكتئب يقول :

– هذا حق !

– سدوا لها فمها !

وقعت عينا الام، وراء الحشد، على الجاسوس وبرفقته اثنان من رجال الدرك، فأسرعت توزع بقية المناشير. وعندما بلغت يدها الحقيبة، اصطدمت بيد أخرى، فقالت وهي تنتحي جانباً :

– خذها، خذها.

وصاح الدركيان، وهما يدفعان الناس جانباً :

– تفرقوا !

فأفسح القوم لهما الطريق مرغمين، وهم يتعثرون في طريقهما ويمنعونهما عن التقدم، ربما دون ان يرغبوا في ذلك ويريدوه. كان الناس ينجذبون بقوة لا تقاوم نحو تلك المرأة الشائبة الشعر، الواسعة العينين الطيبتين في وجهها اللطيف. انهم يجدون انفسهم ولأن، وهم المنعزلون في الحياة، المتباعدون عن بعضهم البعض، وقد توحدوا في جسد واحد يصغون بانتباه عميق الى هذه الكلمات اللاهبة التي ربما فتــّش عنها طويلاً عدد كبير من تلك القلوب التي داسها ظلم الحياة ونسفها. وقف الاقربون إليها في سكون، مثبتة عيونهم فيها بانتباه مشوق، حتى لتحس انفاسهم الدافئة تلفح وجهها.

– اذهبي ، ايتها العجوز !

– لسوف يقبضون عليك في دقيقة واحدة !

– ما امتن اعصابها !

وصاح الدركيان ، وهما يشقان لهما طريقاً ويقتربان منها شيئاً فشيئاً :

– إذهبوا من هنا .

ترنح القوم القريبون منها ، وتماسكوا بالايدي . وتراءى لها انهم جميعاً على استعداد لان يفهموا ويصدقوها ، فأرادت ان تعجل وتقول لهم كل ما تعرفه ، كل تلك الافكار التى جرّبت قواها وجبروتها ، والتي تهب في يسر من اعماق قلبها لتشكل اغنية رائعة ، فتدرك الام في ألم وعذاب أنها أعجز من أن تنشد الاغنية التي تصدر عن شفتيها جشّاء ، مرتجفة ، متكسرة :

– ان كلمات ابني هي كلمات عامل شريف لم يبع نفسه . انها لكلمات شريفة – ولسوف تعرفونها من جرائها !

وكان زوج من العيون الفتية عالقاً بها في هلع وإشراق .

تلقّت ضربة في صدرها اوقعتها على الدكة . وكان أذرعة الدركيين تتأرجح فوق رؤوس القوم ، وتطبق على التلابيب والاكتاف وتلقي بالناس جانباً ، وتنتزع القبعات وترمي بها في الزاوية الاخرى من القاعة . وأضحى كل شيء اسود مضطرباً في عيني الام ، ولكنها تغلبت على ضعفها لتصيح بما تبقى من قوة في صوتها :

– اتحدوا ايها الناس في قوة واحدة ، عاتية ، جبارة .

وامسك بها دركي من ياقتها بيد غليظة ضخمة ، وراح يهزها بعنف وهو يصيح :

– اخرسي .

واصطدم رأسها بالحائط ، فخيَّمت على قلبها ، برهة ، سحابة من ذعر ، ولكنه عاد مرة اخرى يفجر اللهب فيبعثر السحابة ويلاشيها .

قال الدركي :

– امشي .

– لا تدعوا شيئاً يخيفكم ، فليس من شيء يمكن ان يكون اكثر مرارة من الحياة التي تعيشون ...

– اخرسي ، قلت لك !

وأمسك الدركي بذراعها ، وشدَّها بعنف ، وأمسك الدركي الآخر بذراعها الثانية ، واقتاداها معاً .

– ... اكثر من المرارة التي تلتهم قلوبكم كل يوم وتقرض صدوركم !

واندفع الجاسوس الى الامام منها ، يهزُّ قبضته في وجهها ويصيح :

– إخرسي ، ايتها الكلبة !

فالتمعت عيناها واتسعتا ، وراح فكها السفلي يرتجف بعنف ، فصاحت وهي تثبت قدميها على بلاط الغرفة اللزج :

– لن تستطيعوا قتل روحي – روحي الحية !

– ايتها الكلبة !

ولطمها الجاسوس على وجهها ، فارتفع صوت يصيح في خبث :

– انها تنال ما تستحق ، هذه الكلبة الهرمة !

واعماها هنيهة شيء اسود واحمر، وامتلأ فمها بطعم مالح من الدماء. ولكن ضجيجاً من الهتافات القصيرة حياها :

– لا تضربها !

– هيا بنا . ايها الشجعان .

– يا لك من وغد ، أنت !

– إضربوه !

– لن يستطيعوا اغراق عقولنا بالدماء .

ودقوها في ظهرها وعنقها ، ولطموها على كتفها ورأسها ، فراح كل شيء يترنح امام عينيها ، ويحوّم في اعصار هائج من الصياح والعويـــل والصفير . وتلقت صدمة صغيرة ثقيلة أصمت اذنيها، وملأت حلقومها، وأطبقت على خناقها بعزم ، فمادت الارض تحت قدميها ، وتراخت ركبتاها ، وارتجف جسدها تحت لسعات الالم المحرقة وثقل ، ثم ترنح عاجزاً خائر القوى . ولكن عينيها لم تفقدا بريقهما ، لا بل التقتا بأعين أخرى تلتهب جميعاً بتلك النار البراقة الجريئة التي اصبحت مألوفة عندها كثيراً ، عزيزة جداً على قلبها .

ودفعوها من خلال الباب ، فانتزعت احدى يديها من قبضة الدركي وتمسكت بمصراع الباب وصاحت :

– لن يغرقوا الحقيقة ، ولا في محيط من الدماء .

لطموها على رأسها ...

- إنكم لا تثيرون الا اسعار نيران حقدنا عليكم ، يا ايها المجانين ، وذلك سوف يسقط على رؤوسكم يوماً ما .

وأمسك بها أحد الدركيين من عنقها وراح يهزها ، فصاحت :

- ايتها المخلوقات البائسة ! ...

فأجاب أحدهم بنشيج عنيف ...

●

انجزت « المطبعة التعاونية اللبنانية »
في درعون ـ حريصا طبع هذا
الكتاب في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٦٥

الأم

التزام

دار اليقظة العربية
للتأليف والترجمة والنشر

بيروت

الطبعة الخامسة